عطر الأنفاس

بسيرة خير الناس
الرسول صلى الله عليه وسلم
وخلفاؤه الراشدون

شبكة
الألوكة
www.alukah.net

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حمداً لله، وصلاة وسلامًا على منقذ البشرية، محمد بن عبد الله، الذى أضاء المشرقين وأنار الخافقين، بنور رسالته العصماء، وجلال شريعته الغراء.

وبعد:

فإن سيرة رسول الله (ﷺ) من المواضيع التى طُرقت كثيرا، وكتب فيها الكاتبون من مختلف الأديان والنزعات، ولم يزل المسلمون وغير المسلمين، يجعلون سيرة هذا الرسول الكريم مجالاً للبحث والتحليل، رجاء أن يصلوا إلى سر العظمة الخالدة فى تلك الشخصية العظيمة؛ وليعرفوا مبعث هذا التوفيق والحكمة، وسر ظهور محمد عليه الصلاة والسلام فى هذه البيئة العربية؛ فى وقت لم يكن يخطر فيه على بال إنسان أن أمة العرب سيكون لها فى المستقبل هذا الشأن، وتلك المنزلة.

وهذا إسهام يسير للتفقه فى دراسة الحياة الحافلة بالجهاد والتضحيات، المملوءة بالحكمة والإيمان والنشاط؛ لتكون لنا مثلاً أعلى بالاقتداء بالأسوة الحسنة، عليه صلوات الله وسلامه، ولنأخذ الدرس من هؤلاء الرجال الذين بذلوا مهجهم، وأفنوا شبابهم؛ لإنقاذ البشرية كلها.. كيف أفنى هؤلاء الأفذاذ أعمارهم فى رسم الخطط التى خلقت، من كل من التزموها، رجالاً دانت لهم الدنيا، وأصبحت السعادة فى الآخرة من نصيبهم.

إن عصر النبى (ﷺ) والراشدين قد تسربت إليه مدسوسات الخصوم؛ ومحرفات الحقد على العقيدة الإسلامية وأصحابها، فحاول أعداء الإسلام أن يشككوا المسلمين فى دينهم وأن يطعنوا الرعيل الأول من قادة المسلمين فى أشخاصهم وتصرفاتهم.

من أجل هذه «الروميات» كان هذا الكتاب

لنعلم أن هذا المؤرخ - مدفوعًا بدوافع من مذهبه الدينى - أو عقيدته السياسية، أو ناقلاً عن دسيسة - كان يهدف إلى إحداث البلبلة والشك فى أمجاد المسلمين.

إن غرس مبادئ البطولة الإسلامية المستمدة من صفات أمجادنا، ومقومات ماضينا لتبعث الاعتداد بالنفس، والاعتزاز بالماضى فى قلوب الأجيال المسلمة، فيبنون نهضاتهم على أساس من الدين الصحيح، وماضى الأجداد، وناصع الأمجاد.. فإن الآباء والأجداد كانوا سادة العالم، وقادة الفكر، ورسل الإنسانية.

هدى الله أمتنا إلى الطريق السديد، والفكر الرشيد، والقصد الحميد.

الدكتور

السيد عبد الحليم محمد حسين

القسم

الأول

السيرة العطرة

www.alukah.net

شبكة الألوكة - قسم الكتب

إن دراسة الدوحة التى كان محمد عليه السلام من صميمها تعين الباحث فى سيرته على كشف نواحٍ كثيرة من سر عظمته ونجاح دعوته.

*** قصى:**

ويكفينا فى الحديث عن أرومة رسول الله أن نبتدئ من جده الخامس: قصى بن كلاب. فقد حدثنا التاريخ أن قصيا هذا استطاع فى منتصف القرن الخامس الميلادى أن يطرد الخزاعيين، أمراء مكة منذ قديم، ويتولى هو وقومه من الكنانيين زمام الأمور فى تلك المدينة، وأنه استطاع أيضًا – بقوة شخصيته وشدة ذكائه – أن يرفع من شأن القرشيين فى مكة، وأن يمد لهم كثيراً من السيادة الروحية على القبائل العربية. ثم حاول قصى أن يركز كل مناصب الرياسة فى شخصه؛ باعتباره الرئيس الدينى للبيت الحرام الذى يقدسه العرب جميعًا؛ فخلصت له السقاية، والرفادة، والحجابة، واللواء، ثم رأى بعد ذلك أن ينشئ دار الندوة للتشاور مع كبار قومه فى كل ما يهم المكيين جميعًا، فأصبحت كل مناصب الشرف ومظاهر السيادة فى يده؛ بحيث لا يُبْرَم أمر فى داخل مكة أو فى خارجها إلا إذا أشار به قصى.

*** عبد مناف:**

وعاش هذا الجد الخامس لرسول الله زمنًا رفع فيه مكانة قومه بين العرب فى كل أنحاء الجزيرة؛ ثم ترك من بعده عدة أبناء كان أنبههم شأنا وأعلاهم مقامًا ابنه (عبد مناف)؛ إلا أن عبد مناف هذا لم يكن له شىء من مناصب الرياسة؛ لأن والده قصيًا وجد فى كفايته ومكانته عند العرب، ما يغنيه عن هذه المناصب؛ فأوصى بها إلى ولده عبد الدار.

ظل عبد مناف يؤازر أخاه فى القيام بما يلزم تلك الوظائف إلى أن مات عبد الدار ومن بعده عبد مناف.

*** هاشم:**

ولما كان أبناء عبد مناف أنجب من أبناء عبد الدار، استطاع كبير أبناء عبد مناف المسمى (هاشمًا) – الجد الثالث لرسول الله – أن يتزعم القرشيين ويملك زمام الأمور بمكة فاستقامت له الأمور، وأحبه كل من اتصل به، أو عرف شيئًا من صفاته.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وكما أن قصيًّا أنشأ دار الندوة للعرب فإن هاشمًا هو أول من فكر فى تنظيم الرحلات التجارية إلى اليمن فى فصل الشتاء؛ وإلى الشام فى فصل الصيف، وشجع القوافل الصغيرة على المرور بمكة، وأمّن طرق التجارة بإبرام معاهدات ومحالفات مع الروم والفرس والأحباش، وقد ضمن للحجاج الأمن فى أسفارهم فاطمأنوا على أمتعتهم، وكثر ترددهم على مكة، وكان من أثر ذلك أن انتعشت تجارتهم وشملهم الرخاء.

*** عبد المطلب:**

ثم نبه شأن عبد المطلب بن هاشم بعد موت أبيه فما زال العرب يؤمنون بكفايته على مرور الزمن. ولقد حدثت للقرشيين أحداث فى عهده، فكان حسن تصرفه وشدة ذكائه سببًا فى احترام العرب له وتعلقهم به. ولقد كان توفيق عبد المطلب فى العثور على بئر زمزم من العوامل التى رفعت قدره، ونشرت ذكره فى كل أنحاء الجزيرة، وكذلك لم ينس العرب موقفه من غارة أبرهة حين اتجه إلى ربه بالدعاء الحار ليحفظ بيته، ويقهر عدوه؛ وما تلا ذلك من هلاك جيش أبرهة، وتمزيقه كل ممزق.

ومنذ ذلك الحين أدرك العرب فى مكة وفى غيرها أن لعبد المطلب صلة سماوية، وإلهامًا إلهيًا هما سبب توفيقه، وسداد رأيه؛ فدانوا له جميعًا عن تسليم ورضا.

*** عبد الله:**

وعبد المطلب هذا هو الذى تربى محمد عليه السلام فى كنفه؛ لأن والده عبد الله ابن عبد المطلب مات ورسول الله ما زال جنينًا فى بطن أمه.

*** محمد:**

هؤلاء هم أجداد محمد وآباؤه، من أصلابهم قد انحدر، وعلى ذكريات ماضيهم نشأ وكبر، وفى حاضرهم المجيد نما وترعرع، فهو إذًا على أعظم جانب من نبل المحتد، وكرم الأصل، وشرف النسب. ولا شك أن طيب عنصره وكرم محتده، وعراقة أرومته أخذت على قريش الطريق الذى تلمسته للحط من شأنه، والانتقاص من قدره.

فإذا انضم إلى ذلك النسب العريق كرم فى الطبع، وسمو فى الخلق، وتعلق بالصدق، واشتهار بالأمانة؛ كان لابد لرسالته أن تنجح، ولدعوته أن تستجاب ـ إلا من معاند أو حاقد.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

مراحل سيرة محمد
عليه الصلاة والسلام

سبيلنا فى دراسة السيرة النبوية أن نتحدث عن حياة رسول الله صلوات الله عليه فى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: من المولد الشريف إلى البعثة.

المرحلة الثانية: من البعثة إلى الهجرة.

المرحلة الثالثة: من الهجرة إلى النهاية المحتومة.

المرحلة الأولى
من المولد الشريف.. إلى البعثة

* نسبه :

منذ عام الفيل (٥٧٠م) والناس يذكرون محمداً ويروون سلسلة نسبه صريحة واضحة دون تردد أو شك فى أنه ابن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصى، بن كلاب، بن مرة، بن كعب، بن لؤى، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النضر، بن كنانة، بن مدركة، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان .

ثم يقف النسابون عند ذلك لبعد المدى، وطول العهد، وعدم الجزم بما بعد عدنان . بل إن رسول الله ﷺ كان ينهى عن البحث فيما وراء عدنان . فيروى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان إذا انتهى إلى عدنان أمسك ثم يقول «**كذب النسابون. قال الله تعالى ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾** » [الفرقان : ٣٨][(١)]. وكانت عائشة رضى الله عنها تقول : « ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء معد بن عدنان ولا وراء قحطان إلا تخرصاً »[(٢)].

وأما نسبه من جهة أمه؛ فهو ابن آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وهو الجد السادس لرسول الله من جهة أبيه وعنده يلتقى نسبه من جهة أمه .

* مولده :

منذ كتب الكاتبون فى سيرة محمد عليه السلام، وهم يذكرون تواريخ متعددة ليوم ميلاده فيختلفون فى العام، وفى الشهر، وفى اليوم، وفى الساعة التى ولد فيها .

ولكن أقرب الآراء إلى الحقيقة فى هذا الموضوع هو أنه ولد فى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول الموافق يوم ٢٠ أغسطس عام ٥٧٠م[(٣)]، وعليه عمل أهل مكة قديما وحديثا فى زياراتهم موضع مولده فى ذلك الوقت من كل عام .

---

(١) القصد والأمم ص ٥٠ .

(٢) القصد والأمم ص ٤٨ .

(٣) للمرحوم محمود باشا الفلكى تحقيق فى تحديد مولده – عليه الصلاة والسلام –: يقول: إنه وُلد فى اليوم التاسع من ربيع الأول الموافق ٢٠ أبريل عام ٥٧١م، راجع نور اليقين للخضرى.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

* مكان ولادته :

ويعتبر أول مكان استقبل فيه الدنيا كان في حجرة الدار التي في زقاق المولد من شعب بني هاشم بمكة، وكانت هذه الدار ملكًا لرسول الله ثم وهبها لعقيل بن أبي طالب فلما توفي عقيل باعها ورثته لمحمد بن يوسف أخي الحجاج، ثم لما حجت الخيزران أم الرشيد جعلت هذا البيت مسجداً للصلاة.

والآن قد بني في مكان الولادة مكتبة يتردد عليها طلاب العلم والمعرفة، ومكان الولادة في حجرة من مبنى المكتبة معروفة لرواد هذا المكان.

* أبـواه :

كان عبد المطلب بن هاشم كبير قومه وسيدهم، وكان قد بلغ السبعين من عمره، ورزق أكثر أبنائه في النصف الأخير من حياته؛ وقد نالوا من الشرف ما هو جدير بأبناء عبد المطلب، وكان عبد الله أصغرهم سنا وأحبهم إلى أبيه. فلما بلغ العام الرابع والعشرين من سنه أراد والده أن يزوجه ليطمئن عليه قبل وفاته، فاختار له آمنة بنت وهب من بيت زهرة بن كلاب، من أشرف بيوت قريش، فبنى بها عبد الله في مكة ولم يلبث أن سافر في تجارة إلى الشام، ولكنه بعد عودته من غزة عرج على المدينة ليستريح عند بني النجار أخوال أبيه فأدركته المنية هناك ودُفن بها.

كانت آمنة إذ ذاك قد مضى على حملها شهران، فلما استكملت مدة الحمل ووضعته كفله جده عبد المطلب وهو في المهد، وفرحت قريش كلها بميلاده؛ حتى إن عمه أبا لهب قال لجاريته «ثويبة» – حين بشرته بميلاد ابن أخيه – اذهبي فأنت حرة.

* التسمية بمحمد :

من المعروف عادة أن تسمية المولود تكتنفها عوامل مستمدة من البيئة التي ولد فيها، فإما أن يميل شعور الوالد إلى تخليد اسم بارز في الأسرة كان لصاحبه منزلة خاصة في قلوب الذين عرفوه، وإما أن تكون التسمية تحت تأثير التيمن والاقتداء بأحد الزعماء أو الأبطال الذين تركوا آثاراً من المجد؛ فيسمى الآباء أبناءهم باسم هذا البطل؛ عسى أن يكون لهم شيء من صفاته.

ونحن أمام تسمية رسول الله بمحمد، لا نسمع من التاريخ شيئًا في تعليل هذا الاختيار من عبد المطلب؛ إلا أن يكون محموداً في السماء لله وفي الأرض لخلقه، وهذا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

التعليل – كما ترون – لا يشفى نفس المتحرى، ولا يطاوع رغبة الباحث؛ لأن العوامل التى جعلت هذا الاسم يخطر ببال عبد المطلب – مع عدم وجوده بين العرب أو على الأقل عدم انتشاره – لا تزال غامضة، فما هى العلة المعقولة التى دفعت عبد المطلب لاختيار هذا الاسم لحفيده؟

إذا لم يكن قد عُرف أن عبد المطلب سمع من أحبار اليهود بأن نبيًا سيُبعث قريبًا وسيكون اسمه محمداً، فإننا لا يسعنا بعد ذلك أن نتجاهل التوجيه الإلهى فى اختيار هذا الاسم، كما أننا لا يمكننا أن نغفل ما عُرف به عبد المطلب بين قومه من النزعة الروحية، واشتهاره بالتوفيق والإلهام الإلهى فى كثير من الأمور المهمة التى كان لها أثر كبير فى تكوين مركز ممتاز له بين العرب . فقد عُرف عنه أنه اهتدى بفيض من الإلهام النفسى، دون الاعتماد على شيء آخر، إلى مكان زمزم بعد أن طمها الخزاعيون ونُسِى مكانها، وأيضًا كان موقفه من أبرهة صاحب الفيل – بالرغم من أنه كان مزريا به فى أول الأمر – إلا أنه كان مثار دهشة العرب وإعجابهم بعد أن تمت الهزيمة بالجيش المغير.

فيمكننا بعد هذا أن نقول إن عبد المطلب حين سمى حفيده محمداً كان يقرأ من سطور المستقبل، كما كانت هذه التسمية إحدى الخطوات التمهيدية الأولى فى تكوين النبى المنتظر، وتنشئته نشأة محبوكة النواحى منذ أول يوم اتصل فيه بالوجود .

*** رضاعه :**

كان من عادة أشراف قريش أن يدفعوا بأبنائهم إلى المراضع من سكان البادية؛ وذلك لأن النساء كن يرين فى إرضاعهن أبناءهن عاراً؛ حيث يعد ذلك من مظاهر الفقر عند العرب، وكن يرين أن يتفرغن للأزواج رجاء كثرة النسل الذى يعتبر مفخرة عظيمة للمرأة العربية . ولقد كان العرب يعتقدون أن بيئة المدن تنشئ الذهن كليلاً، والعزيمة فاترة، وكانوا يرون أن البادية أنقى هواء وأوفر للصحة فينشأ الولد فى الأعراب نجيبًا فصيح اللسان حاضر البديهة .

ولم يُعَرف أن آمنة أرضعت ولدها أكثر من يومين، بل يذكر بعض المؤرخين أن لبنها كان قد جف لما أصابها من شدة الحزن على زوجها حين تجددت ذكراه بهذا المولود . ومن أجل ذلك دفعت آمنة بالغلام إلى (ثويبة) جارية عمه أبى لهب لتتولى إرضاعه

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إلى أن تحضر المراضع من البادية؛ وكان يفد إلى مكة فى العام مرتين مراضع بدويات ممن يأنسن فى أنفسهن الصحة والعافية؛ يعرضن خدماتهن على الأمهات الثريات أولاً، فإذا لم يجدن إلا الفقراء قبلنهم على مضض؛ لئلا يرجعن إلى البادية خاويات الوفاض.

وكان محمد عليه السلام من نصيب حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية (من أعرق قبائل العرب)؛ وكان زوجها يدعى أبا كبشة؛ وهو الذى كانت قريش تتهكم بنسبة الرسول إليه فيقولون (هذا ابن أبى كبشة يكلم من فى السماء).

* وفاة أمه :

بعد أن رجعت به حليمة إلى مكة عاش محمد ينعم بحنان الأم فى رعاية جده العظيم عبد المطلب، وكانت آمنة قد اعتادت منذ وفاة زوجها عبد الله بالمدينة أن تذهب فى كل عام لزيارة قبره فى رفقة عبد المطلب[١]، فلما كان ابنها فى السادسة

(١) تاريخ الخضرى بك ص ٩٤ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

من عـمـره ذهبت لتلك الزيارة، ولتُرى طفلها أخـوال جده من بنى عـدى بن النجـار؛ فلمـا كانوا بالمدينة أقاموا بهـا شـهـراً عرفته فيه بأخـوال جده، ثم زارت معه قبر والده وحـدثتـه عن المكان الذى مـات فـيـه، وشـرحت له المرض الذى قـضى به نـحـبـه، فكان لذلك كله أثر بالغ فى نفس مـحـمـد؛ بعـد أن أخـذ يفكر فى أبيـه الذى لـم يره، ولـم يتمتع بالعيش معه كما يتمتع الغلمان.

فلمـا كـانوا فى أثناء الطريق عـائدين إلى مكة مرضت آمنة عند قرية على بعـد ثلاثة وعشرين ميلا من المدينة فى طريق مكة تسمى «الأبواء»، ثم ماتت ودُفنت بهـا فعـاد عبـد المطلب - ومعه أم أيمن - بمحـمد، وقـد شعر بيتم ضاعفه عليـه القـدر كـان فى نفسه منه وحشة وألم؛ أراد عبد المطلب أن يخفف من وقعهما على نفس الصبى فبالغ فى إعزازه وإكرامه حتى جعل له منزلة خاصة لم تكن لأحد من أبنائه.

*** موت جده:**

وكان محمد عليه السلام وهو فى هذا السن يرى أن عزاءه الوحيد، وسلوته الكبرى فى حنان جده عبد المطلب، وفى بره، ولكنه لم يكد يبلغ الثامنة من عمره حتى توفى جده بعد أن أوصى به عمه أبا طالب، فحزن محمد لموت جده حزنه لفقد أمه؛ حتى كان دائم البكاء وهو يشيع جده إلى مقره الأخير، وكان دائم الذكر له رغم ما لقيه فى كفالة عمه أبى طالب من عناية ورعاية.

عمل محمد فى صباه:

ولقـد رأى مـحـمـد أن عـمـه أبا طالب رقيق الحال كثير العيال يجهـد نفسه إجـهـاداً مـضنيـا فى سـبـيل الحـصـول على قوتهم، ولـم يكـن مـحـمـد ذا مال يضعه فى صفـوف القصّر الأغنياء، فكل ما تركه أبوه إنما هو خمسة من الإبل؛ وقطيع من الغنم، وجارية هى (أم أيمن)؛ حاضنته بعد موت أمه.

فلعل محمـداً اضطر أن يقوم بعمل، وماذا عسى أن يكون هذا العمل لطفل فى سن محـمـد إلا أن يرعى الغنم لحساب غيره على تلال مكة؟ ولقـد كـان لهـذا العمل أثر كـبـير فى نفسـه منذ الصـغر؛ إذ ولدّ فى قلبه الرأفـة، والرحـمـة، ولين الجـانـب، وأورثه الحكمة، والنشاط، واليقظة.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

* السفر الأول إلى الشام:

ولما كان فى الثانية عشرة من عمره أراد عمه أن يخرج فى تجارة إلى الشام فصمم على أن يصحب عمه فى تلك القافلة، فلما كانوا على حدود الشام الجنوبية عند مدينة «بصرى» التقى به هناك راهب نصرانى اسمه (بحيرا) فرأى فيه أمارات النبوة كما وردت فى كتبهم؛ فنصح إلى أبى طالب بالرجوع خوفًا على ابن أخيه من عدو يترصده، وأخبره بأن له شأنا فى المستقبل؛ ولكن أبا طالب لم يُلق بالاً إلى تلك الكلمات، واستمر حتى فرغ من تجارته وعاد ومعه ابن أخيه إلى مكة.

وقد استفاد محمد عليه السلام من هذه الرحلة كثيراً من الأمور التى زادت فى معارفه، وقوت من مداركه.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ظهور شخصية محمد بين عشيرته

قد بدت منه عليه السلام أمور لفتت أنظار قومه إليه تجلت فى مواقف منها :

*** موقفه فى حرب الفجار :**

انتفع محمد من رحلته إلى الشام معرفته بطريق القوافل فى الصحراء، وأفادته فى فسحة الخيال، ودقة الشعور، وشدة الإحساس، وقوة الملاحظة؛ فنمت فيه عوامل الإحساس بالرجولة، فتعلم وهو فى هذه السن كيف يستمع للخطباء والشعراء فى الأسواق الأدبية والتجارية حول مكة، كما تعلم حمل السلاح والرمى بالنشاب على عادة قومه، فلما وقعت حرب الفجار(١) بين أعمامه من قريش ومعهم كنانة، وبين هوازن اشترك فى هذه الحرب اشتراكًا فعليًا، ولكن لم يتفق المؤرخون على نوع العمل الذى كان يقوم به عليه السلام؛ فقال أناس إنه كان يجمع السهام التى تقع على أعمامه من هوازن ليردها أعمامه فى نحور خصومهم، وقال قوم إنه اشترك فى هذه الحرب ورمى النبال بنفسه : فإذا عرفنا أن هذه الحرب استمرت أربعة أعوام متتالية أدركنا أنه لا تنافر بين الروايتين(٢) .

*** حلف الفضول :**

بعد ذلك شعرت قريش بأن ما أصابها فى حرب الفجار بعد موت هاشم وعبدالمطلب إنما هو نتيجة تفرق الكلمة والتنافس على الرياسة والزعامة، فاجتمعوا فى دار عبد الله بن جدعان وتعاهدوا بالله المنتقم ليكونن مع المظلوم، حتى يؤدى إليه حقه « ما بل بحر صوفة » . وقد حضر محمد عليه السلام هذا الحلف الذى سمته العرب « حلف الفضول »(٣) . وكان عليه السلام بعد بعثته يقول «**لقد شهدت فى دار عبد الله ابن جدعان حلفًا ما أحب أن لى به حمر النعم ولو دعى به فى الإسلام لأجبت**» .

---

(١) سميت حرب الفجار لوقوعها فى الأشهر الحرام . وسببها قتل البراض الكنانى لعروة بن عتبة الهوازنى، وكانت كنانة حليفة قريش فأرادت هوازن أن تنتقم من قريش لهذا الحلف فدام القتال أربع سنوات وسبب قتل البراض لعروة؛ أن عروة أجار لطيمة للنعمان بن المنذر وأخذها فى حمايته وكان البراض يريد أن يقوم بحمايتها .

(٢) وقد وردت عن النبى عليه السلام أحاديث تدل على اشتراكه بالفعل فى هذه الحرب والرمى بالنشاب . راجع طبقات ابن سعد جـ ١ صـ ١١٠ .

(٣) ذكر ابن الأثير فى سبب هذه التسمية أن جماعة من جرهم وقطورا يقال لهم الفضيل بن حارث والفضيل بن وداعة والمفضل بن فضالة كانوا تحالفوا منذ قديم ألا يقروا ببطن مكة ظالمًا، فلما نادى الزبير بن عبد المطلب بهذا الحلف سمته قريش حلف الفضول لأن مبادئه تشبه مبادئ الحلف السابق راجع الكامل جـ ٢ صـ ٢٦ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

* سيرته الشخصية :

وهناك عامل مهم جداً فى ظهور شخصية محمد بين قومه وعشيرته؛ وهو مسلكه الشخصى وصفاته الخاصة؛ فقد نشأ نشأة غريبة بين قومه؛ إذ لم تغمره البيئة بتقاليدها، ولم تطغ عليه العشيرة بعاداتها وطباعها. فما عرف عنه أيام طفولته الأولى أنه قلد القائمين على أمره فى تقديس اللات والعزى، ولا ورث الهيبة التى كانت لهبل فى نفوس قريش، ولم يحدثنا التاريخ أن محمداً حضر موسم الحج(١)؛ منذ أن عرف أن قومه يعبدون الأصنام ويتقربون لها بالقرابين فى هذا الموسم من كل عام؛ وعرف عنه عليه السلام أنه رفض أكل ما ذبح على النصب كما رفض عبادتها وتقديسها(٢)، واستمر نظيفًا طاهراً لم يلوث بدنه كما لم تلوث عقيدته.

فلم تحمله صولة الشباب ولا ميعة الصبا على معاقرة الخمر، ومنادمة الرفاق فى مجالس اللهو التى كانت منتشرة إذ ذاك فى نواحى مكة بين أوساطها المختلفة. بل إن اللهو البرىء لم يتخذ طريقه إلى نفس محمد.

والسر فى ذلك أن دور الشباب عنده اقترن بمرحلة التفكير والحيرة، فكان كلما هم بمحاولة المتاع واللهو - كما يصنع أقرانه - داهمته أفكار وتأملات ملأت كل جوانب نفسه، وشغلت قلبه، وبدا له البيت العتيق، وقد تكدست فى ساحته المعتمة ثلاثمائة وستون صنمًا من أنحاء بلاد العرب؛ وتحظى كل هذه الأنصاب بالتقديس والعبادة.

تبدت سخافة هذا الأمر كله لعين محمد كما يبدو الفجر الوليد، فكان من المحال أن يوفق بين ما يعتمل فى عقله من أفكار؛ وعبادة هذه الأصنام الضخمة. وراح محمد يفكر فلم يجد حلاً، وكان كلما قلب الأمر ازداد حيرة وقلقًا(٣).

وحملته مظاهر الكون ومباهجه على أن يردد فى نفسه دائمًا هذا السؤال: هذه الصنعة فأين الصانع؟ ولكنه لا يجد له جوابًا، وتظل الحيرة بادية عليه، والتأمل شاغلاً من شواغله؛ حتى يفيض عليه النور، ويتجلى له الحق.

هذه كانت صفاته فيما بينه وبين نفسه؛ وأما فيما بينه وبين الناس فكان أفضل

---

(١) الإسلام السياسى ص ٩٣.

(٢) ويروى فى ذلك قوله عليه السلام **(ما عبدت صنما قط وما شربت خمراً قط وما زلت أعرف أن الذى هم عليه كفر)** راجع تهذيب الأسماء ص ٢٤.

(٣) الرسول حياة محمد - بودلى ٦٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قومه مروءة، وأكملهم خلقًا، وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جوارًا، وأصدقهم حديثًا، وأبعدهم عن الفحش، وأعظمهم حلمًا، وأكثرهم أمانة؛ حتى كان يلقب فيما بينهم بالأمين، يودعون عنده ودائعهم، ويحكمونه فيما شجر بينهم.

* عام التجارة والزواج:

كان رسول الله يرعى الغنم فى وديان مكة، قانعًا بنصيبه من هذا العمل على قلته ومشقته، إلى أن بلغت سنه خمسًا وعشرين سنة؛ ولكن عمه أبا طالب أراد أن يوجد لابن أخيه سببًا يدر عليه من الرزق أكثر مما يجيئه من أصحاب الغنم التى يرعاها؛ فبلغه أن خديجة بنت خويلد الأسدية تستأجر رجالاً من قريش لمباشرة أموالها فى التجارة - وكانت خديجة ذات مال كثير ربحته من التجارة وورثته من زوجين من بنى مخزوم كانت قد تزوجت بأحدهما بعد الآخر؛ وماتا وتركا لها ميراثا لا بأس به(١). ومن أجل ذلك كان كبار قريش يلحون عليها فى طلب زواجها وهى ترفض؛ لما كانت تعرفه فيهم من الطمع فى مالها إلى أن بلغت سن الأربعين - فقال أبو طالب لابن أخيه: «يا بن أخى: قد اشتد الزمان علينا، وألحت سنون منكرة؛ وليس لنا مادة، ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتجرون فى مالها فلو جئتها لفضلتك على غيرك»، فقال النبى: لعلها ترسل إلى فى ذلك؟ ولكن خديجة بلغها ما دار بين محمد وأبى طالب من محاورة فأرسلت إليه وجعلت له ضعف ما كانت قدّرته لغيره؛ لما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه(٢).

وأرسلت معه غلامها ميسرة فى التجارة إلى الشام ومرت القافلة فى طريقها بوادى القرى، ومدين وديار ثمود، وكثير من الأماكن التى كان قد مر بها فى رحلته الأولى مع عمه أبى طالب؛ فكان لها أثر عميق فى نفسه، إلى أن بلغ «بصرى» ورأى هناك نصارى الشام فتحدث إلى من صادفه من الأحبار والرهبان، وعرف من هذا الحديث شيئًا عن الانقسامات الدينية وما بدا فى حديثهم من تورط فى الخلافات المذهبية؛ فلم يرق كل ذلك فى نظره؛ وشغل وقته كله بالتجارة فاستطاع بأمانته ومقدرته التجارية أن يربح فى هذه المرة أضعاف ما كان يربحه غيره؛ كما استطاع بجميل أخلاقه، ونبيل عواطفه أن يحمل ميسرة على حبه واحترامه.

---

(١) حياة محمد لهيكل ص ١١٨.

(٢) الفتح الإسلامى للشيخ فخر الدين بك ص ٢٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

* ماضى محمد وعلاقته بزواجه من خديجة :

كان الربح الذى كسبته خديجة من تجارتها، وحسن الطالع الذى رافق محمداً عليه السلام فى رحلته إلى الشام ذا أثر كبير فى تصديق خديجة كل ما بلغها عن محمد من أمانة، وصدق، ووفاء ومروءة وشهامة، ونبل، فارتفعت منزلته عندها؛ ثم أيد هذا المعنى فى نفسها حديث ميسرة (غلامها) عن محمد وكرم أخلاقه، ولين جانبه، مما فعل فى قلبها ما يفعل السحر، فراحت رغبتها فى التجارة تتضاءل على مر الأيام وصارت تتمنى فى نفسها أن ترتبط به ارتباطًا دائمًا غير ارتباط التجارة. ولقد أحست خديجة لأول مرة فى حياتها أنها تحبه وتتمنى الزواج به.

ولكن كيف تفعل ذلك وهى التى رفضت من قبل كثيرين من عظماء قريش نسبًا وحسبًا؟ وأنى لها بمحمد وهو فى سن الخامسة والعشرين وهى قد بلغت بعد سن الأربعين؟! كان عقل خديجة راجحًا، وكان ممتلئًا حيوية، فأحست حاجتها إلى رجل كفء أمين يقوم على رعاية مصالحها، ويكون له من الأمر غير ما كان للعامل أو الأجير فى تلك الأموال والقوافل.

فوجدت فى محمد عليه السلام ضالتها المنشودة ولكنها ليست واثقة من قبوله، أو مطمئنة على رضاه؛ فاستعملت لهذا الأمر من يعرض عليه زواجها فقبل وهو مغتبط قرير العين.

وتم أمر الزواج بحضور «عمرو بن أسد» عم خديجة وبعض أعمام رسول الله بزعامة أبى طالب الذى خطب فى هذه المناسبة خطبته المشهورة وهى (الحمد لله الذى جعلنا من زرع إبراهيم، وذرية إسماعيل، وجعل لنا بيتًا محجوجًا، وحرمًا آمنا، وجعلنا الحكام على الناس، وبارك لنا فى بلدنا الذى نحن به. ثم إن ابن أخى محمد بن عبد الله لا يوزن برجل من قريش إلا رجح به، ولا يقاس به إلا عظم عنه، وإن كان فى المال قل فإن المال رزق حائل وظل زائل، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك)(١). ثم أصدقها محمد عشرين بكرة، وبنى بها فى منزلها على عادة العرب.

افتتح محمد عليه السلام بهذا الزواج صفحة جديدة من حياته، هى صفحة الزوجية السعيدة الراضية، ثم الأبوة البرة الرحيمة فرزق منها بأولاده جميعًا سوى إبراهيم الذى كانت أمه مارية القبطية.

---

(١) سيرة ابن هشام.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

* **موقفه من مشكلة الحجر الأسود :**

برغم ما كان يشغل بال رسول الله ﷺ من البحث عن طريق الهدى واليقين، فإنه لم ينقطع عن مخالطة أهل مكة والأخذ معهم بنصيب فى الحياة العامة .

فلما كانت سنه عليه السلام خمسًا وثلاثين سنة، وذلك فى عام ٦٠٦ ميلادية أصاب الكعبة حريق هائل أوهى بناءها، ثم أعقبه سيل، فصدع أركانها؛ فأرادت قريش هدمها لتقيم بناءها من جديد، ثم أزالوا الحجر الأسود من مكانه، ولما ارتفع البناء إلى المقدار الذى يوضع الحجر الأسود فيه، اختلف أشراف قريش فيمن يضعه بيده، ويختص بهذا الشرف دونهم، وتنافسوا فى ذلك حتى كادت أن تشب بينهم نار حرب طاحنة، ودام الخصام بين قريش أربع ليال متتالية، حتى اقترح عليهم أبو أمية ابن المغيرة «عم خالد بن الوليد» – وكان أسنّ رجل فى قريش – أن يحكِّموا بينهم فقالوا : نكل الأمر إلى أول داخل من باب شيبة – المعروف الآن بباب السلام – فلم يمكثوا غير قليل حتى أقبل محمد؛ فكان أول من دخل من الباب .

فقالوا جميعهم : هذا الأمين، رضينا بحكمه؛ وأخبروه الخبر، ففكر هنيهة؛ ثم خلع رداءه، وبسطه بين القوم ووضع الحجر فى وسطه، ثم قال : لتحمل كل قبيلة بطرف من الرداء فرفعوه حتى حازوا به موضع الحجر، فأخذه بيده ووضعه فى موضعه، وبذلك انحسم النزاع، ونامت الفتنة، وقضى على عوامل الشر بين العرب .

ولا شك أن حسم النزاع فى مشكلة الحجر الأسود، قد رفع من شأن محمد؛ وزاد فى هيبته واحترامه لدى قبائل قريش جميعًا .

* **تبعات الحياة التى احتملها من زواجه إلى مبعثه :**

نحن الآن قادمون على مبعث رسول الله فنحتاج إلى معرفة الأمور التى أخذت من تفكيره، ومن وقته فوق ما كان يشغل باله من الغرض الأكبر؛ وهو البحث عن طريق الهدى والحق، لينقذ نفسه مما كانت فيه من الحيرة والتردد .

فيروى لنا التاريخ أنه حدث بعد بناء الكعبة أن توفى ابنه القاسم فحزن عليه حزنا شديداً كان له أعمق الأثر فى نفسه، ثم يروى أيضاً أن قريشاً أصابتها أزمة وقحط بعد ذلك بقليل ولاقى أبو طالب من هذا القحط عنتاً شديداً لما كان عليه من رقة الحال، وكثرة العيال . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعميه حمزة، والعباس : ألا نحمل ثقل أبى طالب فى هذا المحل «الجدب»؟ فاستحسنا منه ذلك .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثم جاؤا إلى أبى طالب وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم؛ فلما رأى أبو طالب حرصهم على ذلك قال لهم. دعوا لى عقيلاً ثم خذوا من شئتم - وكان شديد الحب لعقيل - فأخذ العباس طالباً، وأخذ حمزة جعفر، وأخذ النبى عليه السلام علياً، وكانت سنه إذ ذاك ست سنوات فتربى فى حجره، ووجد فيه الرسول بعض العزاء عن ابنه القاسم، وكان ما يسديه إليه من إحسان، وشفقة، وبر، وحسن تربية كالمكافأة لصنيع أبى طالب؛ حيث قام بكفالته عليه السلام بعد جده عبد المطلب خير قيام، ورعاه أكرم رعاية.

وكأنما كان قلب الرسول منطوياً على حنين دائم للأبناء، ومشتملاً على صدى حزن عميق لفقدهم؛ فأراد أن يتبنى زيد بن حارثة ليخفف من آلام نفسه قليلاً؛ فأعلن قبالة الحجر الأسود أنه قد تبنى زيداً وأنه يرثه ويورثه، ومنذ ذلك الحين أطلق عليه « زيد بن محمد »، ثم زوجه النبى بأم أيمن حاضنته بالرغم من تفاوت السن بينهما، فولدت منه أسامة الذى قاد حملة العرب إلى الشام فى أواخر أيام الرسول عليه السلام.

* على أى شرع كان يتعبد قبل بعثته؟

لم يحدثنا رسول الله عن هذه الفترة من حياته؛ ولذلك اختلف علماء الأصول فى هذه المسألة ووضعوها موضع البحث والمناقشة، فقال جمهور منهم: إنه لم يكن مكلفاً باتباع شريعة ما من الشرائع الماضية، وجماعة توقفو فى الرأى أمثال الغزالى، وإمام الحرمين، والآمدى، ولم يذكروا شيئاً فى هذه القضية لأنهم لم يجدوا ما يؤهلهم للفصل فيها.

وهناك جماعة ذكروا أنه كان متعبداً على شريعة، ولكنهم اختلفوا فى تعيينها؛ هل هى شريعة آدم، أو إبراهيم، أو موسى، أو عيسى صلوات الله عليهم أجمعين؟ وهذا الخلاف يفهم منه أنهم لم يرتكزوا على دليل قوى يخرجهم من حيز الحدس، والتخمين.

وكذلك رأى الكمال بن الهمام رأيا قريباً من الآراء السابقة، وهو أنه عليه السلام كان متعبداً بما ثبت عنده أنه شرع إذ ذاك؛ إلا إن أثبتت شريعتان أمرين متضادين فبالأخير يعمل فإن لم يتبين الأخير عمل بما يركن إليه منهما.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والحقيقة أن هذه المسألة ليست من الأمور التى يفصل فيها الأصوليون بهذه الأدلة وتلك الطرق التى لا تستند على حجة أو برهان، وإنما المتكفل بتحقيقها هو التاريخ وحده، والتاريخ يحدثنا بأن رسول الله لم يخبرنا بشيء يتعلق بهذا الموضوع، ويحدثنا أيضًا بأن تعاليم دين إبراهيم عليه السلام لم تكن معروفة[1] ، وأن تفاصيل شريعته فى العبادات والمعاملات لم يكن للعرب عهد بها فى الجزيرة حتى يتخذها محمد نبراسًا فى التحنث والعبادة.

ومن ناحية أخرى فإنه عليه الصلاة والسلام حينما كان يتعبد فى غار حراء لم يكن يسمح لأحد أن يخالطه، وإنما كان كل همه أن يمعن فى الخلوة، وأن يبالغ فى الوحدة والتفرغ للأمر الذى شغله، واستولى على قلبه.

لذلك لم نعرف شيئًا مما كان يجول فى خاطره، أو يدور على لسانه أثناء تعبده فى الغار. ومن هنا وجب علينا أن نصوره عليه السلام كما صوره التاريخ بأنه قبل نبوته رفض الأوثان وعبادتها، والأصنام والتقرب إليها، وكان يطوف بالكعبة، ويلتزم مكارم الأخلاق، ولم يشرب الخمر، أو يرتكب فاحشة، ولم يعرف عنه أنه كان يراعى الطرق التفصيلية للعبادات فى الشرائع السابقة، ولم يكن قبل نبوته قد وصل إلى الحقيقة فى أمر الخالق جل جلاله بدليل قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ⁽٦⁾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ⁽٧⁾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ** ﴾.

وكان النبى عليه السلام قد قارب الأربعين وهو على إطراقه العميق وتفكيره المتواصل فى صمت يلفت النظر، وابتعاد عن ضوضاء الحياة ومشاغلها. فليس من المستبعد أن يكون موضوع تفكيره ما كان فيه أهله وقومه من الرضوخ لعبادة الأوثان، وبعدها عن كل تغذية روحية، وما عرفه عن المسيحية واليهودية من تعقيدات ومتناقضات.

*** الالتجاء للغار:**

تقع مكة فى مكان وسط تقريبًا بين مكانين لهما فى تاريخ الإسلام ذكر حافل، فأما أحدهما فيقع فى شمال مكة على بعد فرسخين منها وهو غار حراء وأما الثانى فيقع فى جنوبها بمثل هذه المسافة وهو غار ثور.

---

(١) محمد رسول الله، لمولاى محمد على ص ١٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

و(ثور) و(حراء) غاران مهمان فى تاريخ الإسلام . ففى غار حراء نزل الوحى على رسول الله؛ وفى غار « ثور » بدأ الإسلام صفحة جديدة فى حياته وانتشاره؛ فيمكن القول إذًا بأن الدعوة الإسلامية مدينة لهذين الغارين ببدئها وانتشارها .

ولقد عرف عن الحنفاء من العرب قبل محمد أنهم كانوا ينقطعون للتحنث فترة من الزمن كل عام، فلما هام قلب محمد عليه السلام بالتماس الحقيقة، والبحث عن الهدى والحق لجأ إلى حراء ممعنًا فى البعد عن ضوضاء القوم وضلالهم، فكان يذهب إليه طوال شهر رمضان من كل سنة بالقليل من الزاد للخلوة والتعبد .

ولم يحدثنا التاريخ بالتحديد عن الوقت الذى بدأ فيه محمد يلجأ إلى الغار، ولم يذكر لنا كم مرة اعتكف فيها عليه السلام بهذا الغار حتى نزل عليه جبريل .

وكل ما وصل إلى علمنا من الروايات التاريخية أنه كان إذا استدار العام وجاء رمضان ذهب إلى حراء وعاد إلى تفكيره فى الخلق والخالق حتى اتصل ما بينه وبين ربه، وتعلقت روحه بما وراء الحقيقة؛ فتجلى له المولى بأول مراتب المعرفة، وأولى درجات الوحى وهى « الرؤيا الصادقة » فصار لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وكان كلما ازداد معرفة بالله ازداد بغضًا لما كان عليه قومه، وتملكته عوامل الشك والحيرة فى أمر إنقاذهم من الضلال الذى استعصى على الهداة علاجه .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المرحلة الثانية

من البعثة إلى الهجرة

* الوحى :

يطلق فى اللغة على عدة أمور، منها : الإشارة، والكتابة، والرسالة، والإلهام . وأما معناه الاصطلاحى فهو إعلام الله أنبياءه أمورا - لا تُدرَك عادة؛ من غير أن تسبقها مقدمات تدل عليها - وقد يستعمل بمعناه اللغوى وهو الإلهام ويكون عاما لكل المخلوقات .

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة توضح معنى الوحى بالإلهام . وإليك بعضها **﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾** [النحل : ٦٨] **﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾** [القصص : ٧] وفى شأن يوسف عليه السلام قبل نبوته **﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾** [يوسف : ١٥] .

* مراتب الوحى :

للوحى الاصطلاحى مقدمات خفية قبل أولى مراتبه، وله استعداد واشتغال بالتفكير فى الكون وخالقه، وإيمان قوى بوجوده بحيث يملأ هذا الإيمان قلبه، ويملك عليه كل جهات نفسه .

ومن مراتب الوحى التقريبية ما يأتى :

أولاً : الرؤيا الصادقة مثل رؤيا إبراهيم عليه السلام فى قوله تعالى **﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾** [الصافات : ١٠٢]، وهذه هى التى أشار إليها رسول الله فى قوله «**رؤيا الأنبياء حق، ونحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا**» .

ثانيًا : أن يلقى ما يراد إلقاؤه على العبد المختار من غير واسطة فتقع فى قلبه وهو متيقظ أمور يحسها إحساسا قويا، ثم يتضح بعد ذلك أن تلك الأمور التى دارت بخلده قد صارت حقيقة واقعة فى الخارج كما وقعت فى قلبه .

ثالثًا : الوحى بطريق الملك المشار إليه فى قوله تعالى **﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ⑲ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾** [التكوير : ١٩ - ٢٠] .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

رابعًا: السماع من الذات العلية مباشرة من غير واسطة كما في قوله تعالى ﴿ **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ** ﴾ [طه: ١١ – ١٣].

هذه الحالات هى التى تمر عادة بأنبياء الله ورسله.

كيف بعُث رسول الله؟

ظل النبى عليه السلام متبعاً طريقته التى اعتادها وهى الذهاب إلى حراء والمكث فيه شهراً من كل عام، حتى كان اليوم السادس من شهر أغسطس عام ٦١٠ من ميلاد المسيح الذى يوافق سابع عشر من رمضان؛ حيث فوجئ عليه السلام بأمر جديد وصفه بقوله:

(بينما أنا نائم فى الغار إذ جاءنى جبريل بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ، قلت: ما أقرأ؟ قال: فغتنى[١] به؛ حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلنى فقال: أقرأ، قلت: ماذا أقرأ؟ قال: فغتنى به حتى ظننت أنه الموت؛ ثم أرسلنى فقال: اقرأ، فقلت: ما أقرأ؟ –ما أقول ذلك إلا افتداءً منه أن يعود إلىّ بمثل ما صنع بى – فقال ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [العلق: ١ – ٥][٢]. قال: فقرأتها، ثم انتهى فانصرف عنى وهببت من نومى فكأنما كتبت فى قلبى كتاباً، فخرجت حتى إذا كنت فى الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل.... إلخ.

هذا هو تلخيص رسول الله لما شاهده فى الغار وهو فى خلوته بعيدا عن الناس وقد أحدث فى قلبه ذعراً، وفى نفسه ارتباكًا، حتى إنه بارح أرض الغار وانطلق هائمًا فى الصحراء وحيداً فى ليل ساكن موحش، ولم ينقذه فى تيه البيداء إلا نور الفجر قد لاح فى الأفق البعيد، فلم يشعر محمد ﷺ بنفسه إلا وهو ينساب فى شوارع مكة مع أضواء الصباح الباهتة، ودخل على خديجة مذعوراً، مضطربًا، وأخذ يقص عليها ما رأى.

---

(١) غته: أى كمده وأجهده، وغته بالنمط خنقه به.

(٢) راجع سيرة ابن هشام.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فلما أدركت مقدار الانزعاج الذى ألمّ بزوجها أقبلت عليه بكل قلبها تهدئ من روعه وتقول له بصوت قد انتشر الإيمان فى نبراته: «**الله يرعانا يا أبا القاسم، أبشر يا ابن عم واثبت، فو الذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة، ووالله لا يخزيك الله أبداً، وإنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الدهر**»، ثم طلبت منه أن يستريح ليهدأ روعه ويسترد قوته ونشاطه.

تركت خديجة زوجها لينام ثم ذهبت من فورها إلى ابن عمها ورقة بن نوفل الذى كان يعلم كثيراً عن التوراة والإنجيل(١) وما جاء فيهما من التبشير برسول جديد فقال لها ورقة: «**والذى نفسى بيده؛ إنه لنبى هذه الأمة فقولى له فليثبت**» فاطمأنت على زوجها ثم بلغته مقالة ورقة فاستراح قليلا.

* فترة الوحى

استيقظ رسول الله بعد أن هدأت أعصابه، واعتقد أن الحق قد تجلى له فأنقذه من الحيرة التى شقى بها طويلا، وأن هذا المدد السماوى لن ينقطع عنه حتى يؤدى مهمته فى ظل التأييد الإلهى عن طريق الوحى المتواصل.

وكان لابد للنبى أن يعد نفسه للقاء جبريل مرة ثانية حتى يتثبت مما ألقى إليه فى المرة الأولى؛ ولكن الوحى لم يأت كما كان النبى ينتظر بالسرعة التى كان يتمناها، واستمر الوحى مدة دون أن يتصل برسول الله مرة ثانية، وقد عرفت هذه المدة «بفترة الوحى». ولقد اختلف المؤرخون فى تحديدها حتى ذكر بعضهم أنها بلغت عامين أو أكثر، ولكن الرأى الذى تعضده الأسانيد التاريخية هو أن تلك الفترة كانت قصيرة الأمد لا تزيد على أربعين يوما كما ذكرها ابن عباس.

ويظهر أن ما أصاب رسول الله من شدة الشوق وكثرة الجزع – لانقطاع النور السماوى الذى كان يبحث عنه بشغف وعنف وظفر به ثم اختفى بعد أن زاره مرة واحدة –هو الذى حمل المؤرخين على تقدير مدة طويلة تتناسب مع التحرق الشديد الذى بلغ بمحمد أن يهيم على وجهه فى البيداء، يصعد الجبال ويهبط الوديان؛ حتى إنه كان يخيل لمن يراه على قمة الجبل أنه سيلقى نفسه من شاهقها، فقالوا إن النبى كان قد فكر فى الانتحار لطول تلك الفترة!

---

(١) تنسب إلى ورقة أول ترجمة عربية للعهدين القديم والجديد. راجع كتاب الرسول، تأليف بودلى ص٦٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولكن الحقيقة التاريخية أن رسول الله لم يطق انقطاع الوحى عنه فكان خروجه إلى الجبال لقصد واحد هو أن يظفر بجبريل مرة ثانية. ولما كان قد رأى جبريل هابطاً من السماء فقد كثر تطلعه إليها أثناء سيره لايبالى بما فى طريقه من مرتفعات أو منخفضات، وإن أية مدة زمنية يضرب فيها الحجاب بين الإنسان وبين من يحبه من كل قلبه، لاشك طويلة ممقوتة وثقيلة، مهما كانت قصيرة محدودة.

* عودة الوحى

ثم انتهت أخيرا هذه الفترة وكانت فى نظره عليه السلام طويلة لأنها باعدت بينه وبين أمنيته الوحيدة فى حياته كلها، فبينما كان عليه السلام هائما على وجهه ذات يوم إذا به يسمع صوتا من السماء فرفع بصره؛ فإذا الملك الذى جاءه أول مرة فى صورة رجل صاف قدميه بين السماء والأرض يقول له: «يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل»، فأدركته الرعدة الماضية وعاد إلى خديجة يقول لها «دثرونى»، فألقت خديجة عليه عباءته وجلست تحوطه برعايتها وهو نائم، وفيما هى جالسة بجواره ترعاه وتفكر فى أمره إذا به يهتز ويثقل تنفسه، ويتفصد جبينه بالعرق ثم يستيقظ وهو يتلو ما نزل به جبريل عليه من هذه الآيات: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ**﴾ [المدثر: ١ - ٧]. فلما رأت خديجة منه هذا الإجهاد والقلق طلبت إليه أن ينام ليستريح، ولكن رسول الله التفت إليها وهو يقول: «**انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة، فقد أمرنى جبريل أن أنذر الناس، وأدعوهم إلى عبادة الله**».

ومنذ ذلك الحين أصبح محمد بن عبدالله ذا لقب جديد هو «رسول الله»، وكان هذا اللقب مثار نضال وجدال بينه وبين قريش طالت لياليه، وتعددت أيامه، ولقد زاد من حدة العداوة بينه وبين قومه أن جعل أساس دعوته شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وليس فى هذا الأمر من جديد وثقيل على نفوسهم؛ إلا أن يكون محمد بن عبد الله، اليتيم الفقير هو رسول الله.

قدر محمد عليه السلام كل هذه الأمور وأدرك الصعوبات التى سيلاقيها من جراء هذا الأمر الجديد.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

* دعوة الأفراد أو التبليغ

لما أُمر رسول الله بتبليغ رسالته للناس، لم يشمل الأمر الإلهى فى ثناياه توضيح الطرق التى يسلكها فى دعوته، ولذلك تردد كثيراً فى أول خطوة يخطوها فى هذا السبيل، ثم رأى أن يتحدث برسالته فى بيته ويشرح هذا الأمر لأقرب الناس إليه من أسرته، فآمنت به خديجة أول من آمن، ثم رآهما على بن أبى طالب يصليان لله فى مظهر جديد، فأخذ هذا المظهر عليه قلبه فآمن، وكان النبى – عليه السلام – يريد أن يستشير والده أبا طالب فى ذلك، ولكن علياً قال لرسول الله: «إن الله خلقنى دون رأى أبى طالب، فكيف أستشيره فى الإيمان به»؟ ثم شمل الإيمان كل من كان فى كنف محمد عليه السلام؛ فآمن زيد بن حارثة وآمنت أم أيمن فى السابقين.

أخذ بعد ذلك رسول الله يفاتح أصدقاءه الخلص فى هذا الأمر، ففاتح صديقه أبا بكر فأجاب دون تردد أو مناقشة.

* الشباب عدة محمد

وكانت لأبى بكر شخصية قوية، ومنزلة رفيعة بين قومه، فأخذ من جانبه يدعو إلى عقيدته الجديدة، فأجابه لفيف من شباب قريش تأسوا به وآمنوا بمحمد؛ وهم عثمان ابن عفان الذى لم تكن سنه قد تجاوزت العشرين، والزبير بن العوام وكان قد بلغ الحلم، وعبدالرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبى وقاص؛ وكلهم كانوا فى سن مبكرة، ولا يخفى السر فى سرعة انقياد الشباب للدعوات الجديدة لأن طهارة النفس من الأغراض تكون واضحة فيهم، وعدم تقيدهم بقيود العادات والتقاليد التى لم يستسيغوها كانت تجول فى خواطرهم جميعاً.

* دار الأرقم.. مركز الدعوة السرية

لم يقتصر الأمر على اعتناق أقارب محمد، ومواليه لدينه، وهذه الفئة التى آمنت على يد أبى بكر، بل تلا هؤلاء رجال من أفذاذ قريش أمثال؛ أبى عبيدة عامر بن الجراح، وأبى سلمة عبدالله بن عبدالأسد، والأرقم بن أبى الأرقم، وعثمان بن مظعون، وأخيه قدامة، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وامرأته فاطمة بنت الخطاب، وغير هؤلاء من شباب مكة الذين أُعجبوا بهذا الدين فأقبلوا عليه مخلصين.

ولما وجد رسول الله أن عدد أنصاره فى ازدياد ونمو، أراد أن يتخذ لهم داراً يجتمعون

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فيها ليتعلموا ما يهمهم من أمر دينهم الجديد، فوقع اختيار المسلمين على دار الأرقم ابن أبى الأرقم؛ التى تقوم على الصفا قريباً من البيت الحرام.

وليس يُعلَم إلى الآن ما هى المميزات التى كانت لدار الأرقم فى هذه الآونة عن بقية دُور المسلمين، إلا أنها على كل حال أصبحت مركزاً للدعوة الإسلامية يجتمع فيها الرسول بأتباعه فيزودهم بما يثبت قلوبهم ويقوى إيمانهم، فيخرجون من هذه الدار؛ وقد امتلأت قلوبهم ثقةً وإيماناً يحملانهم على التفانى فى سبيل ما سمعوه بدار الأرقم وما تلقوه من تعاليم.

وكثيراً ما كان أعداء محمد يبحثون عن مكان اجتماعه بأصحابه ليحولوا بينهم وبين هذا اللقاء، فكان محمد يعتمد على الشباب فى حراسة هذا المكان، وأخذ الطرق المؤدية إليه بالعناية والرقابة حتى يكون المجتمعون هناك فى مأمن من مداهمتهم أثناء التفافهم، وحتى لا يُقضَى على الدعوة فى مهدها.

ولقد كان للمدة التى قضاها النبى عليه السلام فى بيت الأرقم أهمية خاصة فى التاريخ الإسلامى لمعرفة ترتيب السابقين إلى الإسلام الذين كان لهم فضل ومكانة فى قلوب المسلمين، وقد تبوأت دار الأرقم منزلة خاصة فى قلوب المؤمنين حتى كان يطلق على هذا المكان «بيت الإسلام»، وظل هذا البيت فى حوزة أحفاد الأرقم إلى زمن الخليفة المنصور العباسى الذى أجبرهم على أن يبيعوه إياه لتسكن فيه أسرته، وقد سكنته الخيزران أم هارون مدة حتى عرف «ببيت الخيزران» وبقايا هذا البيت لا تزال باقية إلى الآن بمكة(١).

* فترة الدعوة السرية

على الرغم من أن حديث المسلمين فيما بينهم لم يكن إلا نجوى، لا يفاتحون أحداً إلا من وثقوا به، وأطمأنوا إليه، فإن الإسلام أخذ طريقه إلى ألسنة قريش وإلى قلوب بعضهم، واندفع كثير من النساء والرجال يتبعون محمداً، وصار هذا الأمر حديث أهل مكة فى كل مكان، وكان المسلمون يبالغون فى إخفاء أمرهم حذراً من المتوثبين بهم من آلهم وذويهم، فإذا أرادوا الصلاة تسللوا إلى شعب من شعاب مكة، وإذا أرادوا اجتماعاً تواعدوا على دار الأرقم، حتى لا يظهر المشركون على شىء من أمرهم.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

استمروا على ذلك مدة ثلاث سنوات والدعوة تمشى فيها وئيداً وتتقدم تقدمًا بطيئًا، حتى لم يبق بمكة من الأفراد الذين بينهم وبين أحد من المسلمين صلة تمكنه من مفاتحته سراً فى هذا الأمر، فكان لابد إذاً من الجهر بالدعوة على الملأ من قريش؛ لا سيما وقد كان بين المسلمين فئة من الشباب بدأت تثور على الكتمان، وتأنف من الاستخفاء بالعبادة، فطلبوا من رسول الله أن يجهر بالدعوة ولكن الرسول كان ينتظر الأمر من السماء.

*** الجهر بالدعوة**

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤، ٩٥]، **﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾** [الشعراء: ٢١٤، ٢١٥].

هاتان هما الوثيقتان اللتان أذن الله بمقتضاهما لرسوله - بعد ثلاث سنوات من البيعة - أن يجهر بدعوته، فى الوقت الذى تاقت فيه نفوس المسلمين إلى الإعلان عن إيمانهم، فجمع رسول الله أولئك الشباب الذين وطنوا أنفسهم على بذل أرواحهم فى سبيل الدعوة إلى دين الله فخرج بهم من دار الأرقم، واخترق بهم شوارع مكة، فى مظاهرة تعلن عن دين جديد وعن تضحية فى سبيله، فلما وصلوا إلى الكعبة صلوا، وطافوا بها ثم رجعوا إلى مكان اجتماعهم فى دار الأرقم، فأصاب قريشًا حزن وألم شديدان لما رأوه من بوادر نجاح محمد فى دعوته.

ثم أخذ رسول الله يفكر فى الطريقة التى يتحدث بها مع قريش بعد صدعه بالأمر، وجهره بالدعوة، فبدأ يستشير أتباعه الذين آمنوا به، ثم استقر الرأى على أن يدعو عشيرته من بنى عبدالمطلب إلى بيت أبى طالب، ويتحدث إليهم فى هذا الأمر، فلما اجتمعوا قال لهم:

> **«يا بنى عبدالمطلب: والله ما أعلم إنسانا فى العرب جاء قومه بأفضل بما جئتكم به؛ قد جئتكم بخيرى الدنيا والآخرة، وقد أمرنى ربى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرنى على ذلك؟ فأعرضوا عنه، وانصرفوا هازئين به!**
>
> لم يفت ذلك فى عضد محمد عليه السلام، بل حمله على أن يدعو أهل مكة جميعًا، فصعد الصفا يوماونادى: **يا صباحاه! فاجتمعت إليه قريش فقالوا له: مالك يا محمد؟ فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو**

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مصبحكم أو ممسيكم أكنتم مصدقى؟ قالوا: بلى، ما عهدنا عليك كذبًا، قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد، يا بنى عبدالمطلب، يا بنى عبد مناف، يا بنى زهرة، يا بنى تميم، يا بنى مخزوم، يا بنى أسد: إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين».

فنهض أبو لهب - وكان رجلاً بدينًا سريع الغضب - قائلا: تباً لك سائر هذا اليوم! ألهذا جمعتنا؟ وانصرفوا جميعا وتركوا محمداً فى موقفه، وقد نزل عليه جبريل بقوله تعالى ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ** ﴾ إلخ.

أطوار العداء بين قريش ومحمد عليه السلام:

اتخذت الخصومة بين قريش ورسول الله أطواراً ومراحل، بدت فى أولها هينة ضعيفة؛ ثم صارت فى نهايتها شديدة عنيفة، وكان من الطبيعي أن تصل إلى حد لايحسمه إلا السيف؛ ما دام محمد مصراً على دعوته؛ وقريش تعلن عنادها لتلك الدعوة.

فيروى لنا كتاب السيرة أن أشراف قريش لما بدؤا يشعرون بالخطر فى تلك الدعوة الجديدة، رأوا أن يستخفوا به وبدعوته، حتى تثبط عزيمته فيرجع عن هذا الأمر، وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ** ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٢].

ثم اتخذوا لتلك السخرية اللاذعة أمهر الشعراء فبالغوا فى هجومه وتهجين رأيه، ولكن شعراء المسلمين لم يقفوا أمام هذه الطعنات دون أن يردوها بأعنف منها.

فلما رأت قريش ذلك اتجهوا إلى سبيل آخر أشد فى السخرية والاحتقار؛ ليصلوا بذلك إلى القضاء على تلك الدعوة الجديدة، فأخذوا يطالبون محمداً بالمعجزات التى تثبت رسالته، ثم أطلقوا لأنفسهم العنان فى اقتراح ما يخطر على بالهم من المعجزات التى حكاها الله تعالى فى قوله: ﴿ **وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا** ﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وطال بهم اللجاج والمهاترة، فرأى عليه السلام أن يكشف عن آلهتهم حجاب الهيبة والقداسة، التى كانت لتلك الآلهة فى قلوبهم، فتناولها بالعيب والتحقير، رداً على استهزائهم بإله محمد. هنالك عظم الأمر على قريش وثارت نفوسهم، وأخذوا فى التفكير الجدى لوضع حد بينهم وبين محمد، وبدأت أشباح الخوف تتراءى أمامهم بعدما حقر ألهتهم، ونال من هبل، واللات والعزى، فلا يصح أن تكون آلهتهم موضع استخفاف وسخرية.

ثم رأى أشراف قريش أن يرفعوا أمره إلى عمه أبى طالب، يطلبوا إليه إما أن يكفه عن طريقته التى عاب بها آلهتهم وسفه أحلامهم، وإما أن يخلى بينه وبينهم.

ولكن أبا طالب ردهم رداً جميلا، غير أن محمداً مضى يشتد فى دعوته، ومضت قريش تأتمر بصاحب تلك الدعوة، ثم عرضوا الأمور مرة أخرى على أبى طالب، ولكن فى صورة من الإنذار والتهديد، صاغوها فى هذا القالب: (قد سألناك أن تنصفنا من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الطرفين).

فأصبح أبو طالب فى موقف حرج بين أمرين: إما حرب طاحنة بينه وبين قومه، وإما تخلص ممقوت من ابن أخيه، وكاد يميل إلى مجاراة قريش، كما يظهر فى قوله لابن أخيه: (يا ابن أخى إن قومك قد حدثونى بما علمت، فأبق على نفسك، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق)، ولكن رسول الله أطرق هنيهة، وأطرق التاريخ معه لينتظر توجيهه. ثم أرسلها كلمة خالدة مدوية: **(يا عم، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه - ما تركته)** ثم اغرورقت عيناه بالدموع لشعوره بالحرج فى موقف عمه، ولكن أبا طالب أخذته عوامل الرأفة والحنان على رسول الله فقال: (اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا).

كانت دهشة قريش عظيمة جداً عندما علموا أن أبا طالب أعلن حمايته للرسول مهما كلفه ذلك، وأيا كانت الظروف. ولاح شبح الحرب الأهلية بين قبائل العرب، ولكنهم رأوا ذلك مفعماً بالمخاطر التى تقضى على نفوذ عشيرتهم إلى الأبد، ففكروا فى الاتفاق مع أبى طالب بالود، ومشوا إليه - ومعهم عمارة بن الوليد وهو فتى وسيم الطلعة من أشرف قريش - يريدون أن يأخذه أبو طالب ابنا له ويسلمهم ابن أخيه!

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ففشلت أيضا تلك المحاولة بقول أبى طالب: «والله لبئس ما تساومونني به، أتعطونى ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابنى فتقتلونه؟ هذا والله لا يكون أبدا».

ثم حاولت قريش محاولة أخرى، بينها وبين رسول الله، تعرض عليه المال والجاه والملك؛ إن كان يريد شيئا من ذلك، فباءت بالفشل والخيبة وضاع أملهم فى التفاهم الودى.

فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، وقد تحمل وطأة الاضطهاد والتعذيب هؤلاء الذين ليس لهم نسب أو مكانة فى قريش - وبنوع خاص العبيد والنساء - فقد كانوا يسامون أقسى ألوان العذاب، فعذب بلال بن رباح مؤذن رسول الله بطريقة وحشية جداً.

وإن قصة تعذيب عمار بن ياسر وأبيه وأمه لمما يشيب من هوله الوليد، فقد ربطت ساقا ياسر إلى بعيرين وانطلقا فى اتجاهين مختلفين، فمزقت أوصاله بوحشية تفتت الأكباد.

ولم يقتصر التعذيب على ضعفاء القوم بل شمل أيضا من كان من أشراف قريش؛ إذ كان أقرباؤهم الذين يتولون تعذيبهم، فعُذِّب عثمان بن عفان وفاطمة بنت الخطاب - شقيقة عمر- وكذلك الزبير بن العوام، ووقع المسلمون فى بلاء عظيم من قسوة قريش؛ ووصف ابن عباس طرفا من هذا التعذيب فى قوله: (والله إن كانوا ليضربون أحدهم، ويجيعونه ويبطشون به حتى ما يقدر أن يستوى جالساً من شدة الضر الذى نزل به؛ حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة).

أما رسول الله نفسه فقد لقى عنتًا كبيراً وخاصة من أبى لهب وزوجه؛ فإنهما كانا يضايقانه ويؤذيانه بشتى أنواع الإيذاء.

* أثر أبى طالب فى حماية الدعوة

كانت أنات المعذبين من المسلمين تصل إلى أذن أبى طالب فتهز قلبه هزاً، وكان تفانى رسول الله فى دعوته وصبره على الأذى يستدر عطف أبى طالب ورحمته، فلما رأى صنيع قريش فى أتباع محمد قام خطيبا فى بنى هاشم وبنى عبدالمطلب، ودعاهم إلى حماية رسول الله والقيام دونه، واتفقت كلمتهم على ما دعاهم إليه، ولم يخرج على هذا الاجماع إلا أبو لهب الذى تأثر بعواطف زوجه أم جميل التى كانت من بنى أمية وتكره من قلبها أن يقدر لمحمد النجاح؛ لئلا يعتز به بنوهاشم، ويفخروا به على

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بنى أمية. ثم أخذ أبو طالب يلهب نار العصبية فى نفوس عشيرته بقصيدة طويلة منها:

إذا اجتمعت يومًا قريش لمفخر فعبد مناف سرها وصميمها

فإن حصلت أنساب عبد منافها ففى هاشم أشرافها وقديمها

وإن فخرت يوما فإن محمداً هو المصطفى من سرها وكريمها

تداعت قريش غثها وسمينها علينا فلم تظفر وطاشت حلومها

*** مناهضة قريش تزيد فى انتشار الدعوة**

بينما كان بنو هاشم وبنو عبدالمطلب يأخذون على أنفسهم العهود والمواثيق أن يدفعوا عن رسول الله كل مكروه، كانت قريش فى حيرة شديدة من هذا الأمر. وقد أوشك موسم الحج أن يطالع القرشيين وهم يخشون أن يستميل محمد الحجاج فيدخلوا فى دينه وتنتشر دعوته.

فلما حضر الموسم رأوا أن يقطعوا على محمد الطريق بتحذير الناس من دعوته، فكان هذا التحذير يغرى الناس على سماع حديث محمد ورؤيته؛ فيتصلون به فتنبهر عقولهم مما يسمعون من الرسول ويعودون إلى بلادهم يتحدثون بأمره، حتى انتشر ذكره فى بلاد العرب كلها.

*** أول هجرة فى الإسلام.. الهجرة إلى الحبشة:**

كانت قريش كلما فشلت فى مناهضة الدعوة، وكف رسول الله عنها أمعنت فى تعذيب المسلمين وإيذائهم. فلما رأى رسول الله ما أصاب أصحابه من البلاء وأيقن من عجزه عن حمايتهم جميعا جمعهم فى مجلس عام للتشاور فى أمرهم، وكانت أذهان المسلمين قد اتجهت إلى مغادرة مكة فراراً من الإيذاء وحفاظا على الدين، ولكنهم لم يستريحوا إلى بلد يهاجرون إليه، وكان رسول الله قد فكر فى هذا الأمر طويلا، وقلبه على جميع وجوهه، فوجد أن مواطن القبائل العربية فى الجزيرة لا تصلح لمهاجرة أصحابه، لأنهم كانوا يرفضون دعوته فى مواسم الحج، إما مجاملة لقريش، وأما احتفاظا بدينهم الوثنى. كذلك رأى أن مواطن أهل الكتاب من اليهود والنصارى فى يثرب ونجران وغيرها لا تصلح لهذا الغرض؛ لأن كلا من الجاليتين اليهودية والمسيحية

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كانت تنازع الأخرى وتنافسها فى النفوذ الأدبى ببلاد العرب، فهما والحال هذه لا تقبلان منافساً ثالثا له مبدأ جديد وعقيدة يبذل نفسه فى سبيلها.

وأما اليمن فإن رسول الله لم يطمئن إليها؛ لأنها كانت إذا ذاك مستعمرة للفرس الذين لم يدينوا بدين سماوى، وكذلك لم يأمر أصحابه بالذهاب إلى الشام أوالحيرة بالعراق لأمرين؛ **أحدهما**: بُعد هذه الأماكن بعداً شاسعًا عن مكة، **وثانيها**: أن هذه البلاد كانت أسواقا لتجارة قريش ولهم بها صلة ومصالح متبادلة وزيارات فى أوقات منظمة، فإذا علمت قريش بوجودهم فى بلد منها، فإنه من السهل عليهم أن يطلبوا إلى أهل هذا البلد أن يردوهم ويخرجوهم من بلدهم كما حاولوا مع النجاشي.

وبعد أن استعرض رسول الله جميع البلاد المجاورة لم يجد منها ما يصلح لإقامة أصحابه واطمئنانهم على دينهم، إلا بلاد الحبشة فقال لهم: «**لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكا لا يُظلم عنده أحد، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه**»، فكان هذا القول من رسول الله إذنا بالمسير، فتحرك الفوج الأول فى شهر رجب من السنة الخامسة للدعوة واتجهوا إلى الحبشة، وعبروا البحر الأحمر بزعامة عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت الرسول ومعهما حذيفة بن عتبة بن ربيعة وامرأته، والزبير بن العوام وغيرهم.

وكان عدد من بادروا إلى هذه الهجرة عشرة رجال وأربع نسوة، وهذه هى الهجرة الأولى.

*** الهجرة الثانية:**

مكث هذا العدد القليل فى بلاد الحبشة مدة ثلاثة أشهر، أسلم أثناءها عمر بن الخطاب، ثم قدموا فى شوال من ذلك العام بدافع الحنين إلى الوطن والأمل فى تحسين مركز المسلمين بمكة بعد إسلام عمر، وتخفيف قريش من كراهتها للمسلمين، ولكنهم ما كادوا يصلون إلى مكة حتى أدركهم التهديد والعذاب، فرأوا أن يرجعوا ثانية إلى الحبشة.

وكان فى مقدمتهم هذه المرة جعفر بن أبى طالب، ثم تتابع المسلمون فى أثره حتى بلغ عددهم اثنين وثمانين رجلا وسبع عشرة امرأة، فأكرمهم النجاشي وأمَّنهم على حياتهم وأحسوا بالعافية فى دينهم، ونفوسهم، ولكن القريشيين لم يهدأ لهم بال فساورهم القلق والخوف من حماية النجاشي للمسلمين المهاجرين فأتمروا فيما بينهم

شبكة الألوكة - قسم الكتب

على أن يبعثوا منهم رجلين جلدين إلى النجاشى ليخرجوهم من بلادهم فبعثوا عبدالله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص وأرسلوا معهما من الهدايا والأموال ما يصلح.

ولكن النجاشى أحضر بعض المسلمين وسألهم عن سبب فرارهم إلى بلاده، فلما قصوا عليه أمرهم وشرحوا له تعاليم دينهم الجديد لمس الصلة الوثيقة بين ما جاء به محمد، وما دعا إليه المسيح فقال: (إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة) ثم قال لسفيرى قريش: «انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يُكَادون»، فرجع عمرو بن العاص وعبدالله بن أبى ربيعة بالفشل والخيبة من بلاد الحبشة، وظل المسلمون هناك فى حرية تامة وفى رغد من العيش مدة طويلة، وقد رجع بعضهم إلى مكة قبل هجرة الرسول إلى المدينة، وظل بعضهم فى الحبشة إلى السنة السابعة من الهجرة.

* مؤتمر الصحيفة أو قرار المقاطعة

اقتنعت قريش بعد الهجرة إلى الحبشة بأن المسلمين قد عقدوا العزم على المضى فى الأمر حتى النهاية، وأنهم على استعداد للمخاطرة وتحمل أنواع العذاب فى سبيل تلك الدعوة؛ ووجد من هاجر إلى الحبشة بجوار النجاشى أمنًا وحماية، كما وجد الباقون فى مكة من بنى هاشم وعبدالمطلب دفاعًا ومنعة، فكان من الطبيعى أن تقف قريش جبهة واحدة أمام جبهة الهاشميين ومن معهم، فأصدروا قرارا فى العام السابع من البعثة كان فى منتهى الخطورة حيث يقضى بمقاطعة المسلمين ومن ناصرهم من بنى هاشم وبنى المطلب مقاطعة تامة، وكتبوا وثيقة تعهدوا فيها بأنهم لا يتزوجون منهم، ولا يزوجونهم من أنفسهم ولا يبيعونهم شيئا، ولا يبتاعون منهم... إلخ.

ثم علقوا هذه الوثيقة فى جوف الكعبة حتى تأخذ محلها فى قلوب قريش من الاحترام والتقديس، فترك بنو هاشم ومن معهم من المسلمين ديارهم التى كانت منتشرة فى أنحاء مكة وانحازوا إلى شعب من شعاب جبل أبى قيس كان يقيم فيه أبو طالب ليتلقوا مجتمعين ما يصيبهم من عنت قريش وظلمهم، وحول هذا الشعب استطاع القرشيون أن يضربوا نطاقًا من الحراس يمنعون المسلمين ومن معهم من الخروج كما يمنعون سواهم من الدخول.

استمر هذا الحصار الدقيق ثلاث سنوات، ومحمد ومن معه لم تهن عزائمهم، يتحملون الاضطهاد بنفس مطمئنة، ولم يكن الرسول ليستطيع تجاوز هذا الشعب إلا حين تنام الخصومات، وتسكن الفتن بحكم تقاليد العرب فى الأشهر الحرم حيث يزداد

www.alukah.net
شبكة الألوكة

نشاط الرسول وتشتد دعايته فى الحجيج من مختلف القبائل، ولكن تحذير أبى لهب للحجاج من الاستماع لدعوة محمد كان يعوق معظم الراغبين فى الإسلام عن الدخول فيه أول الأمر، بحجة أنه لو كان صادقًا لكان قومه أول من يصدقونه.

وبالاختصار كانت هذه الحقبة جد عسيرة وشاقة على محمد وبنى هاشم، كادوا يهلكون فيها جوعًا؟ لولا بعض الرجال الذين أخذتهم عوامل الشفقة والرحمة أمثال هشام بن عمرو بن الحارث بن عمرو بن لؤى الذى كان يأتى بالبعير وقد أوقره طعامًا أو بُرا فيسير به فى جوف الليل حتى إذا استقبل فم الشعب خلع خطامه ثم ضربه على جنبه فيدخل البعير الشعب عليهم.

* كيف نقضت الصحيفة؟!

ولما طال أمد الحصار ارتفعت همسات التذمر والاستياء، من الظلم الذى يلاقيه بنو هاشم وبنو عبدالمطلب، وشعر رقيقو القلب من قريش بقسوة المقاطعة والحصار، وجاء اليوم الذى مشى فيه هشام بن عمرو إلى زهير بن أبى أمية -وكانت أمه عاتكة بنت عبدالمطلب - وقال يا زهير: أرضيت أن نأكل الطعام ونلبس الثياب وننكح النساء وأخوالك حيث قد علمت لا يبتاعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم؟! أما إنى أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام ثم دعوتهم إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً.

وتعهد الرجلان على نقض الصحيفة، والاستعانة على ذلك بغيرهما يقنعانهم سرا، واتفق معهما المطعم بن عدى، وهشام بن عمرو، وزمعة بن الأسود. وأجمع الخمسة أمرهم على أن ينقضوا هذه الصحيفة، ثم بعد مناقشات طويلة حول الكعبة تقدم المطعم بن عدى إلى الصحيفة ليشقها؛ فوجد أن الأرضة أتت على ما فيها ما عدا اسم الله عز وجل ثم عاد بنوهاشم وبنو عبد المطلب إلى مساكنهم فى مكة يبيعون ويبتاعون، ولكن قلوب القرشيين مطوية على بغض، وإصرار على الإيذاء.

* عام الحزن والأحداث بعده

خرج الهاشميون من شِعبهم بعد أكثر من عامين، خروج المستريح إلى موقفه المطمئن إلى حسن تصرفه، ولكن الرسول لم يكد يفرح بهذا حتى دهمته الأيام بفقد أبى طالب وموت خديجة فى شهر شوال من السنة العاشرة للبعثة، ففقد بفقدهما مواسيين كريمين، ونصيرين قويين.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وكان موتهما فاتحة عهد جديد من المتاعب والصعاب، وزالت الحصانة التى كان يستمدها من منزلة أبى طالب وخديجة عند قريش، وانطلقت يد المشركين تفعل به وبأتباعه كل ما وسعه جهدهم وما وصل إليه كيدهم، وبلغت سفاهات قريش معه حداً لا يطاق؛ حتى صار ما لحقه من أذى قبل وفاة أبى طالب شيئًا لا يذكر إذا قيس إلى ما لحقه بعد وفاته، فقد روى عنه عليه السلام أنه قال: «**ما نالت منى قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب**»، ووصلت السخرية به إلى أن كانوا يرمونه بالتراب إذا مر بجماعة منهم، بل وصل الأمر إلى درجة بلغت منتهى السخف فى العقول والدناءة فى الخصومة، فقد انتهز أحدهم فرصة سجوده عليه السلام فى صلاته ثم ألقى رحم شاة ملوثة على رأسه ﷺ، وقد بكت فاطمة بكاءً شديداً من تلك الحال التى يلاقيها أبوها من قريش، فقال لها رسول الله: «**لا تبكى يا فاطمة، فإن الله مانع أباك**»، وكان عليه السلام يحمل القاذورات التى تلقى على جسده، وفى بيته ويخرج ليطرحها فى الطريق وهو يقول: «**أى جوار هذا يا بنى عبد مناف**»![1].

* فشل الدعوة فى ثقيف:

حملته هذه المعاملة الشاذة من قريش على أن يلتمس مكانا آخر يأمل أن تستجاب دعوته فيه، فاستصحب معه زيد بن حارثة مولاه واتجه إلى الطائف حيث ديار السادة من ثقيف، وهناك لم يجد أذنا تصغى لدعوته، وأخذ هؤلاء السادة يتندرون برسالته، ويتهكمون به، فمن قائل، أما وجد الله من يرسله غيرك؟ ومن قائل له: «والله لا أكلمك كلمة أبداً، لئن كنت رسولا من عند الله كما تقول، فلأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك، ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغى لى أن أكلمك»!! إلخ.

وعبثًا حاول رسول الله إقناعهم، ورضى منهم فى النهاية بأن يظلوا على عقيدتهم ولكن على أن يكتموا خبر إعراضهم عنه؛ حتى لا يشمت به قومه، فلم يلبوا ذلك أيضا وأغروا به سفهاءهم يسبونه ويصيحون به واصطفوا على جانبى الطريق الذى عاد منه وأخذوا يرشقونه بالحجارة حتى سال الدم من عقبه، فلما اشتد به الألم وأعياه التعب اتجه إلى السماء فى ضراعة المحزون، وأنين المكلوم يناجى ربه بهذه الكلمات: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين، وأنت ربى. إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى، أو إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى.. ولكن عافيتك أوسع لى، أعوذ**

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٢ صـ٦٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بنور وجهك الذى أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك، أو تحل على سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

كان موقف رسول الله يدعو للرثاء حقا عندما رجع من ثقيف، وهو يتحامل على نفسه من سوء ما قوبل به هناك، واشتد الموقف حرجا عندما علم أن قريشاً لن تمكنه من دخول مكة، وأنهم يحولون بينه وبين داره وأهله.

فما كان أثقل على رسول الله من أن يلتمس الدخول إلى بلده فى جوار! ولكنه لم يجد بداً من أن يطلب إلى المطعم بن عدى أن يجيره، ولولا هذا ما استطاع محمد عليه السلام أن يجد السبيل إلى الإقامة فى مكة.

دعوته فى القبائل:

ولقد رأى رسول الله ﷺ أن يضاعف نشاطه، ويوجه كل اهتمامه إلى دعوة القبائل التى لم تتأثر برأى قريش فى موسم الحج، فراح يطوف منازل العرب ومضارب خيامهم، فلم يجد قبولا لدى كندة، وعامر بن صعصعة، ورُد أقبح رد من بنى حنيفة، وكان أبو لهب يتعقبه أينما سار يحذر الناس منه ويقول: «يا معشر العرب.. لا تصدقوه إنه ابن أخى وإنه كذاب»! فكانت كلمات أبى لهب تقع فى نفوس العرب موقع استغراب وتنال من قلوبهم نصيبا من التصديق، ولكن صاحب الدعوة كان دؤوبا على نشرها، مُجِداً فى إبلاغها لكل نازل بمكة من حجاج البيت ومقدسيه.

وبينما هو فى تطوافه يختلس من أبى لهب غفلة عنه أو اشتغالا بغيره إذ مر بجماعة من عرب يثرب - وهم رهط من الخزرج كانوا قد أتوا إلى مكة يطلبون حلف قريش ليشعلوا حربًا على الأوس، الذين انتصروا عليهم يوم بعاث - فلما سألهم رسول الله عن شأنهم وعرف أنهم حلفاء اليهود فى يثرب عرض عليهم الإسلام فأنسوا لدعوته ولم تقع منهم موقعًا غريبًا؛ لأنهم كانوا يسمعون من اليهود كثيراً عن النبى المرتجى، وثبت لديهم أنه هو ذلك النبى الذى تحدث اليهود عنه كثيراً فآمنوا به وصدقوه.

حدث ذلك فى السنة الحادية عشرة للإسلام، فلما عادوا إلى المدينة بهذه العقيدة الجديدة صادفوا قلوبا متهيئة وصدوراً منشرحة، فانتشر الإسلام هناك انتشاراً سريعًا، وأصبح اسم النبى عليه السلام عَلَمًا بينهم يجرى ذكره على كل لسان، ودخل الناس فى دين الله أفواجا.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

العقبة

إذا كان غار حراء هو المكان الذى تجلى فيه المولى بالهداية للمتردد الحائر، وغار ثور هو المكان الثانى الذى وضحت فيه رعاية الله للطريد الهارب، فإن هناك مكانًا آخر كان ميمونًا عند المسلمين؛ حيث غرست فيه أصول العقيدة الإسلامية بعدما كادت غصونها تجف، وأصولها تنتزع من مواطنها انتزاعًا، ذلك المكان بالقرب من منى فى طريق المنحدر من عرفات إلى مكة وهو ما يعرف «بالعقبة».

عقد فى هذا المكان اجتماعان مهمان جداً فى تاريخ الإسلام، فى موسم الحج عامين متواليين، فقد فتحا باب الأمل على رسول الله – بعدما أغلق رتاجه – فبدت له – عليه السلام – طلائع الفوز من يثرب تلوح فى أفقها البعيد الذى انعقدت فى سمائه الواضحة آثار الأنفاس الحارة المتصاعدة من قلوب عمرت بالإيمان، أو اتخذت السبيل إليه، وقد عرف ما حدث فى هذا المكان من اتفاقات ومعاهدات فى التاريخ الإسلامى باسم «بيعة العقبة الأولى»، و«بيعة العقبة الثانية».

*** العقبة الأولى:**

عاد رهط الخزرج الذين آمنوا برسول الله فى مكة إلى قومهم بالمدينة وذكروا لهم خبر النبى المنتظر الذى طالما هددهم اليهود بالانضمام إليه حين ظهوره ليفتكوا بعرب المدينة فتكًا ذريعًا، ووصفوا لهم ما شاهدوه فى محمد عليه السلام من قوة حجته، وصدق دعوته؛ فاستجاب كثير من أهل المدينة إلى تلك الدعوة، وامتلأت قلوبهم شوقا إلى رؤية صاحب هذه الرسالة. فما كاد يستدير العام ويدركهم موسم الحج الثانى عشر بعد البعثة، حتى بادر اثنا عشر رجلاً من مسلمى المدينة إلى مكة فالتقوا برسول الله فى العقبة وحدثت مبايعة بينهم وبين النبى عليه السلام عرفت «ببيعة النساء»(١)، أو «بيعة العقبة الأولى»، وصف ما دار فيها عبادة بن الصامت بقوله: (كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثنى عشر رجلا، فبايعنا رسول الله ﷺ على

---

(١) عرفت بهذا الاسم لأنها كانت على الأمور التى ذكرت فى سورة الممتحنة خاصة ببيعة النساء، وهى قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بيعة النساء؛ وذلك قبل أن يفترض علينا الحرب - بايعنا على ألا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق، ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا؛ ولا نعصيه فى معروف - فقال رسول الله للمبايعين: «**فإن وفيتم فلكم الجنة، ومن غشى من ذلك شيئا كان أمره إلى الله؛ إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه**»)(١).

فلما انتهوا من أمر البيعة طلبوا إلى رسول الله أن يرسل معهم من يقرئهم القرآن ويفقههم فى دينهم، فبعث معهم (مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار) فكان لشخصية مصعب هذا، وقوة إيمانه أثر كبير فى انتشار الإسلام، وازدياد الراغبين فيه من الأوس والخزرج.

*** العقبة الثانية:**

ظهر ذلك الإقبال على الإسلام واضحًا فى موسم الحج التالى «العام الثالث عشر للبعثة»؛ حيث وفد على مكة ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان ومعهم مصعب بن عمير فى جمع من حجاج يثرب، كانوا لا يزالون على دينهم القديم، ثم أرسل المسلمون سراً إلى رسول الله - عليه السلام - يطلبون لقاءه عند العقبة فى أوسط أيام التشريق، فلما فرغ الناس من حجهم وحان الموعد المضروب خرج المسلمون من رحالهم فى ثلث الليل - بعد أن هدأ الناس فى مضاجعهم، وسكنت حركات الغدو والرواح - خرجوا يتسللون تسلل القطا، لا يكاد الرجل منهم يسمع وقع أقدامه من شدة الحذر، حتى وصلوا إلى العقبة، وهناك اكتمل جمعهم، وجلسوا ينتظرون قدوم رسول الله ﷺ فلم يطل بهم الانتظار حتى وافاهم عليه السلام ومعه عمه العباس بن عبد المطلب - وكان لا يزال على دين قومه - إلا أن حبه لابن أخيه حمله على أن يرافقه فى الحضور إلى هؤلاء القوم ليتوثق له ويشد العقد فى أعناقهم.

من أجل هذا كان العباس أول متكلم مع الأنصار فقال: (يا معشر الخزرج(٢).. إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو فى عز فى قومه، ومنعة فى بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك،

---

(١) طبقات ابن سعد جـ١ ص ٢٠٤.

(٢) سماهم العباس خزرجا مع أنهم كانوا من الأوس والخزرج، لأن عدد الأوسيين كان قليلا بالنسبة للخزرجيين.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه - بعد خروجه إليكم - فمن الآن فدعوه)، فقال أهل المدينة للعباس: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك، ولربك ما أحببت، فتلا الرسول عليه السلام بعض آيات من القرآن، ورغب فى الإسلام، ودعاهم إلى الله ثم قال: «**أبايعكم على أن تمنعونى ما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم**»، فقام البراء بن معرور - سيد القوم وكبيرهم - ومد يده إلى النبى عليه السلام وقال له: (بايعنا يا رسول الله؛ فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر)، ثم أمرهم رسول الله أن يختاروا له من بينهم اثنى عشر رجلاً يشرفون على المسلمين فى قومهم. سماهم النقباء، فلما عادوا إلى المدينة ازداد انتشار الإسلام؛ وأصبح المسلمون يتوقعون قدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة.

وأما قريش فلم يكونوا يعلمون أن تلك البيعة التى عقدت فى ذلك المكان مع رسول الله، كانت المعول الذى هدم الوثنية من أساسها، كما لم يكونوا يتوقعون أنه - منذ ذلك الحين - بدأت شمس الدعوة الإسلامية ترسل ضياءها فى الآفاق من مطلعها الجديد فى يثرب. فلم يكن عجبا ما قيل من أن الشيطان صرخ فى رأس العقبة - كما فى رواية ابن الأثير - قائلا (يا أهل الجباجب:[1] هل لكم فى مذمم والصباة معه قد اجتمعوا على حربكم، فقال الرسول صلوات الله عليه: (**أما والله لأفرغن لك أى عدو الله**)[2].

ولعل ما يقوم به الحجاج فى كل عام من رمى الجمرات فى العقبة يعتبر رمزاً لهذا المعنى السامى الذى يدل على مدى نجاح الدعوة الإسلامية بالمبايعة فى هذا المكان -رغم أنف الشيطان - فيرجمه كل حاج الآن تعبداً وإيماءً إلى هذه الذكرى ذات الأثر المجيد فى الإسلام.

وبعد: فما السر فى أخذ العهود والمواثيق على أهل يثرب بهذه الصورة مع أن المعروف عند العرب أنه إذا نزل غريب على قبيلة ما، فعليها أن تتعهد بحمايته؛ لأنه أصبح جاراً لها، وحماية الجار عند العرب سجية من سجاياهم؟

لا شك أن الرسول عليه السلام، وعمه العباس كان كل منهما يعلم أن قريشاً لن تترك محمداً آمناً هناك؛ وأن مهمة حماية صاحب الدعوة بصفة خاصة أمر شاق جداً لأن خصومة قريش ربما كانت من الأمور التى لا يقوى اليثربيون على التمادى فيها،

---

(١) الجباجب: جبال مكة أو أسواقها.

(٢) الكامل لابن الأثير جـ٢ ص٦٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فكان لابد من أخذ هذه المواثيق على الأنصار لحماية الرسول من عدوان قريش، وقد كان لهذا التخوف أساس؛ ولقريش سابقة بالعدوان عندما اقتفت أثر أتباعه الذين هاجروا إلى الحبشة والمحاولات التى قاموا بها فى سبيل ردهم أو القضاء عليهم.

*** الخطوات التاريخية بين البيعتين:**

يعتبر العام الثالث عشر من البعثة مرحلة انتقال تاريخية سريعة قفزت فيها الدعوة الإسلامية من نصيحة فردية شخصية تنظم العلاقة بين العبد وربه – وذلك بأن لا يسرق، ولا يزنى ولا يقتل أولاده، ولا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه إلى آخر ما جاء فى نصوص بيعة العقبة الأولى– إلى محالفة حربية دفاعية تشعر بأن رسول الله قد اطمأن إلى انتشار الإسلام فى يثرب، وأصبح عدد أتباعه هناك بحيث يحمله على الاعتماد عليهم فى مناوأة قريش وحماية الدعوة. فلم يكن غريبا أن يشعر المسلمون فى العقبة بأن الرسول عليه السلام قد عزم على أمر خطير حينما وضع يده فى أيديهم قائلا: (أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم).

هذه هى الانتقالات السريعة التى انتقلتها الدعوة الإسلامية فى تلك المسافة الزمنية القصيرة التى استغرقت عامًا واحدًا هو العام الثانى عشر للبعثة ،وأصبح المؤمنون بالدعوة فى المدينة – أثناء هذه الفترة القصيرة – أضعاف المؤمنين بها من أهل مكة فى الأعوام الثلاثة عشر الماضية.

وبدت فى الأفق تباشير الفوز آتية طلائعها من يثرب، وتعلقت قلوب أهل هذا البلد برسول الله. كان كل ما تصبو إليه نفوسهم أن يصبح صاحب هذه الدعوة مقيمًا بينهم يحوطونه بالرعاية، ويستمدون منه الهداية، بينما كانت قريش ومن جاورهم من العرب قد أغلقوا أبواب الأمل فى وجه رسول الله.

وضحت للنبى عليه السلام رغبات أهل المدينة فى ذهابه إليهم؛ ووجهت إليه دعوات ليقيم بينهم، ولكنه مكث مدة ينتظر أمر ربه بالهجرة إلى الموطن الجديد الذى كثر فيه أتباعه وأصبحوا فى شوق إلى رؤيته.

وهنا يجدر بنا أن نتساءل:

لماذا كانت قلوب أهل يثرب أسرع قبولاً للدعوة الإسلامية من أهل مكة؟

١– لقد كان لوجود أديان سماوية بيثرب – لها كتب منزلة من عند الله وفيها ذكر للوحى، والنبوة والوحدانية، والبعث والحساب – أثر كبير فى تقليل أهمية

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الأصنام، وقداسة الوثنية فى نظر أهلها من العرب، وهذا وإن لم يدفعهم إلى اعتناق غيرها من الأديان فإنه – من غير شك – قد خلق فى الأوس والخزرج مرونة، واستعدادا للمناقشة فى الأمور الدينية، فلما سمعوا مبادئ الإسلام اقتنعوا بها.

٢– وكثيراً ما كان يحدث خلاف بين اليهود والأوس والخزرج فيقول اليهود لخصومهم: «إن نبيًا يبعث الآن نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وثمود»، ثم ظلت هذه الأقوال عالقة فى أذهان العرب اليثربيين حتى فاتحهم الرسول عليه السلام فى موسم الحج الحادى عشر من البعثة، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: «هذا والله النبى الذى توعدكم به اليهود، فلا يسبقنكم إليه أحد» فصدّقوا وأجابوا.

٣– كما أنه كان للحروب الحاصدة بين الأوس والخزرج – وخاصة فى يوم بعاث – أثر سيئ فى نفوسهم جميعا، فحملهم ذلك على التفكير فى القضاء على تلك الفتنة بتوحيد صفوفهم، واختيار زعيم من بينهم يحتكمون إليه فيما يوجب الفرقة والحروب، ولكن من أى قبيلة يكون هذا الزعيم؟

كانت هذه هى المشكلة الكبرى، ولكن لابد لها من حل؛ فنزل الأوسيون على حكم الضرورة وقبلوا أن يكون زعيمهم من الخزرج، وفعلا أعد تاج من الخرز لعبد الله بن أبى بن سلول الخزرجى وكاد الأمر يتم له. فلما ظهر أمر رسول الله فى المدينة رأى العرب فى الخضوع لهذا النبى والانضواء تحت لوائه ما يقطع التنافس بين القبيلتين إلى الأبد؛ فسارعوا إلى الإيمان به(١).

٤– ولعل للقرابة التى كانت بين رسول الله وبنى النجار من الأثر ما حملهم على أن يؤمنوا به ويصدقوه فحمل ذلك بقية القبائل على الدخول فى الإسلام؛ خشية أن يستأثر بنو النجار وحدهم بهذا الشرف.

٥– يضاف إلى ذلك شخصية «مصعب بن عمير» وما عرف عنه من إحكام الدعوة لهذا الدين، وما امتاز به من حسن تلاوة القرآن، وجمال ترتيله؛ مما كان يفعل بالألباب ما يفعل السحر فيغمر الناس شعور من الإعجاب مبعثه الإيمان بصدق هذه الدعوة، وسلامة مبادئها.

---

(١) وهذا سر كراهية عبد الله بن أبى لرسول الله، لأنه فى نظره قد حال بينه وبين تاج الملك الذى كان أوشك أن يتوج به.

www.alukah.net

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المرحلة الثالثة

من الهجرة إلى النهاية المحتومة

* الهجرة

كانت بيعة العقبة الثانية فتحًا لباب الأمل من جديد، وإيذاناً بوشك الرحيل إلى ذلك الوطن الذى ينتظر أهله فى شوق ولهفة قدوم رسوم الله ومن معه من المضطهدين المعذبين. فاندفع المسلمون إلى يثرب يطلبون النجاة من تعذيب قريش، والأمان والحرية فى عقيدتهم، وبقى رسول الله عليه السلام – مع نفر قليل من أصحابه بين أعدائه الكثيرين الذين أقسموا على قتله – ثابت الجنان لا يخشى على حياته بقدر ما كان يخشى على حياة أصحابه، واثقاً بالله مؤمنا بمعونته.

* مؤامرة فاشلة

أحست قريش بأن جميع الجهود التى بذلوها – لينالوا من محمد وصحبه – قد ذهبت هباء، فازدادوا حنقاً عليه، ولم يجدوا سبيلاً إلى الصبر على هذا الحال – وقد خلت مكة من أتباعه، ولم يبق معه إلا قليل من المسلمين – فعقدوا اجتماعًا فى دار الندوة حضره زعماء قريش للتشاور فيما يصنعونه بصاحب الدعوة الجديدة، وتحدث بعضهم إلى بعض قائلين: «إن هذا الرجل قد كان من أمره ما كان، وما نأمنه من الوثوب علينا بمن اتبعه فأجمعوا فيه رأيًا»، فقال بعضهم: احبسوه فى الحديد، وأغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به ما أصاب الشعراء قبله؛ ولكن هذا الرأى لم يرق لدى أحدهم فقال: «ما هذا لكم برأى، لو حبستموه لخرج أمره من وراء الباب إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينزعوه من أيديكم»؛ فاقترح أحدهم أن يخرجوه وينفوه من مكة ولا يبالوا بعد ذلك أين وقع؛ ما دام قد بعد عن عيونهم.

ولكن ذوو الرأى منهم أوجسوا خيفة من عاقبة نفيه فقالوا: «ألم تروا إلى حسن حديثه، وحلاوة منطقه؟! لو فعلتم ذلك لحل على حى من أحياء العرب فيغلب عليهم بحلاوة منطقه ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم، ويأخذ أمركم من أيديكم». ثم وقع القوم فى حيرة وجدال، إلى أن اقتراح أبو جهل أخيراً أن يأخذوا من كل قبيلة فتى نسيبًا جليداً، وأن يعطوا كل فتى سيفاً بتاراً، يضربونه جميعا ضربة رجل واحد

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فيقتلونه، فإذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل كلها فلم يقدر بنو عبد مناف على حربهم مجتمعين فيرضوا فيه بالدية، و تستريح قريش من هذا الذى بدد شملها، وفرقها شيعًا. فنال منهم هذا الرأى تأييدًا بالاجماع.

وبينما كانت قريش تأتمر برسول الله، منهمكة فى وضع خطتها الإجرامية لاغتياله إذا بالوحى ينزل عليه بصورة المناقشات التى عرضها القوم فى دار الندوة، وما أعدوه له من كيد فى قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ثم أمره الله ألا ينام فى فراشه تلك الليلة، فأرسل إلى على رضى الله عنه وأسر إليه أن ينام فى مضجعه وأن يتشح ببرده الأخضر حتى الصباح، ثم يؤدى الودائع والأمانات التى كانت عند رسول الله للناس ويلحق به فى المدينة.

اجتمع فتيان قريش الذين وقع الاختيار عليهم، وحاصروا دار النبى للبطش به عند خروجه - إذ لم يكن من عادة العرب أن يقتلوا شخصًا فى عقر داره - وكانوا كلما نظروا من فروج الباب وجدوا علياً مسجى فى بردة النبى الخضراء؛ فيحسبونه محمداً؛ ويطمئنون على أن فريستهم لم تفلت من أيديهم. وفى غفلة من الحراس خرج النبى - فى رعاية الله - وهو يتلو آيات من سورة «يس»، وقبض قبضة من تراب ثم حثاها فى وجوههم وهو يقول: «**شاهت الوجوه**»، وذهب من فوره إلى دار أبى بكر الذى كان يتحرق شوقا إلى صحبة رسول الله، فأخبره بأنه قد أُذن له فى الخروج، وبكى أبو بكر من شدة الفرح عندما قبلت صبحته للنبى عليه الصلاة والسلام.

تحركت نسمات الصباح فنبهت القتلة للتأهب ليضربوا ضربتهم الأخيرة. وعندما سمعوا حركة فتح الباب المغلق انتبهوا للوثوب - وسيوفهم مشرعة فى أيديهم - ولكنهم ارتدوا وعيونهم الذاهلة قد جمدت على وجه على بن أبى طالب الواقف على عتبة الدار، وقد حمل بردة رسول الله بين يديه.

* تدبير محكم

أحاط رسول الله ﷺ نفسه بسياج من الكتمان عندما فكر فى الخروج من مكة، فلم يكن يعلم بشىء قليل من خبره، غير على - الذى عهد له بالقيام بدور مهم يضلل به القرشيين، ثم يكشف لهم عن ناحية النبل فى أخلاق محمد عليه الصلاة والسلام، حيث حرص على أن يرد الأمانات إلى أهلها، ولو كان أصحابها هم الذين

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أخرجوه من ديارهم – ثم أبى بكر الذى أعد راحلتين وانتظر أوامر النبى بالاتجاه إلى حيث يريد . فلما خرج رسول الله من داره وقصد إلى أبى بكر أعلمه بالأمر، ثم خرجا من خوخة من خلف دار أبى بكر واتجها جنوباً نحو اليمن؛ إلى غار بجبل ثور حيث لم يكن هذا الاتجاه – لمن يريد الذهاب إلى المدينة – يخطر للمشركين على بال .

وقع اختيار رسول الله ﷺ على جماعة من المخلصين الأوفياء ليستعين بهم على النجاة من المطاردين، والخروج بسلام إلى يثرب، وجعل لكل منهم عملاً محدوداً يقوم به – إحكامًا للخطة وإمعاناً فى الحرص على حياة الهاربين – فأما عبد الله بن أبى بكر فقد كُلف أن يقضى نهاره بين قريش يتسمع ما يدور فى مجالسهم، وما يبيتونه لمحمد وصاحبه، ثم يرجع إلى الغار فى المساء فيقص عليهما ما سمع . وأما أسماء بنت أبى بكر فكانت إذا دجى الليل حملت من الزاد ما يصلحهما . وأما عامر بن فهيرة – راعى غنم أبى بكر – فكان عليه أن يرعى الغنم نهاره فى الصحراء بعيداً عن الغار فإذا أمسى أراح عليهما فاحتلبا وذبحا، حتى إذا عاد عبدالله بن أبى بكر أو أسماء أخته من ناحية الغار تبعهما عامر بالغنم فعفى ما يكون لهما فى الطريق من أثر . وأما عبد الله ابن أريقط فكانت مهمته الإرشاد إلى طريق غير مطروق؛ حتى لا يكون رسول الله وصاحبه عرضة للجادين فى أثرهما، وكان ابن أريقط هذا خريتًا عالمًا بطريق الصحراء، وكان لا يزال مشركا، وإنما يؤدى هذه المهمة نظير أجر يتقاضاه من رسول الله .

ومضت ثلاثة أيام أقامها النبى وصحبه فى الغار، وقريش لم تدخر جهداً فى البحث عنهما، وفى اليوم الرابع – حين سكن الناس، وخلت الطريق من العيون والأرصاد – عهدا إلى ابن أريقط بالمسير فاختارالطريق الغربى المحاذى لساحل البحر الأحمر، إلا أنه لم يسلك جادة الطريق المألوفة؛ بل سار على هداها وأخذ يتلوى هنا وهناك – عن يمين الطريق المألوفة وعن يسارها، تفاديا من الالتقاء بالباحثين الذين أطمعتهم مكافأة قريش لمن يأتى بمحمد حيًّا أو ميتاً ، وكانت قد بلغت مائة بعير.

*** سراقة يريد الغنى**

ولكن سراقة بن مالك – من بنى مدلج – قد أغراه هذا الجُعل فتدجج، بسلاحه وامتطى جواده وانطلق يقطع البيداء – وقد أرخى لجواده العنان – عسى أن يدرك الغنى بالعثور على محمد وصاحبه . وبالرغم من أن العرب كانوا يتشاءمون من كبوة الجواد فى الطريق، ويتخذونها دليلاً على الفشل فى هذه الرحلة، فإن سراقة – تحت

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تأثير الطمع – لم يبال بكبوة جواده مراراً حتى كبا به كبوة شديدة ألقت به إلى الأرض، وقذفت بقوسه وسهمه بعيداً عنه؛ وعبثًا حاول سراقة أن يقيل عثرة جواده أو ينهضه من كبوته، لأن قوائمه فى هذه المرة كانت قد ساخت فى الرمال.

هنالك أدرك سراقة أنه معرض للخطر، إذا ما حاول مرة أخرى أن يدرك محمداً وأبا بكر – وقد كانا منه على مدى قريب – فناداهما وبذل لهما الأمان، وأخذ على نفسه أن يضلل المطاردين من قريش، ثم طلب كتابًا يكون آية بينه وبين رسول الله فألقى إليه الكتاب ثم قال له النبى عليه السلام: «**كيف بك يا سراقة إذا سُوِّرت بسوارى كسرى؟ قال: كسرى بن هرمز؟ قال: نعم**» فعاد سراقة، وأخذ نفسه بتضليل من يطاردون المهاجر العظيم بعد أن كان هو يطارده، وانطلق الرسول وصاحبه يقطعان بطون تهامة فى قيظ محرق تتلظى له رمال الصحراء، ويجتازان آكاماً ووهاداً ولا يجدان شجرة يستظلان بها، ولا بحيرة تلطف الجو، وتخفف قسوة ما يحيط بهما، وظلا كذلك سبعة أيام ينيخان فى حمارة القيظ ويسريان على سفينة الصحراء الليل كله، حتى صارا من يثرب قاب قوسين أو أدنى، فأمر الرسول بأن يكون المسير إلى قباء – قرية بنى عمرو بن عوف – فوصلها ﷺ يوم الإثنين ١٢ من ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة(١).

وأقام النبى ثلاثة أيام بقباء، أسس فيها مسجد قباء، ووثق فيها من حسن استقباله بالمدينة، ثم خرج يوم الجمعة من قباء إلى المدينة يحف به ملأ بنى النجار.

وإننا لا نتحدث عن استقبال أهل يثرب للرسول ﷺ، فقد استفاضت به الكتب فوصفت كيف كانوا فى شوق بالغ إليه، حتى إنهم كانوا يخرجون فى الهجيرة انتظاراً لمقدمه ﷺ، وتحدثت عن استقبالهم الرائع، وسرورهم العظيم.

---

(١) حقق محمود باشا الفلكى أن الوصول كان فى اليوم الثامن من ربيع الأول وهو يوافق ٢٢ من سبتمبر سنة ٦٢٢ ميلادية. ولما أراد المسلمون فى خلافة عمر بن الخطاب وضع التاريخ جعلوا مبدأه الهجرة، ولعدم المخالفة بين بدء الهجرة والسنة الهلالية قدموا ميعاد الهجرة شهرين وأياما، وجعلوا بدء الهجرة من المحرم «نور اليقين ص ٨٧».

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الرسول فى المدينة.. ونشأة الدولة الإسلامية

عندما وصل ﷺ إلى المدينة كان يسكنها عناصر كثيرة أهمها المهاجرون والأنصار، فكان على الرسول أن يكوِّن من هذه الأصناف مجتمعًا سليمًا يضع له قوانينه التى تهذب نفسه وروحه، وتنظم سلوكه ومعاملاته، واتجهت فكرة الرسول إلى غاية سامية هى حجر الزاوية فى تكوين المجتمع الإسلامى، وهى تكوين أسرة واحدة تحل محل الأوس والخزرج، ومحل بنى أمية وبنى عبد مناف، وغير ذلك من الأسر والقبائل؛ تلك هى الأسرة الإسلامية؛ أيا كانت قبائلهم، وأيا كانت ديارهم. فقام بالخطوات الآتية تحقيقا لهذه الغاية:

١- **بناء مسجد المدينة**: ولم يكن الهدف منه إيجاد مكان للعبادة فقط. فالدين الإسلامى يجعل الأرض كلها مسجدا للمسلمين، ولكن مهمة المسجد كانت أعمق من هذا.

لقد أراد الرسول أن يبنى بيتًا لله، وبيتًا لجميع المسلمين يجتمعون فيه للعبادة وللمشاورة وللقضايا وشئون التجارة، وفيه يلتفون حول الرسول يأخذون عنه مبادئ الدين ونظم المجتمع، وفى هذه المدرسة ستمتزج النفوس والعقليات وتقوى الوحدة وتتآلف القلوب بسبب المخالطة ويتفاهم بعضهم مع بعض، مما قضى على رابطة القبلية الضعيفة، وأحل محلها رابطة إسلامية عربية إنسانية واسعة، ومن هذا المكان ينبعث الأذان خمس مرات فى اليوم يعلن أن كلمة الله هى العليا.

٢- **المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار**: وكانت الخطوة التالية المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ولم تقتصر المؤاخاة على الفريقين مع بعضهما، فقد آخى بين مهاجر ومهاجر، وبين أنصارى وأنصارى، وكان قصد الرسول ﷺ من ذلك أن يقرب بين بعض قبائل المهاجرين والبعض الآخر. كما قصد أن يقرب أيضا بين الأوس والخزرج؛ إذ كانت الحروب بينهما قريبة. وليس هذا فحسب -فقد آخى بين أفراد من أعظم القبائل العربية وبين بعض الموالى والعبيد، فمثلاً آخى بين حمزة بن عبدالمطلب وزيد بن حارثة، وبين أبى الدرداء وسلمان الفارسى، وكانت نتيجة ذلك أن تكونت أسرة إسلامية واحدة من القبائل المتعددة ونسى كل واحد أرومته

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومحتده، وتطلع لرباط الإسلام الذى ألف الله به بين معتنقيه، وأصبح جمهور سكان المدينة جماعتين فقط؛ هما جماعة المسلمين؛ وجماعة غير المسلمين وأغلبهم من اليهود، فأتاح ذلك للرسول أن يخطو خطوة حاسمة يحقق بها التحالف بين سكان المدينة جميعًا، ويضرب المثل العالية للتعاون بين أتباع الأديان المختلفة على أساس من حرية العقيدة وحرية الدين وهى:

٣- **المعاهدة بين المسلمين واليهود**: فقد عقد الرسول معاهدة مع اليهود ليحقق الأغراض المتقدمة وليحقق فى منطقة المدينة الأمن والاستقرار، والدفاع عنها ضد أى اعتداء قد يقع عليها، والتعاون بالمال إذا حدثت أزمة اقتصادية(١).

٤- **أسس النظام الاقتصادى للإسلام**: وضع الرسول أسسًا للنظام الاقتصادى، ترمى لتحقيق العدالة الاجتماعية بين أفراد المجتمع، لأن المجتمع لا يكون سليما إذا استبد به الأغنياء، فقرب بين الغنى والفقير، وجعل للفقير حقًا فى مال الغنى، وجعل للصالح العام للدولة حقًا فى أموال الأغنياء، وغير ذلك من التشريعات التى حققت التعاون بين المسلمين، ووضعت المبادئ الإسلامية العادلة موضعًا لا جدال فيه؛ لا إفراط ولا تفريط، لا رأسمالية ولا شيوعية.

ومن ذلك نرى أن الرسول ﷺ وضع نواة الدولة الإسلامية على أسس من الإيمان والإخاء والحب، ووضع الدستور الإسلامى للأجيال التالية، ولما سار عليه المسلمون فى العصر الأول كتب الله لهم النصر على أعظم أمم هذا العصر، وبلغوا السماكين، وعندما تركوه مُزقوا شر ممزق وأكلهم الاستعمار، ولكن قد بدأ البعث الجديد، وتجددت الآمال لربط حاضرنا بماضينا، وإن غداً لناظره قريب.

---

(١) من أراد الاطلاع على نص المعاهدة فليرجع إلى الجزء الأول ص ١٤٩، ١٥٠ من (تاريخ الأمم الإسلامية) للمرحوم محمد الخضرى.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الجهاد ومشروعية القتال

عرفنا أن الرسول ﷺ أقام حكومة بالمدينة، وكان أساسها الوحي والشورى والمؤاخاة فى العقيدة، والفكر، والمبدأ والغاية. وأعلن أن المدينة محرمة مثل مكة لا يصاد صيدها، ولا تنتهك حرمتها، فسكن المسلمون إلى دينهم وجعلوا يقيمون فرائضه مجتمعين، ويقيمونها فرادى لا يخافون أذى، ولا يخشون فتنة. وانفسح المجال أمام الرسول الكريم ليعلن تعاليمه، وليكون بذاته وبتصرفاته المثل الأسمى لهذه التعاليم، وليضع بذلك حجر الأساس للحضارة الإسلامية.

تركت تعاليم الرسول، وتركت قدوته الحسنة أعمق الأثر فى النفوس، فأقبل كثيرون على الإسلام وازداد المسلمون فى المدينة شوكة وقوة. فبدأ اليهود يفكرون من جديد فى موقفهم من محمد وأصحابه، لقد عقدوا معه عهداً، وكانوا يطمعون أن يضموه إلى صفوفهم، وأن يزدادوا به على النصارى منعة وقوة؛ لأنه كان أقوى من هؤلاء وأولئك جميعا، وتزداد مبادئه ثباتًا، وهو فى الوقت نفسه يفكر فى أمر قريش وإخراجها إياه وإخراجها المهاجرين من مكة والاستيلاء على أموالهم.

فهل يتركون دعوته تنتشر، مكتفين بالأمن فى جواره؛ أمنًا يزيد تجارتهم سعة وثروتهم ربحًا؟؟ لعلهم كانوا يقنعون بهذا لو أنهم آمنوا ألا تمتد دعوته إلى اليهود، وأن لا تفشو فى عامتهم؛ على حين تقتضيهم تعاليمهم ألا يعترفوا بنبى من غير بنى إسرائيل.

فزاد حقدهم على محمد، وبلغ غيظهم مداه حين فوجئوا بإسلام حبر من كبار أحبارهم هو عبدالله بن سلام، فبدأت حرب جدل بين النبى واليهود أشد لدداً وأكبر مكراً من حرب الجدل بينه وبين قريش فى مكة، واستعملوا الدسيسة والنفاق والعلم بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين، أسلحة يقاومون بها انتشار الدعوة المحمدية؛ ولو أدى ذلك إلى إنكار ما فى التوراة، كما استعملوا سلاح الوقيعة بين الأوس والخزرج[١].

---

(١) راجعوا ابن الأثير جـ٢ ص٧٧، ٧٨ وحياة محمد لهيكل من ٢٢٦ – ٢٣٢ ومرآة الإسلام للدكتور طه حسين ص٦٥.

www.alukah.net

ولما لم تفُد هذه الأسلحة فكروا فى أن يمكروا به وأن يقنعوه بالجلاء عن المدينة كما أجلاه أذى قريش عن مكة، فذكروا له أن من سبقه من الرسل ذهبوا جميعا إلى بيت المقدس وكان به مقامهم، وأنه إن يكن رسولا حقًا فجدير به أن يصنع صنيعهم، ولكن الله سبحانه وتعالى أخبره بهذا المكر فأوحى إليه أن يجعل قبلته إلى البيت الحرام فولى وجهه شطر المسجد الحرام، وأنكر اليهود على النبى ما فعل، وأنهم يتبعونه إذا رجع إلى قبلتهم، فنزل قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

[البقرة:١٤٢](١).

وإزاء كل هذا كان على محمد وأصحابه أن يناضلوا عن وجودهم، وأن يعملوا ما يستطيعون لإيجاد حالة من السلم الدائم تهيئ الجو لتأسيس مجتمع فاضل يعيش فى ظله الناس متحابين فى أمن وسلام، وذلك لا يكون إلا بنشر دعوة الإسلام، دعوة الإصلاح والسلام والحضارة التى وضع الرسول حجر الأساس فيها بتعاليمه ومثله.

ولكن كيف يكون ذلك، ومشركو العرب لا يزالون سادرين فى غيهم واضطهادهم للمسلمين؟ واليهود يتحينون الفرص للقضاء على الإسلام؟

وكان شأن المخالفين للرسل الذين سبقوه المحق والإبادة، ففريق يغرقهم فى اليم، وفريق آخر يدمرهم بريح صرصر عاتية، وفريق ثالث يرسل عليهم صيحة واحدة فتجعلهم كالهشيم المحتظر لا تبقى ولا تذر كالقنابل الذرية الفاتكة. ومحمد يشفق عليهم من كل هذا، فكان موقفه معهم كموقف الطبيب الألمعى مع المريض؛ يجرب كل دواء، ولا يلجأ إلى المبضع إلا إذا فشل الدواء وتعين السلاح. فقد بشر وأنذر ولاقى من الأذى ما لاقى وأخرجوه من داره بعد أن ائتمروا على قتله، وأخرجوا أصحابه من ديارهم بغير حق سوى قولهم ربنا الله. فبعد الهجرة أذن الله للمهاجرين بقتال مشركى قريش بقوله فى سورة الحج ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ وهى أول ما أنزل فى أمر القتال. وبعد أن جاء الإذن بالقتال نبه النبى إلى أن قتاله إنما هو للدفاع فقط ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾.

---

(١) اقرؤا الآيات ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤ من سورة البقرة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وبذلك لم يكن الرسول يتعرض إلا لقريش دون سائر العرب: فلما تمالأ على المسلمين غير أهل مكة من مشركى العرب واتحدوا عليهم مع الأعداء أمر الله بقتال المشركين كافة، بقوله فى سورة التوبة: ﴿ **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً** ﴾. وبذلك صار الجهاد عامًا لكل من ليس له كتاب من الوثنيين. وهذا مصداق قوله عليه السلام: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**».

ولما وجد المسلمون من اليهود خيانة للعهود - حيث إنهم ساعدوا المشركين فى حروبهم - أمر الله بقتالهم بقوله فى سورة الأنفال ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ** ﴾، وقتالهم واجب حتى يدينوا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ليأمن المسلمون جانبهم(١).

وإن الناظر لآيات القتال بصفة عامة يرى أن الحرب لم تفرض إلا لسببين اثنين: الدفاع عن النفس، وتأمين الدعوة واستقرار الدولة؛ ويرى أيضا أنها نزلت إما فى قتال المشركين الذين كانوا يقاتلون المسلمين بالفعل، وكان المسلمون هم المعتدى عليهم فيها، ومثال ذلك آية آل عمران: ﴿ **وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾، فإنها نزلت فى أُحد، وإما فيمن يثور على الدولة وهو يعيش بداخلها ويحدث فتنة، فيعتدى على حرية غيره فى دينه وعقيدته، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ** ﴾، ومثلها آية الأنفال ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ** ﴾.

وإما فى ناكثى العهد من المشركين، ولا شك أن من لا عهد له لا يمكن أن يُتّقى شره بالحلف والمسالمة. اقرؤا قوله تعالى فى سورة التوبة ﴿ **وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢) أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ** ﴾.

وإما فى اليهود الذين مالأوا قريشا والمنافقين على المسلمين فى غزوة الأحزاب، وكان بينهم وبين النبى عهود مكتوبة فنقضوها. قال تعالى ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ**

---

(١) راجع نور اليقين من ١٠٢ - ١٠٤.

www.alukah.net

بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾(١) [التوبة: ٢٩].

* * *

من هذا العرض السريع يتبين لنا أن محمداً لم يكن محبًا للقتال ولا راغبًا فيه، وإنما اضطر إليه - بعد أن فقد كل الوسائل للتفاهم مع أعدائه - للدفاع عن النفس والعقيدة، وعن حرية الرأى والدعوة إليه. وكان قتاله فى أضيق نطاق وأدقه، مع مراعاة الحرمات الإنسانية تمام الرعاية. وسنرى ذلك واضحًا فيما قام به الرسول من سرايا وغزوات(٢).

---

(١) راجعوا فى هذا تاريخ الأمم الإسلامية للمرحوم الخضرى ج١ من ١٤١ - ١٤٦، والسيرة النبوية للدكتور محمد مصطفى النجار من ٥٧ - ٥٩.

(٢) السرايا جمع سرية، وهى القطعة من الجيش، وتطلق على الجماعة الصغيرة التى يكون على رأسها أحد قادة الرسول، والغزوات هى التى يخرج فيها الرسول بنفسه على رأس الجيش سواء حارب أم لم يحارب.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

السرايا والغزوات

كان من الوسائل التى لجأ إليها الرسول ﷺ لتجنب قتال القرشيين القيام بإرسال جماعات صغيرة « سرايا » تهدد طريق تجارتهم التى يحرصون على سلامتها كل الحرص، وتشعرهم بقوة المسلمين، علهم يثوبون إلى رشدهم فيحاولون التفاهم مع الرسول وأصحابه، تفاهمًا يؤدى إلى حرية الدعوة، وحرية الدخول إلى مكة لأداء فرائض الحج.

وكانت أول سرية فى شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة بقيادة حمزة بن عبدالمطلب لتعترض عيراً لقريش آتية من الشام فيها أبو جهل بن هشام، فسارت حتى وصلت إلى ساحل البحر من ناحية العيص – ناحية من نواحي المدينة – فصادفت العير هناك ولم تقاتل لأن مجدى بن عمرو الجهنى حجز بين الفريقين(١).

وكانت السرية الثانية فى شوال من نفس السنة بقيادة عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب، فى ثمانين من المهاجرين، فالتقى بأبى سفيان فى مائتى رجل من قريش، وترامى الفريقان بالسهام. وكان سعد بن أبى وقاص أول من رمى بسهم فى الإسلام، فسيره رسول الله بعد ذلك على رأس سرية، فبلغ الأبواء – قرية بين مكة والمدينة – فلم يلق حربًا.

*** غزوة ودان(٢)**

رأى الرسول أن قريشًا لم ترجع عن غيها ولم تحاول التفاهم مع المسلمين، فخرج بنفسه فى ١٢ من ربيع الأول من السنة الثانية، لاعتراض عير لقريش، والتحالف مع بنى ضمرة المقيمة على طريق التجارة، فسار حتى بلغ ودان. فلم يلق حرباً، لأن العير كانت قد سبقته، وتم الاتفاق بين النبى وبنى ضمرة على أنهم آمنون على أنفسهم ولهم النصر على من قصدهم، وأن عليهم نصرة المسلمين إذا دعوا.

---

(١) كان عدد المسلمين فى هذه السرية ٣٠ وعدد قريش ٣٠٠.

(٢) ودان قرية بين مكة والمدينة، بينها وبين الأبواء ستة أميال.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

* غزوة بواط(١)

ولم يمض على رجوع الرسول غير شهر حتى بلغه أن عيراً لقريش آتيه من الشام فيها أمية بن خلف فى مائة رجل ومعهم ألفان وخمسمائة بعير، فسار إليها فى مائتين من المهاجرين، وما زال سائراً حتى بلغ بواط فوجد العير قد فاتته فرجع ولم يلق كيداً.

* غزوة العشيرة(٢)

وفى جمادى الأولى من نفس السنة خرج النبى يريد قريشاً حين ساروا إلى الشام بقيادة أبى سفيان. فلما وصل إلى العشيرة حالف بنى مدلج وحلفاءهم، ووجد العير قد مضت فرجع عليه السلام إلى المدينة ينتظر رجوع العير(٣).

* غزوة سفوان أو بدر الأولى

وبعد رجوع الرسول ﷺ من العشيرة بقليل، جاء كرز ابن جابر الفهرى، وأغار على سرح المدينة فخرج فى طلبه حتى بلغ وادياً يقال له سفوان من ناحية بدر فلم يدركه فعاد إلى المدينة، وتسمى هذه الغزوة بدر الأولى(٤).

* سرية عبدالله بن جحش

وفى رجب من نفس السنة بعث رسول الله ﷺ عبدالله بن جحش فى عدد قليل من المهاجرين قيل ثمانية وقيل اثنا عشر ودفع إليه كتاباً وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيرة، فيمضى لما أمره، ولا يستكره من أصحابه أحداً، فسار وبعد يومين فتح الكتاب فإذا فيه: فإذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة «بين مكة والطائف» فترصد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم. وعلم أصحابه بالأمر وبأنه لا يستكره أحداً منهم فمضوا معه جميعاً خلا سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان اللذين ذهبا يطلبان بعيراً لهما ضل، فأسرتهما قريش. وسار عبدالله ومن معه حتى نزلوا نخلة، وهناك مرت بهم عير لقريش تحمل تجارة عليها عمرو بن الحضرمى وكان

(١) جبل من جبال جهينة جهة ينبع.

(٢) قرية قرب جبل رضوى.

(٣) وفى أثناء مقامه بالعشيرة بعث سعد بن أبى وقاص فى عدد قليل من المهاجرين جهة مكة، فسار حتى بلغ الخرار – وادٍ بالقرب من مكة، ويقرب من قديد – ثم رجع ولم يلق كيداً، ولعل الرسول يريد بذلك بيان قوة المسلمين، واستطلاع أخبار مكة.

(٤) راجعوا فى هذا الموضوع: الكامل لابن الأثير ج٢ من ٧٧ – ٧٩، وتاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ج١ من ١٥١ – ١٥٣ ونور اليقين ١٠٦ و١٠٨ و١٠٩ وحياة محمد من ٢٣٦ – ٢٤١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

نزلوا نخلة، وهناك مرت بهم عير لقريش تحمل تجارة عليها عمرو بن الحضرمى وكان يومئذ آخر شهر رجب، وذكر عبدالله بن جحش ومن معه من المهاجرين ما صنعت قريش بهم، وما حجزت من أموالهم وتشاوروا، وقال بعضهم لبعض: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام وترددوا وهابوا الإقدام، ثم شجعوا أنفسهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم، ورمى أحدهم عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله وأسر المسلمون رجلين من قريش، هما عثمان بن عبدالله بن المغيرة والحكم بن كيسان.

وقال عبد الله بن جحش: إن لرسول الله ﷺ خمس ما غنمتم وذلك قبل أن يفرض الخمس، وكانت أول غنيمة غنمها المسلمون، وأول خمس فى الإسلام(١)، وأقبل عبدالله بن جحش بالغنيمة والأسيرين حتى قدموا المدينة على رسول الله، فلما رآهم الرسول قال لهم: ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام، ووقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئًا، وأُسقط فى يد عبدالله وأصحابه وعنفهم إخوانهم من المسلمين، وانتهزت قريش الفرصة فأثارت ثائرة الدعاية، ونادت فى كل مكان: إن محمداً وأصحابه استحلوا الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا الرجال، وأجاب المسلمون الذين كانوا بمكة أن إخوانهم فى الدين من المهاجرين إلى المدينة إنما أصابوا ما أصابوا فى شعبان(٢)، ودخل اليهود فى الموضوع يريدون إشعال الفتنة والحرب.

وإذ ذاك نزل قوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا**﴾ [البقرة: ٢١٧] وسُرِّى عن المسلمين بنزول القرآن بهذا الأمر، وقبض النبى العير والأسيرين فافتدتهما منه قريش فقال: لانفديكموهما حتى يقدم صاحبانا - يعنى سعد بن أبى وقاص، وعتبة بن غزوان - فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم، وقدم سعد وعتبة، فقبل النبى الفدية فى الأسيرين. فأما الحكم فأسلم وأقام بالمدينة مع رسول الله حتى قتل يوم بئر معونة، وأما عثمان فرجع إلى مكة، وظل بها حتى مات على دينه، و دين آبائه.

---

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ٧٩.

(٢) وفى رواية أن القتل كان فى آخر يوم من جمادى الآخرة وأول ليلة من رجب.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

* وقفة مع السرية وما ترتب عليها

لا شك أن سرية عبدالله بن جحش، وما نزل فيها من آيات بينات هى كما يقول المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل(١)، مفترق طرق فى سياسة الإسلام، وهى حادث جديد فى نوعه، يدل على روح قوى فى سموه، إنسانى فى قوته ينتظم نواحى الحياة الروحية والمادية كأشد ما يكون النظام قوة ورفعة وتوجهًا إلى الكمال، فالقرآن يجيب المشركين عن القتال فى الشهر الحرام، وإن كان من الكبائر، ويقرهم كذلك على أنه أمر كبير ولكن هناك ما هو أكبر من هذا الأمر وأشنع؛ وهو الصد عن سبيل الله، والكفر به، وبالمسجد الحرام، وإخراج أهله منه. وفتنة الناس عن دينهم، أكبر من القتل فى الشهر الحرام، وفى غير الشهر الحرام، ثم هم مقيمون على أشد من ذلك وأعظم؛ فإنهم لا يزالون يقاتلون المسلمين حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا.

وفى هذا قطع لاعتراضاتهم لأن المتلبس بكثير من الشرور ليس له أن يكثر الكلام فى زلة قد أرتكب ما هو أشنع منها. وبذلك قطعت الألسنة، وأيقن الرسول أنه لم يبق أمل فى التفاهم مع قريش، وأن اليهود لايُرجى منهم إجابة الدعوة، وليس هذا فحسب بل إنهم لا عهد لهم ولا زمام، يريدون إشعال النار.

* أحداث ما بعد السرية

وفى هذا الوقت أمر الله، النبى أن يستقبل الكعبة فى الصلاة، وكان ذلك فى منتصف شعبان من السنة الثانية، بعد أن ظل يصلى إلى بيت المقدس ثمانية عشر أو ستة عشر شهراً، وكان يحب أن تكون قبلته الكعبة ويقلب وجهه فى السماء داعياً الله بذلك، وقد أكثر اليهود من التنديد على الإسلام لهذا التحويل، وما دروا أن لله المشرق والمغرب(٢).

وفى نفس الشهر السابق من نفس السنة أوجب الله صوم شهر رمضان على الأمة الإسلامية، وكان عليه السلام يصوم قبل ذلك ثلاثة أيام من كل شهر. ولما قدم المدينة ورأى اليهود تصوم يوم عاشوراء صامه، وأمر بصيامه، وحين فرض صوم رمضان لم يأمر

---

(١) حياة محمد ص ٢٤٥.

(٢) تحدثت عن بعض ما جرى من اليهود فى هذا الصدد بمناسبة محاولتهم إجلاء الرسول عن المدينة فى ص ٤٨ و٤٩ من الكتاب.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المسلمين بصوم عاشوراء ولم ينههم. ولما كان من حكم الصوم إدراك حاجة الفقراء والمساكين، والعطف عليهم أمر الرسول بإخراج زكاة الفطر يوم العيد أو قبله كما هو مذكور فى كتب الفقه، وخرج الرسول إلى المصلى لأول مرة، وصلى بالمسلمين صلاة العيد، وحملت بين يديه العنزة(١).

ولم يقف الأمر عند زكاة الفطر؛ بل فرض الله زكاة الأموال؛ فأوجب فى أموال الأغنياء حقًا معلومًا للفقراء والمساكين، وبقية المذكورين فى آية الصدقة ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ** ﴾ [التوبة: ٦٠](٢). وإنى أترك للقارئ الكريم مغزى كل هذه التشريعات، وما تحمله من معان كبيرة لأنتقل إلى حدث كبير ترك نتائج بعيدة المدى، وهو غزوة بدر الكبرى.

---

(١) هى عصا فى رأسها سنان قدر نصف الرمح توضع أمام المصلى فى الصحراء لئلا يمر أحد بين يديه.

(٢) ابن الأثير ج ٢ ص ٨٠، ونور اليقين من ١١١ - ١١٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

غزوة بدر الكبرى

أسلفنا أن الرسول ﷺ خرج إلى العشيرة لملاقاة أعظم عير لقريش، ولكن العير مضت إلى الشام ورجع الرسول إلى المدينة ينتظر رجوعها، وفى أثناء الانتظار حدثت سرية عبدالله بن جحش، وكانت هذه السرية مفترق طرق فى سياسة المسلمين إزاء القرشيين، ونزل الوحى تبيانًا لكل شيء وهدى ورحمة للمؤمنين، فاستراحت نفوسهم، وأيقنوا أنه لا يرجى الاتفاق معهم.

وفى هذا الوقت ترامت أخبار رجوع العير من الشام فندب الرسول المسلمين لملاقاتها وقال: هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها فخف بعضهم، وثقل آخرون. لأنهم لم يكونوا يظنون أن الرسول يلقى حربًا، فإنه لم يحتفل بها بل قال: من كان ظهره حاضرا فليركب معنا: فخرج معه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين، و٦١ من الأوس و١٠٩ من الخزرج(١)، ولم يكن برفقتهم سوى فرسين، وسبعين بعيراً صاروا يتعاقبون ركوبها كل اثنين، وكل ثلاثة، وكل أربعة، وكان حظ محمد النبى والقائد فى هذا كحظ سائر أصحابه فكان هو وعلى بن أبى طالب ومرثد الغنوى يتعاقبون بعيراً واحداً.

وهنا يجدر بنا أن نقف وقفة إعجاب وتقدير لهذا الموقف الكريم من النبى العظيم، فهو يشارك أصحابه فى الشدة والرخاء، ويكره أن يتميز عليهم حتى فى الشيء اليسير فلا يريد أن يختص وحده ببعير.

وكان الخروج من المدينة يوم الاثنين لثمانٍ خلون من رمضان أو ٩ منه - حسب تقويم محمد مختار باشا المصرى الموافق ٥ من مارس سنة ٦٢٤م. ووصل نبأ خروج الرسول إلى أبى سفيان؛ فبعث رسولاً يستنفر، ويستنهض القرشيين، فسارعوا إلى نجدة القافلة، وكانوا بين رجلين: إما خارج، وإما باعث مكانه رجلا، لأن معظمهم كان له فيها نصيب، وكانت قيمتها نحو خمسين ألف دينار، وفى أثناء الطريق علموا

---

(١) وقيل ٣١٤ وقيل ٣١٨ وقيل بضعة عشر، وقيل ٣٠٥ «راجع ابن الأثير ج ٢ ص ٨٢، وحياة محمد ٢٥٢ و٢٥٣».

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بنجاة القافلة، لأن أبا سفيان حينما علم بخروج المسلمين له ترك الطريق المسلوكة، وسار متبعًا ساحل البحر فنجا، وأرسل إلى قومه يخبرهم بذلك ويشير عليهم بالرجوع، فقال أبو جهل: لا نرجع حتى نحضر بدرًا فنقيم فيه ثلاثًا، ننحر الجزور ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدا.

وعلى الرغم من قول أبى جهل؛ فقد رجع بنو زهرة وبنو عدى. وود كثير من القرشيين الرجوع لولا خوفهم من سلاطة لسان أبى جهل، وسار الباقون، وكانت عدتهم ما بين التسعمائة والألف؛ معهم مائة فرس، وسبعمائة بعير، ونزلوا بالعدوة القصوى(١) من المدينة خلف كثيب يحتمون به.

فى الطريق إلى المعركة: علم الرسول وهو بوادى ذفران أن قريشًا خرجت لتمنع عيرها، وأن القافلة قد نجت، وأن القرشيين يتحدون المسلمين.

وإذن فالموقف خطير؛ لأن المعركة لم تصبح ضد قافلة تجارية مكونة من أربعين رجلاً تصحبهم أحمال ثقيلة معوِّقة، بل ضد جيش قوى يتفوق عليهم فى العدد والأهبة، ومواجهة هذا الجيش قد تؤدى إلى هزيمة ربما دفعت القرشيين إلى مطاردتهم إلى المدينة نفسها. ومن المتوقع فى هذه الحالة أن يعلن اليهود - الذين لا يؤمن غدرهم، ثورة داخلية فى المدينة؛ وفى ذلك خطر كبير على المسلمين. فهل يترك النبى مواجهة القرشيين ويعود إلى المدينة من حيث أتى؟ إن هذا أيضًا خطير؛ لأنه يؤدى إلى طمع قريش، وطمع اليهود فيه، وفى أصحابه، واضطرارهم إلى احتمال أذى يهود المدينة مثلما احتملوا من أذى قريش بمكة، وهيهات - إن وقف الرسول هذا الموقف - أن تعلو كلمة الحق، وإذن فلابد من حرب قريش، ولكنه علم أن بعض المسلمين كان يريد العير لا النفير، وقالوا: هلا ذكرت لنا القتال فنستعد؟ ومصداق ذلك قوله تعالى: **﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾** [الأنفال: ٧].

وفى هذا الموقف العصيب برهن الرسول على قيادته الرشيدة، فجمع جيشه من المهاجرين والأنصار وشرح لهم الموقف من جميع الوجود، وطلب رأيهم فتكلم أبو بكر

---

(١) عدوة الوادى شاطئه، والقصوى البعيدة.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وعمر بالتقدم للحرب، وأيدهما المقداد بن عمرو، وقال: امض بنا لما أمرك الله. والله لا نقول لك كما قال بنوا إسرائيل لموسى ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ «ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد(١) لجالدنا معك حتى تبلغه» فقال الرسول : خيراً.

ثم قال: أشيروا على أيها الناس – وإنما كان يريد الأنصار لأن العدد فيهم، ولم تكن بيعتهم إلا على أنهم ينصرونه ما دام فى ديارهم فكأنه كان يتخوف أنهم لا يرون نصرته إلا على من دهمه بالمدينة، وليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج ديارهم – فنهض سعد بن معاذ صاحب رايتهم، وقال يا رسول الله: كأنك تريدنا؟ قال: أجل. فقال سعد: قد آمنا بك وصدقناك، وأعطيناك عهودنا، فامض يا رسول الله لما أُمرت فنحن معك. فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر – وأشار إلى البحر الأحمر – فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، إنا لصُبر فى الحرب، صُدق عند اللقاء، فسر بنا على بركة الله.

ولم يكد سعد يتم كلامه حتى أشرق وجه النبى بشراً، وقال: «**سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين (العير أو النفير)(٢)، وقد أفلتت العير، والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم**». ثم أمر عليه الصلاة والسلام بالارتحال. فلما صاروا على مقربة من بدر. بدأ النبى يجمع معلومات عن قوة العدو وعدده وقواده، فعرف أن العدو ما بين التسعمائة والألف، وأن أشراف قريش جميعًا خرجوا لمنع العير.

فقال لقومه: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها(٣)، ثم سار بجيش المسلمين حتى نزل أدنى ماء من بدر، فقال له الحباب بن المنذر – وكان خبيراً بهذا المكان –: يا رسول الله. أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم أو نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ فقال الرسول: بل هو الرأى والحرب والمكيدة. فقال يارسول الله، ليس هذا بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتى على أدنى ماء من القوم فإنى أعرف غزارة مائه وكثرته، فننزله ونغور ما عداه من الآبار ثم نبنى عليه حوضًا فنملؤه فنشرب ولا

---

(١) موضع فى أقصى أراضى هجر.

(٢) العير التى كان يقودها أبو سفيان، والنفير الذين خرجوا من مكة لإنقاذ العير.

(٣) قطع كبدها.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

يشربون: فقال الرسول: لقد أشرت بالرأى. ثم نهض حتى أتى أقرب ماء من القوم إلى الشرق من جيش المشركين فى العدوة الدنيا.

ثم أمر بالآبار التى خلفهم فغورت؛ ليقطع أمل المشركين فى الشرب من وراء المسلمين، وبنى حوضًا على القليب الذى نزل عليه(١)، وكان ما قام به الرسول عملاً جليلاً؛ لأن مصير المعارك الحربية – مهما اختلفت نظمها، وأساليبها وأسلحتها – يتوقف إلى حد كبير على المكان الذى يتخيره الجيش لنزوله؛ لأن استراتيجية المكان لها أثر كبير فى الانتصار، كما أن معرفة جيش العدو وعدده يدفع إلى الاحتراس، وتوطين النفوس على الشدة، وكذلك معرفة القواد توضح ما يسمى فى العصر الحديث (تكتيك المعركة)؛ لأن لكل قائد تجارب خاصة، ومواهب يعرف بها، وتصبح علمًا عليه، وتوضح أيضًا مدى ما يحيق بالعدو من خسائر لو فقد هؤلاء القواد.

ومن ذلك يتبين أن الرسول كان قائدًا حربيًا عظيمًا، ولم يكن – مع امتاز به من أصالة الرأى، وحسن التدبير – مستبدًا برأيه، بل كان يشاور أصحابه كى يتلمس وجه الخير والرشاد، ويحترم الرأى الصائب ولو تعارض مع رأيه. فهل لا يكون ذلك عبرة وتبصرة للرؤساء الذين يستبدون برأيهم فينزلقون إلى الشر، ويجرون وراءهم الشعوب إلى مهاوى الفناء؟!

أولئك هم تجار الحرب وغواة الشهرة، أمثال هتلر وتشرشل وترومان وإيدن وموليه وتشومبى، وغيرهم. فهل للغرب، وكل من يجر الشعوب إلى الحروب، أن ينتفع بهذه الدروس العظيمة من معلم البشرية جمعاء؟ لو عرفوها، وعقلوها لتغير وجه التاريخ فى كثير من الأزمنة والعصور، ولعاش العالم فى أمن وسلام.

ولما بنى المسلمون الحوض أشار سعد بن معاذ بمشورة أخرى فقال: يانبى الله، نبنى لك عريشًا(٢) تكون فيه ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا؛ فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن بأشد لك حبًا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم، يناصحونك، ويجاهدون معك. فأثنى الرسول عليه ودعا له بخير، وبُنى العريش للنبى فوق تل مشرف على ميدان الحرب.

---

(١) القليب: البئر، والتغوير للبئر كبسها بالتراب حتى ينضب ماؤها.

(٢) العريش. شبه الخيمة يستظل بها، وكان من جريد النخل.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

متى وكيف دارت المعركة؟

دارت معركة بدر[1] فى صبيحة يوم الجمعة ١٧ من رمضان من السنة الثانية للهجرة[2] الموافق ١٦ من مارس سنة ٦٢٤، وفى بدايتها عدل الرسول ﷺ صفوف المسلمين فجعل مناكبهم متلاصقة فصاروا كأنهم بنيان مرصوص.

ثم نظر إلى قريش فقال: اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى به[3]، ثم نظر إلى أصحابه وأخذ يحثهم على الثبات.

وفى الوقت الذى كان المسلمون جبهة قوية متماسكة يعمر الإيمان قلوبهم كان المشركون مختلفين؛ فإن عتبة بن ربيعة أراد أن يمنع الناس من الحرب، ويحمل دم حليفه عمرو بن الحضرى الذى قتل فى سرية عبد الله بن جحش، ويحمل ما أصيب من عيره ودعا الناس إلى ذلك.

فلما بلغ الخبر أبا جهل، وسم عتبة بالجبن، وقال: والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وبعث إلى عامر الحضرمى، وقال له: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك فقم فانشد مقتل أخيك. وقام عامر فصرخ: واعمراه... فلم يبق بعد ذلك من الحرب مفر، وأعجل القتال أن اندفع الأسود بن عبد الأسد المخزومى من بين صفوف المشركين إلى صفوف المسلمين يريد أن يهدم الحوض الذى بناه المسلمون، فعاجله حمزة بن عبد المطلب بضربة أطاحت بساقه فسقط إلى ظهره تشخب رجله دمًا، ثم أتبعها حمزة بضربة أخرى قضت عليه دون الحوض، وما إن سقط الأسود حتى خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد، ودعا إلى المبارزة كعادة العرب، وخرج إليهم ثلاثة من الأنصار فقالوا لا حاجة لنا بكم، إنما نريد أكفاءنا

---

(١) بدر سهل رملى يحده من الشمال والشرق تلال شديدة الانحدار، ومن الغرب كثبان رملية ومن الجنوب متحدر صخرى منخفض، وينساب فى الوادى جدول من الماء، وينقطع هذا الجدول فيصبح آباراً وقد أحاطها المسلمون بسدود فصارت أحواضاً، وهى على مسافة ١٤٦ك. م من المدينة.

(٢) ويروى يوم الثلاثاء، ١٣ من مارس، كما يروى أنه كان يوافق يوليو حيث يشتد الحر كثيراً بالحجاز (راجع فى هذا الخلاف الخضرى ج ١ ص ١٥٧، وحياة محمد ٢٥٨، والدكتور النجار ٦٦).

(٣) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧١، ١٧٢].

شبكة الألوكة - قسم الكتب

من بني عمنا، فأخرج لهم عليه السلام عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وحمزة، وعلى بن أبى طالب، فلم يمهل حمزة شيبة ولا أهمل علىٌّ الوليد، فقد قتلاهما.

وأما عبيدة وعتبة فقد جرح كل منهما صاحبه، فحمل حمزة وعلىٌّ على عتبة فأجهزا عليه، وحُمل عبيدة من الصفوف جريحًا يسيل مخ ساقه، وأضجعوه إلى جانب موقف الرسول، فأفرشه رسول الله قدمه الشريفة فوضع خده عليها، وبشره عليه السلام بالشهادة، فقال: وددت والله أن أبا طالب كان حيًا ليعلم أننا أحق منه بقوله:

ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

ثم مات، فالتقى الجمعان ودنا القوم بعضهم من بعض وأبو جهل يقول: اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لم نعرف فأحنه[1] الغداة. فكان هو المستفتح على نفسه[2].

وقام الرسول على رأس المسلمين يعدل صفوفهم ويوجه إليهم نصائحه الغالية، ولما رأى كثرة المشركين، وقلة رجاله، وضعف عدتهم إلى جانب عدة قريش عاد إلى العريش ومعه أبو بكر، وهو أشد ما يكون خوفًا من مصير ذلك اليوم، وأشد ما يكون إشفاقًا مما يصير إليه أمر الإسلام؛ إذا لم يتم للمسلمين النصر.

فاستقبل القبلة وجعل ينشد ربه ما وعده به، وكان من دعائه كما جاء فى صحيح البخارى: «**اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد**». ومن دعائه أيضًا: «**اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحادك وتكذب رسولك. اللهم فنصرك الذى وعدتنى، اللهم إن تهلك هذا العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض**». وما زال الرسول يهتف بربه مادًا يديه حتى سقط رداؤه فوضعه عليه أبو بكر، ثم قال له: كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك.

ثم أغفى رسول الله إغفاءة قصيرة قال بعدها لأبى بكر: «**يا أبا بكر؛ أتاك نصر الله. هذا جبريل قد أخذ بعنان فرسه يقوده؛ على ثناياه النقع وأنزل الله ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾** [الأنفال: ٩] إلخ الآية، **وخرج الرسول وهو يقول: (سيهزم الجمع**

---

(١) فأحنه: فأهلكه.

(٢) وفيه نزل قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

(راجع ابن الأثير ج ٢ ص ٨٧، وابن هشام ص ٩٤).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ويولون الدبر) وحرض المسلمين، فقال : والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » .

فقويت عزائم المسلمين، وسرت فيهم روح قوية استمدوها من قائدهم الأعظم، وجعلت كل رجل منهم يعدل عشرة رجال، وفى حال النبى وأصحابه نزلت الآيتان : **﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾** [الأنفال : ٦٥] إلى آخر الآيتين.

فاشتد القتال وحمى الوطيس وعلت صيحة الحرب : يا منصور؛ أمت أمت، وصاروا يهللون : أحد أحد، وقد كُشفت أمامهم حجب الزمان والمكان، وأمدهم الله بالملائكة يبشرونهم ويزيدونهم تثبيتًا وإيمانًا؛ حتى لكان الواحد منهم إذ يرفع سيفه و يهوى به على عنق عدوه إنما تحرك قوة الله يده(١)، ووقف الرسول وسط هذا الوطيس وأخذ حفنة من الحصباء ورمى بها قريشًا، وقال : شاهت الوجوه، وقال لأصحابه : شدوا، فشدوا فلم تكن إلا ساعة حتى هُزم الجمع وولى الدبر، وانجلت المعركة عن هزيمة مروعة للمشركين قتل فيها نحو السبعين من صناديد قريش، منهم أبو جهل رأس هذه الفتنة كلها، وأمية بن خلف، وعتبة وشيبة، والوليد . . وأسر منهم نحو السبعين، وهرب الباقون، بينما لم يفقد المسلمون سوى أربعة عشر رجلاً، وغنم المسلمون غنائم كثيرة، ثم أمر الرسول بتضميد الجرحى، ودفن القتلى فى قليب بدر، وصار يتفقدهم ويخاطبهم : **«يا أهل القليب . هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا ؟ فإني وجدت ما وعدنى ربى حقًا»** .

---

(١) ومن ذلك نرى أن اشتراك الملائكة فى بدر كان تثبيتًا وتقوية لمعنويات المسلمين، وهذا رأى كثير من المفسرين والباحثين فى قوله تعالى : ﴿ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ . . . ﴾ [الأنفال : ١٢] إلى آخر الآية . وقوله : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ [الأنفال : ٤٤] .
وفى رأى البعض الآخر أن الملائكة قد اشتركت فى القتال بالفعل، ووردت فى ذلك أخبار، وأن الخطاب فى قوله تعالى ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ ﴾ للملائكة ويستدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [الأنفال : ١٧] وأن قتال الملائكة كان خصوصية فى غزوة بدر.
ويرى فريق ثالث أن التثبيت كان إلهامًا، وهذا بعيد ولا ينطبق مع القرآن ولا الأحاديث الواردة فى شأن قتال الملائكة ومن أراد التوسع فليرجع إلى كتب التفسير والحديث.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

* بين رجوعين:

ولّى أهل مكة الأدبار، كاسفًا بالهم، خاشعة من الذل أبصارهم، لا يكاد أحدهم يلتقى بنظر صاحبه حتى يوارى وجهه خجلاً من سوء ما حل بهم جميعًا.

ويقول الدكتور طه حسين(١): وعاد المنهزمون إلى مكة قد أحرزوا تجارتهم التى نجا بها أبو سفيان، ولم يُكد، ولكنهم عادوا بخزى أى خزى، يشقون بنار الهزيمة وفقد الصناديد والإخوان والآباء والأبناء والأخلاء.. ووصلت أنباء هزيمة قريش إلى مكة ومصابها فى زعمائها، فسادها الحزن، حتى لقد حُم أبو لهب، ومات بعد أيام قليلة.

أما الرسول وأصحابه من أهل المدينة فإنهم أقاموا ببدر إلى آخر النهار فى تضميد الجرحى ودفن القتلى، وجمع الغنائم. ثم بعث الرسول بشيرين لأهل المدينة يبشرانهم بالنصر، وهما عبد الله بن رواحة لأهل العالية - قرى بظاهر المدينة، وهى من العوالى - وزيد بن حارثة لأهل السافلة؛ راكبًا ناقة رسول الله، وكان اليهود والمنافقون قد أرجفوا بالرسول والمسلمين على عادة الأعداء فى إذاعة الأخبار الكاذبة، يقصدون بذلك فتنة المسلمين، فجاء البشيران بما قطع ألسنتهم، وبما سر أهل المدينة، وكان ذلك وقت انصرافهم من دفن رقية بنت رسول الله وزوج عثمان بن عفان(٢) فانقلب الحزن فرحًا، وسرت الطمأنينة فى القلوب.

وبعد أن قام الرسول بما سبق، آن له أن يرجع بأصحابه إلى المدينة فأمر بالارتحال. وبدأ بعض المسلمين يتساءلون عن قسمة المغانم: كيف تكون ولمن؟.. فقال الشبان هى لنا خالصة؛ فنحن الذين باشرنا القتال؛ وقال الشيوخ كنا ردءًا لكم، فنحن نشارككم؛ وقال الذين كانوا يحرسون النبى مخافة أن يرتد إليه العدو: ما أنتم ولا هم أحق بها منا لقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن له من يمنعه، و لكننا خفنا كرّة العدو على رسول الله فقمنا دونه.

---

(١) فى (مرآة الإسلام) ص ٦٦.

(٢) ابن الأثير ج ٢ ص ٩٠، ونور اليقين ص ١٢٣، ويشير الدكتور هيكل ص ٢٦٥ إلى أن الوفاة حدثت بعد وصول البشيرين.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فأنزل الله حسماً لهذا الخلاف أول سورة الأنفال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فسطع على أفئدتهم نور الإيمان، فتألفت، بعد أن كادت تفترق، وتركوا أمر الغنائم لرسول الله يضعها كيف شاء كما حكم القرآن، فقسمها عليه السلام على السواء[1]: الراجل مع الراجل، والفارس مع الفارس، وأدخل فى الإسهام بعض من لم يحضر بدراً لأمر كلف به مثل أبى لبابة الأنصارى لأنه كان مخلفاً على المدينة، وعثمان بن عفان لأنه خلفه على ابنته رقية يمرضها، وعاصم بن عدى لأنه خلفه على أهل قباء والعالية، وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد لأنهما أُرسلا يتجسسان الأخبار فلم يرجعا إلا بعد انتهاء الموقعة، والحارث بن الصمة، وخوات بن جبير لأنهما كُسرا بالروحاء فلم يتمكنا من السير. وغيرهم، وكذلك أسهم لمن قتل ببدر، وهم أربعة عشر، فدفع للورثة حصة كل واحد منهم، وكانت تلك القسمة فى الطريق حينما تخطوا مضيق الصفراء على كثيب هناك[2].

ولا شك أن قسمة الغنائم على الوجه السابق، عمل يقف منه كل إنسان وقفة إعجاب وتقدير، ويدل على عبقرية فذة. فقد أسهم الرسول لكل من اشترك فى الحرب والنصر، ولكل من كان لعمله فى الفوز حظ، أياً كان هذا العمل، سواء أكان فى ميدان القتال؛ أم بعيداً عنه. وفى طريق العودة إلى المدينة أمر الرسول بقتل رجلين من الأسرى، أحدهما النضر بن الحارث لأنه كان غالياً فى عداوة المسلمين بمكة، يكثر أذاهم ويعلم القيان الشعر الذى يهجو به المسلمين ليغنين به، وثانيهما عقبة بن أبى معيط وهو مثله، فكان لقتلهما سبب خاص، ولم يقتل من الأسرى غيرهما، ولما وصل الرسول إلى المدينة فرق الأسرى بين أصحابه، وقال: استوصوا بهم خيراً.

---

(١) ولم يأخذ الرسول منه الخمس بناء على أن آية ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: ٤١] إلى آخر الآية نزلت بعد بدر. وهذا رأى أكثر كتاب السيرة، ويذهب بعضهم إلى أن الرسول قسم بعد أخذ الخمس، والآية نزلت فى بدر.

(٢) يروى الخضرى فى نور اليقين ص ١٢٤ أن عبيدة بن الحارث دفن فى الصفراء لأنه لم يمت إلا فى ذلك الوقت من جرحه والرواية السابقة فى ص ٦٠ عن ابن الأثير ج ٢ ص ٨٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

* **الأسرى والفداء :**

بدأ الرسول يفكر فيما يصنع بالأسرى. أيقتلهم.. أم يأخذ منهم الفداء؟ ولكل من الفكرتين مزايا، ولما كان الرسول يستشير فى كل أموره فقد استشار أصحابه فى هذه المسألة، وترك لهم الخيار، فكان رأى عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ، وعبد الله بن رواحة قتلهم، وكان رأى أبى بكر وأكثر الصحابة الإبقاء عليهم وأخذ الفداء، ولكل من الفريقين وجهة نظر، فوجهة عمر ومن معه أنهم - أى مشركى مكة - كذبوا الرسول وقاتلوه، وأخرجوه. ووجهة أبى بكر ومن معه، رجاء هدايتهم، وما يؤخذ من الفداء يكون قوة للمسلمين على الكفار. فمدح الرسول وجهة كل من الفريقين، لأن الهدف واحد، وهو إعزاز الدين وخذلان المشركين، ومال إلى رأى أبى بكر فافتدى الكثير من الأسرى أنفسهم، ومن لم يستطع افتداء نفسه وكان يحسن القراءة والكتابة، كانت فديته أن يعلم عشرة منّ أبناء المسلمين، ومنَّ الرسول على بعض الأسرى، ومنهم أبو عزة عمرو الجمحى الشاعر.

ولما تم الفداء نزل القرآن يعاتب المسلمين، لا على ما فعلوا من إطلاق سراح الأسرى والمن عليهم بالفداء كما توهم بعض الناس، ولكن على نفس الأسر أثناء القتال. اقرؤوا قوله تعالى: ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ** ﴾ [الأنفال: ٦٧].

فقد نهى الله سبحانه وتعالى عن اتخاذ الأسرى قبل الإثخان فى قتل الذين يصدون عن سبيل الله، ويمنعون دين الله من الانتشار، وعاب بعض المسلمين على إرادة عرض الدنيا وهو الفدية، ولولا حكم سابق من الله أن لا يعاقب المجتهد على اجتهاده لكان العذاب. ثم أباح لهم الأكل من تلك الفدية المبنى أخذها على النظر الصحيح فقال: ﴿ **فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا** ﴾ [الأنفال: ٦٩]، وقد وعد الله الأسرى الذين يعلم فى قلوبهم خيراً بأن يؤتيهم خيراً مما أخذ منهم ويغفر لهم فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [الأنفال: ٧٠].

www.alukah.net
شبكة الألوكة

* أسباب انتصار المسلمين فى بدر:

لا شك أن المسلمين بذلوا غاية جهدهم فى المعركة، فإن المشركين كانوا كثرة، وكان المسلمون قلة، وكانوا يوم التقى الجمعان يرون عدوهم مثليهم رأى العين، ويتفوق عليهم فى العدد والأهبة، ومع ذلك انتصرت القلة على الكثرة انتصاراً باهراً وسريعًا، جعل المعركة تبدو غريبة، وغير مألوفة فى تاريخ الحروب، ودفعت إلى التساؤل عن الأسباب، فما هى؟

١- **قوة الإيمان والروح**: فشتان بين قوم يقاتلون عن دينهم وعن إيمانهم بهذا الدين - وهم مستيقنون أنهم إن يُنصروا نعموا بانتصارهم فى الحياة الدنيا وظفروا بأجرهم على الجهاد، وإن يُقتَلوا فهم شهداء عند الله؛ قد ضمن لهم نعيمًا ليس مثله نعيم؛ نعيم صفو خالد لا كدر فيه ولا انقطاع له - وبين قوم يقاتلون عن أموالهم، وعما يملؤهم من الغرور والكبرياء! وشتان بين قوم يدافعون عن الحق والعدل والحرية، وكل المعانى الإنسانية السامية التى ترفع القوى المعنوية، وبين قوم يدافعون عن الباطل، وكل الشرور والآثام.

فلا عجب إذا نصر الله فئة الحق على فئة الباطل ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وأمد الله فئة الحق بجنوده ليعلو وينتصر، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم.

٢- **قيادة الرسول ﷺ، وعبقريته الحربية**: وقد وضح ذلك فى كل ما دار فى المعركة من معرفته لأخبار العدو، ومعرفة القواد، وتنظيمه للصفوف، واحترامه لآراء أصحابه وحسن توجيهه وبذل نصحه، وقد سبق بيان ذلك.

٣- **النوم ليلة المعركة ونزول المطر**: فقد أكسبهم النوم الذى غشيهم ليلة المعركة قسطًا كبيراً من راحة الجسم والأعصاب.

وأرسل الله لهم الغيث حتى سال الوادى فشربوا واتخذوا الحياض على عدوة الوادى واغتسلوا ولبدت الأرض حتى ثبتت الأقدام، على حين أن كان هذا المطر مصيبة على المشركين؛ فإنه قيد زحفهم وعاق تحركاتهم، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿**إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ**﴾ [الأنفال: ١١].

شبكة الألوكة - قسم الكتب

٤- **المياه**: كانت عملية المسلمين فى مياه بدر التى أسلفنا ذكرها عاملاً قويًا فى انتصارهم فقد ضربوا حصاراً حول مياه بدر، ومنعوا قريشًا منها، ولا يخفى أن المياه من الأمور الضرورية فى حياة الإنسان والحيوان؛ لاسيما فى بلاد شديدة الحرارة كجزيرة العرب.

٥- **الموقع الحربى لكل من الفريقين**: كانت أشعة الشمس فى ظهر المسلمين؛ بينما كانت متسلطة على أعين المشركين أثناء عملية الزحف ففككت تجمعاتهم.

٦- **نجاة القافلة**: ذكرنا فيما سبق أن نجاة القافلة كان سببًا فى رجوع بعض القبائل، وبعض من بقى كان يشعر بأن هذا القتال أصبح لا ضرورة له، ولا فائدة منه ولا خير فيه، فلم يستمت فى القتال. بخلاف ما لو بقيت العير فى خطر فإنه كان من المحتمل أن يستميتوا جميعًا فى القتال، ولكن هكذا أراد الله، لينصر دينه، وليحق الحق، ويبطل الباطل، ولو كره المجرمون.

* نتائج غزوة بدر

لقد كان لانتصار المسلمين فى بدر نتائج عظيمة الأثر. وإلى القارئ أهمها:

١- **حطمت كبرياء قريش**، وكسرت شوكة القرشيين، وحطمت بنيان الشرك، وأصبح موقف اليهود والمنافقين موقف هوان ومذلة، وصاروا يتوارون خجلاً. يدلنا على ذلك قول كعب بن الأشرف أحد زعماء اليهود: بطن الأرض اليوم خير من ظهرها؛ بعد أن أصيب أشراف الناس، وسادتهم وملوك العرب، وأهل الحرم والأمن(١).

٢- **أنها كانت فاتحة نصر رائع للمسلمين**؛ رفع معنوياتهم ووطد هيبتهم وسلطانهم بين سائر العرب، فقد تسامع العرب جميعًا بالنبى وأصحابه وأحسوا قوتهم وبأسهم، وامتلأت قلوبهم رعبًا وخوفًا.

٣- **ثبتت الإسلام والحضارة الإسلامية**. ويمكننا تصور ذلك لو انقلب الوضع ماذا كان يحدث؟ فإن الإسلام الناشئ كان سيقضى عليه أو على الأقل كان انتشاره سيسير بخطى بطيئة؛ لأن المدينة ما كانت تحتمل قوى الشرك من الخارج، واليهود من الداخل، والأنصار كان إسلامهم حديثًا؟

---

(١) حياة محمد ص ٢٧٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٤- **استقرار الأمر للمسلمين من بعد فى بلاد العرب وغيرها**. كان انتصار المسلمين فى بدر مقدمة وحدة الجزيرة فى ظلال الإسلام، ومقدمة الدولة الإسلامية العالمية التى ترامت أطرافها، والتى أقرت فى العالم حضارة لا تزال، ولن تزال ذات أثر عميق فى حياته.

٥- **عناية الله بالإسلام وأهله**: غزوة بدر التى أعز الله بها الإسلام وقوى بها أهله ودمغ فيها الشرك – مع قلة المسلمين، وكثرة عدوهم وقوة عددهم – آية على عناية الله بالإسلام وأهله، ولذلك قال ممتنا على عباده بهذا النصر ﴿ **وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ** ﴾ [البقرة: ١٢٣].

٦- **صدق الرسول فيما جاء به**. فإن أخذ الفدية، ثم العتاب عليها من أقوى الأدلة على صدق محمد عليه الصلاة والسلام بما جاء به، لأنه لو كان من عنده ما كان يعاتب نفسه على عمل عمله؛ بناء على رأى كثير من الصحابة.

٧- **نزل فى غزوة بدر سورة الأنفال**، وهى السورة الثامنة من القرآن الكريم وقد خلد الله ذكرها فى القرآن، فسمى زمنها بيوم الفرقان.

٨- **إكرام من شهد بدراً**. بشر النبى من حضر بدراً بالجنة، وكان النبى يكرمهم ويقدمهم على غيرهم، وخصهم بالزيادة فى الجنازة على أربع تكبيرات، ولما فرض العطاء كانوا يزيدون على غيرهم فيه.

٩- **أشاد المسلمون بذكرها بما لم يفعلوا مثله فى جميع ما جاء بعدها من غزوات**؛ حتى لقد دونوا أسماء من شهدها من المسلمين، وذكرها الشعراء فى أشعارهم.

١٠- **الغنائم وأثرها**: كانت الغنائم التى غنمها المسلمون فى بدر ذات أثر كبير على المسلمين؛ فإن ما غنموه من السلاح والعدد، كان لهم قوة كبيرة، وزاد فى عدد من يحملون السلاح، استعداداً للغزوات التالية.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بين بدر وأحد

ترك انتصار المسلمين فى بدر آثاراً كبيرة فى اليهود والمنافقين والمشركين بالمدينة، وفى قريش بمكة، وفى القبائل الضاربة حول المدينة، وعلى الطريق التجارى بين مكة والمدينة، وفى القبائل البعيدة عن المدينة، وقد قام بعض هؤلاء بمحاولات لطرد المسلمين من المدينة أو لإضعاف مركزهم على الأقل، وبعضهم الآخر للتضييق عليهم، ومضايقتهم بوسائل شتى، ولكنهم لم يفلحوا، ورد الله كيدهم فى نحورهم فلم ينالوا من المسلمين شيئًا. ولابد لنا من الحديث عن أهم هذه المحاولات؛ ليقف القارئ عليها، ويستبين له مدى ما كان يحيط بالمسلمين من صعاب ذللوها، وتغلبوا عليها؛ لأن الله متم نوره ولو كره الكافرون. وأهم هذه الأحداث:

أولاً: يهود بنى قينقاع بالمدينة وجلاؤهم عنها

إذا كان انتصار المسلمين فى بدر ترك آثاراً واضحة فى القرشيين بمكة. فإنه ترك آثاراً أكثر وضوحًا فى اليهود والمنافقين والمشركين بالمدينة؛ لأنهم شعروا بعدها بمزيد قوة المسلمين ورأوا هذا الرجل الذى وفد عليهم منذ أقل من عامين مهاجراً من مكة يزداد سلطانًا وبأسا، وكان اليهود بصفة خاصة كما ذكرنا فيما سبق، قد بدأ تذمرهم من قبل بدر(١) وصاروا يجادلون المسلمين جدالاً وصل أحيانًا إلى الاعتداء بالأيدى؛ على الرغم من العهد الذى بينهم وبين المسلمين. فما حالهم، وقد عاد المسلمون من بدر معتزين بالنصر، مثقلين بالغنائم؟

لا شك أن حقدهم قد ازداد وأن غيظهم بلغ مداه. يدلنا على ذلك قول كعب بن الأشرف، السابق، وكان لذلك مظاهر كثيرة منها التحريض، والإغراء بمحمد وأصحابه، ومنها التشبيب بنساء المسلمين(٢) ومنها الائتمار بالرسول، والتفكير فى اغتياله، وكان ذلك كله يصل علمه إلى الرسول والمسلمين فيأخذ حذره منهم ويصبر على أذاهم، وما زال كذلك حتى حدثت حادثة التعدى على إحدى نساء الأنصار بسوق الصاغة، وخلاصتها أن إحدى نساء الأنصار ذهبت إلى سوق بنى قينقاع

---

(١) راجع ص ٥٣ و ٥٤ من الكتاب.

(٢) للأسباب المذكورة قتل أبو عفك، وكعب بن الأشرف.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فجلست عند صائغ لأجل حلى لها، فجاء رجل منهم خلفها فجمع أسفل درعها إلى أعلاه بشوكة، وهي من لا تشعر فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا منها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على اليهودى فقتله، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم بالمسلمين على اليهود فوقع الشر بينهم، وبين بنى قينقاع، وطلب الرسول إلى هؤلاء أن يكفوا عن أذى المسلمين، وأن يحفظوا عهد الموادعة أو ينزل بهم ما نزل بقريش(١)، فاستخفوا بوعيده وأجابوه: لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة. إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس(٢)

وفى اعتقادنا أنه لم يبق بعد ذلك إلا مقاتلتهم، وإلا تعرض المسلمون وتعرض سلطانهم للتداعى وأصبحوا حديث الناس، فكان قراراً حكيمًا من الرسول حينما أعلن أن يهود بنى قينقاع إما أن يسلموا، وإما أن يجلوا جلاءً تامًا عن المدينة.

ولما لم يستجيبوا لهذا الإعلان، وتحصنوا بحصونهم، خرج المسلمون إليهم فحاصروهم فى دورهم خمسة عشر يومًا متتابعة لم يجرؤ فيها أحد منهم على مغادرة منزله، حتى اضطروا إلى التسليم والجلاء إلى أذرعات الواقعة على حدود الشام، واستولى المسلمون على أموالهم وحصونهم، وديارهم؛ دون أن تراق قطرة دماء واحدة، وكانت تلك الغزوة فى منتصف شوال.

ثانيًا: غزوة السويق

بجلاء بنى قينقاع عن المدينة ضعفت شوكتهم بها؛ لأن أكثر اليهود المنتسبين إلى المدينة يقيمون بعيدًا عنها بخيبر وبأم القرى. وانكمش المنافقون والمشركون فهدأت الحالة بالمدينة، ولكن هذا الهدوء لم يزد عن شهر، فإن أبا سفيان بن حرب لم يطق البقاء بمكة قابعًا تحت خزى هزيمة بدر دون أن يعيد إلى أذهان العرب بشبه الجزيرة أن قريشًا لا تزال لها قوتها وعصبيتها، ومقدرتها على الغزو والقتال. هذا فوق أنه كان بعد بدر قد حلف أن لا يمس رأسه الماء حتى يغزو محمداً فليبر بقسمه وليمح عار

---

(١) وفى ذلك نزل قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

(٢) وفى ذلك أنزل الله فى سورة آل عمران ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٢] إلى آخر الآية (راجع المختار من سيرة ابن هشام ص ٧٥ ط الشعب، وابن الأثير جـ٢ ص ٩٦).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الهزيمة. خرج بمائتين من أصحابه يريد المدينة، ولما قاربها أراد أن يقابل اليهود من بنى النضير ليستشيرهم، ويستعين بهم على حرب المسلمبن، فأتى سيدهم حيى بن أخطب فلم يقبل مقابلته، فأتى سلام بن مشكم - أحد زعماء اليهود - فأذن له واجتمع به فعرف منه بعض أخبار المسلمين، ثم خرج من عنده ليلاً. وفى وقت السحر أرسل رجالاً من قريش إلى المدينة فأتوا ناحية منها يقال لها العريض فوجدوا رجلاً من الأنصار اسمه معبد بن عمرو، وحليفًا له فى حرث لهما فقتلوهما، وحرقوا بيتين بالعريض، وبعض النخيل، وعادوا، ورأى أبو سفيان أن يمينه بغزو محمد قد برت وأنه قد محا عار الهزيمة، فانكفأ هاربًا خائفًا أن يطلبه محمد وأصحابه، فكانت حملته كحملة قطاع الطرق.

ولما علم بذلك رسول الله خرج أثرهم فى مائتين من أصحابه، وساروا حتى بلغوا قرقرة الكدر[١]، ولم يلحقوا بهم لإمعان أبى سفيان وأصحابه فى الفرار لخوفهم. ويمكننا أن نتصور مقدار رعبهم من إلقائهم لزادهم الوحيد، وهو السويق، للتخفف منه، ولذلك سميت الغزوة بغزوة السويق، وكان فرار أبى سفيان عليه بعد أن كان يحسب الغزوة ترفع رأس قريش من مصاب بدر، وبهذه الغزوة انتهت السنة المهمة فى تاريخ الإسلام وهى السنة الثانية من الهجرة، وقبل أن نتركها نسجل أن على بن أبى طالب تزوج فيها بفاطمة بنت رسول الله.

ثالثًا: غزوات الكدر وذى أمر وبحران، وسرية القردة

افتتحت السنة الثالثة ببضع غزوات قام بها الرسول لمحاربة بعض القبائل الساكنة شرق المدينة، وهذه الغزوات توضح قوة الإسلام واستطاعته مقاومة تلك القبائل. كما توضح نواحى سياسة أهل مكة بعد غزوة السويق، ذلك أن الرسول كان قد عاهد كثيراً من القبائل الساكنة بين المدينة وشاطئ البحر مثل جهينة وبنى ضمرة وغيرهما، فأمسى الطريق التجارى مغلقًا فى وجه المكيين لوقوعه فى أرض تلك القبائل المحالفة.

لكن كان هناك طريق آخر يبتدئ من مكة إلى نجد، ومنها إلى العراق، ومن العراق إلى الشام أو للخليج الفارسى (العربى)، وكان على ذلك الطريق قبيلتان هما بنو سليم وغطفان، وكانت مناجعهما فى نجد وكانتا من القديم حلفاء مكة، ويستخدمهم القرشيون فى نقل متاجرهم إلى العراق. فلما أصبح الطريق التجارى المار بالمدينة إلى الشام مهدداً، توجهت قريش إلى ذلك الطريق الثانى وزاد اهتمامها به فوثقت عرى

---

(١) ماء لبنى سليم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

التحالف بالقبيلتين، السابقتين، وحرضتهما على القيام بغزو المدينة فتجمعت جموع القبيلتين عند مكان اسمه قرقرة الكدر – ماء من مياه بنى سليم – ووصل علم تجمعهم إلى الرسول، وبما عزموا عليه فعقد النية على السير إليهم ومفاجأتهم، فسار على رأس مائتى رجل حتى وصل إلى قرقرة الكدر فوجد أن المشركين قد نزحوا عنها لكنه وجد قطيعًا من الإبل فاستولى عليه وكان عدده خمسمائة بعير وكانت تلك الغزوة فى شهر صفر.

وفى الشهر التالى بلغ الرسول أن بنى ثعلبة ومحارب من غطفان قد تجمعوا بذى أمر برياسة رئيس منهم اسمه دعثور، يريدون الغارة على المدينة. فخرج إليهم الرسول فى أربعمائة وخمسين رجلاً من المسلمين، فلما صار بذى القصة لقى رجلاً من ثعلبة فدعاه إلى الإسلام فأسلم وأخبره أن المشركين أتاهم خبر خروجه فهربوا إلى رؤوس الجبال، وواصل الرسول سيره حتى وصل إلى ماء يسمى ذا أمر فعسكر به ليعرف الأعداء قوة المسلمين، وقد حدث فى ذلك الوقت أن الرسول نزع ثوبه يجففه من مطر وجلس تحت شجرة، والمسلمون متفرقون. فأبصره دعثور فأقبل إليه بسيفه حتى وقف على رأسه، وقال: من يمنعك منى يا محمد؟ فقال: الله: فأدركت الرجل هيبة، وحدث له رعب أسقطا السيف من يده، فتناوله عليه السلام، وقال لدعثور: من يمنعك منى:؟ فقال لا أحد، فعفا عنه، فأسلم الرجل، ودعا قومه للإسلام وحول الله قلبه من عداوة رسول الله وجمعِ الناس لحربه إلى محبته، وجمع الناس له.

ثم رجع الرسول إلى المدينة وأقام بقية ربيع الأول، وشهر ربيع الثانى، وفى جمادى الأولى بلغه أن جمعًا كبيرًا من بنى سليم ببحران تهيأوا لقتاله، ويريدون أن يشنوا غارة على المدينة، فعمل الرسول على إفساد خطتهم بسيره إليهم ومفاجأتهم من حيث لا يحتسبون. فسار إليهم فى ثلاثمائة من المسلمين وأغذوا السير، حتى إذا كانوا دون بحران بليلة لقيهم رجل من بنى سليم فسأله الرسول عنهم فأخبره أنهم تفرقوا وعادوا أدراجهم.

وهكذا كان هؤلاء الأعراب فى فزع من الرسول، ما يكادون يفكرون فى الكيد له، وفى السير لملاقاته حتى تنخلع قلوبهم لمجرد سماعهم بسيره للقائهم!

وكانت نتيجة ذلك كله فشل قريش فى تحريضها للقبائل، وتضييق السبل عليها فى تجارتها التى تعيش عليها ولا غنية عنها، ففكرت طويلاً فلم تجد سوى طريق وعر قليل الماء محفوف بالأخطار، ولكنها مضطرة، ودفعتها الحاجة إلى سلوك ذلك الطريق الوعر لاعتقادها أن المسلمين لا يعرفون تلك الطريق فأرسلت عيرًا كان دليله فرات بن

شبكة الألوكة - قسم الكتب

حيان من بنى بكر بن وائل، وخرج فيه جمع من قريش منهم أبو سفيان وصفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العزى.

وصلت أخبار العير وتفاصيل الطريق إلى النبى عن طريق رجل من أهل مكة كان قد أتى المدينة زائرًا، فأرسل الرسول زيد بن حارثة فى مائة راكب اختارهم عليه السلام فخرجت السرية فى جمادى الآخرة وسارت حتى لقيت العير على ماء اسمه القردة بناحية نجد. فكانت مفاجأة أذهلت القرشيين دفعت بعضهم للهرب، ومن ثبت تغلب عليه المسلمون، وأخذوا العير وما فيها ورجعوا بها إلى المدينة، وفى رفقتهم أسيران؛ أحدهما مرشد القافلة - الذى كان قد وعد قريشًا بالسير فى طريق لا يعرفه المسلمون - فعرض عليه الرسول أن يسلم لينجو فأسلم ونجا، وقد قدرت الغنيمة بمائة ألف دينار، فكانت أعظم غنيمة غنمها المسلمون(١).

ومن ذلك كله يتبين أن القبائل العربية قد ركبها الرعب وصارت مذعورة خائفة وأن قريشًا استنفدت جميع الوسائل لفتح طريق تجارى إلى الشام، وأن ما أصاب قافلة صفوان بن أمية زاد قريشًا إذلالاً ومهانة، وزادها فى الوقت نفسه حرصًا على الأخذ بالثأر، ومن غير شك أن الرسول عليه الصلاة والسلام ما كان يغيب عن ذهنه شىء من ذلك، فجعل يعمل على المزيد من ارتباط المسلمين وتعلقهم به - فوق علاقة الإسلام التى جعلتهم أولاً وأخيرًا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا - وذلك بحسن الرعاية التى تزيد العزائم شدة. والتضامن قوة. فمن حسن الرعاية ارتباطه بأربعة من أقوى المسلمين الذين كانوا معه، بل إننا إذا قلنا أقواهم لا نبعد، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى، فتزوج بحفصة بنت عمر - كما تزوج بعائشة بنت أبى بكر من قبل - فى السنة الأولى من الهجرة، وزوّج عثمان بن عفان أم كلثوم بعد رقية. وقد سجلنا من قبل زواج على بفاطمة ابنته.

بهذا كفل للمسلمين مزيدًا من القوة. كما كفل لهم بما غنموا فى مغازيهم إقدامًا على الحرب يجمع فيها الرجل بين الجهاد فى سبيل الله والمغنم من المشركين، وهو فى هذه الأثناء يتبع بكل دقة أخبار قريش، وما تعد للثأر، ولفتح الطريق التجارى إلى الشام حتى لا تهوى مكانة مكة التجارية، ومكانتها الدينية إلى حيث لا تقوم لها من بعد ذلك قائمة(٢)، فإلى أُحد.

---

(١) ابن الأثير جـ٢ ص٩٧ و٩٨، نور اليقين ١٣٨ و ١٣٩، وحياة محمد ٢٧٧ و ٢٧٨. وبنى البر (المختار من سيرة ابن هشام) ص٧٦.

(٢) حياة محمد ص ٢٧٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

غـزوة أحـد

أسلفنا أن قريشًا لم يهدأ لها بال منذ بدر، وقد بذلت محاولات للانتقام من المسلمين، والأخذ بالثأر، ولكنها باءت بالخيبة والخسران. فمهاجمة أبى سفيان للرسول فى المدينة لم تنتج سوى ما يوازى الهزيمة، وتحريض قريش القبائل فشل فشلاً ذريعًا، واستيلاء زيد بن حارثة على قافلة صفوان بن أمية ضاعف البلية، فاجتمع من بقى من أشرافهم بأبى سفيان رئيس تلك العير التى جلبت عليهم المصائب، وكانت موقوفة بدار الندوة، ولم تكن سلمت لأصحابها بعد فقالوا: إن محمداً قد وترنا وقتل خيارنا، وإنا رضينا أن نترك ربح أموالنا فيها استعداداً لحرب محمد وأصحابه، وقد رضى بذلك كل من له فيها نصيب.

فبدأت قريش تستعد، وأرسلت إلى قبائل البدو المحالفة لها أن تشترك معها وتمدها فأعدت حملة مكونة من ثلاثة آلاف مقاتل من بينهم حوالى سبعمائة من الجنود المدرعة، ومائتين من الفرسان، والباقون من راكبى الإبل (الهجانة).

وقد اشترك فى هذه الحملة عناصر كثيرة من أتباع قريش وغيرهم(١)، كما اشترك العنصر النسائى، فقد أصرت النسوة من قريش على أن يسرن مع الغزاة ليبعثن الحماس فى الرجال وبعد جدل وخلاف سمح لهن بالسير، وعلى رأس هؤلاء النسوة هند زوج أبى سفيان وهى أشدهن على الثأر حرقة، فقد قتل يوم بدر أبوها وأخوها، ولهذا الهدف استأجرت غلامًا حبشيًا اسمه وحشى – وكان حسن الرماية قلما يخطئ – ليقتل حمزة. كما يروى أن وحشيًا هذا كان غلامًا لجبير بن مطعم فدعاه للخروج على أن يكون حرًا إن قتل حمزة بعمه طعيمة، ولا تعارض بين الروايتين. فمولاه دعاه للخروج، وهند أعطته مالاً، والهدف واحد.

هذا ما كان من أمر قريش، أما ما كان من أمر النبى فقد بلغه الخبر من كتاب بعث

(١) مثل ثقيف وأعراب كنانة وتهامة وبنى المصطلق وبنى خزيمة، وخرج معهم أيضًا أبو عامر الراهب الأوسى، وكان قد فارق المدينة كراهية لرسول الله كما خرج أبو عزة الشاعر الذى أطلقه رسول الله من غير فداء فى بدر، وقد امتنع عن الاشتراك بنو زهرة الذين كانوا قد امتنعوا أيضًا عن الاشتراك فى بدر.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

إليه به – على يد رسول خاص – عمه العباس بن عبد المطلب الذى لم يخرج مع المشركين فى هذه الغزوة؛ محتجًا بما أصابه يوم بدر(١).

فى الطريق إلى المعركة:

تحركت حملة قريش، وسارت فى الطريق التجارى المعروف فى محاذاة البحر الأحمر حتى وصلت إلى السهل الواقع عند سفح جبل أحد – على بعد خمسة كيلو مترات من المدينة – فعسكروا عنده(٢)، وأطلقت قريش خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها، وكان النبى باثًا عيونه لتأتى له بأخبار المشركين؛ فقد استطلع الحباب بن المنذر معسكر قريش يوم نزولهم ورجع فأخبر الرسول بعظم جمع قريش فأمره النبى بكتمان ذلك الخبر؛ لئلا يتسرب الرعب فى قلوب بعض الناس.

وفى اليوم التالى جمع الرسول أصحابه، وأخبرهم الخبر، وأشار بالتحصن بالمدينة وعدم الخروج إلى قريش. فإذا حاول المشركون الهجوم أمطرتهم الجنود بالنبال والحجارة من الأسوار، وإذا بقوا فى معسكرهم فإنهم لا يلبثون أن يرجعوا، وكان مما قاله عليه الصلاة والسلام: «**إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا فإن هم أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم**».

وكان مع الرسول على هذا الرأى شيوخ المهاجرين والأنصار، ورأى ذلك أيضًا عبد الله بن أبى – أحد شيوخ المدينة من غير المسلمين – وفى اشتراك ابن أبى فى المشاورة دليل على أن الرسول كان قد أصبح صاحب الأمر فى المدينة لا يخرج عن أمره منافق أو يهودى، ولكن الشباب من المهاجرين والأنصار – وخاصة من لم يشهد بدرًا منهم أشار عليه بالخروج والهجوم، وكان مع رأيهم حمزة بن عبد المطلب، ويبدو أن الدافع لهم إلى هذا الرأى هو عبث جيش قريش بحقولهم وزرعهم، ومن لم يشهد منهم بدرًا أراد أن يلحق بأهل بدر، وكان منهم من قال إن الاستشهاد فى الهجوم على المشركين خير من البقاء على الأسوار، ومن الحرب الدفاعية التى قد تؤدى إلى نصر المشركين، وما زال هؤلاء بالرسول حتى تبع رأيهم لأنهم الأكثرون عددًا والأقوون جلدًا، فصلى الجمعة بالناس لعشر خلون من شوال من السنة الثالثة للهجرة وحضهم

---

(١) من أسره ودفعه الفدية عن نفسه، وعن ابن أخيه عقيل بن أبى طالب حتى صار فقيرًا.

(٢) وجبل أحد مع أنه واقع شمال المدينة الشرقى وقريش قادمة من الجنوب إلا أن الاختيار وقع عليه؛ نظرًا لأن تحصن المسلمين به يمدهم بميزة فى الدفاع ضد قوة العدو المتفوقة فى العدد.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

في خطبتها على الثبات والصبر. ثم دخل بيته بعد صلاة العصر، ودخل معه أبو بكر وعمر فعمماه، وألبساه درعه، وتقلد سيفه، وصار الناس في غيبته هذه يتناقشون حول الموقف الذى وقفه الأحداث - الشباب - ووجه الشيوخ إليهم اللوم، وقالوا لهم: ردوا الأمر إلى رسول الله، فما أمركم فافعلوه.

فلما خرج عليه السلام قالوا: يا رسول الله نتبع رأيك. فقال: ما كان لنبى لبس سلاحه أن يضعه حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه. ثم عقد ألوية ثلاثة، وخرج من المدينة بألف رجل، فلما صار خارج المدينة نظر عليه السلام كتيبة كبيرة، فسأل عنها فقيل له هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبى من اليهود، فقال: إنا لا نستعين بكافر على مشرك، وأمر بردهم، وكانوا ثلاثمائة. ثم زحف بالسبعمائة إلى مكان فى منتصف الطريق بين المدينة وأحد، واستعرض عند ذلك المكان جيشه فرد من استصغر وأقام بالمكان ليلته(١).

* التنظيم للمعركة:

وفى فجر السبت تحرك الرسول بجيشه حتى وصل إلى سفح أحد، ثم صعد المسلمون مرتفعًا احتلوه، وكان ظهرهم لجبل أحد ووجههم للمدينة. أما المشركون فكانوا ببطن الوادى قرب سفح الجبل، وكان على ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل، وعلى المشاة صفوان بن أمية، وعلى الخيالة عمرو بن العاص، ورأى ذلك القائد الأعظم محمد بن عبد الله فجعل الزبير بن العوام بإزاء خالد، وجعل آخرين أمام الباقين، واستحضر الرماة وكانوا خمسين رجلاً يرأسهم عبد الله بن جبير الأنصارى فرتبهم خلف الجيش على ظهر الجبل، وأمرهم بالبقاء فى مكانهم مهما كانت نتيجة القتال، نصرًا أو هزيمة، وأفهمهم أن مهمتهم منع أى حركة تطويقية يحاولها أحد جناحى العدو ابتغاء حصر المسلمين بين نارين.

ثم عدل عليه السلام الصفوف، فوقف مصعب بن عمير بلواء المهاجرين فى القلب، ووقف كل من الأوس والخزرج فى الجناحين. ثم أصدر النبى أمرًا عامًا يمنع فيه عساكره من محاولة الاشتباك مع المشركين قبل صدور أمره إليهم بذلك؛ لأنه كان يعرف -كما يعرف كل قائد حازم- أنه لما كان عدد المشركين يزيد على عدد المسلمين كثيرًا فلا سبيل للنصر إلا بالاعتصام بالمركز الذى صف عليه جنوده، ويجعل تصريف حركات جيشه فى يده وحده.

---

(١) المختار من سيرة ابن هشام جـ١ ط الشعب ص ٧٨ و ٧٩، وابن الأثير جـ٢ من ١٠٣ - ١٠٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

* المعـركـة:

ابتدأ القتال بالمبارزة كعادة العرب، وكان أول من خرج من صفوف المشركين أبو عامر الراهب الأوسى الذى كان يعتقد أن مجرد ظهوره أمام أهل المدينة يؤدى إلى انتقال كثير منهم إلى صفوف المشركين، ولكنه عندما صاح قائلاً: أنا أبو عامر. أجابه الأوس: لا أنعم الله بك عينًا يا فاسق، ورده طلحة بن عبد العزى -صاحب لواء المشركين - إلى الصفوف، وتقدم هو فبرز له على بن أبى طالب وقتله، فتقدم عثمان أخو طلحة وتناول اللواء ورفعه وتقدم للمبارزة، فخرج إليه حمزة وقتله. وتناول اللواء بعد عثمان أخوان وثلاثة من أولاد طلحة قتلوا كلهم واحداً بعد الآخر، ثم حملت خيالة المشركين على ميسرة المسلمين ثلاث حملات كانت تتراجع فيها من شدة ضربات النبل حتى وهنت الخيل، واندفع المسلمون وهم يصيحون: أمت أمت، وكان حمزة وعلى والزبير وأبو دجانة يصولون فى الجيش حتى ترنح خط المشركين، وابتدأ فى التداعى، وفى أثناء المعمعة كان نساء المشركين يضربن بالدفوف، وينشدن الأشعار لإثارة عواطف الرجال، ومما قلنه:

ويها بنى عبد الدار. ويها حماة الأدبار. ضربًا بكل بتار(١)

و: إن تقبلوا نعانق. ونفرش النمارق. أو تدبروا نفارق

فراق غير وامق(٢)

وكان - عليه السلام - كلما سمع نشيد النساء يقول: «**اللهم بك أحول، وبك أصول، وفيك أقاتل؛ حسبى الله ونعم الوكيل**» فأجاب الله الدعاء، وانتصر المسلمون انتصاراً عظيمًا، وولت بعض الفرق القرشية الأدبار، وأوشكت نسوتها أن يؤخذن أسيرات ذليلات، وتركت غنائم كثيرة، فاشتغلت بعض فرق الجيش الإسلامى بجمع هذه الغنائم.

ورأى الرماة الذين يحفظون ظهور المسلمين فوق الجبل أنه لا داعى لوقوفهم بعد أن رأوا العدو ينسحب حتى تجاوز خيامه، فاندفعوا من مرتفعهم، وتفرقوا فى الميدان لجمع الغنائم، ونسوا أمر النبى بعدم التحول عن أماكنهم مهما كانت نتيجة المعركة على الرغم من تذكير رئيسهم بالأمر وثباته(٣).

---

(١) الأدبار: يردن الذين يحمون أعقاب الناس، والبتار السيف القاطع.

(٢) النمارق: جمع نمرقة وهى الطنفسة فوق الرحل، وامق: محب.

(٣) وفى حق المفارقين للجبل والثابتين، نزل قوله تعالى: ﴿**مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ**﴾ [آل عمران: ١٥٢].

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولما رأى خالد بن الوليد، قائد جناح المشركين، خلو المرتفع من الرماة انطلق ببعض فرقته فقتل من ثبت من الرماة، وعلى رأسهم رئيسهم واستولى على المرتفع، وفجأ المسلمين من الخلف مفاجأة أذهلتهم، وفى لحظات مال ميزان الفوز فى جانب المشركين، فقد انتقضت صفوف المسلمين واختلطوا من غير شعور، وصار يضرب بعضهم بعضا، ورفعت إحدى نساء المشركين اللواء فاجتمعوا حوله وكان من المشركين رجل يقال له ابن قمئة قتل مصعب بن عمير صاحب اللواء، وأشاع أن محمداً قد قتل، فدخل الفشل فى قلوب المسلمين، والتجأوا بغير نظام إلى مرتفعات أحد. وأحاط الخطر بالنبى، ولكن بعض المهاجرين والأنصار عملوا جهدهم فى منع سهام وحجارة المشركين عنه، عليه الصلاة والسلام، ورغم ذلك فقد شج وجهه ورأسه وجرحت وجنتاه بسبب دخول حلقتى مغفر خوذته عليه السلام فيهما بسبب رمية.

وقد أنهكت الجراح الرسول حتى أغمى عليه، وفى هذا الوقت قتل حمزة - سيد الشهداء - فقد غافله وحشى وضربه بحربة لم تخطئ ثنايا بطنه، وجرح أبو بكر وعمر، وفى هذا الوقت أيضًا بدأ بعض المسلمين يتساءلون ويقولون: علام نقاتل إذا كان محمد قد قتل! فلنرجع إلى قومنا، فوافق فريق، وقال فريق آخر: إذا كان محمد قتل فقاتلوا أنتم عن دينكم.

وكانت شائعة قتل النبى وعدم تكذيبها فى أول الأمر سببًا فى خفة وطأة قريش على المسلمين لاعتقادها أنها قد نالت الهدف من الحرب، وليس بينها وبين المدينة عداوة تدعو إلى استمرار القتال؛ على أنه بعد لحظات أقبل كعب بن مالك ناحية أبى دجانة ومن معه، فعرف محمداً فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين.. أبشروا! هذا رسول الله، فأشار إليه النبى ليسكت، ولكن الخبر انتشر، ولم يصدقه أكثر المشركين، وظنوها صيحة أريد بها شد عزائم المسلمين؛ وكانت تلك الصيحة سببًا فى أن النبى طلب أن يصعد هو ومن معه إلى مرتفع ليعرف ماذا سيكون من قريش: أتريد المدينة، أم تنصرف إلى مكة؟ أم ماذا؟.

لكن قريشًا ظنت أنها شفت نفسها مما تجد من عار بدر فاكتفت بما حدث وعولت على الانصراف، فصعد أبو سفيان ربوة وصاح بأعلى صوته بحيث يسمعه من فى الشعب الذى كان قد صعد إليه النبى قائلاً: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، والموعد

شبكة الألوكة - قسم الكتب

العام المقبل، أما إنكم ستجدون فى قتلاكم مثلة والله ما رضيت ولا أمرت ولا نهيت(١). فأمر عليه السلام أن يُرَد عليه: بنعم هو بيننا وبينك موعد، ثم انصرفت قريش بعد أن دفنت قتلاها الذين يبلغون العشرين.

ولما غابت قريش عن الأنظار نزل المسلمون إلى ميدان الموقعة، وتفقدوا القتلى فإذا بهم أربعة وسبعون، منهم أربعة من المهاجرين، والباقون من الأنصار. وحزن الرسول على القتلى عامة وعلى عمه حمزة وما حدث به من تمثيل بصفة خاصة، ثم أمر بدفن الشهداء كلهم بأحد، كل شهيد بثوبه الذى استشهد فيه، وكان ذلك إيذانًا برجوع المسلمين للمدينة فرجعوا، ودخل النبى بيته وصار يفكر: ها هم أولاء أهل يثرب من اليهود والمنافقين والمشركين يظهرون السرور أشد السرور لما كان من هزيمته وهزيمة أصحابه، وهذا سلطان المسلمين بالمدينة كان قد استقر فلم يبق لأحد أن ينازع فيه، وها هو ذا يوشك أن يضطرب ويتزعزع، فلا بد من استرداد هيبة المسلمين وذلك لا يكون إلا بضربة جريئة تخفف من وقع هزيمة أحد، وترد إلى المسلمين قوتهم المعنوية وتدخل فى روع اليهود والمنافقين الرهبة، وتعيد إلى الرسول وأصحابه سلطانهم بيثرب قويًا كما كان.

ولهذا أصدر أمره فى صباح الغد من أحد - ١٦ من شوال - لبلال بأن ينادى فى أنحاء المدينة بأن الرسول عازم على السير لقريش وأن لا يخرج إلا من كان معه بالأمس فاستجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح، فضمدوا جراحاتهم، وخرجوا فسار بهم النبى حتى بلغ حمراء الأسد - موضع على ثمانية أميال من المدينة فى طريق مكة- وبلغ أبا سفيان ومن معه وهم بالروحاء خروج الرسول فى أثرهم فظنوا أنه قد حضر معه من لم يحضر بالأمس. بل وصل الظن إلى درجة اليقين حينما مر بهم معبد الخزاعى - وكان لا يزال على الشرك - وقال لهم: إن محمداً قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط، وقد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه، وكلهم

---

(١) لم تكتف هند بنت عتبة بالنصر وقتل حمزة، بل انطلقت هى والنسوة اللاتى معها يمثلن بالقتلى من المسلمين، يجدعن الأنوف والآذان، وجعلت هند لنفسها منها قلائد وأقرطا! ثم إنها بقرت بطن حمزة وجذبت بين يديها كبده وجعلت تلوكها بأسنانها فلا تستطيع أن تسيغها، وبلغ من شناعة ما فعلت - وما فعل النسوة ممن معها، بل ما فعل الرجال كذلك من الفظائع - أن تبرأ أبو سفيان من تبعتها وأعلن أنه لم يأمر به ولم يسره.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أشد ما يكون عليكم حنقًا، ومنكم للثأر طلبا[1]. وبعد أن كان المشركون يتلاومون على ترك المسلمين من غير شن الغارة على المدينة حتى يتم لهم النصر، ويكادون يجمعون على الرجوع تزعزعت هممهم، وآثروا أن يُبقوا على نصرهم بأحد، واستمروا فى سيرهم إلى مكة، وبقى الرسول فى حمراء الأسد ثلاثة أيام متتابعة ليدل قريشًا على أنه على عزمه وأنه منتظر رجعتهم ومستعد لحربهم. ثم عاد إلى المدينة، وقد استرد كثيراً من مكانة تزعزعت على أثر أحد، وضمن عدم رجوع قريش إلى المدينة، وكانت غزوة حمراء الأسد هى الحلقة الختامية للسنة الثالثة من الهجرة.

*** أسباب النصر.. ثم الهزيمة فى أحد**

أولاً: أسباب النصر فى أول المعركة

١- **قوة العقيدة والإيمان**: إن ظفر المسلمين فى صبيحة يوم أحد سببه الإيمان الصادق بأنهم على الحق، ومن آمن بالحق لا تزعجه قوة مادية مهما عظمت، ولا تضعف من عزمته كل قوات الباطل وإن اجتمعت ولذلك تمزقت قريش فى ثلاثة آلاف من فرسانها أمام هجمات ستمائة أو سبعمائة مسلم، وأوشكت نسوتها أن يؤخذن أسيرات ذليلات.

٢- **مهارة الرسول الحربية**: وذلك بوضعه الرماة فى شعب الجبل يصدون الفرسان بالنبل فلا يتقدمون ولا يأتون المسلمين من خلفهم، ولا شك أن السبب الأول أقوى، ففى الواقع أن انتصار المسلمين فى صبيحة أحد كان معجزة من المعجزات.

ثانياً: سبب الهزيمة بعد النصر

١- **مخالفة الرماة أمر الرسول**: انهزم المسلمون بعد الانتصار لمخالفة الرماة أمر الرسول بتركهم أماكنهم، واشتغالهم بجمع الغنائم، وعرض الدنيا.

*** نتائج أحد**

بقدر ما كان انتصار المسلمين فى بدر ذا أهمية كبرى كانت هزيمة أحد درسًا عظيمًا للمسلمين فى لزوم طاعة الرسول، والأخذ بأسباب الحيطة والثبات وعدم التنازع، وأن تكون الأعمال كلها لله غير منظور فيها لعرض الدنيا.

---

(١) ابن الأثير جـ٢ ص ١١٤، والمختار من السيرة ص ٨٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وكان يوم أحد يوم بلاء ومصيبة وتمحيص، اختبر الله به المؤمنين، وامتحن المنافقين، وكان يومًا أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته، فقد استشهد ٧٤ أو ٧٥، وكان بيانًا للمسلمين أنهم إن مسهم قرح فقد مس القوم قرح مثله ﴿ **إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ** ﴾ [آل عمران : ١٤٠] وأن النصر للصابرين.

وكان من نتائج يوم أحد أيضًا قتل أبو عزة الجمحى الذى منّ عليه الرسول فى بدر، ثم نقض العهد وخرج فى أحد. وأسره المسلمون(١)، وكذلك كان من آثاره ائتمار القبائل المجاورة، وقد فصل النصف الثانى من سورة آل عمران غزوة أحد.

(١) المختار من السيرة ٨٥ و ٨٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ما بين أحد وبدر الثانية

سرية بنى أسد، الرجيع، بئر معونة، إجلاء بنى النضير عن المدينة

أسلفنا أن أبا سفيان واعد المسلمين على اللقاء مرة ثانية فى العام المقبل، فلم يقم قتال بين المدينة ومكة أثناء السنة الرابعة من الهجرة، ولكن قريشًا كانت تحرض القبائل على مناوأة المسلمين، وكانت عيون الرسول تأتى إليه بأخبار تلك الحركات العدائية قبل وقوعها فيرسل إليها من يقمعها ويقضى عليها قبل استفحالها. وأول تلك الحركات ما وصل إلى علم رسول الله من استعداد بنى أسد - حلفاء قريش - لمهاجمة المدينة، فأسرع إلى تسيير سرية يقودها أبو سلمة المخزومى، وأمره بالسير إلى أراضى بنى أسد فسار فى هلال المحرم حتى بلغ قطنا - جبل لبنى أسد، شرقى المدينة - فأغار عليهم فهربوا من منازلهم ووجد إبلاً وغنمًا فأخذها وساقها إلى المدينة التى وصل إليها بعد أحد عشر يومًا من خروجه منها.

وفى نفس الشهر بلغ الرسول عليه السلام أن سفيان بن خالد الهذلى المقيم بعرنة - موضع قريب من عرفات - يجمع الجموع لمهاجمة المدينة فقطع الرسول دابر تلك الحملة بأن أرسل من قتل قائدها بحيلة(١)، ورجع إلى المدينة ولم يلحقه الطلب، فعزمت هذيل على الانتقام لقائدها وسيدها، فطلبت من قبيلة حليفة لها وهى عضل أن تطلب من النبى رجالاً لتفقيههم فى الدين بدعوى أن فيهم استعداداً للإسلام، ورحب الرسول بذلك - كعادته - فبعث معهم ستة من المسلمين فساروا حتى وصلوا إلى الرجيع - ماء لبنى هذيل بين مكة وعسفان - فغدر بهم بنو عضل والقارة ودلوا عليهم هذيلا فقتلوا منهم أربعة، وأما الاثنان فباعوهما بمكة لبعض الموتورين فى بدر فقتلوهما بعد ذلك، وفى ذلك يقول أحدهما، وهو خبيب بن عدى حين أرادوا قتله:

ولست أبالى حين أقتل مسلما ... على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

وكانت تلك المأساة فى شهر صفر، وفى نفس الشهر وقعت بالمسلمين كارثة أكبر من كارثة الرجيع؛ ذلك أن أبا براء بن عامر ملاعب الأسنة - وهو من رؤوس بنى عامر -

---

(١) راجع فى ذلك نور اليقين ص ١٥٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

دعاه الرسول إلى الإسلام فلم يسلم ولم يبعد، بل قال: إنى أرى أمرك هذا حسنًا شريفًا، ولو بعثت معى رجالا من أصحابك إلى نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك، فقال عليه السلام: إنى أخشى عليهم أهل نجد، فقال أبو عامر: أنا لهم جار. فأرسل معه المنذر بن عمرو فى سبعين أو أربعين – على اختلاف الروايات– من أصحابه كانوا يسمون القراء، لكثرة ما يحفظون من القرآن. فساروا حتى نزلوا بئر معونة – شرقى المدينة بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم – فبعثوا حرام بن ملحان بكتاب إلى عامر بن الطفيل سيد بنى عامر، فلما وصل إليه لم يلتفت للكتاب بل عدا على حرام فقتله، واستصرخ بنى عامر فلم يجيبوه، وقالوا لن نخفر أبا براء فقد أجارهم، فاستصرخ بنى سليم، وعصية، ورعل، وذكوان فأجابوه وخرجوا حتى أحاطوا بالمسلمين فقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد الأنصارى فإنهم تركوه وبه رمق فعاش حتى قتل يوم الخندق.

وأُبلغ عليه السلام خبر القراء، وكان خبر هذه الكارثة يوم وصول كارثة الرجيع، فكان حزن النبى عظيمًا، وأقام يدعو على الغادرين بعد كل صلاة شهرًا كاملاً(١)، وتأثر المسلمون جميعًا لهذه الكارثة التى أصابت إخوانهم فى الدين، وإن آمنوا أنهم جميعًا استشهدوا وبأنهم جميعًا لهم الجنة، ووجد أهل المدينة من المنافقين واليهود فيما أصاب المسلمين بالرجيع وبئر معونة ما أعاد إلى ذاكرتهم انتصار قريش بأحد، وما أنساهم نصر المسلمين على بنى أسد، وما أضعف فى نفوسهم من هيبة محمد وأصحابه، وفكر النبى فى هذه الحالة تفكير سياسى دقيق النظر بعيد مرامى الرأى. فليس شيء أشد على المسلمين يومئذ خطرًا من أن تضعف فى نفوس مساكنيهم بالمدينة هيبتهم، وليس ما يطمع قبائل العرب فيهم أكثر من أن تشعر بهذا الانقسام الداخلى الذى يوشك أن يثير حربًا أهلية إذا غزا المدينة غاز من جيرانها، ثم إنه رأى اليهود والمنافقين كأنهم يتربصون به الدوائر، فقد رأى لا شئ خير من أن يستدرجهم لتتضح نياتهم.

ولما كان اليهود من بنى النضير حلفاء لبنى عامر، فقد ذهب إلى محلتهم على مقربة من قباء فى عشرة من كبار المسلمين بينهم أبو بكر وعمر وعلى، وطلب إليهم

---

(١) راجع فى هاتين المأساتين المختار من سيرة ابن هشام ص ٨٦ و٨٧، وابن الأثير جـ٢ من ١١٥ – ١١٨ ونور اليقين من ١٥٣ – ١٥٥، وحياة محمد من ٢٩٦ – ٣٠٠، ومما ينبغى التعجيل به أن النبى قد انتقم لأصحاب الرجيع فى السنة السادسة للهجرة (غزوة بنى لحيان).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

معاونتهم فى دية القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية خطأ(١)، فتظاهروا بالقبول، وهم فى الحقيقة قد دبروا مؤامرة لقتله؛ بأن يأخذ أحدهم صخرة ويلقيها عليه من علو، وجاء الرسول الوحى بما عزم عليه القوم فقام وقال لأصحابه: لا تبرحوا مكانكم حتى آتيكم. وخرج راجعًا إلى المدينة، فلما أبطأ قام أصحابه فى طلبه فأخبرهم الخبر من اعتزامهم الغدر به وأمر بالتهيؤ لحربهم؛ وقبل أن يسير أرسل لهم محمد بن مسلمة الأوسى يقول لهم: اخرجوا من بلادى فقد هممتم بما هممتم من غدر. وأمهلهم عشرة أيام، فبدأ القوم يستعدون للرحيل، وبينما هم يتجهزون إذ جاءهم رسولان من عبد الله بن أبى يقولان لهم: لا تخرجوا من دياركم وأموالكم، فطمعوا بهذا الوعد وتأخروا عن الجلاء، ومضت مدة الإنذار فأمر الرسول بقتالهم، وسار إليهم وحاصرهم ست ليال بدون أن يظهر ضعف فى مقاومتهم فأمر الرسول بقطع نخيلهم وحرقها ليكون أدعى لتسليمهم فقذف الله فى قلوبهم الرعب ولم يصل إليهم من عبد الله بن أبى مساعدة، بل خذلهم كما خذل بنى قينقاع من قبل، فقبلوا الجلاء بشرط أن يكف الرسول عن دمائهم، ويترك لهم أموالهم وأمتعتهم إلا آلة الحرب فقبل الرسول ذلك، وصار اليهود يخربون بيوتهم بأيديهم كيلا يسكنها المسلمون، وجلا بنو النضير عن المدينة فنزل بعضهم بخيبر، وقصد بعضهم الآخر الشام.

*** أثر جلاء بنى النضير**

من السهل أن يقدر الإنسان قيمة نصر المسلمين وإجلاء بنى النضير عن المدينة، إذ تخلص النبى به من ثانى القبائل اليهودية المقيمة حول المدينة فضعف اليهود؛ وضعفهم يؤدى بالتالى إلى إضعاف العنصر الثانى المعادى للرسول، وهم المنافقون، ويبين أهمية جلاء بنى النضير أن سورة الحشر نزلت فيما كان منهم وما حل بهم، وفيما كان من المنافقين الذين شجعوهم على المقاومة، وما كان من الفوائد التى عادت على المسلمين من جلاء قبيلة من اليهود بأكملها عن المدينة ، فقد أصبحت أرضها ملكًا لمن اختص بها من المهاجرين وبعض الأنصار الفقراء، فاغتبط المهاجرون بما أصابوا من أرض اليهود، واغتبط الأنصار باستغناء المهاجرين عن معونتهم، وسُر الجميع بغنيمة السلاح الذى تركه بنو النضير(٢) بناء على شروط الجلاء.

---

(١) وقصة القتل بإيجاز أن عمرًا هذا كان فى طريقه إلى المدينة فلقى اثنين من بنى عامر فاغتالهما فى نومهما انتقامًا لكارثة بئر معونة، وكان معهما عقد من رسول الله لم يعلم به عمرو فلما وصل المدينة وأخبر النبى بذلك بادر إلى دفع ديتهما عملاً بقوانين العرب.

(٢) لم يخمس رسول الله ما أخذه من بنى النضير لأنه فيء لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، فللرسول أن يضعه حيث شاء فأعطاه للمهاجرين الأولين، ولما شكا سهل بن حنيف وأبو دجانة الفقر أعطاهما منه.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

من غزوة بدر الثانية أو الآخرة إلى غزوة الخندق

اطمأنت المدينة بعد إجلاء بنى النضير عنها، وسادتها فترة هدوء وسكينة وظلت كذلك حتى استدار العام منذ أحد، فذكر الرسول قولة أبى سفيان: يوم بيوم بدر، الموعد العام المقبل، فبدأ يستعد؛ غير أن قريشًا كانت مجدبة تلك السنة، فلم يتمكن أبو سفيان من إيجاد الوسائل لتنفيذ ما هدد به، ويود تأجيل اللقاء لعام آخر. وحتى لا يوسم بخلف الوعد عمل على تخذيل المسلمين عن الخروج؛ بإرساله رسولاً إلى المدينة يقول للمسلمين: إن قريشًا جمعت جيشًا لا قبل لجيش فى العرب بمواجهته، لتحاربهم به؛ حتى تقضى عليهم قضاء، لا يعتبر ما تم بأحد إلى جانبه شيئًا(١):

لم يلتفت الرسول إلى ما انتشر فى المدينة من الإرجاف بل خرج بألف وخمسمائة على استعداد للقتال ومعهم متاجر كثيرة، ولم يزل المسلمون سائرين حتى وصلوا إلى بدر فلم يجدوا بها أحدا، وأقام محمد فى جيش المسلمين ينتظرهم ثمانية أيام متتابعة اتجر المسلمون ببدر فيها فربحت تجارتهم، ثم عادوا إلى المدينة مستبشرين بفضل من الله ونعمة، وكان ذلك فى شعبان من السنة الرابعة من الهجرة.

أما المشركون فكانوا قد خرجوا فعلاً من مكة عملاً بمشورة أبى سفيان؛ إلا أنهم رجعوا بعد وصولهم إلى مر الظهران، وقيل إلى عسفان بعد مسيرة يومين لقلة ما لديهم من وسائل الحرب من المؤنة والعلف، وكان رجوعهم بمشورة أبى سفيان أيضًا، فسماهم أهل مكة جيش السويق وصاروا يقولون لهم: إنما خرجتم تشربون السويق(٢): وسميت الغزوة غزوة السويق كما سميت ببدر، وأيًا ما كان فقد محت غزوة بدر أو السويق أثر أحد محواً تاماً، ولم يبق لقريش إلا أن تنتظر عامًا آخر رازحة تحت عار من جبنها لا يقل وطأة عن عار هزيمتها فى بدر الكبرى. وفى بدر الآخرة هذه نزل قوله تعالى فى سورة آل عمرن ﴿ **الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٦٨-١٧٥].

---

(١) كان الرسول هو نعيم بن مسعود الأشجعى، وسيقوم فى غزوة الأحزاب بدور عظيم للمسلمين.

(٢) السويق يطلق على ما يصنع من الحنطة والشعير، وعلى الخمر.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أقام النبى بالمدينة مطمئنًا إلى ما عاد للمسلمين من هيبتهم؛ حذرًا دائمًا غدرة العدو، باثًا عيونه فى كل ناحية، وإنه لكذلك إذ اتصل به أن جماعة من غطفان بنجد يجمعون له، يريدون حربه، وكانت خطته أن يأخذ عدوه على غرة قبل أن يعد العدة لدفعه. لذلك خرج فى أربعمائة من رجاله حتى نزل ذات الرقاع[١]؛ حيث اجتمع بنو محارب وبنو ثعلبة من غطفان، فلما رآهم طلع عليهم فى عدة حربه مهاجمًا مساكنهم فتفرقوا تاركين نساءهم ومتاعهم، واحتمل المسلمون ما استطاعوا وعادوا أدراجهم إلى المدينة بعد غيابهم خمسة عشر يومًا عنها وهم بظفرهم جد فرحين. ثم خرج النبى بعد مرور زمن قليل إلى غزوة أخرى هى غزوة دومة الجندل[٢]. وسبب خروجه أنه بلغه أن جمعًا من الأعراب - الذين يشتغلون بمهاجمة المتاجر - عازمون على مهاجمة المدينة فسار إليهم فى ألف من المسلمين ولم يزل يسير بالليل ويكمن بالنهار حتى قرب منهم، فلما بلغهم الخبر تفرقوا، وتركوا للمسلمين ما احتملوا من غنائم، وبث الرسول السرايا فلم تجد منهم أحدًا فرجع عليه السلام غانمًا، وصالح وهو عائد عيينة بن حصن الفزارى، وهو الذى كان يسميه عليه السلام الأحمق المطاع لأنه كان يتبعه ألف سيف، وأقطعه عليه السلام أرضًا يرعى فيها بهمه على بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة؛ لأن أرضه كانت قد أجدبت.

ويمر مؤرخو السيرة على هذه الغزوة مرًا طفيفًا مع أنها خطوة مهمة فى انتشار الإسلام إلى قرب الشام، فلم يكن جيش الرسول بالفئة القليلة حتى إنه يذهب إلى دومة الجندل ويرجع منها من غير أن تشعر به القبائل الساكنة بين المدينة وأطراف الشام الجنوبية، بل كان معه ألف رجل فأحست القبائل بقوة الإسلام وعزته، ويضاف إلى ذلك أنه كان فى تجشم المسلمين زحفًا طويلاً تدريب على السير إلى الحرب البعيدة. فقد غاب جيش النبى فى تلك الغزوة ما يقرب من شهر، مستهينًا بالقيظ والجدب وقلة الماء بل الموت نفسه. ولا شك أن تلك الروح العالية، والقوة المعنوية سببها الإيمان بالله وحده لا شريك له.

---

(١) ذات الرقاع سميت بذلك لأجل جبل فى نجد - كانت الوقعة به - فيه سواد وبياض وحمرة، وفى هذه الغزوة نزلت صلاة الخوف.

(٢) دومة الجندل واقعة على الحدود ما بين الحجاز والشام تقع فى منتصف الطريق بين البحر الأحمر والخليج العربى، بينها وبين دمشق خمس ليال، وبينها وبين طيبة خمس عشرة ليلة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

غــزوة الأحــزاب (الخنــدق)

كانت قريش، وكان يهود بني قينقاع ويهود بني النضير، وعرب غطفان وهذيل والقبائل المتاخمة للشام تتربص كل واحدة منها بمحمد وأصحابه الدوائر، وتود كل واحدة منها أن تجد الفرصة لإدراك ثأرها من هذا الرجل الذى فرق العرب فى دينها شيعًا، والذى خرج من مكة مهاجرًا لا حول له ولا قوة إلا ما يملأ نفسه الكبيرة من الإيمان، وها هو ذا فى خمس سنين قد أصبح له من الحول والقوة ما جعله مرهوب الجانب، فانتصر على كثير من قبائل العرب وأخرج بنى قينقاع من المدينة، وأجلى بنى النضير عن ديارهم، وذهب كثير من هؤلاء وهؤلاء إلى الشام. فهل يسكتون ويطمئنون إلى ما حدث؟ أم يحاولون تأليب العرب عليه ليأخذوا بالثأر منه؟

كانت الفكرة الثانية هى التى اختمرت فى نفوس أكابر بنى النضير، وتنفيذاً لها خرج نفر منهم، ومن بينهم حيى بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق، وكنانة بن أبى الحقيق، ومعهم من بني وائل هوذة بن قيس، وساروا حتى قدموا مكة فسأل أهلها حييا عن قومه، فقال: تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا إلى محمد وأصحابه، وسألوه عن قريظة فقال: أقاموا بالمدينة مكراً بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم. وترددت قريش: أتقدم؟ أم تحجم؟ فليس بينها وبين محمد خلاف إلا على الدعوة التي يدعوها. أليس من الجائز أن يكون على حق ما دامت كلمته تزداد كل يوم رفعة وسموا؟ فقالت لليهود: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول وأهل العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد. أفديننا خير أم دينه؟ فأجاب اليهود: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه. وإلى ذلك يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾** [النساء: ٥١].

فكان قول اليهود هذا من الدوافع لقريش على الترحيب بالمحالفة، ثم خرج الوفد اليهودى من مكة قاصداً ديار غطفان، وهى قبيلة حربية لها خطرها فى صحراء بلاد العرب، وتقع على بعد ١٢٠ك.م إلى الشمال الغربى من المدينة، وقد انضم إلى هذا الحلف قبائل أخرى من العرب، مثل بنى مرة وبنى أسد، وأشجع، وسليم وفزارة وعلى رأسها عيينة بن حصن الذى كان النبى قد أكرمه بالسماح له بالرعى فى المراعى

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الخارجة عن المدينة حينما أجدبت أرضه، وبذلك بلغت قوات قريش وحلفائها عشرة آلاف محارب فساروا جميعًا تحت إمرة أبى سفيان، قاصدين المدينة.

وصلت أنباء هذه الحملة إلى الرسول فى شوال من السنة الخامسة للهجرة. وكعادته عليه الصلاة والسلام استشار أصحابه فيما يصنع: أيمكث بالمدينة مدافعًا؟ أم يخرج للقاء هذا الجيش الجرار؟ فقر الرأى على البقاء بالمدينة، والتحصن بها. ووجهة النظر فى هذا أن المشركين انتصروا فى أحد، وكانت أعدادهم تقل عن نصف الجيش الذى وصلت أخباره فلا سبيل إذًا لملاقاة قريش، بل إن الضرورة تقضى بالتحصن بالمدينة وترك قريش تهاجمها، فينهكهم التعب.

* **حفر الخندق:**

ولكن بدأ بعض المسلمين يتساءلون: أيكفى هذا التحصن أمام تلك القوة الساحقة؟ وقد أجاب عن هذا التساؤل سلمان الفارسى - الذى يعرف من أساليب الحرب ما لم يكن معروفًا فى بلاد العرب - بإشارته على الرسول بحفر خندق حول الجزء غير الحصين من المدينة، فرحب الرسول بالفكرة، وشرع المسلمون فى حفر الخندق من شرق المدينة إلى شمالها الغربى، وهو الجانب الذى تنطلق فيه الطرق إلى حدائق المدينة ونخيلها، وهذه الجهة هى التى كانت عورة المدينة(١)، وقد قاسى المسلمون صعوبات جسيمة فى حفر الخندق؛ لأنهم لم يكونوا فى سعة من العيش حتى يتيسر لهم العمل. ولإيمانهم ثبتوا، بينما تسلل المنافقون بغير علم رسول الله فأنزل الله فى ذلك ﴿**قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا**﴾ [النور: ٦٣].

وقد شاركهم الرسول فى احتفار الخندق، كما شاركهم من قبل فى بناء المسجد؛ يعمل بيده كواحد منه، ويحتمل فى ذلك من المشقة ما يحتملون ويلقى فيه من العناء ما يلقون، صابرًا جادًا، مثبتًا قلوب أصحابه مشجعًا لهم، وفى أثناء العمل كان ﷺ ينشد شعر ابن أبى رواحة:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

---

(١) أما بقية حدودها فكانت حصينة: ففى الشمال الغربى مرتفعات وتلال، وفى الجنوب والغرب كانت بيوت المدينة متراصة يلتصق بعضها ببعض إلى مسافات طويلة، يجعلها تكون سورًا منيعًا فلا يتمكن العدو من الحرب جهة هذه الحدود.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فـــــــأنـزلـن سـكـيـنـة عـلـيـنـا وثـبـت الأقـــــدام إن لاقــــينـا
والمشـــركــون قـــد بغـــوا عـلـيـنـا وإن أرادوا فــــــــتـنـة أبـيـنـا

فكان هذا الرجز وغيره يلقى الحماس فى قلوب المؤمنين، فتم حفر الخندق فى ستة أيام، وأقام المسلمون على حافته الداخلية حائطًا من الصخر ليقفوا وراءها من ناحية، وليكونوا بالمرصاد لمن يحاول من فرسان المشركين تخطى الخندق من ناحية أخرى ولتكون سلاحًا يرمى به عند الحاجة إليه من ناحية ثالثة. وحصن المسلمون أيضًا جدران المنازل التى تواجه مأتى العدو، والتى بينها وبين الخندق نحو فرسخين، وعند ذلك أخليت المساكن الواقعة خارج الخندق، وجىء بالنساء والأطفال إلى هذه المنازل التى حصنت.

وما كاد المسلمون ينتهون من هذه العمليات الحربية العظيمة حتى أتت الأخبار باقتراب المشركين من أحد، ونزولهم عنده فوجدوه قاعًا صفصفًا فجاوزوه إلى المدينة. وعندئذ اصطف المسلمون خلف الخندق، ووضعت فصيلة من الفرسان فى الوسط، وقيل أن تظهر طلائع الأعداء فى السهل الممتد أمام المدينة كان المسلمون - وعددهم ثلاثة آلاف - على أهبة القتال، والخندق أمامهم وجبل سلع المطل على المدينة يحمى ظهورهم.

*** المعركة**

وصلت قريش إلى خارج المدينة فى جموع كثيرة من أحابيشها وأحلافها، وجموع تأتى من أسفل المسلمين وهم قريش ومن جاء معهم، وجموع أخرى تأتى من فوقهم وهم أهل نجد من حلفاء قريش وجلهم من غطفان. ورأت هذه الجموع الخندق، فاعترتهم الدهشة، وداخلهم الاضطراب لعدم معرفتهم بوسائل القتال أمام الخنادق، ولم يكونوا يتوقعون هذا النوع من الدفاع المجهول لديهم، وبلغ منهم الغيظ حتى زعموا أن الاحتماء وراء الخندق جبن لا عهد للعرب به.

وبدأ رماة المسلمين يطلقون عليهم من خلفه سهامهم الفاتكة فانسحبوا سريعًا، وأخذوا يسوون صفوفهم على مسافة آمنة من مرمى السهام والنبال، واستمر الجيشان يرقب كل منهما الآخر لأيام قليلة نفد فيها صبر أبى سفيان الذى كان يعتقد أن محق المسلمين ما هو إلا رهن لقائهم فى المعركة، وكان وَعَدَ حلفاءه بالغنائم السريعة السهلة ثم يعودون أدراجهم يتغنون بأناشيد الفوز، ثم تبين له أن الأمر مختلف تمام

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الاختلاف، وأنه يحتاج إلى وقت طويل لا يؤمن معه أن تفكر بعض القبائل فى ترك القتال والعودة، لاسيما والشتاء قارس البرد، وأهل المدينة يمكنهم المقاومة شهوراً طويلة ما دام بنو قريظة يمدونهم بالمؤنة.

فكر أبو سفيان فى كل هذا، وبدأ يقدر أن من الخير للأحزاب أن يعودوا أدراجهم ويتركوا الأمر لفرصة أخرى؟

نعم، لكن جمع هؤلاء الأحزاب لحرب محمد ليس بالأمر الميسور، وقد استطاع اليهود - وحيى بن أخطب على رأسهم - أن يجمعوها هذه المرة للانتقام لأنفسهم من محمد وأصحابه عما أوقع بهم. فإن أفلتت هذه الفرصة فهيهات هيهات أن تعود. ثم لا شك أن انسحاب الأحزاب انتصار لمحمد، وبعد ذلك الويل كل الويل لليهود، فلو أن بنى قريظة نقضوا عهدهم مع المسلمين لفقد الخندق قيمته فى الدفاع من ناحية، ولانقطع المدد والميرة من ناحية أخرى.

وكما قدر أبو سفيان ذلك كله قدره أيضًا حيى بن أخطب، فتلاقت الفكرتان، وأوحى حيى إلى الأحزاب أنه مقنع بنى قريظة بنقض عهد موادعتهم محمداً وأصحابه وبالانضمام إليهم، وسرى عن الأحزاب بما ذكر حيى، وبدأت المحادثات تجرى سراً بين حيى وكعب بن أسد صاحب حصن بنى قريظة، وانتهت بعد حوار إلى الموافقة على انضمامه إلى الأحزاب، ونقض عهده مع محمد والمسلمين(١)؛ على أن تمهل الأحزاب قريظة عشرة أيام تعد فيها عدتها وتتحصن من المسلمين، وعلى أن تقاتل الأحزاب المسلمين فى هذه الأيام العشرة أشد القتال.

ووصلت أنباء هذه الاتفاقية إلى الرسول فبعث سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير ليقفوا على جلية الأمر على أن يلحنوا به عند عودتهم(٢) إن كان حقًا حتى لا يفتوا فى أعضاد الناس، فلما أتى هؤلاء الرسل قريظة وجدوها على أخبث ما بلغهم عنها، فقد نال كعب من رسول الله ﷺ وقال: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد!

وحدثت مشادة بين بنى قريظة، وسعد بن معاذ، ثم رجع الرسل إلى النبى فسلموا عليه، وقالوا: عضل والقارة - أى كغدر عضل والقارة أصحاب الرجيع - فاشتد الأمر

(١) راجعوا الحوار فى المختار من سيرة ابن هشام ص ٧٩، وابن الأثير جـ٢ ص ١٢٣ وهامشها. ط. منير.
(٢) اللحن هنا الإشارة والتعريض.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

على الرسول واشتد الوجل على المسلمين، وزلزلوا زلزالاً شديداً لأن العدو جاءهم من فوقهم، ومن أسفل منهم، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر.

ولا غرابة أن يبلغ الفزع من المسلمين مبلغًا عظيمًا، فقد كان الحصار شديداً عليهم، فقد صاحبه ضيق على فقراء المدينة، وقطعت قريظة المدد والميرة عن المسلمين عامة منذ تم اتفاقها مع الأحزاب، والأحزاب نفسها قد استعدت للقتال حسب الاتفاق أيضًا. وقريظة عما قريب تدخل الميدان، والمنافقون يجهرون بما يريدون. فقد قال بعضهم: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر(١) وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط! وقال بعضهم الآخر لرسول الله: إن بيوتنا عورة من العدو فأْذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دورنا فإنها خارج المدينة.

ويضاف إلى ما سبق، الخطر الداهم الذى يهددهم به عبد الله بن أبى، ذلك الشيطان الرجيم الذى انسحب يوم أحد بثلث الناس من صفوف المسلمين، فإنه كان قد أعد العدة لطعن المسلمين من الخلف وإشعال ثورة فى المدينة من عناصر المنافقين، فكان من الضرورى حماية قلب المدينة نفسها بما فيها من نساء المسلمين وأطفالهم، فأرسل النبى فرقة من الجيش عددها ثلاثمائة إلى داخل المدينة. وظلت جنود تلك الفرقة تغدو وتروح فى شوارعها ليلاً ونهاراً.

هذا ما كان فى معسكر المسلمين، أما ما حدث فى معسكر المشركين، فإن أبا سفيان القائد العام قرر اقتحام الخندق ومقاتلة المسلمين تنفيذاً لاتفاقية بنى قريظة، ورفعًا للروح المعنوية بين جنود الحلفاء، فتوجه بعض فرسان قريش لاقتحام الخندق بأفراسهم، وكان منهم عكرمة بن أبى جهل وعمرو بن عبد ود، ونوفل بن عبد الله، وضرار بن الخطاب، فقصدوا مكانًا ضيقًا منه وضربوا خيلهم فاجتازت الخندق وجالت بهم فى السبخة بين الخندق وسلع، وكانت لحظة حرجة تأججت فيها نار الحماسة، واندفع فيها على بن أبى طالب كالسهم، ومعه بعض الجنود لسد الثغرة التى فتحها بعض فرسان المشركين وقطع خط الرجعة عليهم.

---

(١) إشارة إلى ما رواه المؤرخون من أنه بينما كان سلمان الفارسى مع جماعة يعملون فى حفر الخندق صادفوا صخرة كسرت المعول، فأخبروا الرسول بذلك فهبط إليها وضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها بارقة أضاءت ما بين لابتى المدينة، فكبر الرسول، وكبر المسلمون، فضربها ثانية وثالثة، وهى تضىء فى المرتين. ثم خرج فسأله سلمان عما رأى فقال الرسول: أضاءت الحيرة وقصور كسرى فى البرقة الأولى وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها، وأضاء لى فى الثانية القصور الحمر من أرض الشام والروم وأخبرنى أن أمتى ظاهرة عليها، وأضاء لى فى الثالثة قصور صنعاء وأخبرنى أن أمتى ظاهرة عليها، فابشروا – ابن الأثير جـ ٢ ص١٢٢، ١٢٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ووقف عمرو بن عبد ود يتحدى ويطلب المبارزة فتقدم له على بن أبى طالب وبارزه فقتله، ورأى زملاؤه ذلك وما يحيط بهم، فولوا الأدبار عائدين من حيث أتوا فنجحوا فى اقتحام الخندق إلا نوفل بن عبد الله فقد زلت قدم فرسه فسقط هو وراكبه فيه فصرعا وتحطما، وانتهى اليوم الأول على ذلك، وأعظمت الأحلاف نيرانها مبالغة فى تخويف المسلمين، وعزم المشركون على تركيز كل قواتهم على حافة الخندق ومحاولة اقتحامه بجموعهم فى الصباح، وقد قاموا بذلك فعلاً إلا أنهم لم ينالوا غرضًا وانتهى اليوم الثانى على ذلك وقد بلغت خسارة المسلمين خمسة وجريحًا واحداً هو سعد بن معاذ(١)، وخسارة المشركين ثلاثة.

لكن قلة الجرحى والقتلى لم تكن مقياسًا لما حل بالمسلمين من التعب؛ فقد باتت فئاتهم تحرس الخندق ليلاً ونهارًا، واستمر أبو سفيان يشن الغارة على الخندق ليلا ونهارا أيضًا دون انقطاع حتى تصرمت عشرة أيام، وبدت بوادر غدر بنى قريظة خلال هذه الأيام العشرة، فقد بدأ المتحمسون منهم ينزلون من حصونهم إلى منازل المدينة القريبة منهم يريدون إرهاب أهلها، وخشى الرسول أن يعجل القرظيون بالغدر فيزحفوا على المدينة ويصبح المسلمون على ما هم فيه بين عدوين.

واتقاء لهذا وما يترتب عليه فكر فى محاربة قريش بنفس الوسيلة التى استخدمتها فى استمالة بنى قريظة، فأرسل إلى عيينة بن حصن الفزارى، والحارث بن عوف المرى قائدى غطفان فراوضهما أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة على أن ينصرفا بجيوش غطفان فقبلا.

ولكنه قبل أن يبرم الأمر أرسل إلى السعدين؛ سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، فاستشارهما فيما رأى فقالا: يا رسول الله؛ أمرًا تحبه فنصنعه أم شيئًا أمرك الله به لابد لنا فنعمل به؟ أم شيئًا تصنعه لنا؟ قال: «**بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما**».

فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله. قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو

(١) فقد أصابه سهم فى ذراعه قطع إكحله، وقد مات بعد حكمه على بنى قريظة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا، والله ما لنا بهذا حاجة، والله ما نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم..

فقال عليه السلام: أنت وذاك(١). وأعجب النبى بحماسة الأنصار وترك ذلك الأمر. وفوض أمره إلى ربه اللطيف بعباده المدبر لأمورهم من حيث لا يعلمون.

فقد جاء فى هذا الوقت نعيم بن مسعود الأشجعى وهو صديق قريش واليهود، ومن غطفان، إلى رسول الله وقال: يا رسول الله إنى قد أسلمت وقومى لا يعلمون بإسلامى فمرنى بأمرك حتى أساعدك. فقال الرسول: أنت رجل واحد، وماذا عسى أن تفعل؟! ولكن خذل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة. فخرج نعيم من عنده وتوجه لبنى قريظة، وكانت لا تعرف أنه أسلم، وكان نديمًا لهم فى الجاهلية، فذكرهم بما بينه وبينهم من مودة، وحذرهم من الاستمرار على محالفة قريش إذ قال لهم: لقد رأيتم ما وقع لبنى قينقاع والنضير من إجلائهم وأخذ أموالهم وديارهم، وأن قريشًا وغطفان ليسوا مثلكم؛ فهم إذا رأوا فرصة انتهزوها وإلا انصرفوا لبلادهم، وأما أنتم فتساكنون الرجل (يريد الرسول) ولا طاقة لكم بحربه إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا رهنًا من أشرافهم يكونون بأيديكم، فاستحسنوا رأيه وأجابوه إلى ذلك، وطلب منهم كتمان ما حدثهم به، ثم خرج من عندهم وتوجه إلى قريش واجتمع برؤسائهم وقال: أنتم تعرفون ودى لكم ومحبتى إياكم وفراقى لمحمد، وإنه قد بلغنى أمر قد رأيت على حقًا أن أبلغكموه نصحًا لكم، فاكتموه عنى: قالوا: نفعل: فقال: إن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ من القبيلتين - قريش وغطفان - رجالاً من أشرافهم فنعطيهم لك فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم؟؛ فأرسل إليهم: أن نعم: فإن طلبت منكم يهود أحداً من أشرافكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحداً.

ثم جاء نعيم لغطفان فلعب بعقولهم بمثل ذلك. وقد نجحت تلك المناورة الماهرة نجاحًا تامًا، إذ أراد أبو سفيان أن يستجلى ما جاء به نعيم، فأرسل وفداً لقريظة يدعوهم للقتال غداً، وكان ذلك ليلة سبت فأجابوه أنهم لا يحاربون يوم السبت وأنه لم يصبهم ما أصابهم إلا من التعدى فيه، ومع ذلك فإنهم لن يدخلوا القتال حتى

---

(١) نبى البر ص ٩٠، وابن الأثير جـ٢ ص ١٢٤.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يأخذوا رهائن من أشراف قريش يكونون بأيديهم ثقة لهم فتحققت قريش وغطفان كلام نعيم بن مسعود وتفرقت القلوب، بل وبدأ الأحزاب يخافون مهاجمة بنى قريظة لمؤخرتهم، وهم مشغولون بقتال المسلمين على الخندق، فأمر أبو سفيان بوقف الهجوم العام الذى كان قد قرره. وكان الرسول - عليه الصلاة والسلام - قد ابتهل إلى الله الذى لا ملجأ إلا إليه، ودعاه بقوله: «**اللهم منزل الكتاب، اهزم الأحزاب. اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم**» وقد أجاب الله دعاءه عليه السلام، فأرسل على الأعداء فى ليلة مظلمة، عاصفة أشد ما يكون العصف؛ باردة أعظم ما يكون البرد، ممطرة مطراً غزيراً؛ أطفأت نيرانهم، وكفأت قدورهم على أسافيها، واقتلعت خيامهم وأفسدت طعامهم، وأجفلت دوابهم، وجعلتهم يرتجفون من البرد وأدخلت الرعب فى قلوبهم، وخيل إليهم أن المسلمين انتهزوها فرصة ليعبروا إليهم وليوقعوا فيهم، فقام طليحة بن خويلد الأسدى ونادى: إن محمداً قد بدأكم بشر، فالنجاة النجاة. وقرر أبو سفيان الرحيل فحمل القوم ما استطاعوا حمله من متاع وارتحلوا فارين، وما تزال الريح تعصف بهم، ورحل جميع الأحزاب وتولى عمرو بن العاص وخالد بن الوليد حماية المؤخرة فى مائتى فارس ﴿**وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا**﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وأقبل الصباح فأرسلت الشمس أشعتها الدافئة، وانجلت السماء عن صفحة صافية زرقاء، ونظر المسلمون إلى الجانب الآخر من الخندق، فلم يجدوا من الآلاف أحداً فانصرفوا راجعين إلى منازلهم؛ رافعين أكف الضراعة إلى الله، شكراً، أن كشف الضر عنهم، وكان ذلك فى ذى القعدة من السنة الخامسة للهجرة.

وقد ذكر الله قصة الأحزاب فى سورة سميت باسمهم وهى السورة الثالثة والثلاثون، فوصف فيها حال المؤمنين أبرع وصف وأنفذه إلى القلوب، وذكر المسلمين به بعد الموقعة ليعرفوا عظيم نعمته عليهم، فاقرءوا الآيات من أول قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**.....﴾ إلى قوله ﴿**إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا**﴾ [الأحزاب: ٩-١٣]، والآيات ﴿**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ**....﴾ إلى قوله ﴿**وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا**﴾ [الأحزاب: ٢٢-٢٥].

شبكة الألوكة - قسم الكتب

* غزوة بنى قريظة

لما عاد عليه السلام بأصحابه إلى منازلهم بالمدينة وأراد أن يخلع لباس الحرب جاءه الوحى يأمره بالقضاء على بنى قريظة(١)؛ حتى يطهر دار الإسلام من قوم جبلوا على الخيانة والغدر فلا تنفع معهم الوعود، ولا تربطهم المواثيق فأمر عليه السلام مناديًا فنادى فى الناس: من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة، ومع ما كان عليه المسلمون من نصَب بعد طول حصار الأحزاب فقد خفوا لهذا القتال فخرج ثلاثة آلاف، وحين رأى بنو قريظة جيش المسلمين ألقى الله الرعب فى قلوبهم وأرادوا التنصل مما فعلوا ولكن أنى لهم ذلك؟ وقد ثبت للمسلمين غدرهم فلا مناص من مقاتلتهم، فأسرعوا بإغلاق حصونهم عليهم فحاصرهم المسلمون، وقد ظل هذا الحصار خمسة وعشرين يومًا أو شهرًا. لم يجرؤ بنو قريظة خلاله على الخروج من الحصون مرة واحدة، وأيقنوا أنه إذا استمر الحصار أكثر من ذلك فسوف سيموتون جوعًا، وأن حصونهم غير مانعتهم من الهلاك شيئًا بل لابد من وقوعهم فى قبضة المسلمين، وحينئذ أرسلوا إلى الرسول يطلبون أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من الجلاء بالأموال وترك السلاح فلم يقبل الرسول، فعادوا وطلبوا أن يجلوا بأنفسهم من غير سلاح فلم يقبل أيضًا، وقال لابد من النزول والرضا بما يحكم عليهم، خيرًا كان أو شرًا.

فقالوا له: ابعث لنا أبا لبابة نستشيره فى أمرنا - وكان أبو لبابة من الأوس حلفائهم - فأرسله إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال وبكى النساء والأطفال فرق لهم، فقالوا له: ترى يا أبا لبابة أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه - يريد أن الحكم الذبح(٢) - ونزل من عندهم فأرسلوا إلى الأوس يقولون لهم: ألا

---

(١) المختار من سيرة ابن هشام ص ٩٢، وابن الأثير جـ ٢ ص ١٢٦، ١٢٧.

(٢) نبى البر ص ٩٣ وابن الأثير جـ ٢ ص ١٢٧، ويفسر الدكتور هيكل فى حياة محمد ص ٣٢٩ الإشارة على أن معناها الذبح إن لم تفعلوا من النزول على حكم محمد، وهذا لا يتفق مع ما روته المصادر القديمة، فبعضها يقول: وأشار بيده إنه الذبح، ويدل على ذلك أن أبا لبابة عرف أنه قد خان الله ورسوله فيقول: فما زالت قدماى حتى عرفت أنى قد خنت الله ورسوله، ولما نزل من عند حلفائه قصد المدينة لخجله من مقابلة الرسول، وربط نفسه فى سارية من سوارى المسجد حتى يقضى الله فيه أمره أو يتوب عليه، فتاب الله عليه، ونزل فيه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧] قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تأخذون لإخوانكم مثلما أخذت الخزرج لإخوانهم – يقصدون بني قينقاع – فمشى جماعة من الأوس إلى الرسول وسألوه أن يعاملهم كما عامل بني قينقاع حلفاء إخوانهم من الخزرج، فقال لهم: «**ألا يرضيكم أن يحكم عليهم رجل منكم؟ قالوا: نعم. فقال رسول الله: فذاك سعد بن معاذ**»(١).

ويروى الدكتور هيكل فى ص ٣٣ أن الرسول قال للوفد: قولوا لهم – يعنى اليهود– فليختاروا من شاؤوا. فاختار اليهود سعد بن معاذ. وأيا ما كان فقد جيء بسعد، وأحضر رجال اليهود، وأيديهم موثوقة بالحبال خلف ظهورهم. وحمل سعد –لأنه كان جريحًا كما أسلفنا – إلى حيث كان الرسول ينتظره فسلم عليه، ثم نظر إلى اليهود وقال: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم كما أرى. فقالوا: نعم. ثم اتجه إلى النبى وقد غض بصره إجلالاً وقال: وعلى من ها هنا العهد أيضًا: فقالوا نعم، وقال الرسول: نعم. قال فإني أحكم أن تقتل المقاتلة وتسبى الذرية والنساء وتقسم الأموال. فقال له رسول الله: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة**». ثم خرج الرسول إلى سوق المدينة وأمر بحفر خنادق فيها. ثم جيء باليهود أرسالاً فضربت أعناقهم، وفيهم حيى بن أخطب من بني النضير – لوجوده معهم وقت الموقعة وفى عنقه دمهم – وفى هذه الخنادق دفنوا، وكان عدد القتلى ما بين أربعمائة إلى ستمائة فى أصح الروايات(٢).

ولم يكن بنو قريظة يتوقعون هذا الحكم من سعد حليفهم، بل كانوا يظنون أنه سيصنع معهم مثل ما صنع ابن أبى مع بنى قينقاع، ولكن شتان بين الرجلين وبين الموقفين، فسعد قد ذهب إلى بنى قريظة ليثنيهم عن موقفهم فى غزوة الأحزاب – كما سبق لنا ذلك – فنالوا من الرسول أمامه، وسعد تمنى أن لا يموت حينما أصيب بسهم قطع إكحله حتى تقر عينه من بنى قريظة، ولعل سعداً ذكر وقت نطقه بالحكم ماذا يحدث؛ لو أن الأحزاب انتصروا بخيانة بنى قريظة، فقدر أنهم كانوا سيستأصلون

---

(١) المختار من سيرة ابن هشام ص ٩٣. ورواية ابن الأثير أن الرسول قال: ألا ترضون أن يحكم فهم سعد بن معاذ؟ قالوا: بلى.

(٢) وتكثر بعض الروايات فتقول: كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة، ويبدو لنا أن الرواية الأولى ذكرت من قتل والثانية عددهم جميعًا لأن القتل لم يعمهم كما هو ظاهر قوله تعالى ﴿**وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ**﴾ [الأحزاب: ٢٦]، كما أن عدداً قليلاً منهم أسلم (راجع ابن الأثير جـ٢ ص١٢٨).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المسلمين ويمثلون بهم، وكان سعد حليفهم ويعرف طبيعتهم وما جبلوا عليه من غدر وخيانة وتآمر فيؤمن بأنه لو أبقى على حياتهم لا يهدأ لهم بال حتى يؤلبوا الأحزاب من جديد ضد المسلمين، ولو ظفروا بهم لقطعوهم إربا، فالحكم الذى أصدره سعد على قسوته إنما أصدره متأثراً بالدفاع عن النفس، معتبراً بقاء اليهود أو زوالهم مسألة حياة أو موت بالنسبة للمسلمين.

فكان حكمًا عادلاً، ولا عجب فهو حكم السماء ألهمه الله سعداً، ولم يكن رسول الله إلا منفذاً، فقتل المقاتلة وسبى الذرية والنساء وقسم الأموال وأورث الله المسلمين ديارهم وأرضهم فنالوا جزاءهم، وشربوا الكأس المرة كما تجرعها فى الوقت نفسه إخوانهم بالشام من يد هرقل بعد غلبته كسرى من جراء ما فعلوه بنصارى الشام حينما كان الظفر لفارس.

*** نتائج غزوة الأحزاب :**

١ - **عدم محاولة قريش غزو المدينة مرة أخرى** فبعد الخيبة التى منيت بها قريش ومن حالفها، لم تجرؤ قريش ولا أى قوة من حلفائها على غزو المدينة بعدها أبدا، وإن مضت قريش تبث كيدها فى جزيرة العرب؛ تحرض على النبى وأصحابه، المشركين من أهل نجد والحجاز، وكان النبى وأصحابه من أجل ذلك لا يستريحون، وإنما تأتيهم الأنباء بين حين وحين بأن هذه القبيلة أو تلك - من قبائل العرب القريبة منهم والبعيدة عنهم - تتهيأ لبعض الشر فيغزوها بنفسه أو يرسل إليها من يغزوها، فكانت قريش تبث الكيد، وكان النبى وأصحابه يبثون الهيبة لهم والخوف منهم، حتى إذا كان العام السادس للهجرة خرج النبى وفريق من أصحابه قاصدين إلى مكة لا يريدون قتالاً ولا يفكرون فى حرب، وإنما يريدون العمرة كما كان سائر العرب يقصدون إلى مكة، حاجين أو معتمرين(١)،

---

(١) راجع فى هذا الاستنباط؛ حياة محمد ٣٣٢ ومرآة الإسلام ٧٢ ونور اليقين ١٧٧، وتاريخ الأمم الإسلامية جـ١، صـ ١٨٥، والمختار من سيرة ابن هشام صـ ٩٦. ويرى ابن هشام أن إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد كان عقب غزوة الأحزاب فى السنة الخامسة، ويرى غيره أنه كان فى السنة السادسة، ويروى ابن هشام قصة إسلامهما فى صـ ٩٦. وهى بإيجاز: أن عمرا بعد غزوة الخندق سافر مع رجال من قريش إلى الحبشة، وأقنعه النجاشى بوجوب اتباع محمد ومبايعته على الإسلام، ثم رجع وذهب إلى الرسول وبينما هو فى الطريق لقى خالد بن الوليد، فأخبره خالد بمقصده، وهو أن نور الإسلام دخل قلبه فقال عمرو: والله ما جئت إلا لأسلم، فتقدم خالد فأسلم وبايع، وسُر الرسول سرورا عظيماً، وقال لخالد: الحمد لله الذى هداك. قد كنت أرى لك عقلاً رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير: فقال: يا رسول الله. ادع الله لى أن يغفر تلك المواطن التى كنت أشهدها عليك: فقال عليه السلام: الإسلام يقطع ما قبله: وقد أسلم معهما فى ذلك اليوم عثمان بن أبى طلحة.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فكان صلح الحديبية، ثم الفتح الأعظم. ولعل فرض الحج فى العام الخامس الذى نحن بصدده كان بشارة تؤيد استنتاجنا.

٢ – **وطدت غزوة الأحزاب ووطد القضاء على بنى قريظة للمسلمين فى المدينة** فلم يبق للمنافقين فيها صوت قط ولم يعد فى المدينة قوة غير قوة المسلمين وذهبت العرب تتحدث بقوة المسلمين، وسلطانهم وبمقام محمد، وقوته ورهبة جانبه.

٣ – **بتمام غزوة بنى قريظة أراح الله المسلمين من شر مجاورة اليهود** الذين تعودوا الغدر والخيانة، ولم يبق إلا بقية من كبارهم بخيبر مع أهلها، وعما قريب يشربون الكأس حتى الثمالة.

٤ – **انضمام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد إلى صفوف المسلمين** بعد الانصراف من الأحزاب انضم إلى صفوف المسلمين قائدان عظيمان هما عمرو بن العاص وخالد بن الوليد، وذلك يدل على أن الحرب شرعت تضع أوزارها بين الفريقين، وقد كان ذلك، فإنه لم تحدث مواقف مهمة بين الفريقين بعد ذلك.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ما بين الأحزاب والحديبية

وحال الدعوة الإسلامية . . أثناء السنة السادسة

كان جلاء الأحزاب، وغزوة بنى قريظة فى آخر السنة الخامسة من الهجرة، وجاءت السنة السادسة والمسلمون على أحسن حال من العزة والقوة وأصبحوا ينظرون إلى المستقبل القريب الذى يدخلون فيه مكة ظافرين؛ بيد أن القيام بمحاولة فى هذا السبيل كانت تحتاج للكثير من التجهيز والاستعداد، وملاءمة الظروف فأمضى النبى معظم السنة السادسة فى التمهيد لدخول مكة وذلك بقيامه بثلاث غزوات؛ هى غزوة بنى لحيان، وغزوة الغابة، وغزوة بنى المصطلق على الترتيب، وإنفاذه نحو خمس عشرة سرية لمعاقبة بعض القبائل المجاورة للمدينة، وتأديبهم على ما ارتكبوه من جرائم ولبيان قوة الإسلام وسلطانه، ولا نرى ما يدعو لتفصيل كل تلك الحركات التى قام بها المسلمون؛ لتشابه بعضها ببعض فى التفاصيل؛ ولأن الطابع العام الذى يجمعها يكاد يكون واحداً، ولذا سنكتفى بذكر بعضها على سبيل المثال لنعرف مدى ما أصبح فيه المسلمون من عز وسلطان، وحال الدعوة الإسلامية فى ذلك الوقت.

وأول هذه السرايا ما كان من إرساله عليه السلام لمحمد بن مسلمة فى ثلاثين راكبًا لشن الغارة على بنى بكر بن هلال الذين كانوا نازلين فى ناحية ضرية – موضع على سبع ليال من المدينة فى طريق البصرة – فسار إليهم يكمن النهار ويسير الليل حتى دهمهم فقتل منهم عشرة وهرب الباقى فأخذت السرية النعم والشياة، وعادت راجعة إلى المدينة، وقد التقت فى عودتها بثمامة بن أثال الحنفى من عظماء بنى حنيفة فأسرته، وهى لا تعرفه فأتت به الرسول فعامله معاملة كريمة كانت سببًا فى انقياده للإسلام، وقد سر عليه السلام كثيراً بإسلامه؛ لأن من ورائه قومًا يطيعونه. وقد كان لثمامة مواقف عظيمة فى الإسلام[1].

وبعد هذه السرية أرسل الرسول محمد بن مسلمة أيضًا لذى القصة[2]، فى ربيع

---

(١) منها أنه عقب وفاة الرسول حينما ارتد أكثر أهل بلاده، كان ينهى قومه عن اتباع مسيلمة، فثبت معه كثير من قومه.

(٢) موضع على أربعة وعشرين ميلاً من المدينة فى طريق الربذة.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الأول لتأديب أهلها – بنى ثعلبة – عندما بلغه عليه السلام أنهم يريدون الإغارة على نعم المسلمين التى ترعى بالهيفاء – موضع قرب المدينة – فسار إليهم فى عشرة من المسلمين فبلغ ديارهم ليلاً فنام هو ومن معه، ولم يشعروا إلا والنبل قد خالطهم فتواثبوا على أسلحتهم، ولكن تغلب عليهم الأعداء فقتلوهم غير محمد بن مسلمة فتركوه؛ لظنهم أنه قُتل فعاد إلى المدينة وأخبر الرسول فأرسل أبا عبيدة بن الجراح ليقتص من الأعداء فلما وصل إلى ديارهم وجدهم تشتتوا هاربين فاستاق إبلهم، ورجع فلم يكتف بذلك الرسول بل أرسل زيد بن حارثة فى خمسة عشر رجلاً إليهم فتوجهت السرية فلما رآهم بنو ثعلبة ظنوهم طليعة لجيش رسول الله فهربوا وتركوا نعمهم وشاءهم فاستاقها المسلمون ورجعوا إلى المدينة.

وفى تلك الأثناء بلغ الرسول أن عيراً لقريش أقبلت من الشام تريد مكة فأرسل لها زيد بن حارثة فى مائة وسبعين راكبًا ليعترضها فأخذها وما فيها، وأسر من معها من الرجال وفيهم أبو العاص زوج زينب بنت رسول الله، وكان من رجال مكة المعدودين تجارة ومالا وأمانة فاستجار بزوجه زينب فأجارته، وجهرت بذلك أمام المسلمين، فقال عليه السلام: «**المسلمون يد واحدة يجير عليهم أدناهم، وقد أجرنا من أجرت**». وهذا أبلغ ما قيل فى المساواة بين أفراد المسلمين. ورد عليه الرسول ماله جميعه فكان درسًا عظيمًا لأبى العاص دله على تسامح المسلمين، وترتب عليه أنه ذهب إلى مكة وأدى لكل ذى حق حقه، ورجع إلى المدينة مسلمًا، فرد عليه رسول الله زوجه زينب التى ماتت فى السنة التالية.

* غزوة بنى لحيان

كما أنه فى تلك الأثناء أيضًا قام الرسول بغزو بنى لحيان الذين قتلوا عاصم بن ثابت وإخوانه لغدرهم بأصحابه فى الرجيع، خرج عليه السلام فى مائتى راكب، معهم عشرون فارسا، ولم يُظهر لهم مقصده حتى لا يتسرب الخبر إلى الأعداء، ومبالغة فى الإخفاء سار من المدينة شمالاً نحو الشام ثم عرج جنوبا بعد مسيرة بريد، ولكن بنى لحيان عرفت أنها المقصودة، فتفرقت فى الجبال، فلما وصل عليه السلام إلى منازلهم – وهى على بعد مسيرة يومين من مكة – لم يجد من يقاتله فأقام يومين يبعث السرايا للبحث عن أماكنهم فلم يجدوا لهم أثراً، فلما لم يجد طلبته سار مع بعض أصحابه حتى نزل بعسفان – موضع قرب مكة – تخويفًا لأهل مكة وإلقاء للرعب فى قلوبهم، ومن هناك أرسل أبا بكر على رأس عشرة فرسان للتقدم أكثر نحو مكة فوصلوا إلى

شبكة الألوكة - قسم الكتب

كراع الغميم – جبل جنوب عسفان بثمانية أميال – ثم رجعوا فعاد الرسول قافلاً إلى المدينة في يوم قائظ، بلغ من قيظه أن النبى كان يقول: «**آيبون تائبون لربنا حامدون، أعوذ بالله من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب فى الأهل والمال**».

* غزوة الغابة أو ذى قرد

ولم يكد الرسول يقيم بالمدينة ليالى بعد أوبته إليها حتى أغار عيينة بن حصن الفزارى على أطرافها، وكان بظاهرها إبل ترعى يحرسها رجل وامرأة فقتل عيينة وأصحابه الرجل وساقوا الإبل واحتملوا المرأة، وانصرفوا يحسبون أنهم من اللحاق بمنجاة، لكن سلمة بن الأكوع الأسلمى كان قد غدا يريد الغابة – موضع على بريد من المدية جهة غطفان – متوشحا قوسه ونبله وأبصر القوم فصاح: وا صباحاه؟: وجعل يشتد فى أثر القوم حتى إذا اقترب منهم رماهم بالنبل، وهو فى أثناء ذلك لا ينفك يصيح ويقول:

خذها وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع[1]

وبلغ الرسول صياح سلمة[2]، فنادى فى أهل المدينة: الفزع الفزع؛ وسرعان ما ترامى الفرسان من كل حدب وصوب، فأمرهم الرسول بالانطلاق فى أثر القوم، وجهز قواته وسار على رأسها يتبعهم حتى نزل بالجبل من ذى قرد، فى الوقت الذى كان فيه عيينة ومن معه قد أغذوا السير مسرعين يريدون اللحاق بغطفان نجاة من المسلمين، لكن فرسان المدينة أدركوا مؤخرتهم، واستخلصوا معظم اللقاح منهم، وفكوا أسر المرأة المؤمنة التى كانت تحت سطوة اللصوص.

وتبدو شجاعة المسلمين وحبهم الجهاد فى سبيل إعلاء دينهم حينما تقدم سلمة بن الأكوع إلى الرسول طالبًا منه أن يرسله مع جماعة فى إثر القوم ليأخذوهم على غرة وهم يردون أحد مناهل مياههم فيقول له عليه السلام: «**ملكت فأسجع**».

ويبدو أن الرسول كان لا يريد حربا فى هذا الوقت، لا سيما وأن الخسارة فى

---

(١) أى اليوم يوم هلاك اللئام، وهم الرضع.

(٢) ويروى أن ابن الأكوع كان معه رباح غلام الرسول فأرسله ليخبره عليه السلام، كما يروى أن هذه الغزوة كانت بعد الحديبية. والذى ذكرناه رواية أبى جعفر عن ابن إسحاق فإنه ذكر غزوة الغابة أو ذى قرد بعد بنى لحيان. راجع ابن الأثير جـ٣، ص ١٢٨، ١٢٩. ويروى الخضرى فى نور اليقين صـ١٨٦ أن الذى أخبر الرسول هو سلمة نفسه وكان عداء، فأمره الرسول أن يخرج فى إثر القوم ليشغلهم بالنبل حتى يدركهم المسلمون.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

صفوف المسلمين كانت طفيفة، فلم يقتل منهم سوى رجل واحد، فى الوقت الذى قتل فيه من المشركين اثنان، ثم رأى الرسول بعد ذلك أن يرجع إلى المدينة وأن يقيم بها قرابة شهرين بعد أن أمضى خمس ليال متتبعًا أعداء دينه؛ حاملاً راية الجهاد فى سبيل إرضاء ربه.

* غزوة بنى المصطلق

أما غزوة بنى المصطلق(١) فقد حدثت بعد أن بلغه عليه السلام أن الحارث بن ضرار رئيس هذه القبيلة - التى ساعدت قريشا فى أحد - قد أخذ يجمع الجموع لحرب المسلمين؛ فأسرع الرسول فى الخروج ليأخذهم على غرة كعادته فى أخذ أعدائه، وخرج معه فى هذه الغزوة من المنافقين عدد لم يسبق أن خرج مثله فى كثرته فى أية غزوة قبلها، ولا شك أن غرضهم الأول والأخير من هذا الخروج هو عرض الدنيا وكان على رأسهم عبد الله بن أبى.

التقى الرسول ببنى المصطلق فى مورد لهم يقال له المريسيع بناحية قديد فعرض عليهم الإسلام فرفضوا، وهنا تراموا هم والمسلمون بالنبل ساعة أحاط فيها المسلمون بهم إحاطة السوار بالمعصم، وأحكموا الحصار حولهم، فلم يهرب منهم أحد، وقتلوا منهم عشرة، وأسروا باقيهم مع نسائهم وذرياتهم، واستاقوا إبلهم التى كانت تقدر بألفى بعير، ودفعوا أمامهم شياههم التى كانت تبلغ خمسة آلاف، وكان فى نساء المشركين برة بنت الحارث سيد القوم، فقسمت الغنائم والسبى كالعادة.

وهنا يظهر حسن السياسة، ومنتهى الكرم؛ فإن بنى المصطلق من أعز العرب دارًا فأسر نسائهم شاق على النفوس فأراد عليه السلام أن يجعل المسلمين يمنون على النساء بالحرية من تلقاء أنفسهم فتزوج برة بنت الحارث وسماها جويرية(٢)، ووصل الخبر إلى المسلمين فقالوا: أصهار رسول الله لا ينبغى أسرهم فى أيدينا. فمنوا عليهم بالعتق، وكانوا أكثر من مائة بيت وقد تسبب عن هذه المعاملة الكريمة أن أسلم بنو المصطلق عن بكرة أبيهم، وكانوا للمسلمين بعد أن كانوا عليهم، فكانت جويرية أيمن

---

(١) وهم من خزاعة.

(٢) كانت برة وقعت فى سهم ثابت بن قيس أو فى سهم ابن عم له، فكاتبته عن نفسها وأتت رسول الله تطلب منه أن يعاونها فى كتابتها فقال لها: هل لك فى خير من ذلك؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: أقضى كتابك وأتزوجك قالت: نعم يا رسول الله. ففعل وتزوجها.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

امرأة على قومها – كما قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها – وقد وقعت تلك الغزوة فى شعبان من السنة السادسة للهجرة فى أصح الروايتين(١).

* من فتن ابن أبى

وبينما المسلمون على حال طيبة فرحين بما آتاهم الله من فضله، إذ حدثت حادثة ملأت الجو بالغيوم وكادت تؤدى إلى الشقاق فى صفوف المسلمين لولا حكمة الرسول وحزمه وهى. أنه وردت واردة من الناس تستقى حول ماء المريسيع ومعها الخيل والإبل، وتدافع أحد المهاجرين – وكان أجيراً لعمر بن الخطاب – مع أحد الأنصار – وكان أجيراً لعبد الله بن أبى – ووقع بينهما ما أثار الشر فصرخ الأنصار: يا معشر الأنصار: وصرخ المهاجرى: يا معشر المهاجرين: وبدأت الفتنة تطل بقرونها؛ لولا أن خرج عليهم رسول الله **فقال: ما بال دعوى الجاهلية** – وهى ما يقال فى الاستغاثة يا لفلان –؟! فأُخبر بالخبر، **فقال: دعوا هذه الكلمة فإنها منتنة**. ثم كلم المضروب حتى أسقط حقه، ولكن عبد الله بن أبى غضب غضبا شديداً وأراد أن ينتهزها فرصة للإيقاع بين المهاجرين والأنصار – فقال وعنده رهط من الخزرج: ما رأيت كاليوم مذلة، أو قد فعلوها؟ نافرونا فى ديارنا. والله ما نحن والمهاجرون إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم التفت إلى من معه وقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم، ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم غرضا للمنايا دون محمد فأيتمتم أولادكم، وقللتم وكثروا؛ فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عنده.

وكان فى مجلسه شاب حدث السن قوى الإيمان يسمى زيد بن أرقم فثار فيه قائلاً: أنت الذليل القليل المشنوء، ومحمد إنما هو فى عز من الرحمن. ثم مشى بالحديث إلى الرسول وعنده جمع من الصحابة من بينهم عمر بن الخطاب، فظهر الغضب فى وجه الرسول، وأشار عمر بقتله، وهنا ظهر النبى كدأبه مظهر القائد المحنك والحكيم البعيد النظر إذ التفت إلى عمر وقال له: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس، وقالوا إن محمداً يقتل أصحابه؟ لكنه قدر فى الوقت نفسه أنه إن لم يتخذ خطة حازمة فقد يستفحل

(١) ويروى الواقدى أنها كانت فى شعبان من السنة الخامسة (راجع ابن الأثير جـ٢ صـ١٣٠، و١٣١، والمختار من سيرة ابن هشام صـ١٩٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الأمر، فاستعجل الرحيل فى ساعة لم يكن يرتحل المسلمون فيها لشدة الحر، ويقصد بذلك عليه السلام شغل الناس عن التحدث فيما كان من ابن أبى، وترامى إلى ابن أبى ما بلغ النبى عنه، وما كان من قرار الرحيل، فأسرع إلى الرسول ينفى ما نسب إليه، ويحلف بالله ما قاله ولا تكلم به، ولم يغير ذلك من قرار الرحيل شيئًا، فقد ارتحل المسلمون قبل الزوال مسرعين.

فكان الرسول يستحث راحلته ويجد فى السير، فلم ينخ أحد من المسلمين راحلته إلا لحاجة أو لصلاة فقطعوا بقية يومهم حتى أمسوا، وطيلة ليلتهم حتى أصبحوا وصدر يومهم الثانى حتى آذتهم الشمس.

فنزل الرسول بالناس على ماء يقال له بقعاء – مكان قبل المدينة بمسيرة يوم – فلم يلبث الناس حين مست جنوبهم الأرض أن وقعوا من فرط تعبهم نيامًا، ولكن لم يطل هذا النوم فقد أُذِّن فى الناس بمواصلة السير إلى المدينة، ولم يكد الرسول يصل إليها حتى نزلت سورة المنافقين وفيها قوله تعالى ﴿ **هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [المنافقون: ٧، ٨]، فقرأ الرسول السورة على المؤمنين، وفيها فضيحة ابن أبى وإخوانه وتصديق زيد بن أرقم، فظن قوم أن فى هذه الآيات القضاء على ابن أبى وأن الرسول لا شك آمر بقتله، وبلغ ذلك ابنه (عبد الله بن عبد الله بن أبى)، وكان من أقوى الناس إسلامًا، فذهب إلى رسول الله وقال: يا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى، فإن كنت فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده منى، وإنى لأخشى أن تأمر به غيرى فيقتله، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمنًا بكافر فأدخل النار. **فقال النبى: إنا لا نقتله، بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا!** وأمر ابنه بالإحسان إليه، وعفا عن ابن أبى.

وقد أدى عفوه – عليه السلام – عن زعيم المنافقين أن هان أمره، وانشق حزبه وصار الخزرج يعنفونه على ما حدث منه حتى لقد قال النبى لعمر بن الخطاب ذات يوم: «**كيف ترى يا عمر لو قتلته يوم أشرت بقتله لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته**». فقال عمر: قد – والله – علمت لأمرُ رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمرى.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

* حديث الإفك:

فى هذا الجو المكفهر، وأعصاب الناس ثائرة، والتوتر على أشده بين المنافقين والمسلمين، وفى نحر الظهيرة، وقد أناخ الناس دوابهم ليستريحوا من وعثاء السفر جاءت أم المؤمنين «عائشة» على جمل يقوده «صفوان بن المعطل» ودخلت المدينة على ملإ من الناس صافية الجبين مشرقة الوجه ليس فى شيء من مظهرها ما يريب، ولكن كبير المنافقين عبد الله بن أبى وجد فى مجيء أم المؤمنين على هذا النحو الفرصة لشفاء مَّا فى نفسه من حقد على النبى وليشغل الناس بغيره عن نفسه، فقال لمن حوله: من هذه؟ ومن هذا؟: فقالوا: عائشة وصفوان: قال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت! والله ما نجت منه ولا نجا منها! وصار يذيع هذا الإفك جهد طاقته حتى كادت تحدث فتنة فى المدينة. ولا نريد التعرض لتفصيلاته فذلك أمر قد أفاضت فيه كتب التفسير والحديث ولا يتسع له المجال، ولكن نظرًا لأهميته لابد لنا أن نضع المشاعل على الطريق لبيان معالمه.

كان رسول الله إذا غزا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها أخرجها معه، وخرج سهم عائشة عشية غزوة بنى المصطلق فخرج بها، وقد عرفنا أن المسلمين عادوا من المريسيع عودة مضنية ولم ينزلوا إلا بعض الوقت فى بقعاء ثم أذن فى الناس بالرحيل، فخفوا مسرعين، وكانت السيدة عائشة قد خرجت من خيمتها إلى الخلاء لقضاء حاجتها، فلما قضت شأنها أقبلت إلى رحلها فلمست صدرها فإذا عقد لها من جزع ظفار(١)، انسل من عنقها، ولم تشعر به، فرجعت أدراجها تبحث عنه فحبسها ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونها فاحتملوا هودجها ظانين أنها فيه لأن السيدة عائشة كانت نحيفة خفيفة.

وكانوا فى العادة إذا جاءوا بالهودج إلى بابها خرجت إليه فأخذ الرجال به فشدوه إلى ظهر البعير، وهم لا يكادون يشعرون بها لخفة وزنها، فلم يستنكر القوم خفة الهودج لاسيما وهم متعجلون.

وعادت السيدة عائشة بعد أن عثرت على العقد فوجدت هودجها قد رفُع وليس فى المعسكر من داع ولا مجيب، فلم يساورها الخوف، وأيقنت أن القوم إذا افتقدوها فلم يجدوها رجعوا إليها، فخير لها أن تبقى فى مكانها من أن تضرب فى الصحراء

---

(١) الجزع الخرز اليمانى، وظفار اسم مدينة لحمير باليمن.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

على غير هدى فتضل الطريق، فالتفت فى جلبابها واضطجعت مكانها منتظرة دعوة الباحث عنها؛ موقنة بأن الله لم يضيعها، فغلبتها عيناها فنامت.

وكان الذى يسير وراء الجيش يفتقد ضائعه «صفوان بن المعطل السلمى» فأصبح عند منزلها فعرفها لأنه كان يراها قبل أن يضرب الحجاب، فاسترجع فاستيقظت باسترجاعه، وسترت وجهها بجلبابها، فأناخ راحلته وأركبها من غير أن ينطقا بكلمة. ثم انطلق يقود بها الراحلة حتى دخل المدينة فى وضح النهار على ملأٍ من الناس.

ودخولهما المدينة على هذا النحو، وبلا تخلف كثير عن الركب ما كان ليثير شبهة، ولكنه حقد ابن أبى على نبى المسلمين يريد أن يطعنه فى شرفه، ويبعده عن أحب الناس إليه، فقال ما قال، وشاركه فى هذا القول من هم على غراره، وتأثر به قلة من المسلمين، منهم مسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش - أخت أم المؤمنين زينب - وصاروا جميعًا يتهامسون بما قاله ابن أبى.

ووصل الخبر إلى الرسول، فما دار بخاطره سوء فى ابنة أبى بكر أو صفوان المؤمن الحسن الإيمان، ولكن أزعجه اللغط حول موضوع يتعلق بعرضه وبشرف أحب الناس إليه، وعراه من الهم ما جعله فى حال جفوة مع السيدة عائشة. يدل على ذلك أنها بمجرد وصولها إلى المدينة مرضت شهرًا، فلم تر من الرسول اللطف الذى تعودته منه، بل كان يمر على باب الحجرة ولا يزيد على قوله: كيف حالكم؟ مما جعلها فى حيرة، وجعلت تحدث نفسها: ألا تكون جويرية بنت الحارث قد حلت من قلبه محلها؟ وحاولت أن تفسر سبب هذا الجفاء، فلم تصل إلى ما تريد - وكانت لا تعلم بشىء مما يدور حولها.

فاشتد ألمها واستأذنت الرسول فى الانتقال إلى أمها لتمرضها، فأذن لها فانتقلت وفى نفسها من الاستغراب لهذا التفريط فى أمرها ما زاد من مرضها وألمها، وظلت فى مرضها بضعة وعشرين يومًا وهى لا تعرف من كل ما يدور حول اسمها من حديث شيئًا.

فلما نقهت بعد المدة السابقة علمت من أم مسطح، حينما خرجت معها ليلاً لقضاء حاجة(١). فهالها الأمر وصارت تبكى حتى كاد كبدها أن يتصدع، ورجعت

---

(١) كان أمر العرب الأول لا يتخذون فى بيوتهم الكنف كالأعاجم، وكانوا يعافون ويكرهون أن يتخذوها فى بيوتهم، وراجعوا قصة علمها فى نبى البر صـ ٩٩، وابن الأثير جـ ٢، صـ ١٣٣، ١٣٤، وفى رواية أنها عرفت الحديث من امرأة أنصارية دخلت عليها فى بيت أبيها، ويوفق ابن حجر بين الروايتين: أنها عرفته أولاً من أم مسطح ثم من المرأة الأنصارية «فتح البارى شرح صحيح البخارى جـ ٨ صـ ٣١٩».

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لأمها وعاتبتها على عدم إخبارها، فحاولت تخفيف وقع الخبر على نفسها، ولكن عائشة أصبحت لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم.

وفى خلال ذلك كان عليه السلام يستشير كبار أهل بيته وأصحابه فيما يفعل، فأما أسامة بن زيد فأثنى خيراً، وأما على بن أبى طالب، فقال: يا رسول الله إن النساء لكثير(١)، وأشار باستجواب بريرة جارية عائشة فاستدعاها الرسول وقال لها: هل رأيت من شيء يريبك؟ فقالت: والذى بعثك بالحق ما أعلم عنها إلا خيراً، وما أعيب عليها شيئًا إلا أنها كانت تنام عن عجينها فتأتى الداجن «الشاة» فتأكله، والله لهى أطيب من الذهب، ولئن كانت صنعت ما قاله الناس ليخبرنك الله، فعجب الناس من فقهها.

وأما عمر بن الخطاب المشهور بقوة الحجة وموافقة ربه، فقد قال: من زوجها لك يا رسول الله؟ قال: ربى. قال: أفتظن أن الله دلس عليك فيها؟ سبحانك هذا بهتان عظيم. وأما عثمان بن عفان فقد قال: يا رسول الله إن الله الذى لم يرض لك الدنس فى حذائك - فأرسل لك جبريل فأمرك بخلعه - لا يرضى لك الدنس فى فراشك.

وبعد أن انتهى الرسول من مشاوراته وعرف أن براءتها لا خفاء فيها عند أحد من الصحابة، قام من يومه وصعد المنبر، والمسلمون مجتمعون وقال: **أيها الناس - ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى(٢)، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت عليهم إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما يدخل بيتا من بيوتى إلا معى** فقام أسيد بن حضير من الأوس وقال: يا رسول الله. إن يكونوا من إخواننا الأوس نكفكهم، وإن يكونوا من إخواننا الخزرج فمرنا بأمرك فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم. ورد عليه سعد بن عبادة بأنه إنما تقدم بهذه المقالة لأنه يعرف أنهم من الخزرج، ولو كانوا من الأوس ما قالها. وتواثب الناس، وكادت تقوم الفتنة لولا حكمة الرسول وحسن مداخلته. ثم ذهب الرسول بعد مقالته إلى بيت أبى بكر فوجد عائشة مع أبويها فسلم ثم جلس ثم قال: **يا عائشة إنه قد كان ما بلغك من قول الناس، فإن كنت قارفت سوء فتوبى إلى الله فإن الله يقبل التوبة من عباده وإن كنت بريئة فسيبرئك الله**: فجف دمع عائشة، وقالت لأبويها: أجيبا رسول الله، لكنهما سكتا. فازدادت ثورة نفسها

(١) لم يقصد على بهذا إيذاء عائشة ولا الشك فيها وإنما أراد إزالة ما رآه على النبى من القلق فإنه لا أغير منه، فرأى على أنه إذا فارقها زال همه وقلقه إلى أن يتحقق من براءتها.

(٢) وفى رواية: من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى؛ أى من يقيم لى العذر إن بطشت به.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وصاحت بهما: ألا تجيبان؟ قالا: والله ما ندرى بم نجيب؟ وعادا إلى وجومهما فلما رأت ذلك بكت بكاء مرا ثم وجهت الكلام إلى النبى وقالت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً، والله إنى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس - والله يعلم إنى بريئة - لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت لا تصدقوننى. ثم سكتت برهة، وعادت تقول. إنما أقول كما قال أبو يوسف (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) ثم تحولت واضطجعت على فراشها، ولم يزاول رسول الله مجلسه حتى نزلت عليه سورة النور ببراءة السيدة المطهرة الصديقة. اقرؤا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ١١ - ٢١]، فسرى عن رسول الله وبشر عائشة بالبراءة وخرج إلى المسجد فألقى على المسلمين الآيات التى نزلت، وفيها عقوبة رمى المحصنات ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٣].

وتنفيذاً لحكم القرآن أمر عليه السلام بجلد من صرح بالإفك ثمانين جلدة، وكانوا ثلاثة: مسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش وحسان بن ثابت[١]، وكان أبو بكر ينفق

---

(١) أما ابن أبى فقيل إنه حد وقيل إنه لم يحد، لأن الحدود كفارات وتخفيف عن أهلها، والخبيث ليس أهلا لذلك، ويعلل ذلك بعض العلماء أنه كما ترك قتله ترك حده لتأليف قومه خوف الفتنة (الألوسى جـ١٨ صـ١١٨).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

على مسطح لقرابته منه(١) فلما خاض مع الخائضين منع عنه النفقة فأنزل الله ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢] فقال أبو بكر بل نحب ذلك يا رسول الله، وأعاد النفقة على مسطح.

وفى أثناء تلك الأحداث كان صفوان يطوف بالمدينة ويقسم بالبراءة وذهب إلى حسان بن ثابت فكسعه بالسيف وضربه به على رأسه لتعريضه به فأمسك به بعض الخزرج، وبلغ ذلك الرسول فدعا حسانًا وصفوان بن المعطل فقال صفوان: هجانى يا رسول الله وآذانى فضربته: فقال الرسول لحسان: أحسن يا حسان: قال: هى لك يا رسول الله. وقد استطاع حسان بعد ذلك أن يعود إلى رضا الرسول وعطفه عليه، فقد اعتذر عما نسب إليه فى شأن عائشة(٢). بل مدحها وأشاد بالإسلام ومن ثم انقضى هذا الحادث، ولم يبق له فى المدينة كلها أثر وأسرع النقه إلى عائشة وعادت إلى دارها من مساكن الرسول، وإلى مكانتها من قلبه، وإلى مركزها الرفيع من نفوس أصحابه والمسلمين جميعًا، وبذلك فرغ النبى إلى رسالته وإلى سياسة المسلمين استعدادًا لعهد الحديبية الذى يفتح به الله على المسلمين فتحًا مبينًا(٣).

* مواقف وعبر

بعد أن كتبنا فى هذا الموضوع الذى يلتصق بحياة الرسول، ويلمس جانبًا من أهم جوانبها، وبعد أن خرجنا من ذلك بأن حياة الرسل عليهم الصلاة والسلام قد يعتريها ما يعترى حياة البشر ليكون ذلك عبرة وعظة. نجد لزامنا علينا أن نقف بعض الوقت معلقين على بعض المواقف. مستلهمين من هذا الحادث ما يفيد، مستشفين منه بعض ما يكمن فى حلقاته من أشياء يهتدى بها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد:

١ - لماذا لم تخبر أم المؤمنين عائشة الرسول، ولا أحدًا من أهلها بضياع العقد؟ لا شك أن ذلك كان لصغر سنها، وعدم معرفتها لما يترتب على ذلك من نتائج، فكان ما

---

(١) كانت أمه بنت خالة أبى بكر الصديق.

(٢) ويروى أن عائشة كانت تقول: ما سمعت بشىء أحسن من شعر حسان، ولعل ما أصابه من العمى كان سببًا فى الإشفاق عليه.

(٣) من أراد مراجعة حديث الإفك فليرجع إلى نبى البر من ٩٨ - ١٠٠ وابن الأثير جـ ٢ من ١٣٣ - ١٣٥، وفتح البارى شرح صحيح البخارى جـ ٨ من ٣٢٩ - ٣٥٠ ونور اليقين من ١٦٣ - ١٦٨، وحياة محمد من ٣٤٥ - ٣٥١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كان من الحديث ولذلك عندما ضاع العقد مرة أخرى استفادت من التجربة الأولى فلم تذهب للبحث عنه بل أخبرت الرسول فأقام الرسول على التماسه، وأقام الناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء حتى وجدوه، وأنزل الله آية التيمم فى هذه المناسبة.

٢ – موقف أبى بكر وزوجه أم رومان: إن أبا بكر كان لا يعلم الغيب! وأن ثقته بابنته – مهما بلغت – لا تصل به حد الجزم بالبراءة؛ خاصة وقد أحس بإعراض الرسول عنها، فلم يكن ليملك إلا أن يلجأ إلى الله وإلا أن يعتزل فوق البيت، وإلا أن يشغل وقته بقراءة القرآن. وأما زوجه فقد قامت تطبب عائشة دون أن تشعرها بشيء، وكان أبواها على ثقة كبيرة ببراءتها، وما بدا عليهما من الهم لم يكن لريبة لحقتهما، وإنما هو التأذى لما أصيبوا به، حتى لقد قال أبو بكر: والله ما قيل لنا هذا فى الجاهلية فكيف بعد أن أعزنا الله بالإسلام؟ وما نعلم أهل بيت أصيبوا بمثل ما أصيب به بيت أبى بكر فى هذه الأيام.

٣ – ما بال الرسول توقف فى أمر عائشة وسأل عنها، وبحث واستشار وهو أعرف بالله وبمنزلته عنده فيما يليق به؟ وهلا قال ﴿ **سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ** ﴾ كما قال ابن الخطاب؟ ولماذا تأخر الوحى شهرًا؟ والجواب عن ذلك، أن هذا من تمام الحكم الباهرة التى جعل الله هذه القصة سببًا لها، وامتحانًا وابتلاءً لرسول الله ولجميع المؤمنين إلى يوم القيامة ليرفع بهذه القصة أقوامًا ويضع آخرين، واقتضى تمام الامتحان أن حبس الوحى عن الرسول شهرًا ليزداد المؤمنون الصادقون إيمانًا وثباتًا على العدل وحسن الظن ويزداد المنافقون إفكًا ونفاقًا، وليظهر لرسول الله وللمؤمنين سرائرهم، وإرادتهم التفرقة بينه وبين أصحابه، وأيضًا كان من حكمة حبس الوحى شهرًا لتنضج القضية وتستشرف النفوس إلى ما يوحيه الله فى شأنها.

٤ – لم كانت رحلة أم المؤمنين (عائشة) سببًا فى قذفها وعدم قذف غيرها مع سفره سفرًا طويلاً، فقد خرجت السيدة «زينب» بنت الرسول من مكة فى صحبة أخى زوجها، فلم لم يتهمها أبو سفيان ورجاله الذين خرجوا فى طلبها؟ والجواب أن أبا سفيان كان رأس الكافرين المحاربين للإسلام جهارًا، فلم يكن فى حاجة إلى هذا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

السلاح الدنىء؛ أما ابن أبى فكان رأس المنافقين المخادعين الجبناء الذين لا يعملون إلا فى الظلام، والذين يخافون ولا يستحون.

ولهذا نعتقد أنه لو كانت حفصة بنت عمر مكان عائشة بنت أبى بكر فى قضيتنا هذه ماجرؤ ابن أبى على الكلام خوفًا من عمر، وخرجت أيضًا أم سلمة فى هجرتها من مكة إلى المدينة، وقد قضت ليالى وأيامًا فى صحبة «عثمان بن طلحة» – وكان كافرًا – ليس معهما فى البيداء سوى طفلها «سلمة» والفرق بسيط، وهو أنها لم تكن هدفًا للاتهام لأنها لم تكن حينئذ زوجًا للرسول، فطعنها لا ينفع رأس النفاق لأنه يطعن رسول الإسلام، وهو المقصود الأول حين طعنت «عائشة» أحب الناس لديه ووالدها أقرب الناس إليه، وحامل لواء المهاجرين فى غزوة بنى المصطلق.

٥ – موقف أم المؤمنين «زينب بنت جحش» بصفة خاصة وموقف أمهات المؤمنين بصفة عامة: اهتم الكاتبون بموقف «زينب» لأنها كانت تسامى «عائشة» وتنافسها فى منزلتها عند رسول الله، وكان موقفها كريما نبيلاً فقد قالت: أحمى سمعى من أن أتقول عليه ما لم أسمع، وبصرى من أن أريه ما لم يره، ما علمت عن «عائشة» إلا خيراً. وما سرها موقف أختها «حمنة»، وأما بقية أمهات المؤمنين فلم يؤثر عنهن موقف خاص.

٦ – يقول المستشرق إسبرنجر فى كتابه «محمد – جـ ٣ صـ ٧٢»: بما أن عائشة زوجة رجل شيخ وجدت نفسها وحيدة فلا يستبعد أن تصح التهمة. ويقول بعض المستشرقين: إن محمداً استنزل الآيات ليحمى سمعة زوجته، ويدين الوشاة بالعقاب!

سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم. وقد دحضنا هذه الفرية بما لا مزيد عليه، وأخرس القرآن والواقع ألسنة المنافقين، ومع هذا فإننا سننزل إلى مستواهم ونقول لهم:

١ – ما رأيكم فى أن صفوان بن المعطل كان حصوراً لا يأتى النساء (ابن الأثير جـ ٢ صـ ١٣٥).

٢ – ولو قطعنا النظر عن هذا وفرضنا المستحيل فمتى نشأت علاقة صفوان بعائشة؟ إن

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كانت في تلك الليلة بعينها فكيف اجترأ الرجل على مفاتحة أم المؤمنين وهو يتهيب المناداة عليها في هودجها، بل كيف تخطر له هذه المفاتحة، وهو لا يشك في إيمانها بزوجها، وليس له علم بخبيئة صدرها، وإذا اجترأ هذا الاجتراء هوسًا منه فكيف يصدق العقل أن زوج النبي وبنت الصديق تكون هكذا لقطة لأول لاقط يصادفها؟ إن التي تكون كذلك لا يخفى أمرها حتى يكشفه حديث الإفك، ويقتصر الحديث فيه على صفوان. وإن كانت العلاقة المزعومة قبل ذلك، فكيف خفيت على الضرائر والحساد، وقالة السوء من المنافقين؟

٣ – نسأل هؤلاء: هل كانت تضمن أم المؤمنين، ألا يفطن أحد لتخلفها فيعود إليها من قريب فينكشف السر وتعلن الفضيحة؟.

٤ – لا نريد التحدث عن شهادة الرسول لصفوان، ولا عن دخولهما «عائشة وصفوان» متصاحبين في وضح النهار على أعين الناس، ولا عن أن وظيفة صفوان افتقاد الضائع وتأخره دائمًا عن الجيش، فذلك كله قد أسلفناه في مواضعه.

٥ – يقول المستشرق موير: إن سيرة عائشة قبل الحادث وبعده توجب علينا أن نعتقد براءتها من التهمة.

٦ – نسأل المستشرقين ونقول لهم: إذا كان محمد قد استنزل الآيات ليحمي سمعة زوجة، فلماذا انتظر شهرًا يتقلب على أسنة الطعن؟ لماذا لم يقطع ألسنة الخائضين في اليوم الأول؟ فيطلب منهم البينة على فريتهم أو الحد في ظهورهم.

٧ – في حادثة الإفك عبر وعظات منها:

أ – اتقاء مواطن الشبهات.

ب – تقدير المسئولية واحتمال أخف الضررين.

جـ – الدقة واليقظة فيما يعهد للإنسان من الأمور، فلو أن المكلفين بهودج أم المؤمنين انتبهوا وتأكدوا من وجودها أو عدم وجودها بإلقاء السلام لاختلفت النتيجة.

د – حسن الظن بالمسلم والمسلمة، فضلاً عن أمهات المؤمنين.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

هـ – الحذر من تلقف الحديث وتلقيه باللسان والتحدث به فى كل مكان، ووجوب الاستيثاق من الأخبار قبل العمل بموجبها.

و – علاج الأمور فى الفتن باللين والحكمة والبعد عن العنف والشدة.

ز – الدعوة إلى العفو والصفح عند القدرة؛ طمعا فى عفو الله ومغفرته، وكمال الإيمان يدفع صاحبه إلى ما فوق العفو والصفح فيدفعه إلى الإحسان إلى من أساء إليه.

٨ – الحذر من المنافقين. علمنا حديث الإفك مضار المنافقين الذين يعيشون بين الناس مظهرين لهم المحبة وقلوبهم مملوءة بالحقد يتربصون الفتن، فمتى رأوا لها بابًا ولجوه وهم شر من الأعداء المجاهرين بالعداوة. وقانا الله شر النفاق والمنافقين.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحديبية

فى ذو القعدة عام ٦ هـ – (مارس عام ٦٢٨ م). يطلق على ما وقع فى الحديبية: صلح الحديبية، وعمرة الحديبية، وغزوة الحديبية.

بعد الانتصارات التى سجلها رسول الله ﷺ على المشركين واقتلعت كل غزوة من هذه الغزوات طائفة كبيرة من اليهود مبالغة من الله فى بدر وأحد والخندق فى إكرام رسوله بالمدينة كانت الأحداث كلها تشير إلى أن رسول الله لابد ذاهب إلى مكة بلده الذى أخرج منه ومسقط رأسه، ومكان البيت الحرام. كما كانت قريش تتوقع ذلك وتحسب له ألف حساب.

وليس أقسى على نفوس قريش من أن يغزوها محمد عليه السلام فى عقر دارها بعد أن نكل بجيوشها كلها، حين أرادت أن تضربه فى المدينة وضواحيها الضربة القاضية.

وكان تدبير رسول الله أن يذهب إلى مكة ليؤدى هو ومن معه فريضة الحج التى مُنعوا منها منذ أن طردوا من البلد الحرام، فقرر فى شهر ذى القعدة من العام السادس للهجرة أداء فريضة الحج وخرج معه إلى هذه الغاية من المهاجرين والأنصار وجماعة من الأعراب غير المسلمين قرابة ألف وخمسمائة(١)؛ لأن رسول الله كان يعلم أن المسلمين يقاسون ألم الحرمان من أداء فريضة الحج التى فرضت عليهم كما فرضت على آبائهم، ويعلم أن المهاجرين من أهل مكة يقاسون – إلى جانب ذلك – ألم النفى وهم الحرمان من الوطن ومفارقة الأهل والأصدقاء(٢).

وفى أعماق نفوسهم إيمان بالنصر الذى أخذوا مُثُلَه الرائعة من مواقع بدر، وأحد، والأحزاب ونزلت آيات القرآن تصب غضبها على قريش وتعلن قرب ميقات النصر النهائى الكبير لله ولرسوله وللمؤمنين فى أمثال هذه الآيات ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ**﴾(٣)، وقوله تعالى ﴿**وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ**

(١) الكامل جـ ٢ صـ ١٣٥.

(٢) حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل صـ ٣٥٣.

(٣) سورة البقرة آية ٢١٧، وحياة محمد صـ ٣٥٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤ – ٣٦].

وكانت قريش وهى تعانى مرارة الهزائم المتتالية والفشل الذريع فى المواقع السابقة تحس فوق عداوتها هذه أن الخطر كل الخطر فى مجىء محمد والمؤمنين معه إلى مكة؛ لأن جمهور المكيين سيتعلق حتمًا بإخوانهم الذين حكم عليهم جور الظالمين من قريش بترك ديارهم وأبنائهم.

*** تنفيذ العزم:**

كانت إشارة البدء رؤيا صادقة رآها رسول الله فى منامه وقصها على أصحابه فى المسجد (أنهم سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون).

من أجل ذلك واعتمادًا على وعد الله له أذّن فى الناس بالحج وطلب إلى قبائل العرب من غير المسلمين أن يخرجوا معه ليشهد هؤلاء على قريش أنها تصد عن البيت كل حجاجه من المسلمين وغير المسلمين، فلا تجتمع العرب مرة ثانية لحرب المسلمين بعد أن انكشف لهم موقف قريش الجديد.

ركب رسول الله ناقته القصواء وأصحابه من خلفه وكلهم أحرم بالعمرة وساقوا هديهم؛ سبعين بدنة. كل هذا ليعلن على الملإ أنه لا يريد قتالاً وإنما يقصد البيت زائرًا ومعظما. وعند ميقات أهل المدينة – فى ذى الحليفة – التى تبعد عن المدينة فى طريق مكة بمقدار ستة أميال دوى صوت الجميع بالتلبية إعلانًا عن عمرتهم التى أحرموا بها.

فهمت قريش أن صنيع محمد هذا إنما هو حيلة اتخذها ليدخل بها مكة، كما حاولت قريش أن تدخل على المسلمين المدينة.

تابع محمد سيره ناويًا العمرة لا يحمل سلاحًا ولا عدة للحرب، بينما كانت كل القوى الضاربة فى مكة قد قررت إغلاق مداخلها كلها فى وجه محمد ومن معه من العرب؛ مهما كان الثمن الذى يدفعونه فى تنفيذ هذه الغاية.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

اضطر عليه الصلاة والسلام أن يتخذ طريقًا إلى مكة غير الطريق المعتاد فقاسى هو ومن معه وعورة السير بين شعاب مضنية حتى أفضت بهم إلى مهبط الحديبية فى الأرض الحرام بينها وبين مكة حوالى ثمانية أميال.

وإن رسول الله فى منزله هذا بالحديبية وأبواب مكة على مرمى البصر كانت قريش قد عسكرت بقواتها على جميع مداخلها لتمنع محمداً أو تموت دون ذلك.

*** السفارات بين الطرفين:**

قررت قريش أن توفد من قبلها من يتعرف على قوة الوافدين إليهم، ويعمل جاهداً على صدهم عن مكة بكافة الوسائل، فأرسلت أولاً «بديل بن ورقاء» فى وفد من خزاعة إلى رسول الله، فلما تحدثوا إليه اقتنعوا بأحقيته فى زيارة البيت وتعظيمه، ورجعوا إلى قريش ليقنعوهم بما اقتنعوا به من رسول الله؛ ولكن قريشا رفضت أن تنزل على رأى سفيرها، ثم بعثت سفيراً آخر هو «الحليس» سيد الأحابيش(١)، ورأى الحليس سبعين بدنة سيقت هديا وأضناها السير فتأثر لذلك وأيقن أن قريشًا ظالمة فى منع قصاد البيت الحرام ومعظميه من أداء شعائرهم مهما كانت الأسباب والدوافع.

وعاندت قريش بعد ذلك وأصرت على موقفها، ثم أرسلت رجلاً آخر هو «عروة بن مسعود الثقفى» ورجع عروة بعد أن سمع من الرسول أنه ما جاء يريد حربًا وإنما جاء معظمًا للبيت مؤديًا فرض ربه. وشاهد بنفسه قدر رسول الله عند أصحابه. قال لقريش: (يا معشر قريش: إنى جئت كسرى فى ملكه، وقيصر فى ملكه، والنجاشى فى ملكه، وإنى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، وإنهم لن يسلموه لشيء أبدًا)(٢).

وانصرفت قريش عن كلام عروة كما لم تصغ لأحد قبله وثقل الوقت وكانت فترة الصمت ورسول الله لا يدرى ما يدور فى نوادى قريش حول هذا الموقف.

*** سفارة الرسول إلى قريش**

أراد النبى أن يقطع على قريش كل سبيل، فقدر أن السفراء الذين بعثت بهم قريش لم يستطيعوا أن يقنعوها بحقيقة الرغبة الصادقة للمسلمين فى عدم إرادة الحرب

---

(١) الأحابيش قوم من رماة العرب سموا كذلك لاسوداد لونهم أو لأنهم يسكنون جبل «حبشى» بضم الحاء وسكون الباء فى أسفل مكة.

(٢) الكامل جـ ٢، صـ ١٣٧، وحياة محمد صـ ٣٥٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وتمحيض قدومهم لمجرد زيارة البيت وتعظيمه، فقرر أن يبعث هو برسل من عنده. فاختار رجلاً من خزاعة اسمه «خراش بن أمية» فلما رأته قريش عقرت ناقته وأرادوا قتله لولا أن منعته الأحابيش؛ لكن رسول الله أصر على أن يكون رسول من عنده يبلغ قريشًا غايته حتى يطمئن إلى علمهم بهذه الغاية، فأرسل عثمان بن عفان زوج ابنته، فقبضت عليه قريش واحتجزته حتى انتشر الخبر بقتل عثمان. وهنا تحركت فى قلوب المسلمين روح جديدة من الفداء والتضحية نسى فى ظلها كل مسلم نفسه ولم يذكر إلا عزة الإسلام، وتضامن المسلمون رغم قلة عددهم وندرة ما معهم من السلاح.

* بيعة الرضوان

أعلن رسول الله عزمه على مناجزة قريش ودعا أصحابه إلى ذلك وجمعهم تحت شجرة كانت هناك فى الحديبية فبايعوه جميعًا على الموت بإيمان ثابت، وعزيمة قوية وإصرار على الانتقام ممن غدر بهم وقتل صاحبهم عثمان بن عفان. فكانت هذه البيعة والتى عرفت ببيعة الرضوان؛ لأن الله سبحانه وتعالى أعلن رضاه ورضوانه على المؤمنين المبايعين لرسول الله فى قوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾ [الفتح: ١٨]، وأراد رسول الله ألا يحرم عثمان بن عفان من شرف هذه البيعة وهو غائب لا يدرى مصيره فضرب بإحدى يديه على الأخرى بيعةً لعثمان كأنه حاضر معهم شرف بيعة الرضوان.

والحق أن بيعة الرضوان هذه كشفت عن صحف ناصعة من الإيمان الحق فى قلوب المؤمنين، وأنستهم حياة المادة ليعيشوا فى نعيم الروح الذى يجعل حلاوة الشوق إلى الاستشهاد ألذ طعمًا فى أفواههم من حلاوة الظفر. وكانت هذه البيعة عند رسول الله تساوى بيعة العقبة الكبرى فى أثرها والروح التى سيطرت عليها.

وبينما رسول الله وأصحابه قد هيأوا أنفسهم لمناجزة قريش جزاء ما فعلت بعثمان. وإذا بعثمان يعود إلى إخوانه ينقل إليهم رأى قريش فى أمر دخولهم مكة ومدى تورطهم فى تصريحات سابقة بالمنع وحرجهم من هذا بعد اقتناعهم بسلامة وجهة رسول الله ورغبته الخالصة فى زيارة البيت وتعظيمه.

* السفير المنقذ:

ومرت فترة بعد ذلك أرسلت فيها قريش (سهيل بن عمرو) ليتصرف فى نجاتهم

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من هذه الورطة؛ على شرط ألا يدخل محمد مكة هذا العام وله بعد ذلك أن يفعل ما يشاء.

* شروط الصلح:

اتفق سهيل بن عمرو – مندوب قريش – مع رسول الله على هذه الشروط:

١ – عقد هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنين (وقيل سنتان).

٢ – أن من يأتي محمداً من قريش بغير إذن وليه يرد إليه.

٣ – أن من جاء قريشا من رجال محمد لم يردوه إليه.

٤ – من أحب من العرب محالفة محمد فلا جناح عليه.

٥ – من أحب من العرب محالفة قريش حالفهم ولا حرج.

٦ – يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا؛ على أن يعودوا فى العام القادم ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم السيوف فى قربها فقط.

* الصياغة تثير خواطر المسلمين:

لما تحددت نقاط الاتفاق بين الطرفين استدعى رسول الله على بن أبى طالب ليكتب شروط الصلح فى صياغتها الأخيرة فقال له: اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل: «أمسك»، لا أعرف الرحمن الرحيم. بل اكتب «باسمك اللهم»، فقال رسول الله لعلى: اكتب «باسمك اللهم» ثم قال: «اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو» فقال سهيل: «أمسك»، لو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك. ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فقال لعلى: امح «رسول الله» واكتب: هذا ما صالح عليه «محمد بن عبد الله».

من مراجعة سهيل بن عمرو لرسول الله وإنكاره الصفات المقررة فى أذهان أتباعه وصحابته ثارت عواطف المسلمين وغلت دماؤهم حتى أعلنوا استياءهم واعتراضهم على هذه الاتفاقية من أولها، وأخذوا يتهامسون ويتناجون فيما بينهم، يعرِّف بعضهم بعضاً بمقدار ما فى نفسه من ألم لما أصاب كبرياء المسلمين من إهانات – فى زعمهم – وجهت إلى رسول الله وإلى المسلمين معه. يقول عمر لأبى بكر: يا أبا بكر: أليس برسول الله؟! فيقول: بلى: فيقول أو لسنا مسلمين؟! فيقول أبو بكر: بلى، فيقول

شبكة الألوكة - قسم الكتب

عمر: فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟! فيقول أبو بكر: يا عمر: الزم غرزك – أى رحلك– فإنى أشهد أنه رسول الله. فيقول عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله. فلما جاوز الكلام حيز المناجاة ووجه رسول الله لم يتغير ولم يغضب وختم حديثه لعمر بن الخطاب بقوله (**أنا عبد الله ورسوله؛ ولن يضيعنى**)(١).

* الفرق بين رعاية الله ورعاية البشر:

بالعين البشرية المجردة رأى المسلمون المخلصون لرسول الله صورة الإجحاف واضحة فى شروط الصلح الذى تم بين رسول الله وسهيل بن عمرو، وأوضح الصور لهذا الأجحاف تتمثل فى بندين من بنود المعاهد. الأول منهما اشترط أن من جاء محمداً مسلماً إلى المدينة بغير إذن وليه وجب على المسلمين رده إلى المشركين فوراً، بينما الذى يترك المسلمين فى المدينة إلى المشركين فى مكة لم يردوه.

وتمثلت صورة التطبيق الفعلى قاسية مؤثرة فى نفوس المسلمين فى وقت توقيع المعاهدة حين أراد الله أن يكشف سهيل بن عمرو أمام المسلمين فجاء ابنه (أبو جندل) فى حضرة والده سهيل بن عمرو إلى رسول الله مسلماً يرسف فى القيود الحديدية، فلما رأى سهيل ابنه أبا جندل أخذه قهراً عنه وأبو جندل يصيح بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أرد إلى المشركين ليفتنونى فى دينى؟! وينظر رسول الله إلى المسلم المغلوب على أمره ويقول له: (**احتسب يا أبا جندل، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً. إنا قد أعطينا القوم عهودنا على ذلك فلا نغدر بهم**)(٢).

* مكاسب الإسلام من صلح الحديبية:

أثبتت الأيام أن صلح الحديبية كان كله حكمة سياسية دلت على بعد النظر كما كان ذا أثر كبير فى مستقبل الإسلام ومستقبل العرب جميعاً للأمور الآتية:

أولاً: فى هذا الصلح كان أول اعتراف من جانب قريش بأن محمداً طرف معترف به له أهمية، وليس مجرد ثائر خارج على الأوضاع والتقاليد. وفى هذا اعتراف بالدولة الإسلامية التى يمثلها الرسول عليه السلام.

---

(١) حياة محمد صـ ٣٦٣.

(٢) الكامل لابن الأثير جـ ٢، صـ ١٣٩ ط منير.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثانيًا : اعترفت قريش بأن الإسلام دين مقرر معترف به فى الجزيرة العربية، وقد كانت لا تعترف به قبل ذلك.

ثالثًا : الهدنة التى حددت فى الصلح أتاحت الفرصة للمسلمين أن يطمئنوا من جانب قريش نهائيًا.

رابعًا : أتاحت الفرصة كذلك لانتشار الإسلام ودخول الناس فيه أفواجًا بعد أن عرف العرب أن محمداً رسول سلام لا رسول حرب كما كانت دعايات قريش تمثله لبقية العرب.

خامسًا : تبين لأصحاب الرسول أن النقط التى ساورتهم الشكوك من أجلها فى صلح الحديبية مثل النص على أن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشا من المسلمين لم يردوه. تبينت حكمة الرسول فى هذا لأن من ارتد عن الإسلام ولجأ إلى قريش لم يكن جديراً بأن يعود إلى جماعة المسلمين، وأن من أسلم وحاول اللحاق بمحمد ولم يتمكن فسيجعل الله له فرجا ومخرجا[١].

سادسًا : مكن هذا الصلح رسول الله من التفرغ لمخاطبة الملوك وتوسيع دائرة الدعوة ونقلها إلى كل العناصر والأماكن.

سابعًا : لم تلبث قريش أن تنازلت عن شرط منع المسلمين فى مكة من الذهاب إلى المدينة بعد أن أسلم (أبو بصير) وفر إلى مكان على ساحل البحر الأحمر فى طريق تجارة قريش إلى الشام يقال له (العيص) وتبعه نحو سبعين رجلاً من المسلمين الذين لم يستطيعوا الذهاب إلى إخوانهم بالمدينة، وهناك فى العيص قام هؤلاء المسلمون بقطع الطريق على تجارة قريش فاضطر القرشيون أن يبعثوا إلى النبى يسألونه بأرحامهم إلا آوى هؤلاء المسلمين حتى يتركوا الطريق آمنًا، وبذلك محت قريش بنفسها نص الشرط الذى تأذى منه أصحاب رسول الله وظنوه حطة فى شأنهم، ومن أجل هذه المكاسب التى طواها صلح الحديبية سماها المولى جل جلاله «**فتحًا مبينًا**»، ونزلت فيها سورة الفتح عقب انتهائه من عقد هذه الهدنة وهو فى طريقه إلى المدينة.

---

(١) حياة محمد صـ ٣٦٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الأحداث المهمة بعد الحديبية

فى مخطط ربانى كان يسير رسول الله عليه الصلاة والسلام، فكان يأتى من التصرفات ما يبهر العقول ويحمل أصحابه على الانقياد له بإيمان.

* غدير خم

فى عودة الرسول من الحديبية وهو عند الجحفة فى مكان يقال له (غدير خم) استراح قليلاً ثم نظر إلى أصحابه فقال: هذا الحديث **«من كنت مولاه فعلى مولاه»** وكان ذلك فى الثامن عشر من شهر ذى الحجة للعام الهجرى السادس. وبقى هذا الحديث مكنونًا فى صدر الغيب حتى استغله شيعة على رضى الله عنه فى إثارة نزاع حاد بين الشيعة والسنة.

* غزوة خيبر:

بعد أن نضجت الدعوة الإسلامية فى الجزيرة وكُتب النصر للمسلمين واستقرت جذورها فى أرض سليمة واطمأن رسول الله على نجاحها ورسوخها فى قلوب المؤمنين من العرب، كان لابد أن ينتقل بالدعوة إلى ميدانها العالمى لتكون للناس كافة ويضع الخطة لأصحابه بعده أن هذا الدين يجب أن يسود ويتخطى الحدود ويساير الإنسانية جنبًا إلى جنب حتى يصير مفهوم الإسلام هو مفهوم الإنسانية التى تربط بين جميع الناس برباط المحبة والأخوة والسلام.

لكن هذه الخطوة التى تقررت لدى رسول الله فى مخاطبة الملوك والأمراء وإطلاع العناصر غير العربية فى مختلف البقاع لم تكن لتأتى بنتائجها المثمرة وواحد من اليهود فى جزيرة العرب ويتوقع الغدر منهم بين الحين والحين. وأن رسول الله وإن كان قد أمن قريشا وأمن الجنوب كله فإنه لن يأمن فى الشمال أن يستعين كسرى بيهود خيبر فى إثارة فتنة جديدة ضد المسلمين. فكان لابد من القضاء على شوكة اليهود قضاءً مبرمًا حتى لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك.

* الفراغ من اليهود جميعًا:

يبدو من تصرفات رسول الله أنه كان يعلم تمامًا خطر اليهود فى المنطقة الشمالية ويدبر الأمر فى شأنهم فلما عقد الهدنة بينه وبين قريش فى الحديبية وأمن على دعوته

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فى جنوب المدينة وجد الفرصة سانحة للقضاء على شوكة اليهود فى شمال المدينة، فما كاد يرجع من الحديبية حتى أخذ يفكر فى أمر اليهود فى خيبر وفدك، وتيماء، ووادى القرى؛ فأقام بالمدينة شهر الحجة من العام السادس للهجرة ثم بضعة أيام من المحرم للسنة السابعة وأصدر أوامره لأصحابه بالمسير إلى خيبر فخرج معه ألف وأربعمائة مقاتل ومعهم مائتا فرس. وأن هذا الجمع فى مسيره إلى تطهير أرض الجزيرة من عنصر اليهود أو تقليم أظفارهم على الأقل وعلامات البشر بادية على وجوه المؤمنين فى طريق الجهاد الحق فى سبيل الله. وأنهم كذلك صدرت أوامر رسول الله إلى عامر بن الأكوع أن يتولى حداء القافلة ليشحذ همم القوم ويجدد نشاط الإبل فنزل عامر بن الأكوع يحدو الإبل بهذه الأبيات:

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
إنا إذا صيح بنا أتينا ... وبالصياح عولوا علينا[(١)]

وهكذا قطع المسلمون الطريق إلى خيبر فلما تراءت لهم حصونها المنيعة الكثيرة وأشرف عليها رسول الله أمر أصحابه بالوقوف ثم رفع يديه إلى السماء وقال «**اللهم رب السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين؛ نسألك خير هذه القرية وخير أهلها، وخير ما فيها. ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر مافيها: أقدموا باسم الله**»[(٢)] وكان وصولهم إلى خيبر ليلا فلما كان الصباح فوجئ يهود خيبر برسول الله يقول: «**الله أكبر خربت خيبر. إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**» وكانت حصون خيبر هى عدة أهلها وهى كثيرة منها: ناعم، والقموص، والصعب، والوطيح، والسلالم، والشق، ونطاة، والكتيبة، فحاصرها رسول الله حصنًا حصنًا واستولى على ما فيها من أموال وسلاح بعد أن قاتل اليهود على حصونهم وأرضهم شبرًا شبرًا وكلما ظهر منهم زعيم معتد بنفسه دُحر أمام قوة المسلمين وثباتهم.

---

(١) كتاب الكامل لابن الأثير ج٢ ص ١٤٧ ط منير.
(٢) تاريخ ابن الأثير ج ٢ ص ١٤٧ ج ١ منير.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

* الصلح مع خيبر :

فلما تداعت آخر حصونهم وأمنعها وهى الوطيح والسلام واستحوذ رسول الله على أموالهم كلها طلبوا الصلح فصالحهم الرسول على الشروط الآتية :

١ - أن يحقن دماءهم ويطلق أسراهم .

٢ - أن يبقيهم على أرضهم التى آلت للمسلمين بحكم الفتح على أن يكون لهم نصف ثمرها نظير عملهم .

ولعل رسول الله عامل يهود خيبر بغير ما عامل به إخوانهم من بنى قينقاع وبنى النضير للأسباب الآتية :

أولاً : أنه بسقوط خيبر آمن بأن اليهود لن تقوم لهم قائمة بعد ذلك أبداً .

ثانيًا : لأن الأرض الزراعية التى آلت إليهم من خيبر بحدائقها وزروعها ونخيلها كانت تحتاج إلى الأيدى العاملة وليس يوجد فى المدينة من الأنصار من يستطيع القيام بحاجة أرض خيبر إلى جوار بساتينهم فى المدينة .

ثالثًا : كان النبى فى أشد الحاجة إلى جيوشه التى تعمل معه فى ميادين الحرب، فليس من الحكمة أن يطرد يهود خيبر ليحل محلهم جنوده وصفوة جيشه للعمل فى زراعة أرض اليهود الراحلين فكان الأمر يقتضى بقاء خيبر فى أرضها لتزرعها بالنصف للمسلمين .

* فدك بعد خيبر

سقوط خيبر ألقى بالذعر والرعب فى قلوب يهود فدك فلما أرسل إليهم النبى يطلب منهم أن يسلموا أو يسلموا أعلنوا رغبتهم فى الصلح على نصف ما بأيديهم من غير قتال فكانت خيبر للمسلمين الذين قاتلوا عليها، وكانت فدك من نصيب رسول الله خالصة له لأنهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب(١) .

* وادى القرى بعد فدك

فى عودة رسول الله إلى المدينة بعد هذا النصر على اليهود فى خيبر وفدك مر بوادى القرى فوجد أهلها من اليهود قد تجهزوا لقتاله فنازلهم حتى أذعنوا للصلح على ما اصطلحت عليه خيبر.

---

(١) حياة محمد ص ٣٧٨ والتنبيه والإشراف للمسعودى ص ٢٢٤ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

* تيماء بعد وادى القرى

وصنع يهود تيماء كما صنع أهل فدك بمجرد علمهم بما أصاب أهل وادى القرى فقبلوا الجزية من غير قتال ولا حرب .

وبسقوط تيماء دانت كل العناصر اليهودية فى الجزيرة لسلطان محمد عليه الصلاة والسلام وانتهى كل ما كان لهم من سلطان فى جزيرة العرب وأصبح رسول الله فى مأمن من ناحية الشمال إلى الشام كما أصبح فى مأمن من الجنوب بعد صلح الحديبية .

* عموم الرسالة

انتهى رسول الله فى قرارة نفسه إلى إرسال رسله إلى هرقل وكسرى والمقوقس، ونجاشى الحبشة وإلى الحارث الغسانى، وإلى عامل كسرى فى اليمن وإلى أمير البحرين، وأمير اليمامة وهؤلاء هم القوى السياسية المحيطة بأرض الجزيرة .

كانت مخاطبة الملوك والعمال أصحاب الشأن خطوة جديدة للخروج بالدعوة من نطاقها الضيق المحدود فى العنصر والمكان إلى نطاق عالمى غير محدود بالجنس ولا بالمكان . إلى نطاق الإنسانية العام، كما كانت هذه الرسائل والمكاتبات هى نقطة الانطلاق لأصحاب محمد بهذا الدين إلى كل الذين بلغهم العلم به .

يختلف المؤرخون فى تحديد الزمن الذى أرسل فيه رسول الله إلى الملوك والحكام بكتبه . هل كان ذلك قبل صلح الحديبية أو بعده وبالتالى قبل فراغه من أمر اليهود فى خيبر والمنطقة الشمالية كلها؟؟ ولكن الترتيب الطبيعى للحوادث يرجح أن مكاتبة الملوك كانت بعد انتهائه من تأمين المنطقة الجنوبية بصلح الحديبية(١) وتأمينه المنطقة الشمالية بالقضاء على نفوذ اليهود فى الشمال فلما استراح إلى ضعف خصومه وأمن شرهم خرج يومًا على أصحابه فقال : «**أيها الناس . إن الله قد بعثنى للناس كافة . .**» ثم ذكر لهم أنه مرسل إلى هرقل وكسرى والمقوقس والحارث الغسانى ملك الحيرة، والحارث الحميرى ملك اليمن، وإلى نجاشى الحبشة يدعوهم إلى الإسلام . فلما أجابه أصحابه أمر أن يصنع له خاتم من فضة نقش عليه (**محمد رسول الله**) .

---

(١) محمد رسول الله تاليف مولاى محمد على ص ١٤٦، ١٥١ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقد حفظ لنا التاريخ صورة من رسائل النبى ﷺ التى أرسلها إلى المقوقس عظيم القبط وقد عُثر عليها فى مصر ونُشرت صورتها فجاءت مطابقة تمامًا لما ورد فى الحديث والأخبار وهى تعتبر نسخة قريبة جداً من الرسالة التى وُجهت إلى هرقل عظيم الروم ونحن ننقلها هنا ليعيش القارئ فى معانيها ويدرى المبادئ التى انطوت عليها لتوحد بين العالم أجمعين فى دين ينهى جميع المنازعات الدينية ويجمع الإنسانية كلها فى إخاء عالمى عام، وهذا هو نص الخطاب المشترك بين جميع الملوك (**بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى: أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين**[1]. **يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**).

كتب رسول الله من هذا الكتاب صوراً أرسلها إلى الملوك المعاصرين وأصحاب السلطان حول الجزيرة وفى أطرافها.

ووصل كل رسول بكتابه إلى الجهة التى أُرسل إليها وجاءت الردود كلها إلى رسول الله، فى أكثرها رقة وعطف وفى بعضها غلظة وشدة.

وسنكتفى بذكر نماذج من ردود الملوك الذين ترفقوا فى الرد والذين أغلظوا فيه:

أولاً: نجاشى الحبشة: الذى آمن برسول الله بعد وصول الخطاب إليه وأعلن إسلامه على يد جعفر بن أبى طالب[2] وزوّج رسول الله بأم حبيبة بنت أبى سفيان التى كانت بالحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش فتنصر وتوفى ثم أمهرها لرسول الله أربعمائة دينار.

ثانيًا: قيصر الروم هرقل: وقد استقبل كتاب رسول الله استقبالاً حسنًا وأعلن استعداده للدخول فى الإسلام؛ ثم خشى على حياته من رجال الكنيسة إلا أنه استدعى أبا سفيان الذى كان بتجارته فى الشام حين كان هرقل هناك ثم سأله عن أحوال النبى محمد عدة أسئلة فى محادثة طويلة فلما انتهى من مناقشة أبى سفيان قال له: (لئن صدقتنى ليغلبن موضع قدمى هاتين ولوددت أنى عنده فاغسل قدميه.

---

(١) الأريسيين: الخدم والأتباع. يريد إنه مسئول عن إثم رعيته فى صده إياهم عن الدين (حياة محمد ص ٣٧١ هامش ١).

(٢) الكامل ج ٢ ص ١٤٤.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

انطلق لشأنك) قال أبو سفيان : (فخرجت وأنا أضرب إحدى يدىّ بالأخرى، وأقول : أى عباد الله لقد أمر ابن أبى كبشة أصبح ملوك الروم يهابونه فى سلطانهم)(١) ولعل مناقشة هرقل لأبى سفيان عدو المسلمين فى هذا الوقت كانت من الأسباب التى جعلته يراجع نفسه للدخول فى الإسلام.

ثالثًا : أما كسرى أبرويز : فإنه مزق الكتاب وكتب إلى باذان عامله باليمن يطلب منه أن يرسل له رجلين جلدين يقبضان على هذا الرجل الذى بالحجاز ويرسلانه إلى كسرى مكبلاً بالحديد، ولكن رسول الله أخبر الرسولين بأن كسرى الذى أرسلهما قد قُتل وأن الذى قتله هو (شيرويه) ابنه وتولى العرش مكانه فاندهش الرجلان من هذا الخبر الذى كان مفاجأة لهما فلما تحقق صدق الخبر لدى باذان حاكم اليمن أسلم وأسلم معه طائفة من الفرس وخرجت اليمن من طاعة كسرى(٢).

رابعًا : وأما المقوقس : فقد كان رده جميلاً حيث بعث إلى رسول الله يخبره بأنه يعتقد أن نبيًا سيظهر ولكنه فى الشام وأكرم حامل الكتاب وبعث معه بهدية عبارة عن جاريتين إحداهما مارية القبطية التى أنجبت ابنه إبراهيم والثانية سيرين التى أُهديت إلى حسان بن ثابت وبغلة بيضاء وحمار ومقدار من المال وبعض خيرات مصر.

ماذا حققت مكاتبة الملوك ؟؟

الظروف التى أرسل فيها رسول الله كتبه إلى الملوك الأقوياء من حوله كانت تلفت النظر حقًا لأن ذلك كان بعد حصار المدينة بعام واحد حيث لم يكن هناك أمل فى نجاة مسلم واحد لو أن الأمور أخذت طريقها المرسوم ضد المسلمين. وفى نفس الوقت الذى تحركت فيه الرسل إلى الملوك وأصحاب السلطة فى كل مكان كان المسلمون غير قادرين على الذهاب إلى مكة لأداء فريضة الحج خوفًا من قريش التى أملت شروطها على النبى وأتباعه.

وعلى الرغم من كل هذه الظروف فإن رسول الله كان يعمل فى مخطط إلهى مرسوم له ولهذا حققت هذه المكاتبات الأمور الآتية :

١ - كانت رسائله إلى الملوك الأقوياء يطلب منهم الدخول فى دينه دليلاً على اعتزازه بالعناية الإلهية وإعلانه أن ما وُعد به من دخول هؤلاء فى دينه لابد أن يتحقق.

---

(١) المرجع السابق : ج ٢ ص ١٤٥.

(٢) محمد رسول الله - مولاى محمد على ص ١٤٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

٢ – استفادت الدعوة الإسلامية بهذه الكتب دخول عدد من الذين كتب إليهم في الإسلام.

٣ – كانت مكاتباته للملوك أمرًا لمن جاء بعده بوجوب نشر الدعوة في كل مكان.

٤ – كانت مناقشة هرقل قيصر الروم لأبي سفيان – بعد وصول الخطاب إليه – سببًا في مراجعته موقفه وتفكيره في الانضمام إلى المسلمين.

٥ – بهذه الكتب طرحت الدعوة الإسلامية للمناقشة على مستوى عالمي حيث استطاعت أن تجد لها أنصارًا استجابوا لقوله تعالى ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ٦٤].

٦ – ارتفعت الروح المعنوية عند المسلمين بإسلام من أسلم من الملوك كما تأثرت قريش وضاقت بخروج الدعوة إلى هذه الميادين.

* خلاصة ما تم في العام السابع

كان عامًا مشحونًا بالأحداث والوقائع المهمة كبقية الأعوام حيث استطاع رسول الله أن يطهر فيه المنطقة الشمالية من نفوذ اليهود ففتح خيبر وفدك وتيماء ووادي القرى ثم أرسل رسله إلى الملوك الأقوياء من حوله يدعوهم إلى الدخول في الإسلام ويعرّفهم بالدين الجديد ومبادئه. كما استقبل فيه أحبابه الذين طالت إقامتهم بالحبشة ومنهم ابن عمه جعفر وكان شعور الفرح فياضًا من قلب رسول الله على لسانه بما أفاضه الله عليه من نعمة فتح خيبر وعودة ابن عمه جعفر فقال قولته المشهورة عند قدوم جعفر: «**ما أدري بأيهما أبشر: بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟**»[(١)] كما استقبل رسله الذين بعثهم إلى الملوك حيث حققوا جولة الظفر والنصر لهذا الدين في مناطق جديدة.

وأقام الجميع بالمدينة ليقضوا بقية العام السابع حتى يحين الوقت ويوافيهم موسم الحج، وهو الموعد المضروب بينهم وبين قريش ليحققوا فيه آمالهم، ويرووا فيه ظمأهم إلى البيت وإلى مدارج طفولتهم في مكة؛ وفيما بين الانتصار على اليهود وانتظار موسم الحج كان المسلمون يزاولون أعمالهم التقليدية، وهي إرسال السرايا والفرق من

---

(١) التنبيه والإشراف للمسعودي ص ٢٢٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الجيش إلى الجهات المختلفة ليُشعروا خصومهم بأنهم فى منعة وقوة ويلقوا الرعب فى قلوب أهل الجزيرة كلها.

* عمرة القضاء

كان المسلمون يعدون الأيام ويترقبون الموسم فى أشهر الحج ليخرجوا بجموعهم إلى مكة بعد أن مُنعوا من دخولها فى العام الماضى؛ لذلك نادى رسول الله فى أصحابه بالتجهز لعمرة القضاء. فاستجاب ألفان من المسلمين بعد أن كانوا فى العام الماضى ألفًا وأربعمائة تقريبًا.

وقبيل بداية شهر ذى الحجة سار الركب الشغوف إلى أم القرى، ومنهم المهاجرون الذين تعتمل فى قلب كل واحد منهم أشواقه إلى البيت الحرام، وإلى مسقط رأسه ومدارج صباه؛ ومنهم أهل المدينة الذين تهفو قلوبهم إلى ثرى القرية المباركة التى أنجبت رسول الله والتى نزل فيها أول ما نزل من الوحى بالهدى والرشاد. وفى ظل من احترام عهد الحديبية لم يحمل واحد منهم سلاحًا سوى سيفه الذى وضعه فى قرابه(١)، واحتاط رسول الله فجهز مائة فارس بعثهم طليعة بحيث لا يتعدوا حرم مكة. وساق المسلمون الهدى أمامهم ستين ناقة؛ وفى طليعة كل هؤلاء رسول الله على ناقته القصواء حتى وصلوا إلى مكة، وعرفت قريش بمقدم رسول الله مع أصحابه فجلت عن مكة نزولاً على صلح الحديبية، واتخذت كل جماعة من قريش طريقها فى البعد عن طريق محمد وأصحابه فمنهم من آوى إلى ظل شجر بعيد، ومنهم من صعد فوق جبل أبى قبيس وجبل حراء.

ومن فوق هذه المرتفعات أطل المكيون على هذه الجموع التى لم يكن يخطر على بالهم أن تدخل مكة باسم محمد لا يصدهم صاد عن البيت الحرام، ووقعت أبصارهم على عبد الله بن رواحة وفى يده خطام القصواء ناقة رسول الله ومن حولها كبار الصحابة ومن خلفهم صفوف منتظمة تزدحم بهم مداخل مكة حتى إذا تبدى لهم البيت الحرام فبهرتهم هيبته انفرجت شفاههم عن نشيد موحد دوت به أرجاء مكة ورددت صداه جبالها ومرتفعاتها فى مقاطع رتيبة عجيبة هو: «**لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك**» كادت تنخلع

---

(١) قراب السيف: جعبته التى يُحفظ فيها.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

به القلوب فتلتصق بالحناجر حتى ليخيل للسامع أن الأرواح والقلوب تقفز أمامهم إلى ربها مندفعة مع كلمات: لبيك! لبيك، وكأن رسول الله أحس أن قريشًا أخذوا يتحدثون بأن أصحاب محمد قد أضناهم السفر وأعياهم شظف العيش ومشقة الطريق.

فلما دنا من الكعبة اضطبع[١] بردائه وأخرج عضده اليمنى ثم قال: «**اللهم ارحم امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة**» ثم استلم الحجر الأسود وهرول، وهرول أصحابه معه. فعل ذلك ثلاثة أشواط فى طوافه، وكذلك هرول رسول الله فى السعى بين الصفا والمروة، يبدأ الهرولة من الميل الأخضر، ويفرغ منها عند الميل الثانى ثلاثة أشواط كذلك[٢]. فلما انتهى رسول الله من الطواف والسعى نحر الهدى عند المروة وحلق رأسه، وأتم بذلك فرائض العمرة؛ ومكث بمكة ثلاثة أيام يصلى بألفين من أصحابه كان يؤذن لهم بلال بعد أن يرقى سطح الكعبة ويقف بين الأصنام التى أقيمت عليها ليهز الفضاء وأرجاء مكة بنداء الإسلام «الله أكبر، الله أكبر».

ومضى الأجل المضروب لمحمد وأصحابه بمضى الأيام الثلاثة فى مكة وكان حرص قريش على إخلاء مكة من المسلمين لا يعدله حرص فلم يقبلوا أية مفاوضة ولم يفتحوا صدورهم للحديث مع رسول الله أبداً بل أرسلوا إليه رسولين من رجالهم يردون عليه اقتراحه على قريش بأن يبقى فى مكة مدة يقيم فيها عرسه بميمونة أخت زوج عمه العباس فقال لهم (**ما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعامًا فحضرتموه**) فكان رد قريش (لا حاجة بنا إلى طعامك فاخرج عنا) فلم يتردد رسول الله فى الخروج من مكة نزولاً على عهده فى الحديبية وترك أبا رافع مولاه على ميمونة التى وقع الإسلام فى قلبها ولم يعد يطيب لها العيش فى مكة بين قوم مشركين فبنى بها النبى فى مكان يسمى سَرِف (بفتح السين وكسر الراء) قريب من مكة فى طريق المدينة وكانت ميمونة هذه آخر أمهات المؤمنين.

ماذا تركت عمرة القضاء فى نفوس قريش؟!

لم تكن لتمر تلك المظاهرة الرائعة فى مكة وحول البيت دون أن تترك أثراً واضحًا

---

(١) الاضطباع: أن يأخذ الإنسان الإزار فيجعل وسطه تحت إبطه الأيمن ويلقى طرفيه على كتفه الأيسر من جهة صدره وظهره.

(٢) وهذا هو السر فى تشريع الهرولة فى الطواف والسعى.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كان رسول الله يحس أنه سيحدث، ولقد دل عليه قول الرسول عليه السلام لعبد الله بن رواحة حينما أراد أن يثير حربًا على قريش فقال له **(مهلاً يابن رواحة وقل لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وخذل الأحزاب وحده)**.

ويمكننا أن نلمس أثر عمرة القضاء فيما يلي:

أولاً: بالقدوة والمثل وبالروعة وصدق الإيمان تأثرت مشاعر أهل مكة وتفاعلت الأفكار فى عقول العقلاء فوقف خالد بن الوليد فى جمع من أهل مكة بعد رحيل المسلمين عنها يقول: (لقد استبان لكل ذى عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر، إن كلامه من كلام رب العالمين فحق على كل ذى لب أن يتبعه)(١). فكان إسلام فارس قريش وبطل أحد ربحًا كبيراً للإسلام، وهزيمة واضحة للكفر الذى تعيش به قريش بعد إسلام خالد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة.

ثانيًا: زواج رسول الله بميمونة بنت الحارث الهلالية من هوازن، فكان زواجه بها ذا أثر بعيد فى أهدافه ومراميه. فقد ربط هذا الزواج بين رسول الله وكثير من الشخصيات الكبيرة من المسلمين وغير المسلمين؛ حيث كانت ميمونة ثامنة لسبعة من الأخوات(٢)؛ فلما تزوج رسول الله منها كان عمه العباس متزوجًا بأختها لبابة الكبرى، وعمه حمزة من أختها سلمى، وتزوج جعفر بن أبى طالب بأختها أسماء، وكان المغيرة ابن شعبة المخزومى متزوجًا من أختها لبابة الصغرى التى هى أم خالد بن الوليد. ففى عمرة القضاء تأثرت نفس ميمونة هذه بمظاهر عظمة المسلمين؛ ووقع الإسلام فى قلبها فعرضها العباس على رسول الله فقبل زواجها.

ثالثًا: نتيجة لما رأته قريش من صدق إيمان المسلمين وما بدا من جمال الإسلام، وجلال رسول الله رجعت قريش لتدرس الموقف من جديد، وتقرر مصيرها أمام هذه الدعوة الجديدة فدخل فى الإسلام عدد كبير من أهل مكة بعد عمرة القضاء كما انكشف أمر المصرين على العناد، ووضحت عند المسلمين ضرورة العودة إلى مكة فاتحين.

---

(١) حياة محمد ص٣٨٩.

(٢) التنبيه والإشراف للمسعودى ص ٢٢٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

* غزوة مؤتة

كانت جهة الشمال وبلاد الشام هى التى ركز عليها رسول الله اهتمامه بعد أن أمّن الجهة الجنوبية بعهد الحديبية وأمن اليمن بدخول عاملها فى دعوته. وكان رسول الله يتوسم أن دعوته حين تتجه فى انتشارها خارج جزيرة العرب فإن طريقها الأول هو الشام فكان كل ما يحدث على حدودها القريبة من عدوان على المسلمين أو تمرد على الدعوة يحتاج من رسول الله إلى تفكير وإلى حزم فى الضرب على أيدى العابثين.

أسباب غزوة مؤتة:

أولاً: تروى كتب التاريخ أن رسول الله أرسل خمسة عشر رجلاً إلى مكان يقال له (ذات الطلح) على حدود الشام يبشرون بالدين الجديد ويشرحون للناس مبادئه فكان جزاؤهم جميعًا القتل ولم ينج منهم سوى رجل واحد فكان لابد لرسول الله أن يأخذ بثأر القتلى من أتباعه.

ثانيًا: يقال إن سبب الغزوة أن النبى عليه السلام أرسل رسولاً من قبله إلى عامل هرقل على مدينة بصرى وإن أحد العرب الغساسنة قتل هذا الرسول فأراد النبى تأديب هذا العامل ومن معه من الغساسنة فأعد العدة لغزوة مؤتة.

وسواء كان هذا السبب أو ذاك فإن غزوة مؤتة أصبحت مقدمة لموقعة أهم منها فى التاريخ وهى (غزوة تبوك) كما كان عهد الحديبية مقدمة واضحة لفتح مكة[١].

الإعداد للمعركة

ابتدأ فى شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة الموافقة لعام ٦٢٩م حيث جهز رسول الله ثلاثة آلاف من خيرة رجاله، وأما التنظيم الذى وضعه رسول الله لترتيب قيادة هذه الموقعة فلعله كان الأول من نوعه حيث رتب الرسول قواد غزوة مؤتة ترتيبًا عجيبًا دل على أن الله أطلعه على الغيب حيث مضت الأمور على النسق الذى رتبه فجعل من أول الأمر زيد بن حارثة قائد هذا الجيش ثم قال: **(إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب أمير على الناس، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس)** فأدرك الصحابة كما أدرك هؤلاء القواد أنهم هالكون لا محالة ولكن رغبتهم فى الشهادة كانت أعلى من حرصهم على الحياة.

---

(١) حياة محمد ص ٣٩٢.

الجيشان: ثلاثة آلاف من المسلمين ومائة ألف أو مائتان من جيش الروم فى بعض الروايات وعلى رأسهم « تيودور » أخو هرقل ووصل المسلمون إلى أرض « معان » فى بلاد الشام وهناك بلغهم خبر هذه الجموع التى حشدها هرقل للقضاء على المسلمين ومكث المسلمون ليلتين يفكرون ماذا يصنعون أمام هذا العدد الذى لا قبل لهم به؟ أفيكتبون إلى رسول الله يطلبون منه المدد أو ينتظرون توجيهه؟ أم يدخلون المعركة غير ناظرين إلى التكافؤ بين الفريقين؟

المثل العليا فى المعركة:

كادت الآراء تتفق على إخبار رسول الله وانتظار توجيهه لولا أن عبد الله بن رواحة وقف خطيبًا فى القوم فقال: (ياقوم! والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون: الشهادة: وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة. ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين: إما ظهور، وإما شهادة) وقال الجميع لبعض: (صدق والله ابن رواحة).

وتحرك الجيش بهذه الروح حتى وصلوا إلى قرية « مؤتة » فتحصن فيها المسلمون ودارت المعركة بين جيشين غير متكافئين فى العدد والعدد وحمل القائد الأول « زيد ابن حارثة » على خصومه حتى مزقته سيوف الروم فتناول الراية بعده جعفر بن أبى طالب وهو يومئذ فى الثالثة والثلاثين من عمره وقاتل جعفر والراية فى يده اليمنى فأحاط به العدو وضربه ضربة قطعت يمينه فلما تناولها بشماله ضرب ضربة قطعت شماله فاحتضنها بعضديه حتى قتل.

وبالترتيب النبوى تقدم عبد الله بن رواحة فى شىء من التردد ثم أخذ سيفه وقاتل حتى قُتل.

منازلهم فى الجنة:

لما علم رسول الله بمصارع قواده الثلاثة كان أساه على زيد وجعفر أكبر منه على ابن رواحة ثم قال: (**لقد رُفعوا إلى فى الجنة - فيما يرى النائم - على سرر من ذهب فرأيت فى سرير عبد الله بن رواحة ازورارا عن سريرى صاحبيه فسأل: لِمَ هذا؟ فقيل له: مضيا وتردد عبد الله بعض التردد ثم مضى**). واستمرت المعركة حيث أخذ الراية ثابت بن أرقم أحد بنى العجلان ثم قال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم فاصطلح الناس على خالد بن الوليد.

مهارة خالد فى إنقاذ الجيش :

ما أقسى مهمة القائد الذى يتسلم القيادة لجيش منهزم ولكن خالداً أصدر أوامره فداور بالمسلمين حتى سوى صفوفهم وجعل الحرب بينه وبين خصومه مناوشات يمضى بها وقت النهار حتى إذا أرخى الليل سدوله أحكم خالد تدبير خطته فوزع عدداً كثيراً من رجاله فى خط طويل من مؤخرة جيشه وأمرهم أن يحدثوا جلبة وضوضاء مع طلوع النهار ليلقى فى روع العدو أن مدداً كبيراً جاءه من عند رسول الله ونجحت الخطة، وتقاعس الروم وفرحوا بانسحاب خالد فلم يحاولوا أن يلحقوا به وهو فى طريقه إلى المدينة ومعه جمع من المسلمين الذين نجوا من الموت فى معركة مؤتة التى لم ينتصر فيها المسلمون بالفعل كما لم يشعر الروم فيها بأنهم فرغوا من أمر المسلمين.

ومع مهارة خالد فى الانسحاب، ونجاة المسلمين فإنهم لم يسلموا من تقريع إخوانهم فى المدينة ورميهم بالجبن حتى كانوا يواجهون كل جندى منهم بقولهم (يافرّار: فررتم فى سبيل الله) فيقول رسول الله : (**ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله**) .

* غزوة السلاسل ترد هيبة المسلمين

بعد أسابيع من عودة خالد أراد رسول الله أن يسترد هيبة المسلمين فى شمال شبه الجزيرة فبعث عمرو بن العاص يستنفر العرب إلى الشام. فلما كان على ماء بأرض جذام يقال له (السلسل) أدركه الخوف فبعث إلى رسول الله فأمده بخيرة المهاجرين الأولين بأبى بكر وعمر، وأبى عبيدة بن الجراح. واستطاع عمرو بن العاص بهذا الجيش أن يشتت شمل جموع الشام التى جاءت لمحاربته فأعاد بذلك هيبة المسلمين فى شمال الجزيرة.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فتح مكة

بعد الانتصارات التى حققها الله لنبيه، وبلوغ الدعوة الإسلامية إلى آفاق جديدة، وعناصر جديدة بعد غزوة مؤتة صار فتح مكة أمرًا متوقعًا ينتظره رسول الله بين الحين والحين، وتوافرت لدى رسول الله أسباب حقيقية تجعله دائم التفكير فى مكة وفى إدخال أهلها جميعًا فى الإسلام.

فلعل هذه الأسباب الحقيقية كانت ما يأتى:

أولاً: كانت طبيعة الدعوة، وسيرها التقدمى فى نواحى الجزيرة تقتضى أن تكون مكة من ركائزها الواضحة لأنها أول مكان نزل فيه الوحى فوق أنها بلد الرسول، وفيها مولده وذوو قرباه، وهى البلد التى هاجر منها جمع كبير من أهلها ويتحرقون شوقًا للرجوع إليها.

ثانيًا: الحب الغامر الذى فاض على قلب رسول الله لهذا البلد الذى أشار إليه القرآن فى قوله تعالى: ﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** ﴾ [البقرة: ١٤٤] وهذا الحب من شأنه أن يجعل رسول الله حريصًا على إسلام أهلها وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

ثالثًا: علمه عليه الصلاة والسلام أن العرب لا تذل له حتى تذل قريش، ولا تنقاد البلاد قاطبة إلا حين تنقاد مكة[١] لكن كيف يتم له فتحها وبينه وبين قريش فيها عهد وهدنة؟! وبقى رسول الله ينتظر من وراء الغيب سببًا مباشرًا يلتمسه ليكون على حق إذا هو حاول فتح مكة.

وأمكنته الظروف، وأعطته شروط صلح الحديبية كل المبررات التى يدخل بها مكة. ذلك أنه كان من شروط الصلح فى الحديبية بين رسول الله وقريش: أن من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده فليدخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه. فاختارت (خزاعة) أن تدخل فى عهد محمد عليه السلام كما دخلت (بنو بكر) فى عهد قريش، لأن الذى كان بينهما فى الجاهلية ثارات

---

(١) نور اليقين للخضرى ص ٢٣١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قديمة فلما انحازت كل من القبيلتين إلى الفريق الذى دخلت فى حلفه سكنت العداوة بينهما ونامت الثارات الماضية.

* نقض قريش عهد الحديبية

ولهذا النقض أسباب منها:

١ - أن قريشاً لما رأت أن السلام فى صالح الإسلام، وأن اطمئنان محمد لهدوء الحالة بينه وبين قريش مكنه من التفرغ لجهات أخرى فى أماكن بعيدة فكبر ذلك على مشركى قريش ولم ترد أن تمنحه هذا الهدوء مدة طويلة.

٢ - انتشار الإسلام بين قبائل نجد المتاخمة للعراق والشام أقضّ مضاجع قريش، وأهاج حقدها على محمد وأتباعه.

٣ - بعد غزوة مؤتة انكشف عجز الدولة البيزنطية عن دفع رواتب الجند العرب فأدى ذلك إلى إسلام ألوف من سليم وأشجع، وغطفان، ومن عبس وذبيان، وفزارة. ووصل علم ذلك إلى قريش فزاد فى حقدها وغضبها.

٤ - بعد غزوة مؤتة وعودة الجيش الإسلامى من هناك غير منتصر خُيل إلى قريش أن المسلمين قُضى عليهم كما خيل إلى بنى بكر أن الفرصة قد سنحت لهم ليصيبوا من خزاعة ثاراتهم القديمة؛ وحرضهم على ذلك جماعة من قريش؛ منهم عكرمة ابن أبى جهل وبعض سادات قريش وأمدوهم بالسلاح(١) كما اشترك معهم من رجالات مكة عدد كبير ومعهم عيرهم وعبيدهم.

نقضت قريش وبنو بكر العهد بينهم وبين النبى حين فاجأت بنو بكر قبيلة خزاعة على ماء لهم يسمى (الوتير) فقتلوا منهم مقتلة عظيمة حتى فرت خزاعة إلى مكة حيث لجأوا إلى بديل بن ورقاء ثم أرسلوا رسولا منهم هو عمرو بن سالم الخزاعى إلى المدينة لأجل أن يقص على رسول الله ما فعله بهم بنو بكر وقريش وطلب منه النصرة، فقال النبى عليه الصلاة والسلام (**نُصرت يا عمرو بن سالم**) ولم تمض مدة حتى حضر إلى رسول الله بديل بن ورقاء وروى له كيف نقضت قريش عهدها بتحريضها لبنى بكر على خزاعة.

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ١٦١، وحياة محمد ص ٤٠٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فأرسل النبى إلى قريش يطلب منها إحدى ثلاث :

١ – إما دفع فدية من قُتل من خزاعة .

٢ – وإما التخلى عن حلفائهم بنى بكر .

٣ – وإما بطلان عهد الحديبية فجاء رد قريش بقبول الشرط الثالث وهو بطلان عهد الحديبية(١) .

وعند ذلك رأى النبى أن ما قامت به قريش من نقض العهود لا مقابل له إلا فتح مكة، وأن هذه فرصة قد أتاحتها له المقادير ليحقق آماله فى إدخال مكة ضمن النطاق الإسلامى الكبير. فوجه نداءه إلى المسلمين فى أنحاء الجزيرة ليكونوا على أهبة الاستعداد من غير أن يبين لهم وجهته.

لكن عقلاء قريش وأصحاب النظر البعيد أدركوا مدى خطورة فعل عكرمة بن أبى جهل ومن معه من الشبان الذين اشتركوا فى العدوان على (خزاعة) لصالح (بنى بكر) وصار واضحًا لديهم أن عهد الحديبية قد نُقض بالفعل وأن محمداً لن يسكت عن معونة حلفائه من قبيلة خزاعة والانتقام لهم. فإن هو فكر فى ذلك فإن مكة (المدينة المقدسة) ستتعرض لأشد الخطر. ومن أجل ذلك قرروا إيفاد أبى سفيان قائدهم وكبيرهم إلى المدينة لعله يثبت عقد الهدنة ويطيل مدته .

*** بين أبى سفيان وابنته أم حبيبة :**

كانت أم حبيبة بنت أبى سفيان فى فراش رسول الله، وأم المؤمنين بعد أن زوجها إياه نجاشى الحبشة فانظروا كيف استقبلت الابنة المسلمة أباها المشرك؟ وكيف سمح النبى لزوجته أن تقابل مشركًا؟!

إن الذى حدث هو أن أبا سفيان قرر أن يذهب إلى المدينة ليجدد عهد الحديبية ويطيل مدته بعدما نقضته قريش فلم يرد أن يلقى النبى فى أول ذهابه إلى المدينة فجعل وجهته بيت ابنته أم حبيبة زوج النبى وهو يعتقد أنه سيلقى عندها احترام الوالد، وتقدير الضيف الذى حضر من بلاد بعيدة، كما يجد منها العون والمساعدة على الغرض الذى جاء من أجله ولكن الأمر كان على غير ما قدر. ذلك أن أبا سفيان لما وصل إلى منزل ابنته أم حبيبة فى المدينة وأراد أن يجلس على فراش رسول الله طوته

(١) محمد رسول الله – مولاى محمد على – ص ١٥٢ – ١٥٣ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الابنة عن والدها فقال لها: ما أدرى أرغبت به عنى أم رغبت بى عنه؟ فقالت: بل فراش رسول الله وأنت مشرك نجس؛ فلم أحب أن تدنسه بجلوسك عليه. فقال: لقد أصابك يابنية بعدى شر. فقالت: بل هدانى الله للإسلام(١). وهكذا لم يجد الوالد رحمًا موصولة بينه وبين ابنته، ولم تحاول أم المؤمنين أن تفرط فى شىء من حق رسول الله، ولم تجامل والدها على حساب دينها وعقيدتها.

فشل أبى سفيان فى مهمته

خرج أبو سفيان مغضبًا من بيت ابنته واتجه إلى رسول الله فى المسجد فكلمه فى تثبيت الصلح وإطالة مدته، فقال عليه السلام: «**هل كان من حدث؟ قال لا. فقال عليه السلام: فنحن على مدتنا وصلحنا**»(٢) ولم يزد على ذلك فقام أبو سفيان وأتى أبا بكر فطلب منه أن يكلم رسول الله فامتنع ثم تحدث أبو سفيان إلى عمر فقال له عمر: أنا أشفع لكم إلى رسول الله؟!! والله لو لم أجد إلا الذر(٣) لجاهدتكم به، ولم يدع أبو سفيان صحابيًا كبيرًا من صحابة رسول الله إلا لجأ إليه واستنجد به، فلم يجد منهم عونًا، وإنما وجدهم جميعًا لا يحبون أن يفاتحوا رسول الله فى أمر يكرهه.

*** الاستعداد للفتح**

أصبح معلومًا لأهل المدينة جميعًا أن قريشًا نقضت عهدها وأرسل رسول الله من ينادى فى الأعراب المقيمين حول المدينة ويقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة» فجاءته قبائل (أسلم) و(غفار) و(مزينة) و(أشجع) و(جهينة) وانضم إليهم المهاجرون والأنصار حتى بلغ عددهم عشرة آلاف ينتظرون إشارة رسول الله وتوجيهه.

ولما كان النبى عليه الصلاة والسلام حريصًا على كتمان هذا الأمر عن قريش حتى لا تستعد للحرب وإراقة الدماء وأراد أن يدخل مكة فى سلام حتى لا يمس حرمتها، وأن يدخل أهلها فى الإسلام لينعموا معه بنعمة الإيمان فدعا ربه بهذا الدعاء «**اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها**»(٤). وبينما الجيش على أهبة

---

(١) الكامل جـ ٢ ص ١٦٣، وحياة محمد ص ٤٠١، ونور اليقين ص ٢٣٢.

(٢) نور اليقين: ص ٢٣٢.

(٣) الذر – صغر النمل.

(٤) الكامل ص ١٦٣، ونبغتها: نفاجئها.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

السير كتب «حاطب بن أبى بلتعة» – من كبار المسلمين وأحد الذين شهدوا بدراً – إلى قريش بعزم المسلمين على فتح مكة حتى تأخذ حذرها، ولكن الكتاب ضبط فى الطريق وأُتى بحاطب إلى رسول الله فأعلمه بنيته وعفا عنه الرسول. وقال لعمر لما رأى منه الغضب على حاطب: «**وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» وأنزل الله فى حاطب هذا قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾ [الممتحنة: ١]، واستخلف رسول الله على المدينة (أبا رهم كلثوم بن حصين الغفارى).

* طلائع الراغبين فى الإسلام تستقبل الجيش

تحركت الجموع مع رسول الله إلى مكة فى الحادى عشر من رمضان ٨هـ وكانوا كلما أغذوا سيرهم وتقدموا انضم إليهم من سائر القبائل من يزيد فى عددهم ومنعتهم، وسار على رأسهم رسول الله يفكر فى دخول البيت الحرام من غير أن تراق قطرة دم واحدة. وبلغ الجيش مكانًا يقال له (مر الظهران) على بعد أربعة فراسخ من مكة، وقريش لا تعلم شيئًا عن هذه الحملة إطلاقًا. ولما كان الحر قاسيًا على المسلمين أمر رسول الله بالفطر فى مر الظهران وأفطر القوم معه.

لكن الذى يلفت النظر أن عدداً من رجالات العرب وشخصياتها البارزة خرجوا ليلتقوا برسول الله، منهم عيينة بن حصن الفزارى حيث أدرك رسول الله فى مكان يقال له: (العرْج) بسكون الراء وهو منزل فى طريق مكة، والأقرع بن حابس الذى أدرك رسول الله بمكان يقال له (السقيا) بين المدينة ووادى الصفراء، والعباس بن عبد المطلب الذى لقيه بالجحفة[1]، وتذكر الروايات أن الرسول حين استقبل عمه العباس وهو مهاجر إليه أمره أن يرسل رحله إلى المدينة ويعود هو معه إلى مكة وقال له: (**أنت آخر المهاجرين، وأنا آخر الأنبياء**)[2]، ولقيه أيضًا (مخرمة بن نوفل) وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، ويتساءل المرحوم الدكتور هيكل فيقول: أهى المصادفة المحضة

(١) الجحفة: على بعد أربع مراحل من مكة وهى ميقات أهل مصر والشام ومكانها الآن رابغ.

(٢) كتاب الكامل: ج ٢ ص ١٦٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

التى جعلت العباس وغيره يلتقى برسول الله؟ أم كان لدى هؤلاء كلهم علم بقدوم جيش المسلمين فى قوة عارمة فأرادوا أن يسبقوا بلقاء الرسول فيعلنوا إسلامهم هناك حيث التقوا به قبل أن يدخل مكة ويتخذ أى إجراء؟؟ وشواهد الأمور تدل على سبق علمهم.

* دور العباس فى التمهيد لفتح مكة

عرفنا فى مواقف كثيرة أن العباس بن عبد المطلب كان يقف دائمًا بجانب رسول الله فى المواقف الحرجة رغم أنه لم يدخل فى الإسلام، فهو الوحيد من بنى عبد المطلب الذى علم ببيعة العقبة ووقف يأخذ المواثيق على أهل المدينة ليطمئن على ابن أخيه. وهو الآن فى (مر الظهران) مع رسول الله يعلن إسلامه ويفكر فى أمر قريش وما ينبغى أن يصنعه رسول الله معهم، فيروى ابن الأثير أن العباس حين رأى جيش المسلمين وقوته، وعزم رسول الله على غزو مكة قال: (ياهلاك قريش، والله لئن بغتها رسول الله فى بلادها فدخلها عنوة إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر).

وأراد العباس أن يحمل قريشًا على التسليم والدخول فى الإسلام فركب بغلة رسول الله وذهب يلتمس رسولا يرسله إلى أهل مكة فالتقى بأبى سفيان ومعه حكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء الذين بعثت بهم قريش يتعرفون لها خبر الجيش فى مر الظهران، فلما وقع نظر أبى سفيان على العباس بن عبد المطلب قال له: ما وراءك؟ فقال العباس: هذا رسول الله ﷺ فى المسلمين أتاكم فى عشرة آلاف. قال: ما تأمرنى؟ قال العباس: تركب معى فأستأمن لك رسول الله فوالله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، وما زال العباس بأبى سفيان حتى أسلم بين يدى رسول الله قال: يا رسول الله. إن أبا سفيان يحب الفخر فاجعل له شيئًا يكون فى قومه. فقال رسول الله «**نعم، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن**».

وبعد أن أرضى رسول الله طموح أبى سفيان قال له العباس: الحق بقومك سريعًا فحذرهم من المقاومة فخرج أبو سفيان ومعه حكيم بن حزام فصرخ فى المسجد: يامعشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به. يامعشر قريش أسلموا تسلموا. ثم ردد على أسماع قريش ما نقله إليه العباس عن رسول الله: من دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومع هذه المظاهر التى تبدت فى إسلام أبى سفيان وطلبه الاستسلام من أهل مكة فإن رسول الله قد احتاط لنفسه وأخذ حذره لكل بادرة وكل مفاجأة فقسّم جيشه إلى عدة فرق تدخل كل فرقة من جانب حتى يضع يده على مكة فى وقت واحد. وأصدر رسول الله أوامره المشددة إلى جيوشه كلها بألا تقاتل أو تسفك دمًا إلا إذا أُكرهت على ذلك إكراهًا.

وكان تقسيم الجيش هكذا: الزبير بن العوام على الجناح الأيسر وعليه أن يدخل مكة من أعلاها من طريق جبل (كداء) كسحاب. وخالد بن الوليد على الجناح الأيمن وعليه أن يدخل مكة من أسفلها. وسعد بن عبادة على أهل المدينة ليدخلوا مكة من جانبها الغربى ناحية جبل (كدى) كقرى، وعبيدة بن الجراح على جماعة من المهاجرين وعليهم أن يدخلوا مكة من أعلاها محاذين (جبل هند).

وكل هذه الفرق أخذت طريقها إلى نواحى مكة ورسول الله فى إثرهم حتى إذا وصل إلى (ذى طوى)[1] ثم أرسل نظره إلى مكة فوجدها قد استسلمت من غير قتال فأوقف راحلته ثم انحنى برأسه حتى كاد وجهه يلمس الرحل الذى يركب فوقه، إعلانًا لشكر الله الذى فتح عليه مهبط الوحى ومقر البيت الحرام.

دخلت فرق الجيش كلها فى سلام وأمان ما عدا جيش خالد الذى كان يقيم فى طريقه أشد قريش عداوة لمحمد وللإسلام ومع هؤلاء قبائل بنى بكر التى كانت فى حلف قريش فلم يرضهم ما نادى به أبو سفيان من إعلان الأمان. وكان على رأس هؤلاء مجموعة منهم: صفوان، وسهيل، وعكرمة بن أبى جهل فقرروا مقاومة خالد ثم لم يلبثوا حتى فروا أمام جيش خالد بعد أن دارت عليهم الدائرة وفقدت قريش ثلاثة عشر قتيلاً بينما لم تكن خسارة المسلمين سوى رجلين كانا قد ضلا طريقهما وانفصلا عن جيشه، ولما علم الرسول بما وقع لخالد أظهر أسفه الشديد وصاح فى غضب يكرر أمره بألا يكون قتال، ولكنه لما عرف تربص المتربصين لخالد قال **(إن الخير فما اختاره الله)**.

* الرسول على أبواب مكة

نزل عليه الصلاة والسلام عند الحجون على مقربة من قبر أبى طالب وخديجة رضى الله عنها وضربت له قبة هناك، ولما سئل: أيريد أن يستريح فى بيته قال: **(كلا فما**

---

(١) ذى طوى بئر فى شمال مكة الشرقى قرب مستشفى الولادة الموجود الآن.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

تركوا لى فى مكة بيتًا) ثم أجال بصره فى جبال مكة وشعابها ومنازلها المبعثرة هنا وهناك وفى البيت الحرام الذى يقع من مكة فى وسطها، فلما وضحت فى ذهنه هذه الصورة ترقرقت فى عينه دمعة الشكر العميق للمولى سبحانه وتعالى ممزوجة بلذة النصر الذى حققه له ربه، وأدرك أن مهمة القائد قد انتهت، فركب من فوره ناقته القصواء وسار بها فى مدارج صباه، وذكرى طفولته حتى بلغ الكعبة، فطاف بالبيت سبعًا على راحلته يستلم الركن بعصا فى يده؛ فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة ففتح الكعبة ووقف رسول الله على بابها وعليه عمامة سوداء ثم قال: «**لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**»[1]. ثم تكاثر الناس حوله حتى امتلأ بهم المسجد فتلا عليهم قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [الحجرات: ١٣]. ثم قال: «**ألا كل دم أو مأثرة، أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت، وسقاية الحاج: يا معشر قريش؛ ما تظنون انى فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

بهذه الكلمات النبيلة تجاوز الرسول عن جرائم قريش الماضية كلها، وصفح عن كل ما تقدم من أعمالهم الرهيبة، ومسح قلبه من آثارها كلها فلم يشترط عليهم شرطًا للمستقبل، ولم يسترد منهم حتى ممتلكات المهاجرين التى استولوا عليها عقب هجرتهم إلى المدينة، بل طلب من المهاجرين أن ينزلوا عن كل حقوقهم القديمة[2].

* الفتح الأعظم:

فتحت مكة أبوابها للمسلمين ولكنها حين رأت من رسول الله سماحته ونبله وكرم أخلاقه فتحت له قلوبها فكان هذا الفتح أجلّ وأعظم من أن تصل إليه سيوف المسلمين إذا كان اعتمادهم على السيوف وحدها، فقد أثرت سماحة النبى فى نفوس الناس واستلت سخائمها وبغضاءها وداعبت أوتار القلوب، فلانت أفئدة ما كانت لتلين. فتأثر قساة القلوب وغلاظ الأكباد من أمثال أبى سفيان، ومن على شاكلته بمبادئ الإسلام القويمة السامية، وقضى حسن معاملة المسلمين وكرم أخلاقهم على جميع أسلحة قريش، وأودت بمعارضتهم. فلما جلس رسول الله على الصفا اجتمع

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ١٧٠.

(٢) محمد رسول الله – مولاى محمد على ص ١٥٧.

حوله جمهور أهل مكة لبيعته على الإسلام فكان يبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا فلم يتخلف أحد من الرجال والنساء.

* تحطيم الأصنام

ثم دخل الكعبة فوجد على جدرانها صوراً للملائكة والنبيين فطمس هذه الصور كلها، ثم نظر حول الكعبة فوجد الأصنام التى كانت تعبدها قريش قد شُدت إلى جدرها بالرصاص كما كان هبل داخل الكعبة فجعل النبى عليه السلام يشير إلى هذه الأصنام بقضيب في يده وهو يقول: ﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾ [الإسراء: ٨١] فكُبت الأصنام على وجوهها وظهورها، وطهر البيت الحرام منها إلى الأبد، فلما طهرت الكعبة من أصنامها أمر النبى بلالاً أن يصعد فوقها ليؤذن بالأوقات الخمسة ورسول الله يصلى بالناس إماماً فى البيت الحرام، ومن يومها والصلاة تقام فيها على صورة صلاة رسول الله يوم ذاك، على مدى أربعة عشر قرناً وقلوب المسلمين تتجه إلى الله مستقبلين البيت الحرام فى كل صلاة.

* العفو عن الخونة

كان رسول الله قد أعلن عن مجموعة من المجرمين رجالاً ونساءً، وأمر بقتلهم إن وُجدوا متعلقين بأستار الكعبة، **فما كاد يذيع هذا الخبر حتى فر بعضهم إلى جهات بعيدة، وبعضهم حاول الاختفاء فمن هؤلاء:**

١ - عكرمة بن أبى جهل الذى كانت عداوته للإسلام كعداوة والده أبى جهل.

٢ - صفوان بن أمية بن خلف الذى هرب إلى مدينة «جدة» وأمّنه عمير بن وهب عند رسول الله.

٣ - عبد الله بن سعد بن أبى السرح وكان كاتباً للوحى فعمد إلى تغيير ما يمليه عليه الرسول ثم ارتد.

٤ - عبد الله بن خطل وكان قد أسلم ثم ارتد وكانت له قينتان تغنيان بهجاء رسول الله.

٥ - عبد الله بن الزبعرى السهمى، وكان يهجو رسول الله بمكة وهرب يوم الفتح إلى نجران.

٦ - وحشى بن حرب قاتل حمزة فهرب يوم الفتح إلى الطائف.

ومن النساء اللائى صدرت عليهن أحكام رسول الله بالإعدام وإن كن متعلقات بأستار الكعبة :

١ – هند بنت عتبة زوج أبى سفيان لأنها مثلت بعمه حمزة وبالغت فى إيذاء الرسول بمكة .

٢ – سارة مولاة عمر بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وهى التى حملت كتاب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش .

وبعد أن أُعلنت هذه القائمة على الملأ من المسلمين وضاقت الأرض بما رحبت على من فيها من المجرمين اتضح بعد ذلك للناس ما عرف من فسحة صدر الرسول عليه الصلاة والسلام وعفوه الشامل فأطمع ذلك كثيراً من الصحابة فى العفو عن هؤلاء الذين أمر بقتلهم وقام شفيعًا لكل واحد من هؤلاء واحد من الصحابة فقبل عليه السلام شفاعة الشافعين فى المذنبين إلا من كان قد نفذ فيه القتل قبل ذلك .

وهكذا شملت رحمة رسول الله وحشيًا الذى قتل أحب الناس إليه وهو عمه حمزة، كما عفا عن هند التى لاكت كبده ومثلت بجثته، وصفح أيضًا عن كل من أساء إليه صفح القادر على العقوبة، وعفا عفو المتمكن من خصمه؛ لأنه عليه الصلاة والسلام كان صورة للنبل الإنسانى والكمال الربانى، فما سنحت له فرص التسامح والعفو إلا سامح وعفا وهو فى قمة القدرة على العقوبة والأخذ بالشدة ولكن مكارم أخلاقه كانت تريه العفو عند المقدرة أجمل عند نفسه وربه من الأخذ بحقه ليضرب لأمته أروع المثل، ويعلن على أجيالهم المقبلة الصورة الكاملة للقدوة الصالحة .

وهكذا أسرت أخلاق النبوة السامية أصحاب القلوب الغلاظ الذين كانوا يثورون على رسول الله ثورتهم العارمة فأصبحوا – بعد ما رأوا من أخلاقه وصفحه – يجلونه ويقدسونه، وأقبل أهل مكة على رسول الله يدخلون فى دينه أفواجًا رجالاً ونساء .

* تحريم مكة إلى الأبد

لقد حدث فى غداة يوم الفتح أن قتل رجل من خزاعة رجلاً من هذيل وكان مشركًا، فغضب النبى عليه الصلاة والسلام وقام فى الناس خطيبًا فقال : «**يا أيها الناس**

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهى حرام من حرام إلى يوم القيامة، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا أو يعضد[1] فيها شجراً. لم تحلل لأحد كان قبلى، ولا تحل لأحد يكون بعدى؛ ولم تحلل لى إلا هذه الساعة غضبًا على أهلها؛ ثم رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد منكم الغائب. فمن قال لكم: إن رسول الله قد قاتل فيها، فقولوا إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحللها لكم يا معشر خزاعة؛ ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر إن نفع، لقد قتلتم قتيلاً لأدينه، فمن قتل بعد مقالى هذا فأهله بخير النظرين: إن شاءوا فدم قاتله، وإن شاءوا فعقله»[2].

بهذا الخطاب غزا قلوب أهل مكة، وسيطر على مشاعرهم جميعًا فأقبلوا على الإسلام حبًا فى رسول الإسلام وجعلوا من أنفسهم مبشرين بهذا الدين حراسًا عليه، وجعل أهل مكة ينادى بعضهم بعضًا بهذا النداء (من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يترك فى داره صنمًا إلا حطمه) فقام عبّاد الأصنام بمعاولهم يحطمون معبوداتهم بأمر من محمد الذى كان بالأمس عدوهم اللدود.

أصلحًا فُتحت مكة أم عنوة؟؟

سؤال يردده أئمة المذاهب الأربعة، ويشغل مساحة كبيرة فى كتب الفقه الإسلامى.

ويروى المسعودى خلاصة ما قيل فى هذا الموضوع محصوراً فى رأيين:

الأول: أنها فُتحت عنوة وأصحاب هذا الرأى هم الإمام الأوزاعى وجماعة من أهل الشام والعراق وبعض أهل الظاهر كأبى سليمان داود بن على الأصبهانى وغيره، وهؤلاء يقولون إن رسول الله فتح مكة عنوة وخلى بين المهاجرين وأرضهم ودورهم بمكة ولم يجعلها فيئا، واستدلوا على رأيهم هذا بقول النبى ﷺ **«ألا إن الله حبس الفيل عن مكة وسلط عليهم رسوله والمؤمنين، ألا إنها لم تحل لأحد قبلى، ولا تحل لأحد بعدى»** وبقوله **«أترون أوباش مكة أنى لقيتموهم فاحصدوهم حصداً»** وكذلك أمره بقتل عدد من الرجال والنساء إن ظفروا بهم وإن تعلقوا بأستار الكعبة.

---

(١) يعضد: يقطع.

(٢) عقله: يعنى: ديته – راجع حياة محمد ص ٤١٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الثاني: أن مكة فُتحت صلحًا ولم تُفتح عنوة، وهو رأى الإمام الشافعى رضى الله عنه ودليله أن رسول الله قبل أن يدخل مكة تقدم لهم بأمان فى قوله: «**من دخل داره فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن**» ويذكر فى هذا الصدد قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ**﴾ [الفتح: ٢٤] ويذكر بعضهم أن هذه الآية نزلت فى غزوة الحديبية. ويرى الإمام مالك رأى الإمام الشافعى فى فتحها صلحًا ويقول: إن أهل مكة لما أومنوا على أنفسهم كانت أموالهم تبعًا لهم.

ومن يرى أنها فُتحت عنوة يقول: إن الرسول منّ على أهلها فردها عليهم ولم يقسمها ولم يجعلها فيئًا(١) ولعل الذى أثار هذه المناقشة هو اختلاف استقبال أهل مكة لفرق الجيش الإسلامى فحدث فى كثير من أحياء مكة تسليم كامل للرسول وجيشه وحدث فى بعضها الآخر قتال وخاصة فى الأحياء التى دخلها خالد بن الوليد فكان هذا أساس الخلاف فى الحكم على فتح مكة؛ فمن نظر إلى التسليم من غير قتال قال، إنها فتحت صلحًا ومن نظر إلى الأحياء التى وقع القتال فيها قال: إنها فتحت عنوة. والذى جعل الحكم دقيقًا وخفيًا فى هذا الموضوع هو أن رسول الله عليه الصلاة والسلام لم يتصرف فى أموال مكة وأهلها تصرفه فى بلد فتحت عنوة فلم يقسم أموالهم على الفاتحين أو يجعله فيئًا من نصيبه، ولهذا وجد مجال البحث فى هذه القضية.

* التطهير الشامل من بقايا الأصنام

كما طهرت مكة من الأصنام كان لابد أن تطهر ضواحيها أيضًا من آثار هذه العبادة، فلم تمض سوى أيام أربعة على وجوده فى مكة حتى وجه خالد بن الوليد فى ثلاثين فارسًا لهدم صنم (العزى) أكبر أصنام قريش. ثم أرسل كذلك عمرو بن العاص لهدم (سواع) وهو أكبر صنم لهذيل على بعد ثلاثة أميال من مكة. ثم أرسل أيضًا سعد بن زيد الأشهلى لهدم (مناة) وهو صنم قبيلة كلب وخزاعة وهيكلها بالمشلل وهو جبل على ساحل البحر يهبط منه إلى (قديد)(٢) وعادت كل هذه السرايا مكللة بالنجاح فى مهمتها.

---

(١) راجع التنبيه والإشراف للمسعودى ص ٢٢٢.

(٢) نور اليقين للشيخ الخضرى ص ٢٤٢، ٢٤٣.

* مخاوف الأنصار من ترك رسول الله لهم

لما تم الأمر، لرسول الله فى مكة ورأى الأنصار أن رسول الله وقف على الصفا يدعو ربه لأهل مكة قال بعضهم لبعض: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها؟؟ ومن حقهم أن يفكروا فى ذلك وبمكة البيت الحرام وفيها مسقط رأسه ومدارج صباه - فلما فرغ من دعائه سألهم فعرف ما يخيفهم فقال «**معاذ الله! المحيا محياكم، والممات مماتكم**» فاطمأنت قلوب الأنصار، وأخذوا يفكرون فى العودة إلى المدينة بعد أن مضى على إقامتهم فى مكة خمسة عشر يومًا لولا أن بلغتهم أخبار أن قبيلة هوازن النازلة شرق مكة تحشد رجالها وتستعد لهجوم مفاجئ على المسلمين.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

غـزوة حنـين (أوطـاس)

لما علمت هوازن بما تم للمسلمين من فتح مكة، وتحطيم أصنامها وتحطيم أصنام القبائل المجاورة لها. خشيت أن تدور عليها الدائرة، وأن يقتحم المسلمون عليها منازلها فاجتمع الأشراف منهم للشورى، وقالوا: قد فرغ محمد من قتال قومه، ولا ناهية له عنا فلنغزه قبل أن يغزونا. وأجمعوا أمرهم على ذلك وولوا رياستهم مالك ابن عوف النضرى فأرسل مالك إلى حلفاء هوازن من ثقيف وسعد، وجشم(١) يطلب منهم مهاجمة الإسلام قبل أن يهاجمهم، وعين لهم وادى أوطاس - قرب الطائف - لتجتمع عنده القبائل فاجتمعت، ولم يتخلف منها سوى كعب وكلاب من هوازن.

وكان فى القوم دريد بن الصمة المشهور بأصالة الرأى، وشدة البأس فى الحرب، ولتقدم سنه لم يكن له فى هذه الحرب إلا الرأى، فلما سمع دريد رغاء البعير، وثغاء الشاة وبكاء الصغير سأل ابن عوف: لم ساق مع المحاربين أموالهم ونساءهم وصغارهم؟! فأجابه مالك قائلاً، سقتهم مع الناس ليقاتل كل إنسان عن حريمه وماله، فقال دريد، هل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت فى مالك وأهلك، إلخ ما قال، ولم يفد احتجاجه، ولم يقبل مالك مشورته وعسكر فى وادى حنين وصف جموعه فى كمين عند منعطف لا يراه الداخل إلى الوادى، وجعل الرجال فى المقدمة، وخلفهم النساء؛ والأطفال وجعل الأنعام فى مؤخرة الجيش عند أوطاس، وهى جزء من الوادى، وأمر مالك رجاله أن يكمنوا حتى إذا نزل المسلمون الوادى شدوا عليهم شدة رجل واحد تضعضع صفوفهم فيختلط حابلهم بنابلهم، وتدور عليهم الدائرة، ويزول أثر انتصارهم حين فتحوا مكة ويبقى لقبائل حنين فى بلاد العرب جميعًا فخار النصر على هذه القوة التى تريد أن تظل بسلطانها بلاد العرب جميعًا، فامتثلت القبائل أمر مالك، وتحصنت بمضيق الوادى.

---

(١) كانت هذه القبائل تسكن فى الجهات الواقعة فى الجنوب الشرقى من مكة فى جبال هناك وقبيلة سعد بن بكر هى التى منها مرضعة الرسول حليمة السعدية.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

* فى الطريق إلى المعركة

أما المسلمون فبادروا بعد أسبوعين أو شهراً من مقامهم بمكة وعلى رأسهم الرسول فى عدة وعديد لم يكن لهم من قبل بها عهد قط، ساروا فى اثنى عشر ألفًا، من المقاتلين منهم العشرة آلاف الذين غزوا مكة وفتحوها، والألفان من مسلمة الفتح، وبينهم أبو سفيان بن حرب، وخرج فى الجيش ثمانون من المشركين منهم صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو؛ ولما قرب الجيش من معسكر العدو صف عليه السلام الغزاة وعقد الألوية. ثم ركب عليه السلام بغلته البيضاء، ولبس درعين والمغفر والبيضة(١) وسار فى المؤخرة وحوله عريش وكبار الصحابة كما كان يوم أحد وجعل خالد بن الوليد على بنى سليم فى المقدمة، وحين رأى الرسول كثرة من معه وحسن نظامهم قال، لن نغلب اليوم من قلة(٢).

وصار بعض المسلمين يقول: لن نغلب اليوم لكثرتنا؛ ولم تغن عنهم كثرتهم شيئًا فإن مقدمة المسلمين توجهت جهة العدو فى عماية الصباح فخرج لهم كمين كان مستتراً فى شعاب الوادى ومضايقه وقابلهم بنبل كأنه الجراد المنتشر فلووا أعنة خيلهم متقهقرين؛ وضاق عليهم المهرب فارتطموا فى ظلام الفجر بالصفوف التى خلفهم فأخذ الخوف منهم كل مأخذ ولجأ أكثرهم إلى الفرار، وكان أسرع الناس إلى الفرار أهل مكة من المشركين ومسلمة الفتح وشمت بعض هؤلاء وأولئك فى محمد وأصحابه فقال أبو سفيان. لا تنتهى هزيمتهم دون البحر، وقال شيبة بن عثمان بن أبى طلحة، اليوم أدرك ثأرى من محمد – وكان أبوه قد قتل فى غزوة أحد – وقال أخ لصفوان بن أمية. الآن بطل السحر، ولكن صفوان على الرغم من بقائه على الشرك رد عليه قائلاً، اسكت فض الله فاك فوالله لأن يربنى رجل من قريش أحب إلى من أن يربنى رجل من هوازن.

وقد وقعت هذه الأحاديث وغيرها والنبى فى مؤخرة الجيش تمر عليه القبائل واحدة بعد الأخرى مولية الأدبار، وهو ثابت فى مكانه، ومعه عدد قليل من المهاجرين

---

(١) الدرع قميص ينسج من حلقات الحديد الرفيعة والمغفر غطاء من الحديد يغطى الوجه، والبيضة غطاء يغطى الرأس، وكان المتدرع بهذا لا ترى منه إلا عيناه.

(٢) ابن الأثير ج ٢ ص ١٧٨، وقيل إنما قالها رجل من بكر (نفس المصدر).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والأنصار، وصار ينادى فى الناس إذ يمرون منهزمين أين أيها الناس؟ أين؟ هلموا إلى، أنا رسول الله، لكن الناس فيما هم فيه من هول الفزع لا يسمعون إلى شيء، وضاقت بالمنهزمين الأرض بما رحبت، وكان العباس بن عبد المطلب آخذاً بلجام بغلة الرسول دلدل، فأمره ﷺ أن ينادى في الناس، وكان العباس رجلاً جسيماً قوى الصوت، فنادى بما أسمع الناس جميعاً فقال: يا معشر الأنصار يا أصحاب بيعة الرضوان، وصار يكرر هذا النداء حتى أسمع من فى الوادى ومس النداء شغاف قلوبهم، فتوقفوا عن الهرب وأجابوا: لبيك لبيك فكان الرجل يريد أن يثنى عنان بعيره فيمنعه من ذلك كثرة الأعراب المنهزمين فيأخذ سلاحه وينزل عن بعيره ويؤم الصوت فاجتمع على رسول الله مائة رجل فاستقبل بهم العدو وقاتله قتالاً شديداً؛ وكان النبى ينشد:

أنا النبى لا كـــذب   أنا ابن عـــبـــد المطلب

ويقول: الآن حمى الوطيس – وهو أول من قالها – وقال النبى لبغلته دلدل: البدى دلدل، فوضعت بطنها على الأرض، فأخذ حفنة من التراب فرمى بها فى وجه العدو(١) وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم يروها، فانهزم المشركون وتفرقوا فى كل وجه لا يلوون على شيء من الأموال والنساء والذرية، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وزادهم إغراء وحماسة فى مطاردتهم العدو إعلان الرسول أن من قتل قتيلاً فله سلبه. حتى ليروى أن أبا طلحة الأنصارى قتل يوم حنين عشرين رجلاً وحده وأخذ سلبهم فكان عدد القتلى من الكثرة بمكان لم تحصه كتب السيرة. أما عدد الأسرى من الرجال والنساء والأطفال فكان نحو ستة آلاف، وأما الغنيمة من الإبل والغنم والفضة فكانت أعظم غنيمة حصل عليها المسلمون إلى الآن(٢) وقد أمر النبى عليه السلام بإرسال جميع الغنائم إلى وادى الجعرانة. حيث بقيت بها إلى أن عاد الرسول من حصار الطائف.

وكانت غزوة حنين فى شوال من السنة الثامنة للهجرة الموافق ٦٣٠ ميلادية.

---

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ١٧٩ ويروى نفس المصدر رواية أخرى بصيغة التضعيف (قيل) إنه أقبل شيء أسود من السماء مثل البجاد (الكساء) حتى سقط بين القوم فإذا نمل أسود مبثوث، فكانت الهزيمة.

(٢) تقدر المصادر المعتمدة عدد الإبل بأربعة وعشرين ألفاً والغنم بأربعين ألف شاة والفضة بأربعة آلاف أوقية.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

* **أسباب الهزيمة ثم النصر فى حنين :**

أولا : أسباب الهزيمة

١ - **الكمين**: فوجئ المسلمون بالكمين، وأُخذوا على غرة فى عماية الفجر - كما فوجئوا فى أُحد بخالد بن الوليد من خلفهم.

٢ - **إعجاب المسلمين بكثرتهم** حتى قالوا : لن نُغلب اليوم لكثرتنا، فأراهم الله آياته .

٣ - **دخول أخلاط الناس فى الجيش،** فإن جيش المسلمين دخله أخلاط من مشركين وأعراب وحديثى عهد بالإسلام، وهؤلاء كلهم كان غرضهم الغنيمة . فلما فاجأ الكمين الطلائع جزموا بوقوع الهزيمة، فبادروا إلى الهرب عند أول صدمة، وأشاعوا الذعر فى المسلمين، وكادت تتم الكلمة على المسلمين لولا فضل الله، وثبات رسوله، وإنزال سكينته عليه والتفاف المسلمين حوله .

ثانيا : أسباب النصر

١ - **تأييد الله المسلمين بالملائكة كما أيدهم يوم بدر،** وكأن الله أراد أن يكون النصر فى أول موقعة بينهم وبين المشركين بتأييد ملائكته، وأن يكون فى الموقعة الختامية بتأييدهم أيضا، ولله فى ذلك حكم، ولهذا يقرن بين هاتين الغزوتين بالذكر فيقال : بدر وحنين، وفى غزوة بدر نزل قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ وفى غزوة حنين نزل قوله تعالى فى سورة التوبة : ﴿ **لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ** .. إلى قوله تعالى **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ [التوبة : ٢٥ - ٢٨] .

٢ - **استرخاص المسلمين أرواحهم فى سبيل الله،** دفع المسلمون يوم حنين ثمناً غالياً للنصر، فقد قتل خمسة أو عشرة من الصحابة منهم أيمن ابن أم أيمن، ويزيد بن زمعة بن الأسود بن عبد المطلب، وسراقة بن مالك العجلانى(١)، وجرح خالد بن الوليد جراحات بليغة، وفنيت معظم الطلائع .

---

(١) الأول هاشمى والثانى من بنى أسد والثالث أنصارى .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

* نتائج غزوة حنين

كان النصر فى غزوة حنين نصراً مؤزراً أدى إلى نتائج بعيدة المدى.

١- فلو فرضنا أن المسلمين انهزموا إلى نهاية المعركة -وما كان ذلك ليحدث لأن الله لا يخلف رسله وعده- لكان من الجائز أن تنقلب قريش على الرسول.

٢- إن انكسار هوازن بعد خضوع مكة كان خاتمة لحروب العرب ضد الإسلام. فإن القوات التى حشدت كانت أكبر قوة يستطيع العرب توجيهها ضد النبى، ولم يبق فيهم إلا فئات قليلة يسوقها الطيش والعناد إلى المقاومة. ثم لا تلبث هذه الفئات أن تغمد السيف وجلا وخوفا من قوة الإسلام.

٣- إن الغزوة كانت ابتلاءً وامتحانا للمسلمين.

٤- إسلام الكثير من مشركى مكة لما رأوه من عناية الله بالمسلمين.

٥- معركة حنين انتهى بها فتح الحجاز، ذلك أن المشركين بعد هزيمتهم تفرقوا ثلاث فرق: فرقة لحقت بالطائف، وفرقة لحقت بنخلة، وفرقة عسكرت بأوطاس(١)، ولم يمهل النبى تلك الفرقة (الثالثة) بل أرسل إليها أبا عامر الأشعرى فى جماعة منهم أبو موسى الأشعرى فأجلاهم، وألجأ أفراد الفرقة إلى الهرب وظفر بما بقى معهم من الغنائم، غير أن أبا عامر استُشهد، وخلفه على الغزاة ابن أخيه أبو موسى الأشعرى، وأرسل النبى أيضا خالد بن الوليد إلى الفرقة التى لحقت ببلدة نخلة فدخلها، وهدم صنمها «العزى».

أما الفرقة التى لحقت بالطائف، فقد سار الرسول إليها بنفسه بعد عودة رجال السريتين، ولذلك قلنا إن معركة حنين انتهى بها فتح الحجاز على الرغم من بقاء ثقيف بالطائف على الشرك، إلى رمضان من السنة التاسعة للهجرة.

* غزوة الطائف

كان مالك بن عوف الذى قاد الجموع إلى حنين، قد سار بعد الهزيمة مع ثقيف إلى الطائف، وإذن فليحاصر الرسول الطائف ليقمع رأس الأفعى، ويطهر ما حول مكة - كخطته مع بنى قينقاع بعد بدر، وبنى قريظة بعد الخندق، وكذلك اليهود فى خيبر.

---

(١) حيث كانت جموع المشركين كلها معسكرة فيه قبل الموقعة، ولذلك تسمى الغزوة حنين أو أوطاس.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نذكر أن الرسول كان قد ذهب قبل الهجرة إلى الطائف منفرداً لا حول له ولا قوة إلا حول الله وقوته، ليدعو أهلها للإسلام فسخروا منه وقذفه صبيانهم بالأحجار، فها هو ذا الآن يذهب إلى الطائف فى جمع من المسلمين لم تشهد جزيرة العرب فى ماضى تاريخها جمعاً مثله، وجعل على مقدمته خالد بن الوليد، ومر عليه السلام بحصن لمالك بن عوف فأمر بهدمه، فلما وصل المسلمون إلى الطائف وجدوا الأعداء قد تحصنوا فى حصنهم المنيع بعد أن جمعوا فيه مقادير كبيرة من المؤن والذخيرة، فأمر النبى المسلمين بالنزول على مقربة منه، فرماهم المشركون بالنبل رمياً شديداً حتى أصيب كثير بجراحات منهم عبد الله بن أبى بكر، وأبو سفيان بن حرب، فقد فقئت عينه، وقد مات بسبب الجروح نحو اثنى عشر رجلاً. فلما رأى الرسول ذلك نقل المعسكر بعيداً عن مرمى النبل فى مكان أقيم به مسجد الطائف بعد أن سلّمت ثقيف وأسلمت.

وفى جانب من هذا المكان البعيد عن مرمى النبال ضربت قبتان لزوجتى النبى «أم سلمة، وزينب» وكانتا تسيران معه منذ ترك الرسول المدينة، وبين هاتين القبتين كان الرسول يقيم الصلاة. ولعل مسجد الطائف أقيم فى هذا المكان، وأقام المسلمون على حصار الطائف ثمانية عشر يوماً كان فى أثنائها يطلب خالد بن الوليد المبارزة فلا ينزل إليه أحد، ويناديه عبد ياليل بن عمرو عظيم ثقيف: لا ينزل إليك منا أحد، ولكن نقيم فى حصننا فإن فيه من الطعام ما يكفينا سنين، فإن أقمت حتى يفنى هذا الطعام خرجنا إليك جميعا بأسيافنا حتى نموت عن آخرنا!.

رأى الرسول أن الحصار قد طال أمده وفكر فيما يصنع؟ فأشار سلمان الفارسى بأن يرميهم بالمنجنيق، ويهاجم الحصون فى حماية الدبابات، فنصب المجانيق، ودخل نفر من المسلمين تحت دبابتين لينقبوا الحصن، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد المحماة بالنار فحرقت الدبابات فخرج جنود المسلمين من تحتها خيفة أن يحترقوا، فرماهم من بالطائف بالنبل فقتلوا رجالاً؛ وحينئذ أراد الرسول أن يعمل بهم ما عمل ببنى النضير فأمر بقطع الأعناب والنخيل، علهم يخرجون للدفاع أو يطلبون الصلح، فقطع المسلمون الكثير من الأعناب والنخيل، فبعثت ثقيف إلى الرسول أو نادى أهل الحصن يرجون الكف عن القطع وأن يدعها لله وللرحم أو يأخذها لنفسه إن شاء، فقال: أدعها لله وللرحم. ثم أمر من ينادى بأن كل من ترك الحصن ونزل فهو آمن،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فخرج إليه بضعة عشر رجلاً من رقيق أهل الطائف -منهم أبو بكرة نقيع مولى الحارث ابن كلدة(١)- وعرف منهم الرسول ﷺ أن بالحصون من الذخيرة ما يكفى أمداً طويلاً، فاستشار نوفل بن معاوية الديلى فى الذهاب أو المقام فقال: يا رسول.. ثعلب فى جحر؛ إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك. فأمر عليه السلام بالرحيل.

هذه رواية، وفى رواية أخرى أن الرسول بعد أن عرف أن الحصار سيطول أمده، وأنه قد ينفد صبر بعض الجنود، وأن ذا القعدة -وهو من الأشهر الحرم- قد آذن بالدخول آثر الرجوع بعد أن أعلن أنه متجهز للطائف إذا انتهت الأشهر الحرم، وفى أثناء الرجوع طلب بعض الصحابة من الرسول أن يدعو على ثقيف، فقال. اللهم اهد ثقيفا، وأت بهم مسلمين(٢).

* سبى وغنائم حنين

لما رحل الرسول من الطائف سار حتى نزل الجعرانة؛ حيث كان قد ترك الغنائم والسبى فقسم السبى، وبعد قسمه جاءه وفد من هوازن قد أسلم، وطلب منه - بحق أيام رضاعته فى قبيلة سعد بن بكر - أن يرجع إليهم نساءهم، وأطفالهم وأموالهم، وكان طبيعيا أن يعطف عليهم لأن عرفان الجميل من شيمته، ولكنه خيرهم بين نسائهم وأبنائهم، وبين أموالهم فاختاروا أحسابهم، فتنازل عليه السلام عما فى يده، ويد بنى عبد المطلب، وأبان لهم أنه لا يجبر أحداً من الناس على التنازل، ولكنه رسم لهم الخطة التى تمكنهم من الوصول إلى مرادهم، وهى طلب الشفاعة برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله ووعدهم المساعدة، ونفذت هوازن الخطة فاستجاب الكثير من الناس للشفاعة، ورأى الرسول ذلك فقال: من تمسك بحقه من السبى فله بكل إنسان ست فرائض من أول سبى يصيبه، فسارع من لم يرد السبى إلى رده.. ثم سأل رسول الله الوفد عن مالك بن عوف، فأُخبر أنه بالطائف مع ثقيف، فقال: أخبروه أنه إن أتانى مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة بعير.

وعلم مالك بذلك فخرج من الطائف سراً، ولحق برسول الله ﷺ فأسلم وحسن

---

(١) سمى بأبى بكرة لأنه عمل بكرة نزل بها من الحصن هو ومن معه، ولما أسلم أهل الطائف طلب سادتهم من الرسول أن يردهم إليهم فقال: لا أفعل: هؤلاء عتقاء الله.

(٢) راجع فى حصار الطائف. ابن الأثير جـ٢ من ص ١٨٠ - ١٨٣، ونور اليقين من ٢٤٧ - ٢٤٩، وحياة محمد ٤١٩ - ٤٢١..

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إسلامه، ونفذ الرسول وعده فأعطاه أهله وماله ومائة بعير، واستعمله فوق ذلك على قومه، وعلى من أسلم من القبائل التى حول الطائف، فكان يقاتل بمن أسلم معه ثقيفاً لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه حتى ضيق عليهم.

ولما فرغ الرسول من رد سبايا هوازن، وأعطى مالكاً وغيره ما أعطى لتأليف قلوبهم خشى بعض المسلمين أن يكثر العطاء للوافدين فينقص ذلك من أنصبتهم فى الفيء فبدأوا يتهامسون، ووصل الهمس إلى الرسول فوقف إلى جانب بعير، وأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين أصبعيه ثم رفعها، وقال: «**أيها الناس، والله مالى من فيئكم، ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم**» ثم خمّس الغنيمة، وأعطى من خمسه الذين كانوا إلى أيام أشد الناس عداوة له نصيبا على نصيبهم يتألفهم بذلك، وأعطى أناسا لم يسلموا ليحببهم فى الإسلام: أعطى مائة من الإبل كلا من أبى سفيان وابنه معاوية والحارث بن كلدة والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبدالعزى وحكيم بن حزام(١)، وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس، وصفوان بن أمية. وكان كثرة العطاء له سبباً فى إسلامه، وأعطى خمسين من الإبل من كان دون هؤلاء شأنا مثل مخرمة بن نوفل الزهرى؛ وعمير بن وهب، وسعيد بن يربوع، وأعطى العباس بن مرداس أباعر فسخطها وعاتب الرسول فى أبيات، ذكرها ابن الأثير فى الجزء الثانى فى صفحة ١٨٤ بين فيها أنه قد صال وجال، وأنه ليس أقل شأناً من عيينة والأقرع، فقال النبى: اذهبوا به فاقطعوا عنى لسانه. فأعطوه حتى رضى، وكان ذلك قطع لسانه(٢).

على أن هذا الذى تألف به النبى قلوب من كانوا إلى الأمس أعداءه قد أدى إلى غضب بعض الأنصار، فصار يقول: لقى والله رسول الله قومه. ويقول: إن هذا لهو العجب، يعطى قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم. وأخبر سعد بن عبادة رسول

---

(١) يروى أن الرسول حينما أعطى حكيم بن حزام مائة كأبى سفيان استزاد الرسول فأعطاه مثلها، ثم استزاده فأعطاه مثلها وقال يا حكيم: «**إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاء نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذى يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى**». فأخذ حكيم المائة الأولى ما عدها. ثم قال: والذى بعثك بالحق لا أرزأ أحدا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا. فكان الخلفاء بعد رسول الله يعرضون عليه العطاء الذى يستحقه من بيت المال فلا يأخذه.

(٢) قيل إن ذا الخويصرة التميمى فى هذه القسمة قال للرسول: إنك لم تعدل اليوم. فقال الرسول: **ومن يعدل إذا لم أعدل؟** فقال ابن الخطاب: ألا نقتله؟ فقال الرسول: **دعوه ستكون له شيعة يتعمقون فى الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية**: وقيل إن هذا القول كان فى مال بعث به على من اليمن، وأيا ما كان فالمراد بالشيعة الخوارج؟ (ابن الأثير) وفى رأيى أن هذه القصة مختلقة على الخوارج، وفيها أشياء أخرى.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الله بذلك، فقال الرسول لسعد: اجمع قومك لى فى هذه الحظيرة. فجمعهم وأتاهم الرسول فأقنعهم بحكمة العطاء، وكان مما قاله لهم: «**إنى لأعطى الرجل، وغيره أحب إلى منه خشية أن يكبه الله على وجهه فى النار. وألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟! فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة كنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شِعباً؛ وسلكت الأنصار شِعباً لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار**». وقد قال النبى هذه العبارات وغيرها، وكله تأثر، وكله فيض من الحب لهؤلاء الذين بايعوه ونصروه واعتزوا به وأعزوه، حتى بلغ من تأثره أن بكى الأنصار وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً(١).

وبعد هذا البيان الحكيم ورضاء نفوس الجميع خرج الرسول من الجعرانة معتمراً إلى مكة، فلما قضى عمرته استخلف عتاب بن أسيد على أم القرى، وخلف معه معاذ بن جبل ليفقه الناس فى دينهم، ويعلمهم القرآن. وعاد هو والأنصار والمهاجرون قافلين إلى المدينة فدخلوها لثلاث بقين من ذى القعدة أو أول ذى الحجة من السنة الثامنة.

---

(١) راجعوا فى موضوع السبى والغنائم ابن الأثير حـ٢ من ١٨٢ – ١٨٥، ونور اليقين من ٢٤٩ – ٢٥٤، وحياة محمد من ٤٢٢ – ٤٢٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الدعوة الإسلامية بعد حنين وعام الوفود

أصبح النبى -والمسلمون- بعد فتح مكة ونصرة حنين وحصار الطائف أكبر قوة فى الجزيرة العربية كلها ودانت له معظم القبائل، وثبت فى نفوسها أنه لم يبق لأحد قِبَلٌ به فى شبه الجزيرة فبدأ بعد رجوعه عليه السلام من الجعرانة يبسط سلطانه على الجهات المختلفة، ويصدر أوامره إلى القبائل التى أصبحت تحت إمرته، فأرسل فى أوائل السنة التاسعة رسله إلى القبائل التى دانت له يطلب منها الزكاة، فرجعت تلك الرسل تحمل الزكاة؛ إلا اثنان فقد رجعا دون أن يؤديا مهمتهما، وهما اللذان ذهبا إلى بنى تميم، وبنى المصطلق، فأرسل النبى إلى بنى تميم من أدبهم، وكان ذلك سبباً فى إسلامهم جميعاً؛ وأما بنو المصطلق فإن العامل كان قد أخطأ، فقد خرجوا إليه متقلدين سيوفهم احتفالاً بقدومه، فظنهم يريدون حربه فرجع مسرعا وأخبر الرسول فأرسل إليهم خالد ابن الوليد فوجدهم على أحسن حال من الإسلام والطاعة. وسارت الدعوة الإسلامية قدماً: فالقبائل تقدم الطاعة، والشعراء يطنبون فى مدح نبى الإسلام ومنهم كعب بن زهير، وقصيدته (بانت سعاد فقلبى اليوم مبتول) وصروح الوثنية تنهار، والوفود تترى على المدينة من البلاد العربية قاصيها ودانيها كاليمن وحضرموت ومهرة وعمان والبحرين، ومن أطراف الشام، وأطراف بلاد فارس، وقد أتت كلها لمبايعة الرسول على الإسلام، ورجعت تحمل الإيمان إلى بلادها(١)، ولهذا سميت السنة التاسعة من الهجرة بعام الوفود، وليس معنى ذلك أن الوفود لم تكن موجودة قبل ذلك، أو لم تفد فى السنة العاشرة؛ بل إن الوفود لم تنقطع طوال السنة العاشرة وحضر بعضها حجة الوداع، ولكنه سمى بذلك لكثرتها فيه.

* **غزوة تبوك:**

من المعروف أن هزيمة المسلمين -أو بالأدق عدم نصرهم- فى مؤتة أثرت فى مركز الإسلام وهيبته عند قبائل العرب الساكنة بين المدينة والشام، فقد تجرأ جمع من قضاعة على بث الدعوة للإغارة على المدينة، فأرسل - عليه السلام - حملة إليهم

---

(١) ومن هذه الوفود وفد طيء وعلى رأسه سيدهم «زيد الخيل» الذى سماه الرسول «زيد الخير» ثم وفادة عدى بن حاتم بعد هرب وامتناع وإسلامه، ووفد صداء ووفد تميم ووفد بنى أسد، وغيرهم «من أراد مراجعة الوفود فليرجع إلى ابن الأثير ج٢ من ١٨٥ - ١٨٩ ومن ١٩٣ - ١٩٨ ونور اليقين من ٢٥٤ - ٢٦٠).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بقيادة عمرو بن العاص لتأديب قضاعة، وإعادة هيبة الإسلام، واحترامه فى نفوسهم، غير أن إعادة هيبة الإسلام فى وسط تلك القبائل شىء، وإبقاء تلك الهيبة واستمرارها شىء آخر يتطلب السهر من جانب المسلمين، والضرب على أيدى أى قبيلة منهم تجرؤ على مناوأة المسلمين، وهذا هو سبب الحملة التى أنفذها الرسول عليه السلام بقيادة خالد بن الوليد فى وسط السنة التاسعة للهجرة إلى قبيلتى بنى عذرة وبلى لتمردهما فأرجعهما خالد إلى صوابهما، وأصبحا من حلفاء المسلمين. وقد أزعجت تلك الحملات قيصر الروم لقربها من أراضى امبراطوريته فى جنوب الشام وبرهنت له أن فى شبه الجزيرة نبياً سيحاول يوماً توسيع دائرة سلطان دينه إلى ما وراء بلاد العرب فسلح القبائل التابعة له مثل لخم وجذام وغسان القاطنة منطقة الحدود بين الشام وبلاد العرب، وألزمها حراسة تلك الحدود، فصارت الحاميات تغدو وتروح مما يخيل للناظر أنه توجد حركات تجمع.

وبلغ النبى ذلك مبالغاً فيه ومجسماً، فقد وصله أن الروم قد جمعوا الجموع لغزو بلاده، وأن قبائل لخم وجذام وغسان، قد انضمت للجيوش البيزنطية للقيام بحرب قوية ضد الدين الجديد، وقوى ذلك ما وصله أيضاً من خبر إقامة الإمبراطور هرقل فى حمص فى ذلك الوقت، فأمر عليه السلام أهل المدينة ومن حولها بالتجهز لغزو الروم، وقد أعلمهم بالمقصد على خلاف عادته ليستعدوا تمام الاستعداد، فالعدو كثير كما جاءت الأخبار؛ والطريق شاق وطويل، والحر شديد، والبلاد مجدبة، والناس فى عسرة.

وبعث عليه السلام إلى أهل مكة، والقبائل المحالفة يستنفرهم للانضمام إلى الحملة، وحث الموسرين على تجهيز المعسرين، فأنفق عثمان ابن عفان عشرة آلاف دينار، وأعطى ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها، وخمسين فرساً، فقال عليه السلام : اللهم أرض عن عثمان، فإنى راض عنه. وجاء أبو بكر بكل ماله، وهو أربعة آلاف درهم فقال عليه السلام: هل أبقيت لأهلك شيئًا؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله. وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية، وجاء طلحة والعباس بمال كثير، وتبرعت نساء كثيرات بحليهن، وتوالت تبرعات كثيرة على الجيش، ومع ذلك فإن الإمكانيات عجزت عن موافاة الناس بالظهور، فإن سبعة من فقهاء الصحابة من الأنصار وغيرهم – وكانوا أهل حاجة – جاءوا للرسول يطلبون إليه

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أن يحملهم فقال (لا أجد ما أحملكم عليه)، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون، ولبكائهم هذا أطلق عليهم اسم البكائين[١].

وبجانب الفئة التى قدمت نفسها ومالها فى سبيل الله، والفئة المعدمة التى لا تجد ما تحمل عليه، نجد فئة أخرى متثاقلة مثبطة، تلتمس الأعذار، وتهزأ - فيما بينها - بدعوة الرسول إياهم لهذا الغزو النائى فى ذلك الجو المحرق، وتحرض غيرها على عدم الخروج، ذاكرة له ما لاقاه المسلمون من الروم فى مؤتة، تلك هى فئة المنافقين وعلى رأسها «ابن أبى» الذى قال: «يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحال، والحر والبلد البعيد! يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر معه اللعب، والله لكأنى أنظر إلى أصحابه مقرنين فى الحبال»! وكان لهذا القول وغيره أثره فى النفوس، فعقدت الاجتماعات لتثبيط الناس، والخوض فى الرسول وأصحابه.

وبلغ الرسول ذلك فأرسل إليهم عمار بن ياسر يسألهم عما قالوا، فقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب[٢]، وجاء للرسول جماعة منهم الجد بن قيس يعتذرون عن الخروج، فقالوا: يا رسول الله ائذن لنا ولا تفتنا لأنا لا نأمن نساء بنى الأصفر، وأنزل الله فى حق هؤلاء ﴿ **أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** ﴾ [التوبة: ٤٩]. وجاء الرسول أيضا المعذرون من الأعراب، وهم أصحاب الأعذار من ضعف أو قلة ليؤذن لهم فأذن لهم وكذلك استأذن بعض المنافقين فأذن لهم، وقد عتب الله عليه فى ذلك الإذن بقوله فى سورة براءة ﴿ **عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ** ﴾. ثم قال فى حقهم ﴿ **إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ** ﴾ ثم كذبهم الله فى عذرهم فقال ﴿ **وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً** ﴾ إلى آخر الآية.

ولكيلا يأسى المسلمون على قعود المنافقين عنهم قال جل ذكره ﴿ **لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً** ﴾ إلى آخر الآيات ﴿ **لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ**

---

(١) وعلم عثمان بذلك فجهز ثلاثة منهم، وجهز العباس اثنين، وجهز يامين بن عمير بن كعب النضرى اثنين.

(٢) اقرؤوا آيات سورة التوبة من ٦٤ - ٧١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿٤٣﴾ لا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٢ - ٤٩].

هذا، وقد تخلف ثلاثة من المسلمين من غير شك ولا نفاق بل كان تخلفهم إيثاراً للراحة، وفراراً من شدة الحر، وهؤلاء الثلاثة هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، فلما عاد الرسول من الغزوة اعترفوا بذنبهم وندموا على ما فعلوا، فاعتزلهم الرسول والمسلمون خمسين ليلة حتى أنزل الله توبتهم فقال: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨] فسرُّوا، وبلغ من سرور كعب أنه أراد أن يتصدق بماله كله لولا أن قال له الرسول: أمسك عليك بعض مالك. وعادت المياه إلى مجاريها معهم. وعلى الرغم من تخلف جميع من ذكرنا، فقد اجتمع للرسول ثلاثون ألفا، وقد سمى هذا الجيش بجيش العسرة لشدة ما لاقى الرسول منذ يوم تكوينه، وعسرة الزاد والماء والراحلة، ولذا سميت غزوة تبوك بغزوة العسرة أيضا.

* مسيرة جيش العسيرة

عرض الرسول جيش العسرة خارج المدينة وهو جيش ربما لم تر بلاد العرب فى تاريخها السابق جيشا يساويه فى العدد، وأمر به فتحرك؛ وثار النقع، وصهلت الخيل، وارتقت نساء المدينة سقفها يشهدن هذا الجحفل الجرار يتوجه مخترقا الصحراء صوب الشمال، مستهيناً فى سبيل الله بالحر والظمأ والمسغبة. ولقد حرك منظر الجيش - يتقدمه عشرة آلاف فارس، ومنظر النسوة مأخوذ بجلاله وقوته - بعض النفوس فخرجت فى أثر الجيش، ومن هؤلاء أبو خيثمة، ولما مر الجيش بالحجر، وهى ديار ثمود

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال عليه السلام لأصحابه: لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون؛ ليشعر قلوبهم رهبة الله، ومنعهم من الاستسقاء أو الوضوء من ديار الكافرين(١).

ومع شدة الظمأ، وطول الطريق، كان الله مع عباده المؤمنين، فقد أرسل إليهم سحابة أمطرتهم فارتووا، وأصابوا من الماء ما شاءوا واستمروا فى سيرهم حتى وصلوا إلى تبوك فأناخوا رواحلهم وعسكروا بها(٢)، وصاروا يضمدون أرجلهم المكدودة، ويشربون المياه العذبة، وينتظرون ملاقاة الأعداء؛ لأنهم لم يجدوا لهم أثراً كما بلغهم، ويبدو أن الروم لما بلغهم أمر هذا الجيش وقوته، وما عرفوه عن المسلمين فى مؤتة من البسالة والإقدام آثروا الانسحاب إلى داخل بلاد الشام للاحتماء بحصونها، ولم ير الرسول ما يدعو لتتبعهم داخل بلادهم، واكتفى بالإقامة عند الحدود يتحدى الروم، ويرسل سراياه فى تلك الجهات.

وقد أدى انسحاب الروم وبقاء الرسول فى تبوك بضعة عشر يوماً إلى توافد كثير من القبائل المسيحية واليهودية الواقعة حول خليج العقبة لمصالحة الرسول والارتباط معه بمعاهدات صداقة، ومن هؤلاء يوحنا ابن رؤبة صاحب أيلة والوالى العام على القبائل المسيحية واليهودية الساكنة حول خليج أيلة؛ فإنه جاء إلى الرسول فصالحه وقدم له الهدايا والطاعة، وأعطاه الجزية. وقد فعل مثل ذلك أهل أذرح وأهل جرباء وأهل مقنا(٣)، وكتب لهم الرسول جميعا كتب أمن(٤).

وبعد أن اطمأن الرسول على الحدود من ناحية دومة الجندل - على سبع مراحل من دمشق بينها وبين المدينة - أرسل خالد بن الوليد فى خمسمائة فارس إليها، فعبر الصحراء حتى وصل إليها، ولم يلق مقاومة تذكر، وأسر صاحبها أكيدر بن عبد الملك واستولى على ألفى جمل، وثمانمائة شاة ومجموعة كبيرة من الأسلحة ثم كر راجعاً إلى المدينة وبرفقته أكيدر بن عبدالملك، وكان الرسول بعد أن بعث خالداً إلى دومة

---

(١) يروى أنهم نزلوا بها بعض الوقت وشربوا فى أول الأمر فلما استراحوا طلب الرسول منهم عدم الشرب أو الوضوء وما عجن من خبز بهذا الماء يكون علفا للإبل، ولا يأكله أحد (ابن هشام صـ ١١٧ وابن الأثير جـ ٢ صـ ١٩٠ و١٩١ وحياة محمد ٤٤٣).

(٢) تبوك على بعد ٦١٠ك.م من المدينة، وهى واحة خصبة بها النخيل والحدائق.

(٣) أذرح بلد فى أطراف الشام من نواحى البلقاء وعمان مجاورة لأرض الحجاز، وجرباء قرية من أعمال عمان بالبلقاء، وهى قريبة من أذرح، ومقنا قريبة منهما.

(٤) من أراد معرفة نصوصها فليرجع إلى نور اليقين ص ٢٦٤ وحياة محمد ص ٤٤٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الجندل قد عاد بالجيش إلى المدينة فى رمضان من السنة التاسعة؛ فكان رجوع خالد بالغنائم عقب عودته ﷺ، وقد أسلم أكيدر بمجرد مقابلته الرسول.

وكانت غزوة تبوك آخر غزواته ﷺ، وفى أثناء عودته إلى المدينة هدم مسجد الضرار الذى أقامه المنافقون بذى أوان على بعد ساعة من المدينة لمنافسة مسجد قباء الذى بناه النبى فى شمال المدينة، وللتفرقة بين المسلمين، وقد عرف النبى حقيقة مقصدهم فهدمه(١)، وضرب بذلك مثلا ارتعدت له فرائصهم، ولم يبق لهم من يحميهم إلا عبد الله بن أبى شيخهم وقائدهم الذى لم يعمر بعد تبوك سوى شهرين تقريبا، ومع أن الحقد كان يأكل قلبه منذ هاجر النبى إلى المدينة - وقد رأينا صوراً كثيرة من هذا الحقد - فإنه لما مات ودُعى النبى للصلاة عليه لم يتردد، وشيع جنازته ووقف على قبره إلى أن دفن(٢)، وقد فعل ذلك تطييبا لقلب ولده عبد الله، وتطييباً أيضا لقلوب الخزرج لمكانة عبد الله بن أبى فيهم، وكان هذا العمل من رسول الحب والسلام سبباً فى أن نزع كثير من المنافقين ربقة النفاق، وآثر أن يخلص لله ولرسوله وللمؤمنين.

* أثر تبوك فى نشر الإسلام

لغزوة تبوك، وانسحاب الروم أمام المسلمين آثار عظيمة، فقد وجهت أنظار المسلمين إلى العالم الخارجى، وتمت بها كلمة الله فى شبه جزيرة العرب كلها، وأمن الرسول كل عادية عليها بما أمّن من حدود؛ وبما نشر من هيبة؛ جعلت العرب يتسامعون فى قلب الجزيرة وأطرافها بالإسلام. فإنه لم يكد الرسول يستقر فى المدينة بعد عودته إليها حتى تقاطرت الوفود على مسجد المدينة لاعتناق الإسلام.

وكان أول من بادر إلى إعلان الطاعة بعد تبوك الطائف التى قاومت النبى أثناء حصارها مقاومة دعته إلى الانصراف عنها دون اقتحامها، وقتلت عروة بن مسعود أحد

---

(١) كان المسجد قد بنى قبل تبوك، وقد طلب جماعة من المنافقين من الرسول أن يفتتح المسجد بالصلاة فيه فاستمهلهم حتى يعود من الغزوة، فلما عاد سألهم عن سبب بنائه فحلفوا بالله إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون..

(٢) وقد نهى الله رسوله بعد ذلك عن الصلاة على المنافقين فقال ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤].

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ساداتها عندما أسلم، ودعا أهلها (ثقيفا) إلى الإسلام(١) ولكنها الآن ترى خطأها فى قتل عروة، وترى نفسها وحيدة، وأن من حولها من العرب قد نصبوا لها الفخاخ؛ فلا يؤمن لها سرب، ولا يخرج منها رجل إلا أُخذ. وكان من أشد الناس عليها مالك بن عوف - حليفها السابق وقائد جيش حنين - فأيقنت أن مصيرها إلى الفناء إذا لم تسارع بعقد صلح مع المسلمين، فأوفدت ستة من أشرافها إلى المدينة برياسة كبيرها (عبد ياليل). ولما وصل الوفد إلى المدينة، وقابل الرسول رحب بالإسلام؛ على شرط أن يترك صنمهم «اللات» ثلاث سنين، وأن يعفيهم من الصلاة، فأبى عليهم الرسول ذلك إباءً شديداً، فلم ييأسوا فى أول الأمر وحاولوا بقاء الصنم سنتين أو سنة أو شهراً واحداً(٢)، حتى يدخل الإسلام قلوب القوم، ولا يرتاع السفهاء والنساء من هدمه ولكن المحاولات لم تجد، ووجدوا عزيمة لا تلين وأنهم لابد أن يرفضوا الشرك، ويمحقوا آثاره.

فقبلوا الإسلام كما شرعه الله بصلاته وبقية أركانه، وأقاموا مع الرسول بقية رمضان يصلون ويصومون، وأمّر عليهم الرسول عثمان بن أبى العاص لما رأى من حرصه على الإسلام والتفقه فى الدين؛ ثم رجعوا إلى بلادهم، وأرسل الرسول معهم المغيرة بن شعبة وأبا سفيان بن حرب ليهدما طاغوتهم (اللات) فخرجا مع القوم حتى قدما الطائف وتقدم المغيرة وهدم الطاغية ونساء ثقيف حسراً يبكين، وأخذ المغيرة مال «اللات» والحلى التى كانت عليه؛ وقضى منه -بأمر الرسول وبالاتفاق مع أبى سفيان- ديناً كان على عروة، وبهدم «اللات» زال آخر معقل للوثنية فى وسط بلاد العرب، وبإسلام الطائف كانت الحجاز كلها قد أسلمت(٣).

وكانت سطوة الرسول، قد امتدت من بلاد الروم فى الشمال إلى بلاد اليمن

---

(١) كان عروة غائبا فى اليمن أثناء غزو النبى بلاده، فلما عاد وعلم بما حدث ورأى النبى انتصر فى تبوك، وعاد إلى المدينة، أسرع إليه يعلن إسلامه، ويسأل الرسول أن يرجع إلى قومه ليدعوهم للدخول فى دين الله، وقيل، إنه أدرك الرسول فى الطريق عند مرجعه من الطائف، وأيا كان إسلامه قبل تبوك أو بعدها فإنه حينما قال للرسول مقالته السابقة قال له: إنهم قاتلوك: فقال: أنا أحب إليهم من أبصارهم أو أبكارهم فعاد إلى الطائف، وأظهر إسلامه ودعا قومه للإسلام فقتلوه، وعروة هذا هو أحد الرجلين المذكورين فى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

(٢) يروى الشيخ الخضرى فى نور اليقين صـ ٢٥٨ أن الرسول رضى بالشهر وأن الرسولين انتظرا إلى الميعاد.

(٣) ابن الأثير ج ٢ صـ١٩٣، ١٩٤ ونور اليقين من ٢٦٦ - ٢٨٨، وحياة محمد من ٤٥٠ - ٤٥٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وحضرموت فى الجنوب، وكانت هذه البلاد الباقية فى جنوب شبه الجزيرة تتهيأ كلها لتنضم إلى الدين الجديد، وبدأت وفودها تقصد المدينة لتعلن الطاعة ولتدين بالإسلام، وأصبح مسجد المدينة مركزاً لهذه الوفود(١) ومصدر إشعاع، فيه يتفقهون، وبه يصلون ومنه ترسل البعوث لنشر دعوة الإسلام، فإن الرسول عندما رأى أن قبائل العرب أخذت تسعى للوحدة وتمد يدها للإسلام، وليس فى استطاعة الجميع الحضور إلى المدينة، أرسل من قبله بعوثاً إلى سائر الجهات لتعليم الناس فرائض الدين، وجمع الزكاة فبعث معاذ بن جبل إلى اليمن جهة عدن، وأبا موسى الأشعرى إلى جهة صنعاء، وأوصاهما بقوله: يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا. وبعث على بن أبى طالب إلى بنى مذحج القاطنة شمال نجران، وعدى بن حاتم الطائى إلى طىء وأسد، والعلاء الحضرمى إلى البحرين، وبعث خالد بن الوليد لبنى عبد المدان المسيحيين بنجران ليدعوهم للإسلام فإن أبوا قاتلهم. فلما قدم عليهم أسلموا ودخلوا فى الدين الجديد، وأقام خالد بينهم لتعليمهم الإسلام والقرآن، وكتب لرسول الله بذلك، فأرسل إليه أن يأتى إليه بوفد منهم ففعل. وبعث زياد بن لبيد الأنصارى إلى حضرموت، ومالك بن نويرة إلى بنى حنظلة.

وهكذا بعث النبى رسلاً كثيرين لمختلف الجهات، فكانوا يبلغون الإسلام؛ ويعلمونه الناس، ويجمعون الزكاة، وكان الرسول يرد بعض الزكاة إلى فقراء المسلمين، ويصرف بعضها الآخر فى المصالح العامة.

وبينما كانت الوفود فى السنة التاسعة تترى إلى المدينة والرسل تبعث كان موعد الحج قد اقترب، فهل لا يخرج أحد بالمسلمين كما حدث فى العام السابق؛ فإن الرسول ترك الناس تحج كما كانت العرب تحج؟ أم يخرج هو لشكر الله على ما آتاه من نصر على الروم ودخول ثقيف الصلبة فى الإسلام ومجىء الوفود إليه من كل فج عميق؟ أم ينيب غيره عنه؟ أما الأولى فلا ينبغى أن تكون لأن ترك موسم الحج عامين بعد الفتح، وكثرة الحجيج قد تستغل ضد الإسلام، وأما الثانى فيبدو لى أن الرسول

---

(١) ذكرنا فى صـ ١٦٢ و ١٦٣ أن العام التاسع كان يسمى عام الوفود، وقلنا إن الوفود لم تنقطع فى العام العاشر. ونذكر هنا أن جميع الوفود فى العامين بلغت -فيما يروى ابن سعد فى الطبقات- نحو اثنين وسبعين وفدا، ومن الوفود بنو حنيفة ووفود كندة وأزد شنوءة، وهمدان وتجيب وثعلبة ووفود بنى سعد بن هذيم، وبنى فزارة وبنى محارب ووفود غسان (ومن أراد التوسع فى معرفة الوفود فليرجع لابن الأثير جـ٢ صـ١٩٩ - ٢٠٤، ونور اليقين من ٢٧٨ - ٢٨٨).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كان لا يحب أن يرى مناظر المشركين فى الحج وما يفعلونه فيه؛ وإذن لم يبق إلا أن ينيب عنه، وأقرب الناس إليه أبو بكر فخرج أبو بكر، فى ثلاثمائة من المسلمين.

ولم يكد يتجاوز العرج حتى لحقه على بن أبى طالب يخبره بنزول أوائل سورة براءة، وأنه سيبلغها للناس، فسار أبو بكر أميراً على الموسم، وحج الكفار على عادتهم فى الجاهلية، فلما كان يوم الأضحى، واجتمع الناس بمنى وقف على بن أبى طالب وإلى جانبه أبو هريرة، ونادیا: لا يحجن بعد هذا العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فأجله إلى مدته. ثم قرأ على بن أبى طالب أوائل سورة التوبة، فرجع الحجاج إلى أهليهم بذلك الخبر الذى كان بمثابة آخر إنذار للوثنية فى أنحاء بلاد العرب، وإعلان لسلطان الإسلام، وصيرورته دين شبه الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها.

* حجة الوداع أو حجة الإسلام أو حجة البلاغ(١)

منذ حج أبو بكر، وتلا على بن أبى طالب ما تلا من سورة براءة فى السنة التاسعة، كانت أشهر السنة العاشرة قد استدارت وأقبل ذو القعدة، وأوشك أن يولى، ولم يكن النبى قد حج الحج الأكبر وإن يكن قد اعتمر فأدى الحج الأصغر مرتين أو ثلاثا(٢)، وللحج الأكبر مناسك يجب أن يكون عليه السلام قدوة المسلمين فيها، ولذلك ما كاد الناس يعرفون ما صح عليه عزم الرسول حتى أقبل الناس على المدينة من كل حدب وصوب، وحول المدينة ضربت الخيام لمائة ألف أو يزيدون.

وفى الخامس والعشرين من ذى القعدة من السنة العاشرة للهجرة - الموافق أول مارس سنة ٦٣٢م -سار النبى وأخذ نساءه جميعا معه، وتبعه هذا الجمع الزاخر، وساروا بلا سلاح يحدوهم الإيمان، وتملأ قلوبهم الغبطة الصادقة لسيرهم إلى بيت الله الحرام يؤدون عنده فريضة الحج الأكبر بقيادة قائدهم الأعظم ومعلمهم الأكبر: محمد بن عبد الله، فلما بلغوا ذا الحليفة - ميقات الإحرام لأهل المدينة - نزلوا وأقاموا ليلتهم

---

(١) حجة الوداع هى التسمية المشهورة، وعليها جرى أكثر المؤرخين والمحدثين، وكان ابن عباس يكره هذه التسمية ويسميها حجة الإسلام وتسمى أيضا حجة البلاغ لتبليغه نهاية التشريع وقوله فى خطبتها: ألا هل بلغت؟.

(٢) عمرة الحديبية (عمرة الحصر) فى أواخر السنة السادسة، وعمرة القضاء فى السنة السابعة، وعمرة الجعرانة فى السنة الثامنة عند رجوعه من غزوة الطائف، والعمرة التى مع حجة الوداع، وجميع العمر كانت فى ذى القعدة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بها، ولبسوا ملابس الإحرام وأحرموا منها، وصاروا جميعا ينتظمهم زى واحد هو أبسط ما يكون زياً وتوجه الرسول بكل قلبه إلى ربه ونادى ملبياً، والمسلمون من ورائه: «لبيك اللهم، لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك. لا شريك لك لبيك» وتجاوبت الأودية والصحارى مع هذا النداء الجميل، تلبى كلها، وتنادى بارئها، مؤمنة عابدة.

ومازال الركب منطلقا بألوفه يطوى الأرض حتى بلغ «سرفا» وهى محلة فى الطريق بين مكة والمدينة، فقال الرسول: من لم يكن منكم معه هدى فأحب أن يجعلها عمرة فليفعل، ومن كان معه هدى فلا، ثم واصل الركب سيره حتى وصل مكة فدخلها من كداء، ودخل المسجد من باب بنى شيبة، ولما رأى البيت قال: «**اللهم زده تشريفاً وتعظيماً ومهابة وبراً**» ثم حج بالناس فأراهم مناسكهم، وعلمهم سنن حجهم(١). وفى يوم عرفة عندما زالت الشمس سار حتى أتى بطن الوادى من أرض عرنة، وهناك خطب خطبته التى بين فيها للناس ما بين، وكان الذى يبلغ عنه ربيعة بن أمية بن خلف لكثرة الناس، فكان مما قاله بعد حمد الله والثناء عليه: «**أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم -إلى أن تلقوا ربكم- كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا. ألا هل بلغت؟! اللهم فاشهد. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها..**» والخطبة طويلة جامعة، بيّن فيها الرسول أصول الدين وفروعه ودستور المعاملات بين الناس، ولا عجب فهى وصية الحريص على أمته، الرؤوف بهم، يوصيهم فى آخر حياته. ولشدة حرصه على مصلحتهم كان يردد بعد كل أمر أو نهى جملته الخالدة «**ألا هل بلغت؟! اللهم فاشهد**»(٢).

وبعد الخطبة أتم الرسول مناسك حجة الوداع كما يسميها بعضهم، أو حجة الإسلام كما يسميها بعضهم الآخر، أو حجة البلاغ كما يسميها فريق ثالث، وهى - فى الحق - ذلك كله، فقد كانت المرة الأخيرة التى رأى فيها الرسول مكة والبيت الحرام، وأكمل الله فيها للناس دينه، وأتم عليهم نعمته، ففى أثنائها نزل قوله تعالى ﴿**الْيَوْمَ**

---

(١) تذكر بعض كتب السيرة ما فعله الرسول، ولكننا لا نرى ما يدعو لذلك فهى مفصلة فى كتب الحديث والفقه.

(٢) خطبة حجة الوداع تناولها المحدثون والفقهاء بما لا مزيد عليه، ويكفينا ذكر زمنها ومكانها، والهدف منها.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ﴾ [المائدة: ٣]. وكانت حجة البلاغ لأن النبى بلغ فيها ما أمره الله بتبليغه، فأكمل رسالته كأكمل ما تتم الرسالات وأدى أمانته كأحسن ما تؤدى الأمانات. وصدق الله حين أنزل عليه بمنى فى وسط أيام التشريق سورة النصر ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾(١) يشعره فيها بأن رسالته قد تمت، وأن مهمته فى الدنيا قد بلغت غايتها، ويهيئه لما أعد له عنده من النعيم المقيم فى أرفع الدرجات(٢).

---

(١) يروى أن أبا بكر حين سمع السورة بكى لأنه أحس أن النبى - وقد تمت رسالته - قد دنا يومه الذى يلقى فيه ربه، وقال: لقد نعى الله إلى النبى أجله.

(٢) حياة محمد ص٤٧٥ ومرآة الإسلام ١٢٧، ١٢٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

مرض الرسول، ووفاته

بدأت السنة الحادية عشرة من الهجرة، والإسلام فى أوج مجده وعزه، فقد دانت معظم بلاد العرب للإسلام، وأضحى عماله فى أنحائها يرفعون رايته عالية خفاقة، وأصبح شغل النبى مقابلة وفود القبائل الداخلة فى الإسلام وإرسال الرسائل إلى مختلف الجهات. وفى هذا الوقت كان الرسول -عليه الصلاة والسلام- قد بلغ الثالثة والستين من عمره، ولم يكن به مرض، ولم يعتر عزمه ضعف ولا وهن، بل كان قد جهز جيشًا بقيادة أسامة بن زيد لمعاقبة القبائل الساكنة فى أطراف بلاد العرب ولإرهاب الغساسنة والروم، وكل من حدثته أو تحدثه نفسه بالانتقاض على الإسلام أو تعاليمه، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه فى عماية الصبح، وأن يمعن فيهم قتالاً، وأن يتم ذلك دراكًا حتى لا تسبق إلى أعدائه أنباؤه، فإذا تم له النصر فليسرع بالعودة غانمًا مظفراً.

وبينما هو يستعد للرحيل إذ فوجئ بمرض النبى فى الثامن عشر من شهر صفر(١) فتوقف عن المسير، واشتدت العلة بالرسول فاستأذن نساءه أن يمرَّض فى بيت السيدة عائشة، وأمر أبا بكر أن يصلى بالناس، فصلى بهم سبع عشرة صلاة، وقيل ثلاثة أيام. ويروى الزهرى عن أنس بن مالك، أنه لما كان يوم الاثنين الذى قبض فيه رسول الله ﷺ خرج إلى الناس، وهم يصلون الصبح فكاد المسلمون يفتتنون فى صلاتهم حين رأوه فرحًا به، وتفرجوا – عملوا فرجة فى الصف ليقف فيها أبو بكر، ويصلى النبى إماماً بدلاً منه – فأشار إليهم أن اثبتوا على صلاتكم. قال: وتبسم رسول الله لما رأى من هيئتهم فى الصلاة، ثم رجع إلى حجرة عائشة وأرخى الستر، وفرح المسلمون بما رأوا من ظاهر التقدم فى صحة النبى، وأقبل أبو بكر إلى الرسول يستأذنه فى الخروج إلى السنح – ضاحية المدينة حيث تقيم زوجه بنت خارجة – فأذن له، وكذلك أقبل أسامة بن زيد يستأذنه فى مسيرة الجيش إلى الشام، وانصرف على وعمر لشئونهما،

---

(١) روى الشيخان: أن النبى تحدث على المنبر مرة فكان مما قال: إن عبداً خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا، وبين ما عنده فاختار ما عنده. فبكى أبو بكر وقال: يا رسول الله، فديناك بآبائنا وأمهاتنا. فقال عليه السلام: إن أمن الناس على فى صحبته وماله أبو بكر، فلو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام، لا يبقى فى المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبى بكر. ثم أوصى المهاجرين بالأنصار.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وتفرق الناس فرحين مستبشرين، ولكن لم تأت ضحوة هذا اليوم نفسه ـ الإثنين الموافق ١٣ من ربيع الأول سنة ١١هـ ـ ٨ يونيه سنة ٦٣٢م[1] ـ حتى فارق الرسول الدنيا، ولحق بالرفيق الأعلى.

وقد سار خبر وفاة الرسول مسير البرق، ووصل إلى السنح، وكان أبو بكر لم يكد يصل إليها فامتطى جواده، ورجع من فوره إلى المدينة، وتوجه إلى المسجد فوجد عمر ابن الخطاب يتوعد من يقول مات رسول الله، ويقول: إنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ـ فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ـ ثم رجع إليهم: فتقدم بهدوء إلى الجماهير التي يخاطبها عمر وقال مقالته المشهورة (راجعوها في القسم الثاني) وكذلك راجعوا تجهيز الرسول ومكان دفنه.

لحق الرسول بالرفيق الأعلى بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وخلق من الشعب العربي شعبًا جديدًا كان له أعظم الأثر في تغيير وجه التاريخ العالمي، وترك للمسلمين كتابًا لا يضلون ما إن تمسكوا به، وترك أصحابه البررة الكرام يوضحون الدين ويتممون فتح البلاد وينشرون عن طريق الإقناع وبسلاح الإيمان مبادئ الدين الحنيف. وسرعان ما استقرت الدعوة، فعمرت بها القلوب، وسرت في دماء الناس، ولا عجب فهي دعوة الحق وفيها الحياة، بل وفيها السعادة لكل إنسان.

رزقنا الله نعمة الإيمان، وهدانا لصالح الأعمال، ووفقنا للسير على الطريق القويم وصلى الله على سيدنا وحبيبنا محمد النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

تم القسم الأول (السيرة العطرة) في يوم الخميس ٨ من ربيع الثاني سنة ١٣٨٥هـ، الموافق ٥ من أغسطس سنة ١٩٦٥م.

---

(١) فيكون عمره ـ عليه السلام ـ ٦٣ سنة قمرية كاملة وثلاثة أيام، وإحدى وستين سنة شمسية وأربعة وثمانين يومًا، وقد توفي ﷺ في نفس الشهر الذي وصل فيه إلى المدينة مهاجرًا لعشر سنين مضين منذ هجرته (نور اليقين ص ٢٩٠ للشيخ الخضري، والمحاضرات له أيضًا ج ١ ص ٢٣٦). ويروى ابن الأثير ج ٢ ص ٢١٩ أن الوفاة كانت يوم الاثنين ١٢ من ربيع الأول والدفن من الغد نصف النهار، كما يروى أن الوفاة ـ الاثنين ٢٨ من ربيع الأول.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

القسم الثانى

الخـلافـة الرشيدة

* البداية

يعتبر فتح مكة فى العام الثامن الهجرى هو الدافع القوى الذى دفع القبائل العربية فى كل أنحاء الجزيرة إلى الدخول فى الإسلام فتتابعت الوفود منذ هذا الحادث لتعلن إسلامها؛ ثم ترجع من لدن رسول الله ومعها من يفقهها فى دينها الجديد.

ولكن درجة اقتناعهم بمبادئ الإسلام وانقيادهم له لم تصل إلى درجة المسلمين من أهل مكة والمدينة، والسابقين إلى الإسلام من الأفواج الأولى؛ فلم يكد الإسلام يصل إلى أقاصى الجزيرة، ويظهر فى باديتها حتى حدثت بعض العرب نفوسهم بأن يكون لهم مثل ما كان لرسول الله من الشأن والمنزلة! فادعوا النبوة واستعانوا على ذلك بضروب من الحيل والعبقرية الشخصية، وآزرتهم العصبية العربية، وأفادتهم النعرة القبلية فشدت من أزرهم وزادت من أتباعهم. فوجد طليحة بن خويلد أنصاراً من بنى أسد، و استجاب لسجاح كثير من بنى تميم، واستطاع مسيلمة أن يجد من بنى حنيفة أتباعًا يتحمسون له فى دعوته! وأما الأسود العنسى فاستولى على اليمن كلها وطرد عمال رسول الله عليه السلام ودانت له البوادى والحواضر ما بين مفازة حضرموت إلى الطائف والبحرين إلى الأحساء وعدن(١).

وظل كل متنبئ يحدث من الفتن بين قومه ما حمل كثيراً منهم على اتباعه. فلم تكن جزيرة العرب فى أواخر حياة رسول الله مطمئنة هادئة كما يخيل للنظرة العابرة، بل كانت أسباب الفتنة تضطرم تحت أديم أرضها، ونذر الثورة تتبدى فى جوها ولم يهدئ من شدتها سوى حكمة رسول الله وبعد نظره، وما كان يلازمه من نصر على أعدائه.

* وفاة رسول الله

انتقل رسول الله إلى جوار ربه، والفتنة تحاول أن تمد أعناقها فى الشمال الشرقى والجنوب الغربى من الجزيرة. وبالرغم من ظهور هذه البوادر فى عهد النبى فإنه كان قد أعد جيشًا لحرب الروم، وأهمل أمر العرب الثائرين، فلم يكد يتم تجهيز الجيش ويتحرك فى اتجاهه نحو الشام حتى وصله نعى رسول الله فتوقف عن وجهته، ووقع

---

(١) ابن الأثير جـ ٢، ص ٢٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المسلمون فى حيرة وارتباك، وأحدثت وفاة رسول الله آثاراً لها خطورتها فى المسلمين جميعًا: من آمن منهم وأخلص فى إيمانه ومن لم يجاوز إيمانه طرف لسانه. فأصحابه المخلصون أخذوا على غرة وفوجئوا بالكارثة، فمنهم من أقعد من شدة الصدمة، ومنهم من لم يقو سمعه على تحمل الخبر فأصابه صمم، ومنهم من ارتبكت أعصابه فأخذ يهدد الناس بالقتل إن قالوا إن محمداً قد مات!

وأما الذين لم تتعلق قلوبهم برسول الله فقد اتخذوا من وفاته فرصة ليظهروا على حقيقتهم، ويتحللوا مما كانوا قد تعهدوا به، فاشتد المتنبئون فى دعوتهم واستجاب لهم كثير من الذين كانوا يخافون رسول الله فى حياته. ثم خلع جماعة طاعة الله من أصولها وانتكثوا إلى الوثنية الأولى؛ يعلنون أنهم مسلمون، ولكن لا يدفعون ضريبة يسجلون بها ذلهم وخضوعهم لمن يلى الأمر بعد رسول الله! ثم منعوا الزكاة.

هذه كانت حال الجزيرة عندما انتشر النبأ بوفاة النبى عليه السلام، فكانت تركة مثقلة بالمتاعب؛ محفوفة بالمكاره، خطيرة التبعات.

* بين الوفاة والخلافة

فترة رجع فيها المسلمون الذين تولاهم الجزع إلى رشدهم بعد عودة أبى بكر رضى الله عنه من السنح عندما بلغه موت حبيبه وخليله محمد رسول الله، فذهب من فوره إلى منزل النبى ثم كشف عن وجهه الشريف وقبله قبلة الوداع وعيناه تهمى بدمع متفجر من قلب محترق ثم شرع يقول:

«بأبى أنت وأمى يا رسول الله؛ طبت حيا، وطبت ميتا، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء من النبوة فعظمت عن الصفة، وجللت عن البكاء، وخصصت حتى صرت مسلاة، وعممت حتى صرنا فيك سواء، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفذنا عليك ماء الشئون. فأما ما لا نستطيع نفيه عنا فكمد وإدناف يتحالفان، ولا يبرحان، اللهم فأبلغه عنا السلام... إلخ»[(١)].

ثم خرج إلى الناس فوجدهم فى غمراتهم يتدافعون، وعمر بن الخطاب على حال من الاضطراب لا تطاق، وقد وقف ينذر الناس إن أذاعوا أن محمداً قد مات. فتقدم أبو بكر إلى الجماهير التى يخاطبها عمر ثم قال: «أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت. ثم تلا قوله تعالى:

---

(١) الفتح الإسلامى - والإسلام السياسى.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. فلما سمع عمر هذه الآية خر إلى الأرض ما تحمله رجلاه؛ وأيقن أن رسول الله قد مات حقا. ووجم الناس لما رأوا ولما سمعوا وأقاموا فى ذهولهم لا يدرون ما يصنعون.

*** مؤتمر السقيفة**

انتقل عليه السلام إلى الرفيق الأعلى فى يوم الإثنين ١٣ من ربيع الأول سنة ١١ هـ (٨ من يونيه سنة ٦٣٢ م) دون أن يترك للمسلمين من بعده نصًا صريحًا على نظام يلتزمونه فى ولاية الأمر بعد وفاته. فليس فى القرآن ما يشير إلى شىء من ذلك تفصيلاً أو إجمالا؛ بالرغم من أهمية هذا الأمر وخطورته عند المسلمين.

وتحدثنا مراجع التاريخ بأن رسول الله أحس بدنو أجله فى مرضه الأخير فجلس بين أصحابه معصوب الرأس يحدثهم فى أمر الموت وهم يسألونه عن طريقة الغسل والتكفين والدفن(١). ولا شك أن موضوع ولاية أمر المسلمين كان من الأهمية بحيث يخطر على بال كثير من المفكرين أن يستوضح رسول الله عن تفصيلاته حتى لا يقع المسلمون فى حيرة وارتباك.

هناك سؤالان يجولان فى خاطر الباحث لهذه الحقبة من التاريخ، هما:

الأول: لماذا لم يضع رسول الله قواعد ثابتة لطريقة الحكم من بعده، مع علمه بخطورة هذا الأمر وشدة حاجة أصحابه إليه؟

والثانى: لماذا لم يسارع المقربون من النبى عليه السلام - وبصفة خاصة الهاشميون - إلى سؤاله عن هذا الأمر حتى لا يكون بين المسلمين فتنة أو خلاف؟.

لعل رسول الله لم يترك بيان هذا الأمر إلا لحكمة؛ ولعل هذه الحكمة هى علمه أن أنظمة الحكم دائمًا تستمد من البيئة الى تعيش فيها المجموعة. والبيئة دائمًا تتأثر بالزمن وتختلف باختلاف المؤثرات الطبيعية والاجتماعية والدينية، والمفروض فى الحاكم، ونوع الحكومة أن يسايرا الزمن، ويُنتزعا من مقومات البيئة.

فإذا شرح القرآن طريقة الحكم، أو أشار رسول الله إلى النوع الذى يجب التزامه فى حكم المسلمين لتقيد المسلمون بحرفيته، وفى ذلك ما يمنع الدولة الإسلامية من

---

(١) بقية الجزء الثانى من تاريخ ابن خلدون صـ ٦٢، وابن الأثير جـ ٢ صـ ٢١١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مسايرة الزمن، والنزول على مقتضياته؛ وخاصة بعد أن دخلت فى الإسلام شعوب غير عربية لها مقوماتها ونظمها، اكتفى رسول الله بذكر الأسس التى ينبغى أن يقوم عليها حكم المسلمين ليكون صالحًا لكل زمان، ومكان.

وهذه الأسس تناولها القرآن الكريم بالذكر والتوضيح فجعل أركان الحكم فى ثلاثة أمور يجب أن تكون دائمًا نصب عين الحاكمين والمحكومين وهى:

الأمر الأول: عدالة الحاكم؛ وإليها الإشارة فى قوله تعالى ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾ [النساء: ٥٨].

والأمر الثانى: هو الطاعة من المحكومين للحاكم؛ نزولاً على الإشارة فى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ [النساء: ٥٩].

والأمر الثالث: هو المشاورة، وهو أمر ضرورى لتكون العلاقة بين الحاكم والمحكوم أساسها المودة والإخلاص. والمشاورة تكون فى كل ما يعود على المجموعة بالخير والسعادة. قال تعالى فى وصف المسلمين الخلّص: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ**﴾ [الشورى: ٣٨] كما قال تعالى لنبيه ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أما وظيفة الحاكم وألقابه، ونزعته السياسة، والدينية، ونوع الحكومة فهذه أمور تتغير بتغير الزمن والبيئة، ولا تضر شيئًا فى العقيدة والدين، ما دامت قد توفرت فى نوع الحكم الأسس المشروعة وهى العدالة، والطاعة، والشورى.

لعل هذه الاعتبارات هى التى منعت النبى عليه السلام من تناوله هذا الأمر بالشرح والتفصيل.

أما لماذا لم يستوضحه أصحابه طريقة الحكم بعده؛ فإننا نعلم أن هذا الأمر كان يجول فى خاطر جماعة من أصحاب النبى – وخاصة المقربين إليه – مثل على والعباس(١).

ولكنهم أحجموا عن سؤاله؛ خشية أن يجعل هذا الأمر لغيرهم فتكون حجة عليهم واضحة؛ فاكتفوا بأنهم آل بيته، وأقرب الناس إليه. ولقد ورد فى بعض المراجع التاريخية أن أبابكر قال: سألت رسول الله عن هذا الأمر (يعنى الخلافة) فأجابه ﷺ: «**يا**

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٢ صـ ٢١٧، وصحيح البخارى جـ ٣ صـ ٤١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أبا بكر: هو لمن يرغب عنه لا لمن يجاحش عليه، ولمن يتضاءل عنه لا لمن يتنفج إليه، هو لمن يقال له: هو لك، لا لمن يقول: هو لي(١) »، فكان جواب رسول الله لأبي بكر غير معين لشخص الخليفة من بعده، ولم ينص على منهج بالذات حتى لا يلتزم المسلمون طريقة بعينها قد لا تساير الزمن ولا تتفق مع مقتضيات البيئة.

* الأنصار ورأيهم في الخلافة

ومن أجل ذلك أصبح موضوع الخلافة بعد موت رسول الله مجال التفكير والرأي، فقد اجتمع الأنصار عقب وفاة النبي عليه السلام في سقيفة بني ساعدة يقلبون الأمر على وجوهه، وكان سعد بن عبادة زعيم الخزرج مريضًا في بيته فأخرجوه إليهم ليكون صاحب الرأي فيهم، ثم تكلم سعد بعد أن حمد الله وأثنى عليه فقال: «يا معشر الأنصار إن لكم لسابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب. وإن محمداً عليه السلام لبث في قومه بضع عشرة سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان؛ فما آمن به من قومه إلا قليل، وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ولا أن يعزوا دينه، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم حينما آمنوا به. فلما أراد لكم ربكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة، وخصكم بالنعمة فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله، والمنع له ولأصحابه، والإعزاز له ولدينه والجهاد لأعدائه، فكنتم أشد الناس على عدوه؛ حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا وكرهًا، وأعطى البعيد المقادة صاغراً داخراً، وحتى أثخن الله عز وجل لرسوله بكم الأرض، ودانت بأسيافكم له العرب، وتوفاه الله، وهو عنكم راضٍ، وبكم قرير العين، فاستبدوا بهذا الأمر دون الناس فإنه لكم دونهم»(٢).

قال سعد هذه المقالة فلم تؤثر في القوم كما كان يود، ولم تحملهم على الإسراع لمبايعته، بل جاملوه بكلمات الاستحسان من ألسنتهم فقالوا له: «وفقت في الرأي، وأصبت في القول، ولن نعدو ما رأيت، نوليك هذا الأمر فإنك فينا مقنع، ولصالح المؤمنين رضا».

ثم أخذوا يراجعون أنفسهم فيما ينبغي أن يكون. ودار الجدل مرة أخرى دون أن يحاول أحد مبايعة سعد بن عبادة، فقال قائل منهم «فإن أبت مهاجرة قريش فقالوا

---

(١) صبح الأعشى جـ ١ صـ ٢٤٠، والإسلام السياسي صـ ٢٥٠.

(٢) ابن الأثير جـ ٢ صـ ٢٢٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون، فعلام تنازعوننا هذا الأمر بعده؟» فإنا نقول «منا أمير، ومنكم أمير، ولن نرضى بدون هذا الأمر أبداً»(١).

* أول الوهن

يبدو من جو المناقشات التى دارت فى السقيفة – قبل حضور المهاجرين – أن القوم كانوا بين أمرين؛ إما أن يكونوا غير مؤمنين بأنهم أهل لهذا الأمر دون المهاجرين، وإما أن تكون أذهانهم اتجهت إلى العصبية الأولى. فليس يصح فى أذهان الأوس أن تكون الزعامة عليهم للخزرج.

وأياً ما كان الأمر فمما لا شك فيه أنه كانت هناك عوامل نفسية حالت دون مسارعتهم فى مبايعة سعد بن عبادة؛ ولذلك قدروا احتمال دعوى المهاجرين الحق فى هذا الأمر فى غيبتهم وأعدوا الجواب على ما عساه يوجه إليهم، وهو: منا أمير ومنكم أمير؛ ولذلك أدرك سعد بن عبادة أن القوم ليسوا على قلب رجل واحد، فقال عندما سمع هذا الاقتراح قولته المشهورة: «هذا أول الوهن».

وبينما الأنصار فى حوارهم إذ وصلت الأخبار إلى عمر بن الخطاب فأخبر أبا بكر واستحثه على الإسراع، واجتمع معهما أبو عبيدة بن الجراح، وذهب ثلاثتهم إلى سقيفة بنى ساعدة فوجدوا القوم لا يزالون فى جدال ومناقشة؛ لم يبايعوا سعدا ولم يقطعوا فى ولاية الأمر برأى؛ ودهش الأنصار حين رأوهم فأمسكوا عن الكلام. فلما اطمأن المجلس بالمهاجرين خرج الأنصار من صمتهم؛ وأظهروا حرصهم على أن يكون هذا الأمر لهم.

* أسلوب أبى بكر فى استمالة الخصوم

وهنا أراد عمر أن يتكلم فمنعه أبو بكر خشية أن يشتد على الناس فيفلت زمام الأمور من يد الحكمة فتندلع الفتنة بين المسلمين، ثم ابتدأ أبو بكر الكلام فقال بعد حمد الله والثناء على رسوله: «عظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه، والإيمان به، والمؤاساة له، والصبر معه على شدة الأذى من قومهم، وتكذيبهم إياهم، وكل الناس مخالف لهم زار عليهم، فلم يستوحشوا لقلة عددهم، وشنف(٢) الناس لهم، وإجماع قومهم عليهم، فهم أول من

---

(١) ابن الأثير جـ ٢ صـ ٢٢٢.

(٢) أى بغضهم للمهاجرين

شبكة الألوكة - قسم الكتب

عبد الله فى الأرض، وآمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ولا ينازعهم فى ذلك إلا ظالم . . . وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم فى الدين، ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام، رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم. فنحن الأمراء وأنتم الوزراء؛ لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور».

ولم يكد أبو بكر رضى الله عنه يتم حديثه حتى وقع من نفوس القوم مواقع مختلفة؛ فوجد فيه طلاب الشركة فى الحكم ما يرضى رغبتهم بعد تصريح أبى بكر بقوله: «فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تُفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور» وابتدأت تميل إلى رأى أبى بكر جبهة من المجتمعين بفضل أسلوبه ومنهجه فى الحاضرين.

* العوامل النفسية فى سقيفة بنى ساعدة

بينما كان يخيل للناظر أن الأنصار المجتمعين فى سقيفة بنى ساعدة يجمعهم غرض واحد، وهدف يعملون للوصول إليه جميعًا، كانت هناك عوامل نفسية تفعل فعلها فى الموقف، وتوجهه لصالح المهاجرين من غير قصد أو تدبير. من هذه العوامل إحساس بشير بن سعد – وهو من كبار الخزرجيين – بأن هذا الأمر ليس لأحد من الأنصار وأن سعد بن عبادة غير مصيب فى حرصه على الدعوة لنفسه.

أما فريق الأوس فكانوا فى موقف محير، لا يدرون ما يصنعون، وكثر بينهم الهمس والمشاورة حتى إذا تكلم أبو بكر انفتحت أمام عيونهم الآفاق ووجدوا مخرجا من الضيق الذى لازمهم طويلاً. فلعلهم كانوا لا يستسيغون أن يسلموا هذا الأمر للخزرج، ويدينوا لهم بالطاعة، ولم يكونوا يستسيغون أيضًا أن يعلنوا رفضهم لما عرضه عليهم الخزرج قبل مجىء أبى بكر وزميليه.

وأما الحباب بن المنذر فكان يعمل جاهداً على أن يكون هذا الأمر للأنصار مهما كلفه ذلك.

هذه التيارات الخفية والاتجاهات، كمنت فى نفوس أصحابها فى أول الأمر، ولم تظهر إلا عندما احتدم الجدل بين المهاجرين والأنصار عقب خطبة أبى بكر الأولى.

فانطلقت ألسنة القوم بما تكنُّ صدورهم من آراء واتجاهات، وسمع أبو بكر أحد

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الأنصار يقول: «أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا، وقد دفت دافة من قومكم، وإذا هم يريدون أن يختزلونا من أهلنا ويغصبونا الأمر».

فاضطر أبو أبكر أن يخطب القوم ثانية ويثنى عليهم، ويمدحهم ويعترف لهم بالنصرة، والمؤازرة، ثم قارن بين المهاجرين والأنصار، وذكر أن الله قدم المهاجرين على الأنصار فى القرآن، ثم قال: إن العرب لا تدين إلا لهذا الحى من قريش، فمنا الأمراء ومنكم الوزراء.

ولكن الحباب بن المنذر وقف بين القوم مدفوعًا بالحماسة والشدة يطلب الأمر للأنصار، فإن لم يكن ذلك فلا أقل من أن يكون من هؤلاء أمير ومن هؤلاء أمير.

هذا الكلام لم يكن ليسكت عند سماعه عمر بن الخطاب، فاندفع يفند رأى الحباب بن المنذر بقوله: «هيهات! لا يجتمع اثنان فى قرن، والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم...» إلخ.

ثم طال الجدل بين الحباب وعمر حتى كاد يصل إلى حد المشادة باليد والسيف لولا أن تدخل أبو عبيدة بن الجراح موجهًا الكلام إلى أهل المدينة: «يا معشر الأنصار كنتم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من بدل وغير».

أثارت كلمة أبى عبيدة فى نفس بشير بن سعد ما كان يكنه من هواجس وأفكار كانت تجول فى خاطره فقال كلامًا جاء فيه: (ألا إن محمداً ﷺ من قريش، وقومه أحق به وأولى. وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبداً، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم)[١].

* البيعة الخاصة

كانت كلمة بشير بن سعد، مفتاح المغلق من أمر القوم. فقد لاحظ أبو بكر بعدها أنها صادفت هوى فى نفوس بعض الخزرجيين، وانشرح الأوس لها كل الانشراح، فراحوا يهمس بعضهم فى أذن بعض؛ وأدرك أبو بكر رضى الله عنه أن الحكمة كلها فى سرعة البت فى الموضوع، وكان إذ ذاك جالسًا بين عمر وأبى عبيدة فأخذ بيد كل منهما وقال للأنصار: «هذا عمر، وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا»[٢].

(١، ٢) ابن الأثير جـ ٢ صـ ٢٢٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ومرت على المجتمعين فترة من الصمت الشديد رجع فيها كل امرئ منهم إلى نفسه يقارن بين المرشحين لهذا الأمر.

ولم يقطع سلسلة الصوت الرهيب إلا صوت عمر بن الخطاب قائلاً لأبى بكر رضى الله عنه: «ابسط يدك يا أبا بكر»، ثم قبض على تلك اليد، وهو يقول: «ألم يأمر النبى بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين؟ فأنت خليفة الله، ونحن نبايعك لنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعًا».

وتلاه أبو عبيدة، ووضع يده فى يد أبى بكر مرددًا هذه العبارة «إنك أفضل المهاجرين، وثانى اثنين إذ هما فى الغار، وخليفة رسول الله على الصلاة، أفضل دين المسلمين، فمن ذا ينبغى أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك؟».

ثم أسرع بشير بن سعد وبايع أبا بكر أيضًا، وتقدم بعده أسيد بن حضير زعيم الأوس لمبايعة أبى بكر.

وتتابع الناس من الأوس والخزرج يبايعون الخليفة الجديد فى تحمس وإصرار.

وهنا نجد أن بعض المؤرخين يصور سعد بن عبادة بصور الثائر الخارج الذى لم يبايع أبا بكر ولم يتابع أصحابه؛ حتى كان لا يصلى بصلاتهم، وإذا حج لا يفيض بإفاضتهم، وظل هكذا إلى أن مات أبو بكر رضى الله عنه! وقالوا مثل ذلك أو قريبًا منه فى على بن أبى طالب، ولكن الشواهد التى تنتزع من صفات على، وسعد - وصدقتها تصرفات الرجلين - تدل على أن هذه الروايات وضعت فى عهد العباسيين لغايات سياسية، وبعضهم يقول: إنها وضعت قبل ذلك عندما اختلف بنو أمية، وبنو هاشم فى حرب على ومعاوية(١).

والدليل على أن هذه الروايات تجافى الحقيقة فى روحها ودوافعها أن الذين أبرزوا سورة الغضب على ألسنة المتخلفين عن البيعة، وصاغوا عبارات صدرت منهم تنذر بالويل والثبور، وتهدد بالثورة العارمة ضد الخليفة.

هؤلاء جميعًا على اختلاف أغراضهم لم يذكروا أن واحدًا من بنى هاشم أو من غيرهم حاول أن يثير فتنة(٢) أو يعلن سخطه على الخليفة ليحرض الناس على

---

(١) الصديق أبو بكر صـ٧٦، ٨٧.

(٢) المرجع السابق صـ٧٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عصيانه. فبماذا تفسر إذاً مظاهر التخلف عن البيعة لبعض كبار المهاجرين والأنصار؟ لا شك أنها حرية الرأى التى تهدف للصالح العام بحيث لا يمتنع عن التعاون مع الخليفة الذى لم يبايعه فى سبيل الهدف العام؛ وهو العمل على حماية الدولة ونشر الإسلام.

* البيعة العامة

كان اليوم قد انتهى وأرخى الليل سدوله؛ والمسلمون قد شُغلت قلوبهم بجثمان رسول الله وأصبحوا يتلقفون أخبار السقيفة ليعلموا ما تم فى مصير المسلمين. فما كاد النهار ينتصف حتى أتى أبو بكر وعمر إلى المسجد، وقام عمر يعتذر عما فرط منه بالأمس من إنكار موت رسول الله عليه السلام ثم قال: «إن الله قد أبقى فيكم كتابه الذى هدى به رسوله، فإن اعتصمتم به هداكم كما هداه به، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم: صاحب رسول الله ﷺ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار فقوموا فبايعوا).

فبايع الحاضرون جميعاً أبا بكر بالخلافة، ومنذ تلك اللحظة أصبح أبو بكر خليفة للمسلمين غير منازع.

* البرنامج السياسى لأبى بكر

وقف أبو بكر رضى الله عنه بين جموع المسلمين ليبين لهم منهاجه فى سياستهم فخطب هذه الخطبة المشهورة: «أما بعد، أيها الناس: فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم؛ قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»(١).

هذه هى الخطبة الأولى التى رسم فيها خطته وبين للناس فيها منهاجه على الطريقة العربية البسيطة، فلم يجعل لنفسه ميزة اكتسبها من المنصب الجديد ولم يتخذ من جلال الخلافة ما يجعل شخصه بعيداً عن النقد والمؤاخذة؛ بل جعل نفسه مسئولاً عن تطبيق العدل بين المسلمين، وتحمل تبعات جسام، دفعه إليها الحرص على كيان

---

(١) ابن الأثير جـ ٢ صـ ٢٢٤، ٢٢٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الدعوة، والمحافظة على تراث رسول الله عليه السلام، وجعل من المسلمين مشرفين على الخليفة، ووضع أعماله تحت رقابتهم، حتى يمدوه بالإرشاد، والمشورة فى كل كبير من الأمر وصغير.

* المتخلفون عن البيعة

وأما ما كان عليه أبو بكر رضى الله عنه من تقوى وورع وحب للخير وما امتاز به من صحبة رسول الله، وما كان له من ماضٍ حافل بالتضحيات الجسيمة فى سبيل الدعوة الإسلامية وصاحبها عليه الصلاة والسلام، وما كان له من مرشحات السن، ومرجحات الأسبقية والصحبة، وتقديم النبى له فى الصلاة.

كل ذلك لم يجعل بيعته إجماعية كما كان يتصور جميع المنصفين والمتصلين بأبى بكر، بل تخلف عن مبايعته جماعة، عدهم اليعقوبى فبلغوا عشرة رجال من الأنصار والمهاجرين.

وواضح أن الذين تخلفوا من الأنصار كانوا يجاملون سعد بن عبادة، وكذلك الذين تخلفوا من المهاجرين كانوا قد تخلفوا حتى يُبايع على بن أبى طالب رضى الله عنه، وهؤلاء المتخلفون كانوا من الشخصيات البارزة منهم العباس بن عبد المطلب، والفضل ابن العباس، والزبير بن العوام، وخالد بن سعيد، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسى، وأبو ذر الغفارى، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأبى بن كعب.

وجميع هؤلاء قد بايعوا أبا بكر فيما بعد، ولم يذكر التاريخ آثاراً ترتبت على تخلف أحد منهم ما عدا العباس بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب؛ فإن كتب التاريخ ملأى بما دار حول مبايعة على لأبى بكر من روايات وأخبار.

ويدور خلاف كبير بين المؤرخين فى أمر على بن أبى طالب وعمه العباس، وتصطدم الروايات بعضها ببعض فى هذا الموضوع، وترجع كلها إلى رأيين متناقضين هما: هل بادر على إلى البيعة؛ أم تخلف إلى حين؟

ويعتمد الرأى الأول على ما روى من أن عليا رضى الله عنه حين سمع ببيعة أبى بكر خرج بقميص ما عليه إزار ولا رداء عجلاً حتى بايعه، ثم استدعى إزاره ورداه فتجلله ولزم مجلسه. ثم يؤيدها أيضاً رواية أخرى تقول: إن أبا بكر صعد المنبر عقب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

البيعة فنظر فى وجوه القوم فلم ير الزبير بن العوام فدعا به فجاء فقال: ابن عمة رسول الله ﷺ وحواريه، أردت أن تشق عصا المسلمين؟ فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله، فقام فبايعه، ثم نظر فى وجوه القوم فلم ير عليًّا فدعا به فجاء فقال له: ابن عم رسول الله ﷺ وختنه على ابنته، أردت أن تشق عصا المسلمين؟ فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله، فقام فبايعه.

وأما روايات تخلف على عن البيعة فتختلف فى المدة التى مرت عليه دون أن يبايع. فتذكر رواية أنه تخلف أربعين يومًا، وأن أبا بكر أرسل إليه والمتخلفين معه ليحملهم على البيعة أو يضرم النار فى ديارهم: وهناك روايات أخرى يغلب على الظن أنها من وضع الشيعة فى أيام الأمويين والعباسيين ليستدروا عطف الناس على العلويين بإظهار على فى مظهر المغصوب منه حقه. فقالوا: إنه لم يبايع إلا بعد ستة أشهر من تولية أبى بكر، بل زادوا فى المبالغة حتى ذكروا أن عليًا كرم الله وجهه قد ذهب إلى فاطمة بنت رسول الله وأخرجها من دارها فحملها على دابة وصار يطوف بها ليلاً على مجالس الأنصار لتسألهم النصرة!! إلخ ما روى من الأخبار التى لا تتفق مع ما عرف عن على من كرامة وعن فاطمة الزهراء من الحرمة.

وإن دارسى عقلية القوم فى هذه الفترة، وما كانوا عليه من كمال فى الدين ومتانة فى الخلق يستبعد بل يستنكر أن عليًا رضى الله عنه كان من المتخلفين عمداً عن البيعة وإلا لم يكن هناك داع يدعوه لمعاونة أبى بكر فى دفع عدوان المرتدين حين أغاروا على المدينة فى بداية عهد الخليفة الجديد.

* أصابع الأمويين بين أبى بكر وبنى هاشم

بويع أبو بكر - رضى الله عنه - وأبو سفيان غائب عن المدينة، فلما علم باجتماع الناس على أبى بكر أقبل وهو يقول: والله إنى لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم. يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم؟ أين المستضعفان؟ أين الأذلان على والعباس؟ وأنشد يتمثل:

ولا يقيم على ضيم يراد به ... إلا الأذلان غير الحى والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته ... وذا يُشَج فلا يرثى له أحد

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وإنا لنجد فى رد على - كرم الله وجهه - على أبى سفيان ما يؤيد أنه لم يتأخر عن البيعة، كما أنه لم يكن على استعداد لسماع الوشاية فى أبى بكر حيث قال: « يا أبا سفيان، طالما عاديت الإسلام وأهله فلم تضره بذلك شيئًا، إنى وجدت أبا بكر لها أهلاً».

وخلاصة القول إن كل الروايات التى تضاربت فى أمر المتخلفين عن بيعة أبى بكر، وترددت فى أسباب التخلف أجمعت على أن أبا بكر أصبح - منذ بويع - خليفة للمسلمين ولم يحاول أحد الذين تخلفوا عن بيعته أن يشق عصا الطاعة بالخروج عليه. واعترف المؤيدون والمعارضون بأنه أول خلفاء المسلمين.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الخليفة الأول

أبو بكر الصديق

* فمن هو الخليفة الأول؟

هو عبد الله بن أبى قحافة عثمان، بن عامر، بن كعب، بن سعد، بن تيم، بن مرة التميمى. كان يسمى فى الجاهلية «عبد الكعبة، فسماه الرسول «عبد الله» ولقب عتيقًا، و «الصديق» لأنه بادر إلى تصديق الرسول، وخاصة فى صبيحة الإسراء، ويقال: إنه كنى بأبى بكر لتبكيره إلى الإسلام.

* ماضيه فى الجاهلية

ولد بمكة بعد حادث الفيل بعامين، ونشأ على أحسن حال بين قومه، فكان رضىّ الخلق، رقيق الطبع، رزينًا لا يغلبه الهوى، ولا تملكه الشهوة، لم يشرب الخمر فى جاهلية ولا إسلام، ويقول عنه ابن هشام: «كان أبو بكر رجلاً مألفًا لقومه، محببًا سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق، ومعروف. وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه، وتجاربه، وحسن مجالسته».

وقد انعقدت الصلة بينه وبين رسول الله عليه السلام قبل البعثة بزمن طويل؛ لاتحادهما فى المشرب، وتقاربهما فى الأخلاق والعادات، وأيضًا لعلاقة الجوار التى وجدت بينهما بعد زواج رسول الله من خديجة حيث كانت تقيم فى الحى الذى يعيش فيه أبو بكر.

* ماضيه فى الإسلام

كان للصفات التى عُرف بها أبو بكر، رضى الله عنه، أثر كبير جداً فى محبة الناس له، وتأثرهم به. ولذلك أسلم بإسلامه عدد كبير من الصحابة ثقة فيه، واقتداء به. وظل أبو بكر من يوم أن دخل فى الإسلام يبذل فيه جهده وماله ونفسه حتى أبلى بلاءً حسنًا قل أن يكون لأحد غيره؛ ولازم رسول الله عليه السلام فى عسره، ويسره، وشدته، ورخائه، وباع نفسه لله فداء لرسول الله.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ولذلك اختاره النبى عليه السلام موضعًا لسره، ومكانًا لنجواه؛ فكان عليه السلام يقول: «**لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صحبة، وإخاء، وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده**».

* حاضره فى الخلافة

أما حاضره فى الخلافة فقد صار إليه الأمر، والأرض قد اضطرمت بنار الفتنة، والإسلام يتقلص ظله، وينكمش بساطه من أطراف الجزيرة، وانتقض أمر المسلمين بعد موت رسول الله بما شاع فيهم من فتن، وبما ظهر بينهم من دعاة النبوة، وانتكث الناس فى عقائدهم، ونشطت حركات الردة فى غير مكان من الجزيرة.

أمام هذه الأحداث، وجد أبو بكر نفسه مضطراً أن يقاوم هذه الحركات ليتم ما بدأه رسول الله عليه السلام. فكان عليه أن ينفذ جيش أسامة أولا، ثم يحارب المتنبئين والمرتدين، ويضرب على أيدى الثائرين فى كل مكان.

* جثمان رسول الله عليه الصلاة والسلام

تبدلت الأمور وتغير شكل الدولة الإسلامية، ومرت الأحداث سراعًا ووضع حد للنزاع بين المهاجرين والأنصار، ونفض الأنصار أيديهم من الخلافة إلى الأبد باختيار أبى بكر خليفة.

كل هذا وجثمان رسول الله عليه السلام لا يزال فى بيت عائشة، قد شُغل المسلمون عن دفنه بما كان بين المهاجرين والأنصار من تقرير مصير الدولة التى تركها عليه الصلاة والسلام. فكان من الطبيعى – وقد استراح الناس إلى اختيار أبى بكر خليفة – أن يفكروا – ومعهم خليفتهم – فى أمر جثمان النبى الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

وكان أبو بكر رضى الله عنه حين ذهب إلى سقيفة بنى ساعدة قد ترك عليًا، والعباس، والفضل وقثم ابنى العباس، وأسامة بن زيد يتولون تجهيز النبى عليه السلام، فلما فرغوا من تجهيزه وضعوه على سريره فى بيت عائشة رضى الله عنها، واختلفوا فى موضع دفنه: أيدفن فى مسجده، أو فى بيته؟ فلما عاد أبو بكر من مؤتمر السقيفة قال لهم: «إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما قبض نبى إلا دفن حيث قبض» فرفع فراشه الذى قبض عليه وحفر له تحته، ودخل الناس أفواجًا للصلاة على رسول الله: الرجال ثم العبيد؛ لا يؤم أحدهم أحداً.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثم دفن عليه الصلاة والسلام فى منتصف ليلة الأربعاء لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من العام الحادى عشر للهجرة. فكانت مدة إقامته عليه السلام بالمدينة عشرة أعوام كاملة، وعاش ثلاثة وستين عامًا، ثم اختار جوار ربه بعد أن بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وترك من بعده رجالاً قد اهتدوا بهديه، ونسجوا على منواله.

*** جيش أسامة**

تسلم أبو بكر زمام الأمور، وسفينة الإسلام قد اضطربت فى محيط الخطوب، وبحار الفتن، فأصبحت الجزيرة بين متنبئ قد التف حوله أتباع وأنصار، وبين مرتد قد تنكر لمبادئ الإسلام، وصار المسلمون إزاء هذه الفتن بعد موت رسول الله كالشياه العجفاوات فى الليلة المطيرة. وكان النبى عليه السلام قد أعد جيش أسامة بن زيد لغزو بلاد الروم، فرأى أبو بكر رضى الله عنه أن ينفذ أمر رسول الله بإيفاد جيش أسامة فصدرت الأوامر من أبى بكر إلى أسامة بالتوجه إلى بلاد الشام فخرج بمن معه من المسلمين حتى وصل إلى «الجرف» على بعد ثلاثة أميال من المدينة فى طريق الشام.

وهناك شعر أسامة بخطورة الموقف إن ترك المدينة وحدها من غير حامية فأرسل إلى أبى بكر يستأذنه فى الرجوع بالجيش قائلاً: «إن معى وجوه الناس وجلتهم، ولا آمن على خليفة رسول الله وحرم رسول الله والمسلمين أن يتخطفهم المشركون». ثم اقترح الأنصار على أبى بكر - إذا هو صمم على إنفاذ الجيش - أن يولى عليه رجلاً أسن من أسامة الذى كانت سنه إذ ذاك ثمانية عشر عامًا.

حمل عمر رسالة أسامة، ورسالة الأنصار إلى أبى بكر. فلما عرض عليه فكرة تخلف الجيش قال: «والله لو خطفتنى الكلاب والذئاب لأنفذته كما أمر به رسول الله، ولا أرد قضاء قضى به رسول الله؛ ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته»(١).

فلما عرض عليه عمر أن الأنصار يطلبون رجلاً أسن من أسامة، وثب من مكانه -وكان جالسًا- وأخذ بلحية عمر وقال: «ثكلتك أمك يا ابن الخطاب! استعمله رسول الله وتأمرنى أن أعزله؟!». ثم خرج حتى وصل إلى مكان الجيش ماشيًا على قدميه وشيع أسامة إلى وجهته وزوده بنصائح قيمة تعتبر فريدة فى بابها، ومُثلاً عليا فى أغراضها، حيث قال: «أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى: لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا

---

(١) ابن الأثير جـ ٢ صـ ٢٢٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا أو تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بقرة، ولا بعيرًا إلا لمأكله، وسوف تمرون بقوم قد فرّغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقًا. فإذا قرب إليكم الطعام فاذكروا اسم الله عليه وكلوا. يا أسامة: اصنع ما أمرك به نبى الله ببلاد قضاعة ولا تقصر فى شىء من أمر رسول الله».

وهناك فى أرض الشام أوقع أسامة بقبائل قضاعة الذين ارتدوا عن الإسلام وغنم منهم مغانم كثيرة ثم عاد بعد أربعين يومًا من توديع أبى بكر له فى بعض الروايات.

ويعتبر تسيير جيش أسامة إلى الشام من الأعمال السياسية الجبارة التى أفادت المسلمين والإسلام فائدة بعيدة الأثر، حيث ألقى الرعب فى قلوب العرب جميعًا؛ فحبطت مؤامرات كثيرة كان قد دبرها خصوم المسلمين؛ لأنهم فهموا أن المسلمين لو لم يكن بهم قوة كامنة فى المدينة لما أرسلوا هذا الجيش فى هذا الوقت إلى بلاد الشام؛ فرجعوا عما يريدونه من شر بالمسلمين.

*** ردة العرب**

شمل الإسلام كل أنحاء الجزيرة بعد فتح مكة، ولم يجد العرب الذين لم يدخلوا فى الإسلام بدًا من الذهاب إلى رسول الله فى المدينة فى العام التاسع الهجرى ليعلنوا إسلامهم، وجلس النبى عليه السلام يستقبل وفود القبائل المختلفة، ويرسل معهم الولاة والعمال، والرسائل إلى الجهات البعيدة، ولكن الخضوع لرسول الله والتسليم بزعامة المدينة كبُر على نفس جماعة من العرب الذين أنفوا من فقد استقلالهم، وضآلة شأنهم، فبيتوا للإسلام شرًا ومكثوا يتحينون الفرصة للتخلص من سلطان المدينة، والتحلل من قيود الإسلام، فكان ذلك بداية حركات الردة عن الدين الجديد وظهرت بوادر هذا الأمر فى حياة النبى عليه السلام فى مواضع مختلفة من الجزيرة، حيث قام فى بنى أسد بالشمال الشرقى لبلاد العرب طليحة بن خويلد الأسدى وادعى النبوة وأعلن خروجه على الإسلام. وكذلك ظهر باليمامة كذابها مسيلمة، وكاتَبَ النبى عليه السلام ليخبره أن الأرض مناصفة بينهما. كما ظهر باليمن الأسود العنسى يدعو بمثل ما كان يدعو به طليحة ومسيلمة.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولكن هذه الحركات أخمدها رسول الله عليه الصلاة والسلام فى حياته، واستراح المسلمون منها، غير أنها خمدت إلى حين؛ فلما انتشر خبر وفاة الرسول صلوات الله عليه استيقظت الأطماع المكبوتة، وارتفعت الأصوات الخافتة بالمبادئ الفاسدة.

*** مظاهر الردة**

اتخذت الحركات الثورية التى رجع فيها العرب عن الإسلام - بعد وفاة رسول الله - مظاهر مختلفة؛ فمنهم من اعترف بالإسلام وأعلن خضوعه لقواعده ولكنه رفض أن يدفع الزكاة وطلب أن يعفى من ذلك ويكتفى بصلاته وصيامه.

وهذا النوع من المرتدين اختلف المسلمون فى أمره ولم يجمعوا على حربه لأنه لازال مسلماً فى نظرهم. وكان رأى الأكثرين من المسلمين أن يُبقوا على صداقة هؤلاء حتى لا ينضموا إلى أعدائهم الكثيرين؛ واشتد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى الدفاع عن هذه الطائفة، ولكن أبا بكر رضى الله عنه أصر على قتالهم وقال: (والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه) وتغلب رأى أبى بكر وحمل المسلمين على قتالهم.

كان هذا شأن القريبين من المدينة من قبائل عبس وذبيان بنوع خاص ثم مالك بن نويرة وجماعة من أتباعه. وهناك طائفة أخرى من المرتدين كانوا سافرين فى ردتهم حيث اتبعوا المتنبئين من قومهم؛ إما تصديقًا لدعوتهم وإما تأييداً لعصبيتهم، وإن كانوا يؤمنون بكذبهم وذلك ما حدث فى بنى أسد وقبائل طيء، وغطفان ومن جاورهم من القبائل الواقعة شرق المدينة، فكانوا يقولون فى شأن طليحة بن خويلد الأسدى ما قاله عيينة بن حصن الفزارى «نبى من الحليفين - يعنى أسداً وغطفان - أحب إلينا من نبى من قريش. وقد مات محمد وطليحة حى»!

وكذلك كان بنو حنيفة مع مسيلمة الكذاب. فقد روى الطبرى[1] عن بعض بنى حنيفة أنه كان يقول «أشهد أن مسيلمة كذاب، ولكن كذاب ربيعة خير من صادق مضر»، ومثل هؤلاء أتباع الأسود العنسى فى بلاد اليمن.

وأما المظهر الثالث فهو مظهر أهل البحرين حيث ارتدوا عن الإسلام إلى ما كانوا عليه من وثنية، ولم يظهر فيهم نبى، كما لم يحاولوا أن يتبعوا متنبئًا من المجاورين.

---

(١) الأمم والملوك للطبرى جـ٣ صـ٢٤٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

* أسباب الردة

درج المؤرخون على ذكر الأسباب التى حملت هؤلاء العرب على نبذ عقيدة الإسلام والتنكر لمبادئه فقالوا: إن موت الرسول عليه السلام كان من الأسباب التى جعلت العرب يأنفون من الخضوع لغيره بعد زوال شخصيته. كما أن شدة تكاليف الإسلام وخاصة تحريم الخمر والميسر، وإبطال الأخذ بالثأر، وتقييد حرية الزواج وفرض الزكاة. كل ذلك جعل الأعراب فى البوادى يعملون على التخلص من هذه القيود.

وكذلك فعلت العصبية العربية فعلها فى حركات الردة عن الإسلام؛ وخاصة فى أبناء القبائل البعيدة عن مكة والمدينة الذين أسلموا بعد فتح مكة، ووجدوا أن الأمر كله بيد المهاجرين؛ وأنه ينبغي أن يكون لهم - هؤلاء القبائل - من الفضل، والذكر، ونباهة الشأن مثل ما لهؤلاء السابقين الأولين.

وهناك سبب آخر من أسباب الردة هو تحريض أكاسرة الفرس وقياصرة الروم، ومن فى حوزتهم من العرب على الخروج عن سلطان المدينة بعد وفاة رسول الله عليه الصلاة والسلام.

هذه هى الأسباب التى يحاول المؤرخون تفصيلها فى صدد الحديث عن ردة العرب - فى أوائل عهد أبى بكر - ولكننا إذا أمعنا النظر فى كل هذه الأسباب، وما عساه يذكر بعد ذلك من أسباب جديدة نجد أنها ترجع كلها إلى سبب واحد هو ضعف الإيمان فى نفوس هؤلاء المرتدين وعدم تغلغل مبادئ الإسلام فى قلوبهم. وضعف الإيمان هذا هو الذى نشأ عنه ما نسميه فى التاريخ «أسباب الردة» فلو آمنت القلوب بالمبادئ التى تلقتها عن رسول الله ما تركتها بعد موته، ولما ثقلت عليهم تكاليفها؛ حتى يحاولوا التخلص من قيودها، وتبعًا لذلك كانت قد قتلت العصبية العربية فى مهدها، وحلت محلها أخوة الدين، وصلات الإسلام. ولما فتحت آذان القوم أمام تحريض الأكاسرة والقياصرة ولذهبت وشاياتهم فى مهب الرياح.

* حروب الردة

ابتدأ أبو بكر - رضى الله عنه - حروب الردة بمقاتلة الفريق الأول الذى منع الزكاة بعد أن أقنع المسلمين بوجوب قتالهم؛ لأنه كان يحس فى نفسه أنه إن أجابهم إلى النزول عن فرض من فروض الدين فسوف تتصل المساومات فى باقى الفروض. وذلك - من غير شك - يفتح أمام المتنبئين - أمثال طليحة ومسيلمة - بابًا لتشكيك المسلمين فيما جاء به رسول الله من عند ربه؛ ثم لا يعدمون أن يجدوا من هذه القبائل

www.alukah.net
شبكة الألوكة

القريبة العهد بالجاهلية آذانًا تصغى لمثل هذه الدعاية، وقلوبًا تميل إلى تصديق هذه الافتراءات.

فبينما كان أسامة فى طريقه إلى تخوم الروم - وأخبار وفاة رسول الله قد سبقته إلى القبائل العربية فى شمال الجزيرة وشمالها الشرقى - رأت قبائل عبس وذبيان، ومن انضم إليهم من بنى كنانة، وغطفان، وفزارة أن الفرصة سانحة للتخلص من فريضة الزكاة التى اعتبروها ضريبة كانت جبايتها خاصة برسول الله! فليس من المستساغ أن يخضعوا لغيره خضوعهم له وخاصة فى هذه الناحية، فتحركت وفود هذه القبائل وأخذوا طريقهم إلى المدينة فنزلوا بالقرب منها، وعسكر جماعة منهم فى «الربذة» وعسكر الآخرون فى «ذى القصة» (على بعد ١٢ ميلاً فى شمال شرقى المدينة) ثم ذهب رؤساء هذه الوفود إلى أبى بكر وطلبوا إليه أن يعفيهم من فريضة الزكاة؛ ما داموا يقيمون بقية الفروض! فردهم أبو بكر ردًا شديدًا وهددهم بالقتال إذا أصروا على منع الزكاة.

ولكن القوم كانوا قد اطلعوا على عورات المدينة وأدركوا مقدار ما فيها من قوة الدفاع بعد مسير جيش أسامة، فصمموا على مهاجمة المدينة حتى يستجيب الخليفة لما طلبوا. وأحس أبو بكر بهذه الحركة فأعد العدة لمهاجمتهم، وباغتهم فى أماكنهم ليلاً، ووضع المسلمون السيف فى رقاب القوم - وهم فى عماية الصبح - فاختلط حابلهم بنابلهم، فما ذر قرن الشمس إلا والعدو قد تمت هزيمته، وتتبع أبو بكر فلول الجيش المنهزم حتى نزل بذى القصة وأجلاهم عن أماكنهم.

وكانت هذه الموقعة الصغيرة ذات نتائج كبيرة جدًا أثرت فيما أعقبها من أحداث؛ حيث برهنت لجميع القبائل المتمردة أن فى استطاعة الخليفة أن يرد عادية المغيرين على المدينة بمن معه من المسلمين رغم قلة عددهم وغياب الجيش المحارب مع أسامة فى بلاد الروم. كذلك أعاد النصر فى هذه الموقعة ثقة المسلمين بأنفسهم وأدخل الطمأنينة فى قلوبهم، كما كان من نتائجها شعور بعض القبائل العربية المحاربة بضعفهم إزاء قوة المسلمين فأقبلوا على المدينة نادمين معلنين استعدادهم لدفع الزكاة صاغرين، ومنهم قبائل من بنى تميم وطيىء الذين كانوا يحاربون فى صفوف عبس وذبيان.

هذه هى المعركة الأولى فى سبيل القضاء على الردة. كان أبو بكر يقاتل فيها بنفسه ومعه عدد قليل من المسلمين؛ معتمدًا على قوة إيمانه وثبات عزيمته. ولم يكن جيش

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أسامة قد رجع من مهمته فى بلاد الشام ولكنه عاد بعد قليل فاستقبله أبو بكر بقلب مفعم بالبشر والفرح حيث أيقن بزوال الخطر الذى كاد أن يقضى على قوة المسلمين فى غيبة الأبطال المجاهدين مع أسامة بن زيد .

وكما سجل أبو بكر صفحة خالدة من المجد والنصر فى ذى القصة كذلك عاد أسامة منصوراً يسوق أمامه قافلة من الغنائم التى أحرزها من بلاد الروم .

* ميادين الحرب فى الجزيرة

أقام أبو بكر فى المدينة أياماً حتى إذا اطمأن إلى أن جيش أسامة قد استراح؛ خرج بجموع المحاربين إلى (ذى القصة) على مسافة اثنى عشر ميلاً فى شمال المدينة الشرقى واتخذها قاعدة حربية، فوزع الجند أحد عشر لواء وجعل على كل لواء أميراً من المهاجرين. وكأنه تعمد أن يبقى الأنصار بالمدينة ليقوموا بأمر الدفاع عنها لأنهم أعلم بأمرها من غيرهم.

وقام أبو بكر بتوزيع الفرق المحاربة إلى الجهات المختلفة بعد دراسات عميقة لكل جندى من جنود المسلمين، وبعد أن توفرت لديه المعلومات الصحيحة عن حالة البلاد الثائرة، ومدى ما هم عليه من قوة معنوية، ومادية؛ فاختار أمهر القواد، وأقوى الجند لأشد الثوار تمرداً وأكثرهم عدداً، وكان دقيقاً كل الدقة فى ملاحظة هذه الناحية. فإن كان القائد الذى وقع الاختيار عليه إلى جهة لا يستطيع القضاء على ردتها بسرعة جعل له مدداً آخر يدركه بعد الفراغ من مهمته الأولى.

كانت ميادين الحرب أحد عشر ميداناً فى الجزيرة تتفاوت المسافة بينها بتفاوت أماكن الثوار فى الأطراف الثائرة، ومع ذلك كان أبو بكر قد ربط كل قائد من قواده إليه بزمام وجعل رقعة الجزيرة حاضرة فى بديهته يتصورها كما يتصور ميدان المعركة قائد لاعب ماهر يتنقل القواد بأمره إلى حيث يصيب الهدف، ويحالفه التوفيق.

* خالد .. عماد حرب الردة

لذلك وجه خالد بن الوليد على رأس اللواء الأول لقتال طليحة بن خويلد فى بنى أسد . فإذا فرغ منه سار إلى مالك بن نويرة زعيم بنى تميم فى البطاح .

وإنما اختار أبو بكر لواء خالد بن الوليد – وهو مكون من زهرة الفتيان المسلمين تحت إمرة أمهر القواد – لحرب بنى أسد، وبنى تميم؛ لأنهم كانوا أقرب القبائل المرتدة

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إلى المدينة فإذا بدأ المسلمون بهزيمتهم فت ذلك فى أعضادهم وقتل الروح المعنوية فى غيرهم. وخالد أجدر القواد بأن يعقد النصر بلوائه.

* عكرمة بن أبى جهل وشرحبيل بن حسنة

جعل أبو بكر لكل منهما لواء، وأمر عكرمة أن يذهب إلى بنى حنيفة فى اليمامة لقتال مسيلمة الكذاب ومن معه؛ ثم جعل شرحبيل بن حسنة مدداً لعكرمة حتى ينتهى من أمر مسيلمة. فإذا انتهى منه اتجه شرحبيل شمالاً إلى بلاد قضاعة ليكون مدداً لعمرو بن العاص هناك.

وعقد أبو بكر اللواء الرابع لـ «المهاجر بن أمية المخزومى» وجعل وجهته إلى اليمن لقتال جنود الأسود العنسى الذين قاموا على مبادئه بعد موته؛ ثم لقتال عمرو بن معدى كرب الزبيدى، وقيس بن مكشوح المرادى ورجالهما؛ فإذا فرغ من هؤلاء قصد إلى كندة وحضرموت لقتال الأشعث بن قيس والمرتدين معه.

وأما اللواء الخامس فكان عليه سويد بن مقرن الأوسى ووجهته تهامة اليمن.

وجعل اللواء السادس للعلاء بن الحضرمى، ووجهه إلى البحرين لقتال الحطم بن ضبيعة أخى بنى قيس بن ثعلبة، والمرتدين معه.

وعقد اللواء السابع لحذيفة بن محصن الغلفانى من حمير ليقوم بالقضاء على لقيط بن مالك الأزدى المتنبى فى عمان، وكان لقيط يُعرف بذى التاج.

وأما اللواء الثامن فقد عُقد لعرفجة بن هرثمة ليذهب إلى مهره فى جنوب الجزيرة.

هذه الألوية الثمانية هى التى جعل أبو بكر هدفها إلى جنوب الجزيرة لشدة بأس أهلها وإلحاحهم فى الردة، وأما شمال بلاد العرب فجعل له الخليفة ألوية ثلاثة. كان على أولها عمرو بن العاص لقتال قضاعة، وعلى الثاني معن بن حاجز السلمى لقتال بنى سليم ومن معهم من هوازن، وعلى الثالث خالد بن سعيد بن العاص لتتبع المرتدين والخارجين فى مشارف الشام.

* ترتيب أبى بكر للعمليات الحربية

لم يكن عقد الألوية، وتعبئة الجيوش هو كل ما صنع أبو بكر رضى الله عنه؛ بل إنه رأى أن يعود إلى المدينة قبل أن تتحرك هذه الجيوش إلى خطتها المرسومة، وجعلها مركزاً للقيادة العامة ليرجع إليه القواد كلما دعت المفاجآت الحربية.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وصدرت الأوامر من القيادة العامة إلى القواد جميعًا بألا ينتقل أحدهم من حرب جماعة تغلب عليها إلى الاشتباك فى حرب مع جماعة أخرى حتى يستأذن الخليفة فى ذلك؛ إذ لا شيء أضمن للفوز فى الحروب من توحيد القيادة، والخضوع لأمر القائد الأعلى، والسرعة فى تنفيذ أوامره.

* الهجوم السلمى

ولم تقف عبقرية الصديق عند قبضه على زمام الجيوش فى ميادينها المختلفة، بل أراد أن يسبق بداية الحرب الفعلية بهجوم سلمى يمهد به للهجوم الحربى حتى لا تكون هناك حجة لأحد إذا جد الجد وتناولتهم السيوف من كل جانب.

فقد أذاع على الناس فى مختلف أنحاء شبه الجزيرة كتابًا تحدث فيه إلى من بلغه هذا الكتاب من خاصة الناس وعامتهم، من أقام منهم على الإسلام أو رجع عنه.

أشار فى هذا الكتاب إلى وفاة الرسول بعد أن بلغ رسالته للناس، ثم أوصاهم بتقوى الله، والاعتصام بدينه، ثم قال: «وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به؛ اغترارًا بالله عز وجل وجهالة لأمره، وإجابة للشيطان». ثم قال: «وإنى قد أنفذت إليكم فلانًا فى جيش من المهاجرين، والأنصار، والتابعين بإحسان، وأمرته ألا يقاتل أحدًا، ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب وأقر وكف وعمل صالحًا قبل منه، وأعانه عليه، ومن أبى، يقاتله عن ذلك، ولا يبقى على أحد منهم قدر عليه، وأن يحرقهم بالنيران، ويقتلهم كل قتلة، ويسبى النساء والذرارى، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، فمن آمن فهو خير له، ومن تركه فلن يعجز الله، وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم، والداعية الأذان. فإذا أذن المسلمون فأذنوا كفوا عنهم، وإن لم يؤذنوا عاجلوهم، وإن أذنوا اسألوهم ما عليهم، فإن أبوا عاجلوهم وإن أقروا قبل منهم، وحملهم على ما ينبغى لهم»(١).

هذه بعض نصوص الكتاب الذى أرسله أبو بكر رضى الله عنه إلى جميع الجهات التى حدثت فيها الردة، أرسله بين يدى الجنود المحاربين ليفكر الناس فى الأمر ويقرروا مصيرهم.

---

(١) الطبرى جـ٧ صـ٢٢٦، ٢٢٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وكما وضح الخليفة للناس خطة جنده فى معاملة المرتدين؛ فإنه زود قواده بنصائح قيمة يلتزمونها فى حربهم، ويسيرون على هداها فيما بينهم وبين عدوهم، فكان من الكلمات التى وجهها إلى كل قائد من قواده، أن أمره «بالجد فى أمر الله، ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان» وأمره «أن لا يرد المسلمين عن قتال عدوهم» وأن «لا يقاتل إلا من كفر بالله ورسوله»، ثم نصحه «بأن لا يدخل فى المسلمين حشوًا حتى يعرفهم، ويعلم ما هم عليه حتى لا يكونوا عيونًا، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم».

ولسنا نعرف أن هذه الجيوش التى عقد ألويتها أبو بكر تحركت من ذى القصة فى وقت واحد أو كانت الأوامر تصدر إلى بعضها بالمسير، وبعضها بالانتظار، ولسنا نعرف كذلك من من القواد الذى صدرت إليه الأوامر بالمسير أولاً، كما أنا لا نعرف تنقلات هذه الجيوش بالضبط فى أنحاء الجزيرة؛ إذ ليس لدينا نصوص ترشدنا إلى ترتيب تلك الحملات، أو تبين أزمان انتقالاتها، أو تاريخ انتصارها فى جولاتها الأولى، أو بدء انهزامها فى مهمتها والظروف التى وصلتها فيها فرقة أخرى لتقوم بنجدتها ضد أعدائها الكثيرين.

وكل ما يعنينا من تلك الروايات هو معرفة كل قائد، والجهة التى كلف بحربها، والقضاء عليها. وليس يسعنا هنا الحديث عن جميع القواد فى جميع الميادين بشىء من التفصيل وإنما يكفينا أن نجمل القول إجمالاً فى تلك الحروب وأن نتناول بالتفصيل بعض هذه الحملات التى اشتهر ذكرها فى التاريخ، وكان لها آثار مهمة فى مجرى حوادث الردة فى أنحاء شبه الجزيرة.

* خالد وطليحة فى بنى أسد

نلاحظ أن الذين ادعوا النبوة فى بلاد العرب فى حياة رسول الله وبعد وفاته لم يحاولوا أن يرجعوا بقومهم إلى الوثنية الأولى؛ لأن رسول الله عليه السلام كان قد قضى على الوثنية قضاءً مبرمًا حتى مجتها العقول وعافتها النفوس وأصبح التفكير فى عبادة الأصنام ضربًا من الهذيان يستحيى منه كل إنسان.

ومن أجل ذلك كان يزعم المتنبئون أنهم يوحى إليهم كما يوحى إلى رسول الله، وأن الملك يأتيهم من السماء بما يحاكى القرآن، ونقل عن هؤلاء صور لما زعموه منزلاً

شبكة الألوكة - قسم الكتب

من السماء بلغت من السخف حداً لا يكاد الإنسان يتصوره، صادراً من رجل قد التف حوله جماعة من العرب يؤيدونه ويدينون له بالطاعة!

كان طليحة بن خويلد الأسدى أحد هؤلاء المتنبئين فى حياة رسول الله، فبعث النبى عليه السلام ضرار بن الأزور لقتاله، والقضاء على أعوانه، وكاد المسلمون ينجحون فى قتال طليحة؛ لولا أن جاءتهم الأنباء بوفاة رسول الله فتزعزعت القلوب، وضعفت شوكة المسلمين، واشتد أمر طليحة بسبب وفاة النبى عليه السلام وقوى جانبه بعامل آخر.

هذا العامل هو أن أبا بكر رضى الله عنه حينما ذهب إلى ذى القصة وهزم جموع عبس وذبيان وبنى بكر ومن آزرهم فى مهاجمة المدينة ورجعت الفلول المشردة بعار الهزيمة انضموا إلى طليحة بن خويلد إمعانًا فى الخصومة لأبى بكر، وتابعهم فى هذا الأمر قبائل طىء، وغطفان، وسليم وكثير من القبائل الذين تقع ديارهم فى شرق المدينة وشمالها الشرقى، وكان أشد هؤلاء جميعاً فى مؤازرة طليحة هو عيينة بن حصن الفزارى من غطفان.

الخطوة الأولى قبل مسير خالد

كان عدى بن حاتم الطائى ممن رجع إلى الإسلام بعد هزيمة قوية فى ذى القصة وحمل الزكاة إلى أبى بكر فى المدينة، فتحدث إليه أبو بكر فى شأن قومه، وبعثه فيهم ليخذلهم عن نصرة طليحة، وليدخلوا مع عدى فى الإسلام حقنًا لدمائهم؛ فنجح عدى بن حاتم فى سفارته كل النجاح، حيث اقتنع الطائيون جميعًا بوجوب ترك طليحة، ودخولهم فى الإسلام.

ورجع عدى ليخبر خالداً بخبر قومه، ثم استمهله أيامًا حتى يقنع قومًا من جديلة بنفس الطريقة التى أقنع بها قبائل طىء، ثم دخلت جديلة فيما دخل فيه عدى وأعلنوا إسلامهم وانضم منهم ومن طىء إلى جيش خالد ألف مقاتل بمجهود عدى بن حاتم.

ومنذ ذلك الحين يذكر المؤرخون عدياً هذا بأنه «خير مولود فى أرض طىء، وأعظمه بركة عليهم».

تحرك خالد بن الوليد بجيوشه بعد تمهيد عدى بن حاتم، وأرسل طليعة أمامه إلى بنى أسد قوم طليحة، ولكن طليحة وأخاه ظفرا بطليعة خالد وقتلا رجالها ففت ذلك

فى قوة المسلمين المعنوية، ولم يقو من عزيمتهم إلا انضمام قبائل طىء إلى صفوفهم، ثم سار خالد بهذه الجموع إلى بزاخة فى أرض بنى أسد فوجد طليحة قد عبأ جيشه وجعل على رأس قواده عيينة بن حصن الفزارى فى سبعمائة محارب من قومه، ومكث طليحة قريبا من المعركة يمد قومه بتنبؤاته.

*** موقعة بزاخة**

دارت رحى الحرب وشرع خالد يذكى وطيسها ويصلى أعداء الله نار السيوف والنبال، وكان عيينة كلما اشتدت الحرب يرجع إلى طليحة يقول له: هل جاءك جبريل؟ فيقول لا فيعود عيينه إلى الحرب، ثم يرجع ليسأل طليحة إلى أن بدت له علامات الهزيمة، ورجحت كفة خالد فمال إلى طليحة غاضباً قال له: لا أبًا لك! أجاءك جبريل؟ فقال: لا، فقال عيينة: حتى متى؟ قد والله بلغ منا، ثم عاد فقاتل قتالاً شديداً..

ثم لما أدركه اليأس كر على طليحة يسأله عن جبريل، فقال نعم جاءنى، فقال عيينة: فماذا قال لك؟ قال: قال لى «إن لك رحى كرحاه، وحديثاً لا تنساه»، فقال عيينة: قد علم الله أنه سيكون حديث لا ننساه، انصرفوا يا بنى فزارة فإنه كذاب، فانصرفوا وانهزم الناس، ولما رأى طليحة نهاية أمره ركب راحلته، وأردف زوجته «النوار» واستعد للهرب، فقال له أتباعه، بماذا تأمرنا؟ فقال، يا معشر فزارة، من استطاع منكم أن يفعل هكذا وينجو بأمرأته فليفعل، ثم لحق بالشام فنزل فى بنى كلب إلى أن بلغه إسلام قومه من بنى أسد وغطفان، فأعلن إسلامه وظل مقيما فى بنى كلب إلى أن توفى أبو بكر، ثم أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فبايعه، وكان لطليحة أعمال باهرة، وجهاد عظيم فى فتوح العراق.

انتشرت جيوش خالد تقضى على المرتدين والهاربين من الدخول فى الإسلام، وأقام على ذلك شهراً فى بزاخة بعد انتهائه من طليحة، قاتل فى أثناء هذا الشهر من بقى من فلول القبائل على ردته، ومن اجتمع حول أم زمل يمالئها على عصيان أبى بكر، ونكل بكل من اعتدى على المسلمين فأحرقهم بالنيران، ورمى بهم من قمم الجبال، ونكسهم فى الآبار، ورضخهم بالحجارة حتى جعلهم عبرة لمن يعتبر، وبعث إلى المدينة بكل من خرجوا على خليفة رسول الله ممن لهم شأن فى قبائلهم مثل: قرة بن هبيرة،

والفجاءة السلمى، وأبى شجرة بن عبدالعزى السلمى -وهو ابن الخنساء المعروفة- فدخلوها أسرى حتى أنفذ أبو بكر فيهم أمره، فعفا عن فريق، ومثل بفريق.

خالد فى البطاح (ديار بنى تميم)

بينما كان خالد بن الوليد يقضى على بقايا الردة فى فلول جيش طليحة، كان بنو تميم فى البطاح قد انقسموا إلى مسلمين ومرتدين، وساءت العلاقة بين الفريقين واستعد كلاهما لحرب الآخر.

وبينما هم على هذه الحال إذ أقبلت عليهم «سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية» راحلة من الجزيرة بالعراق مدعية النبوة! ومعها جماعة من أتباعها من قبيلة تغلب وإياد وشيبان فلما دخلت أرض بنى تميم أعلنت رغبتها فى غزو أبى بكر رضى الله عنه بالمدينة، وأرسلت إلى مالك بن نويرة، تطلب منه الموادعة، فأجابها إلى رغبتها ولكنه صرفها عن المدينة، وأغراها بغزو أحياء من بنى تميم.

فلما قويت شوكتها فى ديار بنى تميم بالبطاح أغرتهم وفيهم مالك بن نويرة بغزو بلاد اليمامة ديار بنى حنيفة، وفى الوقت الذى عزمت فيه على غزو اليمامة، كان شرحبيل بن حسنة الذى أرسل مدداً لعكرمة قد نزل هناك لمحاربة مسيلمة الكذاب، فأصبح مسليمة بين عدوين يريدان حربه والقضاء عليه عندما علم بأن سجاح تريد مهاجمته فرأى أن من الخير له أن يلاين هذه (النبية) ويتفق معها على حرب جنود المسلمين فالتقى بها وأخبرها أن أرض الجزيرة العربية كانت مناصفة بينه وبين قريش، وبما أن قريشاً لم ترض بهذه القسمة فقد جعلت لك النصف الذى كان لقريش! ثم اتفق مسيلمة وسجاح على الزواج وتم ذلك على الصورة المروية فى كتب التاريخ ثم فسدت العلاقة بينهما ورجعت سجاح إلى قومها فى البطاح، ولم يمض على رجوعها إلى قومها غير يسير حتى دهمهم خالد بن الوليد فتفرق جمعها وهربت إلى العراق حيث أقامت فى ديار بنى تغلب وظلت هناك حتى نقل معاوية بن أبى سفيان قبائل بنى تغلب إلى الشام فانتقلت معهم وحسن إسلامها ثم رحلت إلى البصرة حيث قضت بقية حياتها ثم دفنت بها فى بعض الروايات.

خالد ومالك بن نويرة

عادت سجاح إلى العراق من حيث أتت وتركت مالك بن نويرة بين الحيرة والندم بعد أن انكشف أمره فى مؤازرتها والتاثت عليه الأمور؛ لما علم بأن خالد بن الوليد قد

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فرغ من أمر فزارة، وغطفان وأسد وطيء، وسار يريد البطاح[1] فأمر قومه أن يتفرقوا فى ديارهم ويتركوا الأمور تأخذ مجراها الطبيعى، ثم يقرر بعد ذلك مصيرهم من تأييد خالد أو التخلى عن مناصرته فلما قدم خالد دخل ديار مالك بن نويرة فلم يجد هناك من يحاربه وكان للأنصار رأى فى الذهاب مع خالد إلى البطاح أن ينتظروا أمر أمير المؤمنين ولكن خالدا صمم على المسير ومتابعة المرتدين فى كل مكان فنزل الأنصار على رأيه.

بعث خالد سراياه فى بنى تميم وأمرهم أن يؤذنوا فى القوم ليعلموا مقدار استجابتهم للدعوة الإسلامية، فجالت السرايا جولتها بين القبائل التميمية فى البطاح ثم رجعت إحداها ومعها مالك بن نويرة فى المأسورين.

تحدث خالد إلى مالك فى أمر الإسلام وحركة الردة، والزكاة فعلم منه أنه غير مقتنع بالإسلام فأمر بضرب عنقه على رأى بعض المؤرخين، وفى رأى البعض الآخر أنه قال لمن تولى أمر الأسرى التميميين «دافئوا أسراكم»، حيث كانت الليلة شديدة البرد، ولكن بعض الحراس كان من بنى كنانة ففهم أن المقصود منها «اقتلوا أسراكم» فقام من فوره ونفذ أمر القتل فى الأسرى وانتهى من قتل مالك بن نويرة على غير رغبة خالد وبدون قصد منه.

كان من الممكن أن تمر هذه الحادثة كما مر أمثالها من قتل المرتدين أو الخارجين ولكن دارت حول مقتل مالك عدة مناقشات؛ ولوحظ على خالد عدة ملاحظات كانت موضع الحديث الخاص والعام فى مجتمعات الصحابة بالمدينة.

وسبب هذه الثورة على خالد أنه تزوج من أم تميم امرأة مالك عقب قتله مباشرة، فوجد الساخطون على خالد أن هذه فرصة سانحة للنيل منه والحط من مكانته عند أبى بكر، وكذلك الذين كانوا ينشدون المثل العليا من أكبر قواد المسلمين رأوا أن هذا التصرف لا ينبغى من خالد مهما كانت الدواعى لذلك.

ووجهت لخالد عدة تهم ثم اتسعت دائرة هذه الاتهامات بمرور الزمن، وأتيح للرواة أن يضيفوا ما شاؤا من الأخبار التى ترضى عواطفهم من المؤيدين لخالد ومن الحاقدين عليه.

---

(١) البطاح كغراب منازل بنى يربوع.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وعماد هذه التهم أنه قتل مالكًا فى الوقت الذى أعلن فيه الإسلام واستجاب للأذان وأنه إنما قتله طمعاً فى زوجته!

وأخذ عليه أيضا أنه تزوج بامرأة مالك عقب قتله مباشرة وهو فى ميدان الحرب وذلك غير جائز من الناحيتين الشرعية والتقليدية؛ فمن الناحية الشرعية أنه لم يستبرئها وتزوجها فى العدة، ومن الناحية التقليدية أنه لا ينبغى للقائد أن يتزوج وهو يحارب لأن ذلك يشغله عن الغرض الأسمى فى ميدان القتال، وذلك عار عند العرب.

أثارت كل هذه الأمور مطالبة بنى تميم بدية مالك بن نويرة، وأيد هذه الدعوى بعض المحاربين الذين كانوا فى جيش خالد من الأنصار، واقتنع عمر بن الخطاب بهذه الدعوى، وطالب الخليفة بمعاقبة خالد، وقال له: «إن سيف خالد فيه رهق»، فلما أكثر عمر على أبى بكر قال له «هيه يا عمر! تأول خالد فأخطأ فارفع لسانك عن خالد فإنى لا أشيم سيفاً سله الله على الكافرين»، ودفع أبو بكر دية مالك بن نويرة من بيت مال المسلمين ثم أرسل إلى خالد وأنبه على ما فعل وخاصة على زواجه من امرأة مالك فى ميدان القتال؛ فاعتذر خالد لأبى بكر فتجاوز عن هفواته.

ويمكننا أن نقول على ضوء ما قرأناه من الروايات وما فهمناه مما وقع من تصرفات أبى بكر رضى الله عنه أن كثيرا من الروايات اتفق على إدانة خالد، وأن عمر رضى الله عنه كان غاضبا غضباً شديدا من أسلوب خالد فى هذه المسألة، وأن دفع أبى بكر دية مالك بن نويرة لأخيه أيد إدانة خالد فى قتل مالك.

ولكن هناك شيئًا آخر يجعلنا نلتمس العذر لخالد فيما حدث ويعطينا فكرة نفهم منها أن مالكًا قُتل خطأ من غير تدبير ولا تعمد من خالد؛ لأن أبا بكر رضى الله عنه ما كان ليكتفى بتأنيب خالد وقد علم أنه انتهك حرمة من حرم الله يستحق عليها الحد أو القود، ونحن نعلم أن أبا بكر خليفة رسول الله لم يكن ليفرط فى أمر من أمور الدين ليصل إلى غرض من أغراض الدنيا مهما كانت الأمور وأيا كانت الدواعى.

وليس من التحقيق التاريخى أن يحمل عزل عمر بن الخطاب لخالد بن الوليد عندما آلت إليه الخلافة على كراهته لخالد بهذا السبب، فلو كان عمر يعتقد إدانة خالد حقيقة لاتهم أبا بكر بالتفريط فى حدود الله، وكان أول عمل يقوم به بعد أن صار خليفة للمسلمين أن يقيم الحد على خالد بسبب هذه القضية؛ بل إن التاريخ يروى أن عمر رضى الله عنه ندم حين عزل خالدا فى الوقت الذى تحرجت فيه الأمور ولم يكن

www.alukah.net
شبكة الألوكة

هنالك من يغنى غناء خالد، كما أنه لم يعرف بين المسلمين أن خالداً عزل عقوبة من عمر على قتله مالك بن نويرة.

* موقعة اليمامة فى عقرباء

استطاع مسيلمة أن يصبغ دعوته فى بنى حنيفة باليمامة بصبغة العصبية القبلية، كما استطاع أن يلقى فى روع بنى حنيفة جميعا أنه لهم نبى ورسول كما لقريش نبى ورسول! وأن مكانتهم فى العرب تضارع مكانة قريش أو تزيد، وأن لهم من الجند المغاوير أضعاف جند قريش، وهم جميعا كتلة واحدة لا يفت فى أعضادهم خلاف، ولا يضعضع من عزمهم تنافس.

لذلك اجتمع حول مسيلمة أربعون ألفا يقاتلون فى سبيله ويعملون لنصرته.

ومن الأمور التى زادت فى قوته، وشدت من أزره انضمام رجل يدعى «نهار الرجال ابن عنفوة»، كان هذا الرجل قد هاجر إلى رسول الله فقرأ القرآن وتفقه فى الدين، وعرف تعاليم الإسلام وبعثه رسول الله معلماً لأهل اليمامة ليعمل على إحباط دعاية مسيلمة، ولكن هذا «الرجال» لم يلبث أن انضم إلى مسيلمة وأقر بنبوته، فكان هذا الحادث من أقوى الحوادث أثراً فى زيادة أتباع مسيلمة بعد دخول (الرجال) فى دينه وقد كان موضع ثقة رسول الله ونبى المسلمين، فليس عجبًا أن يكون أمره أشد على المسلمين من الأحداث التى فرغوا منها.

ونحن نعلم أن أبا بكر رضى الله عنه كان حين عقد الألوية فى ذى القصة قد وجه عكرمة بن أبى جهل إلى اليمامة وجعل شرحبيل بن حسنة مدداً له على قتال حنيفة. وكان من الطبيعى أن ينتظر عكرمة قدوم شرحبيل حتى يشتركا معاً فى قتال مسيلمة، ولكن الذى حدث أن عكرمة لم ير أن ينتظر شرحبيل؛ بل بادر بلقاء مسيلمة ليكون له وحده ثمرة الفوز على عدو الله.

ولكن عكرمة ومن معه من الجند لم يثبتوا لمسيلمة فانتصر عليهم بنو حنيفة وألحقوا بهم هزيمة منكرة، ثم بلغت أخبار الهزيمة شرحبيل بن حسنة، وهو فى طريقه إلى عكرمة باليمامة فانتظر حتى يدبر لنفسه أمراً.

وقد أثارت هزيمة عكرمة غضباً شديداً فى نفس الخليفة خاصة وأن هذه الهزيمة كانت وليدة التعجل قبل أن يدركه مدد شرحبيل فأرسل أبو بكر إلى عكرمة يقول له: «يا ابن أم عكرمة لا أرينك ولا ترنى، لا ترجعن فتوهن الناس، امض إلى حذيفة،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وعرفجة فقاتل أهل عمان ومهرة، ثم تسير أنت وجندك تستبرئون الناس حتى تلقى المهاجر بن أبى أمية باليمن وحضرموت ».

فلم يجد عكرمة بداً من الذهاب إلى الوجهة التي وجهه إليها أبو بكر، ثم فكر الخليفة بعد ذلك فى إنقاذ موقف المسلمين باليمامة، فعلم أنه لا يصلح لهذا الأمر غير خالد بن الوليد فعززه بالمدد الذى يقوى جانبه وكتب بعد ذلك إلى شرحبيل بن حسنة أن يقيم حيث هو حتى يحضر إليه خالد فإذا فرغوا من أمر مسيلمة توجه شرحبيل إلى بلاد قضاعة ليكون عونا لعمرو بن العاص فى مقاتلة هؤلاء القوم.

مقدمات القتال

تحركت الفرق الإسلامية لتلتقى بجيوش مسيلمة، وكان من سوء الحظ أن سبق شرحبيل بجيشه جيش خالد، فلما اصطدم بمسيلمة اضطر إلى الارتداد أمام جيوش اليمامة، فلما أدركه خالد أنبه على تسرعه فى هذا الأمر، ثم استمرت جيوش خالد تتلاحق إلى أرض اليمامة حتى وصلت أنباؤها إلى مسيلمة.

وكان « مجاعة بن مرارة » فى جماعة من قومه يطلب له ثاراً فى بنى عامر فظفرت بهم جيوش خالد وقتلوهم جميعا ثم استبقوا مجاعة، وأخذه خالد أسيراً فى خيمته مكبلا بالحديد تحت حراسة زوجه، « ليلى أم تميم »، (زوجة مالك بن نويرة) سابقاً.

وكان مسليمة قد جمع جنده بعقرباء فى طرف اليمامة الغربى، وكان هذا الجند بين الأربعين والستين ألفاً، واصطف الجيشان وجهاً لوجه ينتظران وقوع الاصطدام، وكانت جيوش مسيلمة تؤمن به وتتفانى فى سبيله. كما كانت جيوش المسلمين من زهرة الفتيان الذين يعتبرون حمى الإسلام وملاذه، وعلى رأسهم خالد بن الوليد أعظم قائد عرفة التاريخ فى عصره، وفيهم حفاظ كلام الله، وقراء قرآنه، وكلهم إيمان بأن الجهاد فى سبيل الله خير ما يتقرب به المؤمن إلى ربه، فكان لابد أن تكون هذه المعركة حامية الوطيس خطيرة النتائج.

ابتدأ المعركة شرحبيل بن حسنة بعبارات الاستهتار، والاستهزاء بجيوش بنى حنيفة، فنصب مسيلمة من نفسه خطيباً، يحمس بنى حنيفة ضد المسلمين، فقال: « يا بنى حنيفة، اليوم يوم الغيرة إن هزمتم تستردف النساء سبيات، وينكحن غير حظيات، فقاتلوا عن أحسابكم، وامنعوا نساءكم ».

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المعركة

التقى الجمعان ودارت رحى الحرب شديدة، فكانت الدائرة أول الأمر على جيوش المسلمين، حتى دخل بنو حنيفة فسطاط خالد وحاولوا قتل زوجه أم تميم لولا أن أجارها مجاعة، ثم قطع جنود اليمامة حبال الفسطاط ومزقوه بسيوفهم.

طريقة خالد في تحميس المسلمين

رأى خالد أن المسلمين إنما انهزموا لتواكلهم وتنابذهم، إذ كان الأنصار والمهاجرون يرمون أهل البوادى بالتقصير فى القتال، كما كان أهل البوادى يعتقدون أنهم خير من يحمل السلاح فى الحروب.

فلما أحس خالد بهذا الخطر انتهز فرصة تهادن بين الفريقين، ثم صاح فى الجند صيحة بطش وغضب: «أن امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حى، ولنعلم من أين نؤتى»، ودوت هذه الصيحة فى أذن كل جندى من جنود خالد فاستجاب لهذا النداء، وثارت فى قلوب القوم حمية لدين الله، وحرص كل واحد من هؤلاء القوم على أن يظهر بعمل ينسب إليه، وتيقظت العصبية العربية فى هذه الناحية؛ كل قبيلة تود أن تظهر على منافستها، وتنادى القوم يحرض بعضهم بعضًا على الشهادة فى سبيل الله.

وكانت جيوش مسيلمة تقاتل قتال المستيئس الذى يدافع عن وطنه، ويقاتل عن أحسابه، فلما رأى خالد اشتداد المعركة أراد أن يسلك للنصر أقرب سبيل، فخرج على رأس رجاله، وقال لحماته: «لا أوتين من خلفى» ثم صاح فى المعركة «يا محمداه» فتيقظت الهمم، وشحذت العزائم، وأراد خالد أن يختصر الطريق ليقضى على مسيلمة رأس هذه الفتنة، فحاول أن يستدرجه ليخرج للمبارزة لكن مسيلمة أيقن أنه مقتول لا محالة إن خرج فتردد واضطرب، وبينما هو فى اضطرابه وتردده إذ شد عليه خالد برجاله، فلما رأى مسيلمة ذلك، ولى مدبرا إلى حديقة له كان يسميها «حديقة الرحمن» فحاصرها المسلمون حتى تسوروها، والتحموا بأعدائهم فيها، وبينما الحرب يندلع لهيبها فى حديقة الرحمن التى عرفت فيما بعد «بحديقة الموت» كان وحش الحبشى الذى قتل حمزة سيد الشهداء يسعى ليبحث عن مسيلمة حتى يتقرب بقتله إلى الله، ويكفر عن جريرته وقتله سيد الشهداء فما إن وقع نظره على غريمه حتى هز حربته بعد أن رضى عنها، ودفعها فأصابت مقتلا من مسيلمة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

انهدت عزائم القوم، ووقع الذعر فى بنى حنيفة حينما سار فيهم النبأ بمقتل مسيلمة فأسلموا أنفسهم لا يقاومون، ولم تعرف بلاد العرب موقعة سالت فيها دماء بمثل ما سالت فى اليمامة، ثم أخذ خالد يبحث فى وجوه القتلى عن مسليمة ليطمئن على الفراغ من أمره، فلما وجده مجندلاً حمد الله وأثنى عليه.

شروط الصلح فى موقعه اليمامة

كان من رأى خالد أن يتتبع فلول بنى حنيفة فى كل مكان حتى يبيدهم جميعًا، ولم يسمع لمجاعة بن مرارة حين طلب الصلح لقومه، ولكنه عندما مر بين القتلى وجد أن خسارة المسلمين كانت فادحة وضحاياهم كانوا كثرة من جلة القوم والبارزين فيهم.

ويحدد المؤرخون عدد القتلى من المسلمين بأنهم ٣٦٠ من المهاجرين، و٣٠٠ من الأنصار، و٥٠٠ من قبائل العرب فى البادية.

ولكن الذى أثر فى نفوس المسلمين جميعاً أنهم وجدوا بين الشهداء ٣٩ شهيداً من القراء وحفاظ القرآن.

عند ذلك قبل خالد عرض مجاعة للصلح مع قومه بعد أن قام مجاعة بمناورة ماكرة حملت خالداً على أن يتساهل مع هؤلاء القوم فى أمر الصلح الذى كان أهم شروطه أن يطلق سراح الأسرى من المقاتلين، ويكتفى بأخذ ما يملكون من السلاح والمال من ذهب وفضة.

وبينما كان بنو حنيفة ينفذون شروط الصلح التى قبلها خالد، وصل كتاب الخليفة يأمر فيه بأن يقتل كل قادر على القتال من بنى حنيفة، ولكن خالداً وفىّ لهم بما وعد.

موقعة اليمامة فى ميزان التاريخ

تعتبر موقعة اليمامة من أكبر المواقع الفاصلة لما قبلها عن ما بعدها، حيث محا خالد بهذه الموقعة مبادئ الردة وهيأ للعقيدة الإسلامية فى بلاد العرب أن تبقى وتسود، وقذف الرعب فى قلوب المرتدين فى كل مكان، كما أدخل الطمأنينة والثقة بالنفس فى قلب كل قائد وجندى من جنود المسلمين.

ثم صارت وقعة اليمامة هى المنبع الوحيد للمسلمين يستمدون منه عوامل النصر على أعدائهم، ولذلك أصبحت أنباء الردة فى مهرة وفى عمان، واليمن لا تزعج

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المسلمين بمثل ما كانوا يرتاعون له قبل موقعة اليمامة، بل إنها كانت ذات أثر بعيد المدى فى جمع كلمة المسلمين وثقتهم بقوتهم ووحدتهم فدفعهم ذلك إلى التفكير فى الغزو الخارجى، فاندفعوا كالسيل الجارف يثلون العروش، ويفتحون الأقاليم. وبالرغم من أن قتل القراء فى موقعة اليمامة كان ذا وقع أليم فى نفوس المسلمين جميعاً، فإنه أفاد الأمة الإسلامية فائدة كبرى فى مستقبل أيامها، إذ حمل أبا بكر على التفكير فى جمع القرآن والاحتفاظ بمصدره الذى لم يتسرب إليه شك، ثم دون القرآن بعد ذلك من هذا المصدر على إيمان ويقين بأن هذا كتاب الله الذى نزل على رسوله الكريم.

ثم دخل بعد ذلك بنو حنيفة فى الإسلام وندموا على ما كان منهم للمسلمين، وتحول خالد عقب انتهائه من غزوة اليمامة إلى وادٍ من أوديتها يقال له «الوبر» واتخذ فيه منزله، ولكننا لا ندرى هل طال مقام خالد بهذاً المكان أم قصر حتى أتاه كتاب أبى بكر يأمره فيه بالتوجه إلى فتوح العراق.

* بقية حروب الردة

أثرت موقعة اليمامة فى مجرى حروب الردة تأثيراً كبيرا فى صالح المسلمين، ولذلك سهل عليهم أمر الباقين فى جميع أنحاء الجزيرة.

فى البحرين

أسلم أهل البحرين فى حياة رسول الله ﷺ فولى عليهم المنذر بن ساوى، غير أنه توفى بعد رسول الله بقليل فارتد أهل البحرين متأثرين بأحداث الردة فى الجزيرة، فأرسل إليهم أبو بكر رضى الله عنه العلاء بن الحضرمى، وهناك فى أرض البحرين وقف العلاء ومعه المسلمون فى مواجهة المرتدين، وحفر كل من الجيشين خندقا يحتمى به، واستمر القتال سجالاً بين الطرفين أياماً، وحدث أن سمع المسلمون ضوضاء فى إحدى ليالى الحرب، فى معسكر المرتدين فأرسل العلاء بن الحضرمى يستطلع الخبر، فعلم أن القوم سكارى وأن الخمر أخذت من جيشهم كل مأخذ، فانقض عليهم المسلمون وهم على حالتهم هذه فأصابوا منهم فرصة عظيمة، ونكلوا بهم شر تنكيل، حتى هربت فلولهم إلى جزيرة فى الخليج الفارسى تسمى «دارين» قريبة من ساحل البحرين، وعبر المسلمون خلفهم خائضين حتى ظفروا بهم، وانتهى العلاء من أمر البحرين.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

في عمان ومهرة

ادعى لقيط بن مالك الأزدى النبوة فى عمان والتف حوله جماعة من أتباعه اشتد بهم ساعده، فلم يقو بنو الجلنداء عمال رسول الله هناك على مقاومته، فلجأوا إلى الجبال، وبعث أحدهم إلى أبى بكر يستمده، فبعث إليهم قائدين، أحدهما: حذيفة بن محصن إلى عمان، وعرفجعة بن هرثمة إلى مهرة، وأرسل بعد ذلك عكرمة بن أبى جهل مدداً لهما فى قتال أهل عمان ومهرة، فلحقهما عكرمة قبل عمان وكاتبوا بنى الجلنداء إلى حذيفة وعرفجة وعكرمة فى القدوم عليهم هناك، ثم كاتبوا بعض من كانوا مع لقيط من رؤساء القبائل فانصرفوا عنه إلى جانب المسلمين، ثم التقى الجمعان فى (دباء) ودارت المعركة فى أول أمرها لصالح لقيط ومن معه، ولكن كفة المسلمين رجحت بانضمام جماعة من عبد القيس إلى جانبهم، ثم جملوا على المرتدين جملة عنيفة فولوا الأدبار، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، وأخذوا أموالهم واقتسموها بينهم وأرسلوا بالخمس إلى الخليفة فى المدينة مع عرفجة، وبقى حذيفة بعمان ليقر الأمور فى نصابها هناك.

وأما مهرة فقد توجه إليها عكرمة بن أبى جهل بعد فراغه من عمان، وسار معه من انضم إليه من عبد القيس وغيرهم وفاجؤهم فى ديارهم فوجدوهم قد انقسموا وأقام كل جماعة عليهم رئيسا، فكاتب عكرمة أحد الرئيسين المتنافسين فاستجاب أحدهما لدعوته، وامتنع الآخر على الانضمام إليه، ودارت الحرب شديدة حتى كتب النصر للمسلمين فقتلوا وأسروا وأصابوا من الغنائم شيئًا كثيراً وأرسلوا بالخمس إلى المدينة وبقى عكرمة فى مهرة حتى أسلم أهلها جميعا.

فى اليمن

كانت حركة المرتدين قد هدأت بعد مقتل الأسود العنسى، فلما وصلتهم أخبار وفاة الرسول عليه السلام قويت شوكة أتباع الأسود هناك، فبعث أبو بكر إلى من بقى على إسلامه من رؤوس اليمن يأمرهم بالصمود للمرتدين حتى تصلهم النجدات الإسلامية، فقاموا بهذه المهمة خير قيام بزعامة فيروز الفارسى الذى ولاه أبو بكر على صنعاء. ووضع الخليفة خطة لتطويق اليمن فبعث المهاجر بن أبى أمية من المدينة ليغزو البلاد من الشمال، وأرسل إلى عكرمة بن أبى جهل الذى وكل إليه أمر حضرموت حتى ينتهى من معاونة المهاجر بن أبى أمية فى حرب اليمن.

وكان من حسن حظ القائدين المسلمين أنهما وجدا خلافًا شديداً بين قيس بن عبد يغوث، وعمرو بن معد يكرب زعيمي اليمن، فاستطاع المهاجر بن أبي أمية بعد حرب قصيرة أن يأسر الزعيمين، ويرسلهما إلى أبي بكر في المدينة، وهناك أعلنا ندمهما على الردة ورجعا إلى الإسلام، فقبل أبو بكر توبتهما، وحسن بعد ذلك إسلامهما وكان لهما بلاء حسن في فتح فارس فيما بعد.

في كندة

ثم ذهبت الجيوش الإسلامية بقيادة المهاجر بن أبي أمية وعكرمة إلى حضرموت حيث كان الأشعث بن قيس رئيس بني كندة يقود حركة الردة، وكانت قبيلة كندة قد انقسمت بحضرموت إلى قسمين: قسم بقي على إسلامه، وآخر منع الزكاة، ووقع بين الفريقين شجار وحرب، فكتب المسلمون إلى المهاجر بن أبي أمية يستحثونه على القدوم لمعاونتهم، فلبى دعوتهم وحاصروا المرتدين مدة طويلة في حصن يسمى «النجير»، فلما طال عليهم الحصار خرجوا يقاتلون مستيئسين، ولكنهم فشلوا فرجعوا إلى الحصن ثانية وأرسلوا في طلب الصلح على تسليم الحصن بمن فيه مشترطين الأمان لتسعة نفر من زعمائهم وكتبوا بذلك كتاباً، ثم دخل المسلمون الحصن فقتلوا وسبوا وغنموا، ثم أرسل المهاجر بن أبي أمية بالأشعث بن قيس إلى أبي بكر رضي الله عنه ليرى رأيه فيه فعفا عنه، وكان له شأن في فتوح العراق عظيم.

في قضاعة

كان جمع من قضاعة والقبائل الضاربة حولها قد ارتدوا عن الإسلام ومنعوا الزكاة، فوجه الخليفة إليهم عمرو بن العاص، فلما فاجأهم في ديارهم أسلم كثير منهم ثم تفرق الباقون واعتصموا بالجبال، ثم أقام عمرو أياماً في ديارهم حدثت فيها عدة اشتباكات مع بعض شراذم المرتدين؛ وعاد إلى المدينة بعد أن شمل الإسلام معظم القبائل الشمالية.

وهكذا نجحت كل الجيوش الإسلامية في كل الميادين وكلل عملهم بالتوفيق فحفظ أبو بكر بهذا العمل للإسلام سمعته الأدبية واحترامه المادي. وكان لتوفيق المسلمين في حروبهم أثر كبير في القضاء على بقايا الردة فلم يجد الخارجون عن الإسلام بداً من الانضواء تحت لوائه والخضوع لمبادئه، فنجح سويد بن مقرن في مهمته بتهامة اليمن وكذلك لم يجد معين بن حاجز في بني سليم وهوازن مقاومة تذكر، وانتهى كذلك خالد بن سعيد من المهمة التي كُلف بها في تتبع الفلول المرتدة بمشارف الشام، ونشر الإسلام بعد ذلك لواءه من جديد على ربوع الجزيرة.

* أسباب انتصار المسلمين فى حروب الردة

قد فرغنا الآن من محنة كبرى امتُحن بها المسلمون فى عقائدهم وخرجوا منها ظافرين فى مدى عام واحد، فما هى العوامل التى ساعدت المسلمين على طرد الكفر، والقضاء على الردة، وإبادة المرتدين؟

ترجع الأسباب فى عرف المتتبع لأحداث الردة إلى أمور، منها البارز الذى يدركه كل ناظر ومنها ما ينكشف بعد تأمل وإعمال فكر.

فقد كان لصدق عزيمة أبى بكر، رضى الله عنه، أثر باق على الأيام فى مجاهدة المرتدين دفعه إلى أن يقود الجيوش بنفسه ويقاتل فى الموقعة الأولى بذى القصة حتى شرد قبائل عبس وذبيان ومن والاهما من القبائل المجاورة، فكان لانتصار الخليفة بعدد قليل من جند المسلمين قبل أن يعود جيش أسامة من بلاد الشام على العدد الكثير من جند القبائل المرتدة أثر كبير جداً فى تقوية الروح المعنوية عند المسلمين فحملوا سلاحهم واندفعوا فى سبيل الله يجاهدون.

ولقد كان للخطة الماهرة التى اتبعها أبو بكر رضى الله عنه فى تعداد الألوية، وإعداد الفرق الكثيرة من المحاربين الذين قذف بهم مكامن الردة ومثار الشغب فى أطراف شبه الجزيرة، كان لهذه الحركة البارعة أثرها القوى فى تحطيم روح الإصرار على الحرب عند القبائل المرتدة، ولم تدع لهؤلاء الخارجين على سلطان المدينة فرصة لتكوين جيش جرار يجتمع فيه العرب تحت لواء واحد ثم ينقضون به على المسلمين دفعة واحدة فيفرغون منهم فى حرب شاملة.

على أن المسلمين كانت تدفعهم فى حروبهم قوة إيمان وصدق يقين بأن الله ناصرهم؛ لأنهم يقاتلون فى سبيله، بينما كان كثير من المرتدين يقاتلون فى سبيل العصبية، واستجابة لنوازع الحقد على سلطان المدينة.

ومن جانب المرتدين لم يكن لهم هدف يجتمعون حوله ولم تكن بينهم وحدة فى السياسة ولا فى الدين، كما أن هجوم قبائل البادية على المدينة أثار فى نفوس أهلها سليقة الدفاع، ووحد بين صفوفهم، وقضى على النزعات المختلفة بينهم(١).

---

(١) عبقرية الصديق للعقاد ص٤٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وكان من حسن حظ المسلمين نجاح خالد بن الوليد وتوفيقه فى كل المواقع التى اشتبك فيها مع المرتدين، فكانت أخبار انتصاراته تحطم من عزم المرتدين وتقوى عزائم المسلمين فى ميادنيهم المختلفة.

وليس يخفى عن عقول المفكرين أن كثرة المتنبئين الذين ظهروا دفعة واحدة دون أن يقتصر الأمر على الرجال – بل ادعى النبوة نساء متنبئات –!! ليس يخفى أثر ذلك عند عقلاء العرب الذين أدركوا أن هذه موجة من الارتداد على غير هدى، وإنما هى نزعات شخصية يراد أن تستغل لغرض من الأغراض السقيمة، فانصرفوا عنهم وسخروا منهم.

*** نتائج حروب الردة**

أجال أبو بكر خليفة رسول الله نظره فى شبه الجزيرة كلها وتذكر يوم بيعته حين وافته الأخبار بانتقاض من كافة العرب وخلعهم رداء الإسلام، ففاضت بالدمع عيناه حين قارن بين الأمس واليوم بعد أن طرد الكفر والإلحاد من بلاد العرب إلى الأبد.

مرت بخاطره كل هذه الأحداث مسرعة فى لمح البصر فسجد شاكراً لأنعم الله، وأدرك أن ردة العرب كانت محنة قاسية، وابتلاء من الله للمسلمين فى صدق إيمانهم وقوة يقينهم، ولكنه أدرك، وأدرك المسلمون معه أن الحرب الضروس التى تلظاها المسلمون فى ردع المرتدين كانت ذات نتائج طيبة جداً للإسلام والمسلمين.

فبعد أن كانت العقيدة الإسلامية حيرى بين المتمردين عليها، والمدافعين عنها، فى شتى أنحاء بلاد العرب أصبحت وقد استقرت فى تلك البلاد آمنة.. مطمئنة ثابتة الأركان قوية الدعائم.

وعندما اندلعت نيران الفتنة والحروب فى شبه الجزيرة انصهرت العناصر الغريبة، وتلاشت الأقليات المشاغبة، وانمحت آثارها، وخرج أبو بكر بعد ذلك بأمة العرب المبعثرة المفككة، أمة موحدة قوية تهدف إلى غرض واحد، وتدين لزعامة واحدة.

وأصبح أبو بكر هو الرجل الأول الجدير بأن يكون خليفة لرسول الله فتعلقت به قلوب المسلمين، والتفت حول رايته جماعات العرب من أصحاب النزعات المختلفة بعد أن اتضحت لهم بطولة أبى بكر وحسن بلائه فى سبيل دينه وأمته. واعتز العرب بالخلافة اعتزازهم بالدين الحنيف.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ولقد شعر المسلمون – بعد ظفرهم فى حروب الردة – بالثقة المطلقة فى أنفسهم، وأحسوا بمقدار القوة التى جنوها من اتحادهم، فأدركوا أنهم إن ظلوا كذلك متساندين متحدين فلن تغلبهم قوة فى الأرض مهما كان شأنها.

وأحس أبو بكر من العرب هذه الروح فخشى أن يخلد القوم إلى الاستجمام فتنبت فى ظل الراحة بذور التفرقة بالحنين إلى الماضى فيصبح القوم وبأسهم بينهم شديد، فأراد أن يصرفهم عن التلفت إلى ماضيهم بما هو أهم فى نظره ونظرهم، فوجههم إلى الغزو الخارجى ورمى بهم خارج بلاد العرب ليوسعوا فى رقعتها، ويضموا إليهم عناصر أخرى تتذوق حلاوة الإيمان، وتتفانى فى سبيله فكانت الفتوح الكبرى فى الإسلام فى أرض فارس وأرض الروم كما سترون بعد ذلك، مما بدأ فى عهد أبى بكر رضى الله عنه وتممه الخلفاء من بعده على أحسن وجه وأكمله.

كل ذلك أدركه المسلمون فى حياة الخليفة الأول، وعلموا أن أبا بكر كان ملهمًا حين صمم على حرب المرتدين بكافة أنواعهم فى كل مكان، وظهر للمسلمين بعد ذلك أنهم كانوا مخطئين كل الخطأ حين تمسكوا بعدم الحرب مع من منع الزكاة وأقر بالإسلام، وكان أبو بكر جديراً بأن يعترف الصحابة له بسداد رأيه، وقوة عزمه، وشدة يقينه، كما بدا ذلك فى قول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: «لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقامًا كدنا نهلك فيه، لولا أن من الله علينا بأبى بكر، أجمعنا على ألا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون؛ وأن نأكل قرى عربية، ونعبد الله حتى يأتينا اليقين، فعزم الله لأبى بكر على قتالهم؛ فوالله ما رضى منهم إلا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية، فأما الخطة المخزية فأن يقروا بأن من قتل منهم فى النار، ومن قتل منا فى الجنة، وأن يدوا قتلانا وتغنم ما أخذنا منهم، وأن ما أخذوا منا مردود علينا، وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم»(١).

* جيران العرب؛ فارس – الروم

أصبح العرب موضع حديث الخاص والعام فى وضعهم الجديد، وكان من الطبيعى أن تنتقل هذه الأخبار إلى ما جاورهم من الممالك، ففى الشمال الشرقى لبلاد العرب كانت امبراطورية الفرس العظيمة تتجاوب فى جنباتها أخبار العرب وحروبهم الداخلية، ولقد وقر فى نفس العربى احترام الفرس، وورث هيبتهم من أسلافه، الذين شاهدوا عزم هذه الدولة وقوة سلطانها.

---

(١) ابن الأثير جـ ٢ صـ ٢٣١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كانت دولة الفرس قد بلغت نهاية قوتها قبيل الإسلام، ووصلت إلى قمة مجدها فى هذا الحين، فكان لابد لها أن تنزل على حكم الطبيعة، وتخضع للسنن الكونية فى حكمة القائل:

إذا تم شىء بدا نقصه ... ترقب زوالاً إذا قيل تم

وبالرغم من ظهور عوامل الضعف وأعراض الفناء على دولة الفرس؛ فإن العرب لم يستطيعوا أن يخلعوا من قلوبهم هيبة الأكاسرة وخشية سطوة الدولة؛ ومن أجل ذلك لم يكن يخطر على بالهم أن يقفوا من الفرس فى يوم من الأيام موقف المحاربين الفاتحين.

*** حالة الفرس**

كانت تعرف عند العرب بدولة الأكاسرة وكانت عاصمتها المدائن التى تقع جنوب مدينة بغداد على شاطئ دجلة وشملت رقعة أملاكها بلاد العجم وبلاد العراق وما بين دجلة والفرات إلى شواطئ بحر قزوين، وكان الجالس على عرش الأكاسرة فى أوائل أيام الرسول عليه السلام كسرى أبو شروان الملقب بالملك العادل ثم خلفه ابنه هرمز ثم كسرى أبرويز، وهو الذى أرسل إليه رسول الله يدعوه إلى الإسلام فكان من أمره أن كتب إلى «باذان» عامله على اليمن يكلفه باستطلاع أمر هذا الرجل الجرىء الذى خرج على مألوف العرب، واستطاع أن يخاطب كسرى بهذا الأسلوب، وأن يرسل به إلى عاصمة كسرى ليحاسبه هناك على جرأته ويجعل منه عبرة لكل من يجترئ على مقام الأكاسرة من أبناء ساسان، ثم مزق الخطاب وقتل حامله إلا أن أبرويز كان مكروهًا من شعبه ومن أسرته فقتله ابنه المسمى «شيرويه» عام ٦٢٨هـ، وتولى مكان والده مدة عامين، ودخلت الدولة الفارسية فى دور من المؤامرات والفتن حول العرش حتى ولى «يزدجرد الثالث» الذى تسلم منه المسلمون عرش الأكاسرة فى عام ٦٢٣ هـ.

وكان من عوامل ضعف دولة الفرس والتعجيل بنهايتها اضطرابها فى السياسة والخلافات حول العرش كما ذكرنا، وتضافرت مع الخلافات السياسية أمور أخرى منها:

١ - **اضطرابات دينية**: كانت واقعة دائمًا بين أتباع زرادشت، وأتباع مانى، وأتباع مزدك، بصورة من الشدة والعنف، حتى إذا هدأت فيما بين هذه الطوائف كانت تهدأ على حساب الخلاف بين هذه الديانات الفارسية من جانب وبين المسيحية

شبكة الألوكة - قسم الكتب

واليهودية من جانب آخر. وكثيراً ما كانت تحدث المذابح الوحشية بين تلك الديانات المختلفة لتروع الناس وتقض مضاجعهم.

٢ – **خلل فى النظام الاقتصادى**: ولم يقف الأمر عند فساد النظم الدينية واضطراب الأوضاع السياسية، بل إن الضرائب الفادحة أثقلت كاهل الشعب بحكم هذا الفساد. وبحكم الظروف التى اقتضتها الحروب ضد الإمبراطورية البيزنطية فلم يكن بد من أن يتقرر مصير دولة أصبحت مفككة سياسيًا ودينيًا واقتصاديًا(١).

*** حالة الروم (الدولة البيزنطية)**

لم تكن أحسن حالاً من الدولة الفارسية فقد شملها الفساد من نواحيها السياسية والإدارية والاجتماعية والدينية. وليس غريبًا أن يكون هذا شأن دولة مكونة من شعوب غير متجانسة، وقوميات متناحرة تنتابها أعاصير الخلافات الدينية والتعصب المذهبى بين من يعتنقون المسيحية. فهناك من يقول بألوهية المسيح، ومن يقول بطبيعة واحدة، ومن يقول بطبيعتين للسيد المسيح، ومن يقول إن الأب سابق على الابن أو بالعكس، وفوق ذلك فإن المجتمع فى هذه الإمبراطورية قد ساده الانحلال والفساد، وكثرت المنازعات والمؤامرات على العرش. يضاف إلى كل هذه العوامل عدم الحكمة فى السياسة الخارجية حيث كانت قائمة على العداء المستحكم بينها وبين الدولة الفارسية وخاضت معها عدة حروب كانت سببًا فى تحطيم الدولتين.

وآخر ما شاهد الإسلام بين هاتين الدولتين هو هجوم الفرس فى عهد كسرى أبرويز ثم انتصارهم على الروم فى دمشق عام ٦١٤م، واحتلال القدس فى عام ٦١٥م، والإسكندرية فى عام ٦١٦م، وهذه الحادثة قصها القرآن على المسلمين فى قوله تعالى: **﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ﴾** [الروم: ١ – ٥].

وكانت هزيمة الروم حين كان الخلاف الداخلى بين الإمبراطور (فوكاس) وبين (هرقل) الذى تزعم ثورة داخلية ضد الإمبراطور. فلما انتصر هرقل على فوكاس وأصبح مسئولاً عن هذا الخطر أخذ يعد العدة لطرد الفرس، ومسح هذه الإهانة ومحو عار الهزيمة، فاستطاع بالفعل بعد بضع سنين (عام ٦٢٢م)، أن يخرج الفرس من مصر والشام وأن يطاردهم إلى المدائن ويسترد منهم صليب الصلبوت ثم يعود إلى بيت المقدس والنصر معقود بلوائه.

---

(١) عصر الخلفاء الراشدين ص ١١٥ للأستاذ فياض.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وأراد هرقل أن يضع حداً للنزاع الدينى الذى فرق بين شعوب الإمبراطورية فأنشأ المذهب الملكانى (المونوثلما) ثم جند قوته لحمل الناس عليه، وأرسل إلى مصر أحد قواده المسمى كيرس (المقوقس) الذى استعمل كل وسائل العسف والإرهاب فكان هذا العمل بمثابة الريح التى أشعلت الجمر الخبىء فزادته ضراما.

الغساسنة والمناذرة

تحطمت إمارة الغساسنة (البيزنطية) وإمارة المناذرة (الفارسية) على صخور الخلاف بين الدولتين حيث كانت قواهما منبعثة من قوة الدولتين الكبيرتين فلم تعد إحدى هاتين الإمارتين صالحة لأن تكون درعًا واقية من غارات يريد أن يشنها العرب فى ريف العراق أو فى بادية الشام.

إجمال

ويمكننا أن نقول إنه بينما كان الدين الجديد يبنى مجتمعًا إسلاميًا متماسكًا، ويلقى فى قلوب معتنقيه إيمانًا جازمًا بأن الآخرة خير من الأولى، وأن المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، كانت سياسة الفرس والروم تهدم المجتمع فى بلادهم وتحدث الفتن والقلاقل وتلقى بالحقد والضغينة فى قلوب الشعب الفارسى والبيزنطى وتمزق العلاقات بين الحاكمين والمحكومين، فينقلب الحاكمون على رعيتهم بالحديد والنار يحملونهم على مناهجهم فى السياسة، ومعتقداتهم فى الدين فكانت الطوائف الدينية المظلومة، والطبقات الكادحة المهضومة تتجه بأنظارها إلى مطلع فجر جديد من الحرية والرخاء أو – على الأقل – إلى تغير ما هم عليه من أوضاع غير مستقيمة ولا محتملة.

فما كاد يصل إلى علمهم تصميم المسلمين على غزو تلك البلاد حتى ارتسمت على وجوههم علامات البشر، وتعلقت أبصارهم بهذا الأفق الجديد الذى بدا منه مطلع الأمل فى حياة أرغد، ومكان أرفع مما هم فيه من الذلة والهوان.

هل كان فى منهج أبى بكر أن يفتح العراق والشام؟

نستطيع أن نقول ونحن أقرب إلى الوثوق بما نقول: إن أبا بكر رضى الله عنه لم يكن يخطر فى باله – وهو يواجه حروب الردة – إلا أن ينجح فى إرجاع هؤلاء المرتدين إلى حظيرة الإسلام؛ بحيث تصبح العقيدة الإسلامية هى طابع العرب جميعًا، وأنه فى

شبكة الألوكة - قسم الكتب

اليوم الذى يصل فيه إلى تحقيق هذا الهدف يكون قد حقق آماله كلها ووحد العرب كلهم تحت راية الإسلام كما كانوا فى عهد صاحب الرسالة محمد عليه السلام.

أما أن يدخل فى حرب جديدة مع الدول المجاورة فهذا أمر، يغلب على ظننا أنه لم يخطر لأبى بكر على بال، ولعله كان من الحكمة فى ذلك الحين ألا يخطر له على بال.

هذا فى بداية حروب الردة وفى المراحل الأولى منها. وأما بعد الانتهاء من حروب الردة وعلى ضوء ما جد من أمور اطلع بسببها على ما لم يكن يعرفه قبل أن تقترب جنوده من حدود الدولتين؛ فإننا لا نذهب بعيداً ولا نستعمل كثيراً من الخيال إذا تصورنا أن أبا بكر أخذ يفكر طويلاً بعد أن فرغ من حروب الردة، وعقد النصر بلوائه، وألقت إليه الجزيرة بزمامها فأدرك أنه نجح فى تأمين الإسلام داخل دياره. ولكن هل كان تأمينه فى عقر داره تأميناً لحدوده وتخومه من غارات الأعداء؟

أدرك أبو بكر – بعد أن انتهت حروب الردة – أن المسلمين المقيمين على حدود فارس والروم فى حالة تحتاج إلى الدراسة من جديد. فمد بصره إلى مواطن القبائل العربية المتاخمة للروم فوجد أهلها مروعين يعيشون فى فزع من الغارات التى كانت تثيرها دولة الروم بتحريض الغساسنة على حرب المسلمين، وبالتالى كانت المدينة نفسها تتوقع فى كل يوم غارات تصبحها أو تمسيها من الغساسنة بأمر من الروم[1].

كانت تدور فى نفسه كل هذه المعانى فيفكر أن يخوض حرباً دفاعية يؤدب فيها الروم وأذنابهم من بنى غسان فيرد العدوان ويؤمّن الدعوة فى حدودها وتخومها.

ولعلنا لا نجاوز ما كان يدور فى نفسه إذا قلنا إن الطموح دفعه إلى أن يناقش موضوع مغامرة جديدة فى حرب قيصر وقرر أنه إن فعل فإنه:

١ – يصرف أذهان العرب فى شبه الجزيرة كلها عن ثاراتهم.

٢ – ويكسب لهم من الفخار ما ينسيهم حقدهم على المدينة وأهلها بعد قهرهم فى حرب الردة.

٣ – ثم هو بهذا العمل يكون قد قام بنشر كلمة الله فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية وغيرها من بلاد العالم.

---

(١) عبقرية الصديق للعقاد ص ١٥٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

* نهاية الردة بداية الفتوح

جدت أمور، وتهيأت ظروف ربطت بين حروب الردة وبين الفتح برباط بحيث لم يصبح للفصل بينهما سبيل، ووجد الخليفة نفسه مضطراً أن يدخل فى حرب جديدة بعدما عقدت له ألوية النصر فى معارك الردة. بل وجد أن ثمار المجهودات التى بذلت فى حروب الردة لا يمكن أن تتحقق إلا إذا خاض معارك جديدة فى ميادين الفرس والروم. ويذكر (توماس أرنولد) أن محاولة أبى بكر القضاء على المرتدين كانت أولى تلك السلسلة الرائعة من الحملات التى اجتاح فيها العرب بلاد سورية وفارس وأفريقيا الشمالية فقوضوا دولة فارس القديمة، وجردوا الإمبراطورية الرومانية من أجمل ولاياتها(١).

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٤٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الفتوحات فى فارس والروم

بأيهما يبدأ؟

الجبهة الأولى : بلاد فارس

كانت الظواهر كلها تدل على أن هجوم المسلمين سيوجه إلى الروم لتأديبها على الحركات التى تقوم بها ضد القبائل العربية المسلمة؛ بتحريض الغساسنة على مهاجمتهم، ووقف أبو بكر يفكر فى أمر الروم ويطيل التفكير فى إمكانياته الروحية والمادية.

وفى هذا الوقت كان المثنى بن حارثة - الذى كان يطارد المرتدين فى البحرين يفكر فى أمر المناذرة والقبائل المقيمة على حدوهم. حيث وجد أن المناذرة الموالين للفرس يوالون غاراتهم على أرض المسلمين ويضطر المسلمون من جانبهم أن يدافعوا عن أنفسهم فيطاردوا هؤلاء القوم إلى بلادهم عبر الحدود. ورأى المثنى أن استمرار هذه الغارات على أرض المسلمين لا يتفق مع ما أحرزوه من نصر وما بلغوه من عز فعليه أن يقتحم ديارهم ليرد العدوان بالعدوان، وأرسل أبو بكر خالد بن الوليد مدداً للمثنى ليعينه على أعدائه.

ومن هنا نجد أن الأحداث قد أخذ بعضها برقاب بعض بحيث لا نستطيع أن نتبين تماماً متى انتهت حروب الردة، ومتى بدأت الفتوح، ويلوح للمتتبع المعني بمراقبة طلائع الغزوة الفارسية أنها غزوة فرضتها الظروف والأحداث على الخليفة فرضاً فاضطر أن يستجيب لها بما يملك من عتاد ورجال. ومن هنا بدأت الفتوح الإسلامية الكبرى وتتابعت المواقع الحربية واتخذت الجيوش الإسلامية طريقها فى أرض الفرس، والنصر يحمل أعلامها.

*** عوامل شجعت المسلمين ودفعتهم للفتوح :**

١ - حينما عقد النصر بألوية المسلمين فى حروب الردة داخلت العرب فى هذا الوقت روح جديدة تعتز بالقومية العربية المشتركة، وحمل هذا الشعور آلافاً مؤلفة من العرب على التفانى فى دين صاحبهم، والعمل على نشره بين الأمم الأخرى غير العربية.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٢ - كذلك استولى عليهم الأمل القوى فى الحصول على غنائم وافرة من الكسب المادى بجوار ما أعد لهم من ثواب على نشر الدين الجديد.

٣ - وحدا بهم هذا الأمل إلى الرغبة الأكيدة فى استبدال مواطنهم الصحراوية المجدبة - التى قست فيها حياتهم - بمواطن جديدة، ذات خصب وخير، يترقبون فيها شيئًا من الترف والنعيم، كما يعيش أهل فارس، والشام ومصر.

٤ - صادفت الفتوحات الإسلامية للبلاد المسيحية، حركة ارتداد عنيفة عن الدين المسيحى(١). فانتهز المسيحيون المتذمرون من المسيحية فرصة وجود المسلمين على حدودهم وقدموا للعرب كثيراً من المعونات.

٥ - وقد جذبت حركة الفتوحات - وهى تشق طريقها فى البلاد المفتوحة إلى البلاد المزمع فتحها - كثيراً من البدو المسيحيين إلى هذا التيار الضخم من الفتوحات.

ويذكر بعض الباحثين، أن العرب المسيحيين الذين كانوا يحرسون حدود الإمبراطورية البيزنطية الواقعة على أطراف الصحراء ألقوا بجموعهم مع جيش الفتح الإسلامى، حين رفض هرقل دفع الجزية التى تعوّد إعطاءها إياهم، مقابل خدماتهم الحربية، التى كانوا يؤدونها باعتبارهم حراسًا للحدود.

٦ - القوات الإسلامية المحاربة: ليس لدينا إحصاء دقيق عن عدد الجيوش التى رمى بها أبو بكر دولتى: الروم وفارس، وإن كنا نستطيع أن نعرف بالتقريب القوة التى كان يعتمد عليها بصفة دائمة. ففى حروب الردة كان إحصاء المقاتلين كما يأتى:

١ - عدد المحاربين من قبائل أسلم، وغفار، ومزينة، وأشجع، وجهينة وغيرها من القبائل المقيمة بين الحرمين - مكة والمدينة - كان فى حدود ٣٠٠٠ مقاتل.

٢ - عدد المحاربين من الأنصار - الأوس والخزرج - والمهاجرين والقرشيين من أهل مكة، يقدر بـ ٤٠٠٠ مقاتل.

٣ - المقاتلون من ثقيف التى كانت تقيم بين مكة والطائف بلغ عددهم ٢٠٠٠ من المقاتلين.

فإذا أضفنا إلى هذا العدد، ما يحتمل أن ينضم إليه من عرب البادية وجدنا أنه لا يزيد على عشرة آلاف مقاتل(٢).

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٤٧.

(٢) خلفاء محمد للأستاذ عمر أبو النصر ج ١ ص ٨٧، ٨٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ومع علمنا بأن هذه الجيوش لم تكن لتضارع الجيوش الفارسية والرومانية فى النظام والكفاية، أو تناهضها فى الأهبة، فإننا نعتقد أن الحماسة الدينية لدى هؤلاء الفتية من العرب قامت مقام النظام والكفاية، وأن الطاعة التى كان يمتاز بها الجندى المسلم كانت تسد كل نقص فى النظام والأهبة والخبرة(١).

وكذلك عنصر المفاجأة والسرعة من العناصر التى فقدها خصومهم فأكسبتهم التفوق وسرعة الحصول على النجاح وتثبيت أقدامهم فى أرض كان شعوبها قد سئموا حكامهم القدامى، ويئسوا من كل إصلاح فاشتاقت نفوسهم إلى ما سمعوه من عدل العرب، ورفقهم بالرعية والإنسانية الكاملة فى معاملة البلاد المفتوحة.

*** العمليات الحربية وخط سير الفتوح**

كان مقدراً فى ذهن أبى بكر أن تكون الروم هدفه الأول بسبب ما كان يصنع الغساسنة بتحريض من سادتهم أباطرة الدولة البيزنطية فكثيراً ما كانوا يغيرون على القبائل العربية التى دخلت فى الإسلام ليحملوهم على الخروج من هذا الدين، وكانت دراسة الطريق إلى بلاد الشام ومعرفة كثير من أحوال الغساسنة والروم من الحوافز التى كانت تجعل أبا بكر يفكر كثيراً فى البدء بحرب الروم.

كيف كان البدء بفارس؟

وإن أبا بكر ليفكر فى هذا ومثله إذ ترامت إليه الأنباء بأن المثنى بن حارثة الشيبانى قد سار بقواته شمالاً مبتدئاً من البحرين حتى وضع يده على القطيف وهجر، وواصل سيره حتى بلغ مصب دجلة والفرات وأنه سجل فى هذه الأماكن انتصارات باهرة على الفرس وعمالهم الذين كانت لهم يد فى معاونة المرتدين بالبحرين.

والمثنى بن حارثة هذا ظهر فجأة فى تاريخ الأبطال لأبى بكر، فلما سأل عنه علم أنه من البحرين من بنى بكر بن وائل وعلم أنه انضم إلى العلاء الحضرمى الذى أرسله الخليفة لمقاتلة المرتدين فى البحرين كما علم أن المثنى جمع حوله من بقى على الإسلام من أهل البحرين ثم اتخذ طريقه من البحرين إلى الشمال محاذياً الخليج الفارسى حتى نزل فى قبائل العرب الذين يقيمون بدلتا النهرين(٢) فتحدث إليهم وتعاهد معهم بعد

---

(١) المرجع السابق ص ٩٨.

(٢) الصديق أبو بكر ص ٢٢٨ و٢٢٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أن علم مقدار الظلم الذى يعانونه من الفرس كما علم أن هؤلاء العرب من تغلب وإياد والنمر على استعداد للاستجابة لكل دعوة عربية تخلصهم من دهاقين الفرس واستبدادهم.

الخطوة الأولى:

بدأت بذهاب المثنى إلى المدينة ليعرض على أبى بكر معلوماته عن إمكان فتح بلاد الفرس وقال له: «أمرنى على من قبلى من قومى أقاتل من يلينى من أهل فارس وأكفيك ناحيتى».

واستشار أبو بكر خالد بن الوليد، وأولى الرأى من المسلمين فأقروا أبا بكر على تأمير المثنى ليعمل فى ميدانه ويتابع فتوحاته.

الخطوة الثانية:

اقتضتها الخطوة الأولى وأصبح الوضع الجديد يستدعى تكليف خالد بن الوليد بالتوجه إلى المثنى ليكون قائدًا عامًا لجيوش الفتح وأصدر أبو بكر أمره هذا إلى خالد فى شهر المحرم من السنة الثانية عشرة للهجرة. وإننا سنعيش مع الجيوش الإسلامية فى العراق عامًا كاملاً من هذا التاريخ، وسنسير مع المحاربين لنعرف مقدار ما أحرزوه من نصر، وما وصلوا إليه من أهداف. ولكنكم ستجدون اختلافًا كثيرًا بين المؤرخين فى ترتيب الوقائع الحربية وتاريخ حدوثها، بيد أن تحقيق الوقائع على الترتيب لا يعنينا بمقدار ما نهدف إليه من معرفة النتائج النهائية لسقوط الدولتين الفارسية والبيزنطية فى أيدى المسلمين.

ونحن أمام كثرة المواقع الحربية نجد أن ضيق الوقت يحتم علينا أن نمر مسرعين بهذه المعارك بحيث لا نقف إلا عند موقعة أو موقعتين من المعارك التى دارت بين المسلمين والفرس ومثلها كذلك فيما بينهم وبين البيزنطيين.

الخطة المرسومة:

بعد أن تلقى خالد أمر التكليف بالتحرك إلى العراق اتفق مع الخليفة على رسم خطة يلتزمها المسلمون فى أرض العراق، وهى احتلال المدن العراقية الواقعة غرب الفرات، وشط العرب تبتدئ من كاظمة، والأبله، والحفير. ثم يأخذ المسلمون طريقهم نحو الشمال فى الماء والبر لاحتلال كل مدن الشاطئ الغربى للفرات والسيطرة عليه

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لتأمين الزحف مستقبلاً إلى داخل البلاد حتى لا يتعرض الجيش لخطر التطويق وقطع خط الرجعة عليه(١).

وتنفيذاً لهذه الخطة كتب خالد إلى المثنى بن حارثة ورفاقه بأن يكون لقاؤهم مع خالد فى الأبله. وتحرك خالد حتى وصل الأبله، ومعه عشرة آلاف من الجنود؛ ووجد المثنى بن حارثة، ومعه ثمانية آلاف جندى، وأخذ خالد يقسم الجيش العام إلى فرق ثلاث: إحداها بقيادة المثنى بن حارثة. والثانية: بقيادة عدى بن حاتم الطائى، والثالثة يتولاها هو. وأمر المثنى أن يكون طليعة الجيوش، وبعد يومين من سيره يتحرك عدى بن حاتم ليلحق بالمثنى وبعد يوم من تحرك عدى تحرك خالد بنفسه، وكان موعدهم جميعًا أن يلتقوا (بالحفير).

*** المعركة الأولى: الحفير أو (ذات السلاسل)**

علم هرمز حاكم مقاطعة كلدة التى تشمل المنطقة الجنوبية من نهرى دجلة والفرات بأن المسلمين قد تواعدوا على اللقاء فى منطقة (الحفير) فأسرع إليها ونزل على مواطن المياه قبل المسلمين، واضطر هؤلاء أن ينزلوا على غير ماء، وأراد خالد أن يتخذ من هذا الوضع ما يثير به حماسة المسلمين فخطب فيهم قائلاً: «حطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء فلعمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين، وأكرم الجندين».

ثم دارت المعركة لصالح المسلمين فى كل مراحلها. وترجع أهمية هذه المعركة إلى أنها أولى المعارك التى خاضها المسلمون ضد الجيوش الفارسية المنظمة. ومن أجل ذلك أحدثت رُعبًا فى قلوب الجنود الفرس ظهر أثره فى سلسلة الهزائم المتتالية التى حاقت بهم، وتسمى هذه المعركة فى كتب التاريخ بذات السلاسل(٢) لأن الفرس قد ربطوا جنودهم بعضهم إلى بعض بالسلاسل حتى لا يفروا إذا اشتد القتال. فكانت هذه السلاسل من العوامل المهمة التى مكنت المسلمين من إبادة أكبر عدد من الفرس.

وكان هرمز قد أرسل إلى أردشير ملك الفرس يستمده فالتقى المدد بفلول المنهزمين عند «المذار» ونزلوا فى مكان يسمى (الثنى) وانتصر المسلمون وقتلوا كثيراً، وبعثوا بالأسرى والغنائم إلى الخليفة بعد أن أخذ الجند أنصبتهم.

---

(١) راجع تاريخ الخلفاء للمرحوم الدكتور محمود فياض ص ١٢٠.

(٢) راجع الكامل لابن الاثير ج٢ ص٢٦٢. هيكل صـ٢٤٣ وما بعدها.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثم حدث لقاء آخر فى مكان يسمى (الولجة)(١)، ومن بعدها فى مكان يسمى (ألليس) والمسلمون فى طريقهم إلى الشمال يقصدون (الحيرة) وكان للحيرة حساب خاص فى ذهن خالد لأنها إمارة عربية تجتمع عندها آمال العرب فى العراق، وهؤلاء العرب هم الذين حرضوا الفرس على قتال المسلمين فى (ألليس) وانضموا إلى الفرس يقاتلون معهم أخذاً بثأر إخوانهم الذين قتلوا فى المعارك السابقة، ثم أسكتتهم الهزيمة، ولكن إلى متى؟ إذا لاح لهم وقت الغدر غدروا بخالد. فلابد من أن يحسب القائد للموقف حسابه ويحكم تدبيره، وأيسر هذا الحساب أن يحتل الحيرة عاصمة العرب ليتم له الاتصال المباشر بشبه الجزيرة وهو آمن.

ولم يكن أهل الحيرة فى شك من وقوع هذا الأمر وأن خالداً سيفاجئهم لا محالة. وعلم حاكم الحيرة أن خالداً سيتخذ السفن التى استولى عليها من الفرس فى المواقع السابقة للوصول إلى الحيرة، ففكر فى تحويل ماء النهر حتى لا يجد المسلمون من الماء ما يحمل سفنهم إلى الحيرة، ولكن خالداً استطاع أن يعيد ماء الفرات إلى مجراه، ووصلت السفن بالجيش الإسلامى إلى قصر الخورنق، وقصر النجف، و حاول أهل الحيرة أن يتحصنوا ويستعدوا للقتال، ولكن المسلمين استطاعوا أن يقتحموا عليهم أسوارهم فاضطروا أن يطلبوا الصلح ويعلنوا أنهم قبلوا دفع الجزية.

وهنا أراد خالد أن يستثير فى عرب الحيرة معانى النصرة لإخوانهم عرب الجزيرة فقال لهم: «ويحكم! أأنتم عرب، فما تنقمون من العرب أو عجم فما تنقمون من الإنصاف والعدل؟» فكان جوابهم «بل عرب عاربة وأخرى مستعربة» وصالح خالد القوم على الجزية التى بلغ تقديرها ١٩٠ ألف درهم، وكتب عهداً بينه وبينهم على هذا.

*** الحيرة(٢) أول عاصمة للمسلمين خارج بلادهم**

وكانت الحيرة قاعدة تمثل فيها نوع جديد من الإدارة والعدل وضمان الحرية والمساواة وقد ترك خالد أمر الإدارات المحلية فى أيدى أبنائها الزعماء، فانتشرت الدعاية للمسلمين ورأى أهل الحيرة ومن جاورهم كيف ترك المسلمون للفلاحين إنتاجهم ومجهودهم؛ وكيف رفعوا الظلم الذى فرضه دهاقين الفرس على طبقة الفلاحين

---

(١) راجع تفصيل هذه المواقع فى كتاب الصديق أبو بكر للدكتور.

(٢) الحيرة مدينة على نهر الفرات.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والزراع، فاندفعت القبائل المجاورة إلى خالد تطلب مهادنته، والانضواء تحت لوائه حتى وصل سلطان خالد إلى شاطئ دجلة، وأصبح يتقاضى الجزية من هذه البلاد جميعاً ابتداءً من الخليج الفارسى جنوباً إلى الحيرة شمالاً، ومن حدود بلاد العرب غرباً إلى دجلة شرقاً(١).

وتستطيعون أن تفهموا من تركيز القوى الإسلامية فى منطقة الحيرة كيف انهدت عزائم الفرس، وانهارت الروح المعنوية عندهم، ومما قرب نهاية الدولة خبر موت كسرى أردشير فى هذا الوقت وقيام سلسلة من المنازعات حول عرش الدولة التى هز كيانها استيلاء المسلمين على رقعة فسيحة من أرضها. ومكنت هذه المنازعات للمسلمين أن يثبتوا أقدامهم ويطهروا المنطقة التى فتحوها من كل مقاومة؛ كما مكنتهم أن يعلنوا على الملأ من الفرس بأن حكمهم حقق الرخاء والسعادة فى المناطق التى فتحوها. ثم أجال خالد جيوشه هنا وهناك حتى فتح الأنبار وعين التمر وحطم جيوش الفرس وكسر شوكتهم فى كل مكان.

خالد بين منطقة الحيرة ودومة الجندل

كانت الخطة التى رُسمت للهجوم على العراق تعتمد على اتخاذ طريقين لمهاجمة الفرس: الطريق الأول: من ناحية الجنوب الشرقى الذى كلف به المثنى وخالد وعدى ابن حاتم. والطريق الثانى: كان من ناحية دومة الجندل، وكلف به عياض بن غنم على أن يهاجم العراق من الشمال عند بلدة المصيخ حتى يقع الفرس بين قوتين من قوى المسلمين، وقال الخليفة لخالد وعياض: «أيكما يسبق كان أميراً على صاحبه»(٢).

ولكن عياض بن غنم لم يستطع أن يتغلب على أهل دومة الجندل الذين لم يمكنوه من الوصول إلى تخوم فارس، ومضى عام وعياض لم يظهر فى ميادين القتال حتى وصل خالد إلى المكان الذى كان مقدراً لعياض أن يبتدئ القتال منه فى أرض الفرس.

ولما ضاق الأمر على عياض استنجد بخالد بن الوليد على أهل دومة الجندل ولما وصل خطاب عياض إلى خالد أرسل الرد من فوره يقول: من خالد إلى عياض (إياك

---

(١) الصديق أبو بكر ص٢٥٣.

(٢) خلفاء محمد جـ١ صـ١١٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أريد) ثم خرج خالد مسرعًا إلى دومة الجندل التى تبعد عن (عين التمر) بمقدار ثلاثمائة ميل[1] فقطعها خالد فى عشرة أيام اجتاز خلالها بادية الشام وصحراء النفود. مستعرضًا خطر الصحراء، ورمالها السافيه بعزم منقطع النظير. وحينما تسامع الناس بمقدم خالد أيقنوا أن الأمر قد خرج زمامه من أيديهم، وأخذ (أكيدر بن عبد الملك الكندى) صاحب دومة الجندل يعرض على زعماء القبائل التى حضرت لنصرته أمر الصلح مع خالد بقوله « أنا أعلم الناس بخالد. لا أحد أيمن طائرًا منه، ولا أحد فى حرب، ولا يرى وجه خالد قوم أبدًا - كثروا أو قلوا - إلا انهزموا عنه. فأطيعونى وصالحوا القوم »، ولكن القبائل التى كانت قد حضرت لمساعدة أهل دومة الجندل لم توافق على الدخول فى صلح مع خالد وصمموا على القتال.

أصبحت دومة الجندل بحكم الوضع الجديد بين خالد الذى أتى من الشمال وعياض الذى أخذ مكانه فى الجنوب فاضطر أهل دومة الجندل للدخول فى الحصن ليدافعوا من داخله. وأخذت سيوف المسلمين جميع من كانوا خارج الحصن ووصل خالد إلى بابه فأمر باقتلاعه واقتحم المسلمون على القوم فقتلوا المقاتلة، وسبوا النساء وفرغ المسلمون من أمر دومة الجندل فحققوا غرضًا مهمًا من الأغراض التى خرجوا من أجلها وأصبحت دومة الجندل من أهم المواقع الاستراتيجية فى أيدى المسلمين لأنها كانت تقع على رأس الطريق الموصل إلى الحيرة والعراق كما تقع على أبواب « وادى سرحان » الذى يؤدى إلى الشام.

وبينما كانت الأمور تأخذ وضعها الطبيعى لصالح المسلمين فى منطقة « دومة الجندل » انتهز الفرس وعرب العراق الساخطون على المسلمين، لقتلهم عددًا كبيرًا منهم « بعين التمر » فرصة غياب خالد وأرادوا أن يثأروا لهزائمهم الماضية فكاتبوا قواد الفرس وملوكهم ليمدوهم بما عندهم من قوة، وعلم « القعقاع بن عمرو التميمى » بتجمعات الفرس وعرب العراق فجرد إليهم فرقتين حتى يعوقهم فى الطريق ثم أرسل إلى خالد الذى أسرع إلى العراق فى خفة وحزم.

وأسقط فى أيدى أهل العراق حين علموا بمقدم خالد ولم يدع خالد الفرصة تمر دون أن يدخل معهم فى قتال عنيف حول (الحصيد) و(الخنافس) قرب الأنبار وانتصر المسلمون بعد مشقات كبيرة وجعل خالد يسير شمالاً على شاطئ الفرات وما حوله فلا يلقى إلا الإذعان له والإيمان بعبقريته.

---

(١) المرجع السابق ص٢٨٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

* **موقعة الفراض[1]**

تعتبر نقطة تحول فى الحرب بين المسلمين والفرس حيث اقتضى الموقع الجغرافى للفراض توجيه الحرب وجهة جديدة لم يكن خالد ولا أبو بكر ليفكرا فيها إلى ذلك الحين. وترجع أهمية موقعة الفراض إلى أنها أول معركة يتحالف فيها الفرس والروم ضد المسلمين وأنهما بتحالفهما هذا حملا المسلمين على أن يدخلوا حتمًا فى حرب مع الروم الذين شعروا أن قضية الفرس إنما هى قضيتهم وبدا للمسلمين أنه ليس من الحكمة أن يقتصر الأمر على فتح فارس بل لابد أن يخوضوا معارك دامية مع حلفائهم الذين اعتبروا المسلمين عدواً مشتركًا بين الدولتين.

ومن أجل ذلك لم يعد فى إمكان المسلمين أن يتركوا الروم بعدما ظهرت نواياهم بالانضمام للفرس فى معركة الفراض. وذلك أن فلول الفرس وعرب العراق الذين فروا أمام جنود خالد فى الحصيد والخنافس استمر بهم الإمعان فى السير شمالاً وجنود خالد من ورائهم حتى وصلوا الفراض وهى تطل على حدود الروم بحيث لا يفصل بين الدولتين سوى نهر الفرات. وهنا اجتمع الحلفاء من الفرس والروم وعرب البادية والتقى الجمعان وقد أمر خالد رجاله أن يلحوا عليهم ولا يرفعوا عنهم؛ وأبدى خالد من فنون القتال ما لم يعهده الجند فى المعارك السابقة حتى انكشف الروم وحلفاؤهم وتبعهم المسلمون يمعنون فيهم قتلا حتى بلغ من قتل بالفراض ومتابعة الفارين مائة ألف بإجماع المؤرخين[2] بالرغم من أن الشهر كان شهر رمضان عام ١٢هـ والفصل كان صيفًا شديد الحر حتى اضطر خالد ومن معه للفطر فى رمضان.

* **مغامرات خالد بن الوليد**

سبق أن اجتاز خالد بادية الشام وصحراء النفود منحدراً من الشمال إلى الجنوب حتى وصل إلى دومة الجندل لينجد عياض بن غنم وقطع هذه المسافات - على بطء وسائل المواصلات - فى أقل من عشرة أيام وهى تزيد على ثلاثمائة ميل.

والآن بعد أن انتهى من موقعة الفراض ومن تطهير المنطقة من جيوب الأعداء وعناصر الفتنة وبعد أن أقام بالفراض مدة أمر جنده بالرجوع إلى الحيرة؛ ووجد خالد أن

---

(١) موقعها بين الرقة شمالا وقرقيسيا جنوبا وهى على الحدود بين الفرس والروم.

(٢) الصديق أبو بكر ص٢٦٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

استقرار الأمور قد تم ولم يبق من شهر ذى القعدة عام ١٢هـ سوى خمسة أيام وموسم الحج فيه متسع يدرك فيه خالد أداء هذه الفريضة. لكن كيف يتغيب خالد عن الجيش والخصوم يعلمون أن شخصية خالد هى التى تضمن هذا الفوز، وتمنع المتذمرين من التمرد لعلمهم بأن خالداً لن يمكنهم من النصر فى أى ميدان؟

لذلك لم يعلن خالد عزمه على الحج لأحد وأخبر جيشه أنه متابع لهم فى الذهاب إلى الحيرة؛ وانفتل بكل قوته وسرعته ينهب الأرض نهبا إلى مكة متخذاً أكثر الطريق استقامة وإن كان أشدها وعورة حتى بلغ مكة وأدى فريضة الحج دون أن يشعر به أحد وعاد بنفس السرعة التى حضر بها حتى أدرك الجيش قبل أن تدخل ساقته مدينة الحيرة[١].

ومن أجل ذلك لم يفطن إلى غيبته أحد من فرس العراق، ولا من عربه ومع ذلك فإن الخليفة لم ينشرح لهذا التصرف. وتذكر المصادر التاريخية أن هذا التصرف كان سبباً فى صرف خالد إلى الشام[٢].

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ٢ ص ٢٧٤.

(٢) المرجع السابق ص ٢٧٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الجبهة الثانية : بلاد الروم

اشتبك المسلمون مع خصومهم فى جبهتين فى وقت واحد . فبينما كان خالد يشتت شمل الفرس فى العراق، ويشردهم أمامه من بلد إلى بلد فى سرعة خاطفة . كانت هناك فرق أخرى من الجيوش الإسلامية تدق أبواب الروم فى أرض الشام، وتقذف بالحدود الشمالية الغربية إلى الشمال على حساب الدولة البيزنطية .

فهل كانت هذه خطة مرسومة وضعها أبو بكر ليقتحم الدولتين فى وقت واحد؟ أم أن الدخول فى الجبهة الثانية كان ضرورة أملتها عوامل النصر فى الجبهة الأولى؟

يختلف المؤرخون فى تحديد تاريخ العمليات الحربية فى غزو الشام فبعضهم يذكر أن غزو الشام كان امتداداً لحروب الردة، وأن الخليفة كلف (خالد بن سعيد بن العاص) بأن يأخذ طريقه للقضاء على المرتدين فى الشمال الغربى للجزيرة حتى إذا وصل إلى (تيماء) توقف حتى تصدر إليه أوامر أخرى(١) .

ويقول البلاذرى ومؤرخو الفرنجة إن الخليفة أرسل الجيوش إلى الشام فى الوقت الذى أرسل فيه زملاءهم إلى العراق (فى أوائل عام ١٢هـ) وإن الحرب بدأت فى الجبهتين معًا .

لكن يبدو أن الغرض من إرسال الجيوش إلى الشام لم يكن للدخول فى حرب حقيقية بحيث يفتح الخليفة جبهتين للقتال فى وقت واحد مع علمنا بأن قوى الدولتين كانت تفوق بكثير قوة المسلمين فلم يكن من الحكمة الدخول فى حرب مع الدولتين فى وقت واحد .

ونستطيع أن نقول إن الخليفة رأى أن زهرة جند المسلمين قد خرجت مع خالد بن الوليد لفتح فارس، وبقية القوى الإسلامية لا تزال مشغولة بالقضاء على بقايا المرتدين، ووصل علم ذلك كله إلى الروم فخشى الخليفة أن ينتهز البيزنطيون هذه الفرصة فيهاجمون المدينة ففكر فى إرسال بعض الفرق إلى تخوم الشام ليظهر قوة المسلمين، ويشغل الروم بهم عن التعاون مع الفرس . فكان عمل هذه الفرق فى أول الأمر مقصوراً

---

(١) خلفاء محمد جـ١ صـ١٣٠ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

على إحداث المناوشات على الحدود، وإلقاء الرعب فى قلوب العرب المأجورين للدولة البيزنطية ورد العدوان بالعدوان فقط.

فلما كُتب النصر للمسلمين فى العراق أدرك الخليفة أنه من الممكن أن يفتح الجبهة الثانية وهو آمن[١] ولا سيما بعد أن سلمت دومة الجندل للمسلمين وأصبحت ناصية الطريق المؤدى إلى الشام والعراق فى أيديهم.

*** الإعداد للروم**

حينما نزل خالد بن سعيد بـ «تيماء» حدثت بينه وبين الروم اشتباكات انتصر فيها مرتين وبلغت الخليفة أخبار انتصاراته مع انتصارات خالد بن الوليد فشجعه ذلك على أن يمضى فى فتح الروم بصورة عملية فأعد ثلاثة جيوش بقيادة ثلاثة من أبطال قريش هم: يزيد بن أبى سفيان، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، وكلف كل قائد باتخاذ طريق معين ليحدث الهجوم فى أماكن مختلفة فتوزع قوة العدو حتى يمكن أخذه على دفعات. وتتابعت نجدات الخليفة لقوات الفتح فى الشام، فكلما فرغت فرقة من حروب الردة أرسلها إلى هذا الميدان، وزاد تدفق الراغبين فى الحرب من المسلمين على المدينة بعد موقعة الفراض بالعراق رغبة فى الحصول على فخار النصر، أو حبا فى الغنائم الوفيرة التى كان يحصل عليها المسلمون.

اجتمع لدى أبو بكر من الجنود ما كوّن به فرقة رابعة خرجت بقيادة أبى عبيدة بن الجراح فأصبح عدد الجيوش المحاربة فى الشام أربعة، وعدد الجنود فيها (٢٤) ألفاً.

تعديل الخطة فى الجيوش الإسلامية

كانت الخطة التى رسمها الخليفة أن يتجه كل قائد إلى جهة يقاتل فيها مستقلا عن زملائه. وبينما عمرو بن العاص فى طريقه إلى فلسطين التى أُمر بالذهاب إليها، إذ تبين له كثرة عدد الجيش البيزنطى، وتصميم جنوده على القتال فأدرك أنه ليس من صالح المسلمين أن يتفرقوا لأن كثرة عدد العدو تمكنهم من التغلب على الوحدات الإسلامية فى كل ميدان، فاقترح على بقية القواد أن يقاتلوا فى ميدان واحد فاتفقوا على أن تجتمع القوات الإسلامية كلها عند نهر «اليرموك» وكتبوا إلى الخليفة بالخطة

---

(١) الصديق أبو بكر صـ ٢٧٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الجديدة وطلبوا إمدادات جديدة فوافقهم على الخطة، بشرط أن يظل كل أمير على جنده يصلى بهم[1].

الأمل فى خالد

اطمأن الخليفة على العراق، وأراد أن يطمئن على فتح الشام وخالد وهو مناط الأمل فكتب إليه يكلفه بأن يستخلف المثنى بن حارثة على من يتركه من الجند ويذهب مسرعا لنجدة المسلمين فى الشام، وقال الخليفة لأصحابه: «والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد» واتخذ خالد فى هذه المرة طريقاً عجيبا محفوفا بالمخاطر غير مألوف يعتبر من المغامرات الخطيرة فى حياة خالد، ولكنه أراد أن يفاجئ الروم بظهوره خلف خطوطهم وليتصل فى الوقت نفسه بجند المسلمين[2].

وصل خالد إلى الشام فوجد أن المسلمين صمموا على القتال متساندين – أى كل منهم على فرقته – فلم يرق هذا النظام فى نظره واقترح أن يكون هناك قائد عام للجيش الإسلامى على نظام الروم وأراد ألا تكون القيادة مركزة بصورة دائمة فى واحد بعينه وإنما تكون القيادة دورية فى كل يوم يليها أحد قواد الفرق الموجودة فى الميدان، كما اقترح أن تكون القيادة له فى اليوم الأول.

* موقعة اليرموك

تختلف المصادر فى تحديد موقعها وتعيين تاريخها كما تختلف فى تسميتها فهى تارة «أجنادين» وتارة «اليرموك» ويذكر ابن الأثير أن معركتين حدثتا فى عهد أبى بكر فى بلاد الشام هما اليرموك ثم أجنادين[3]، ولكن جمهرة المؤرخين لم يذكروا سوى معركة واحدة بعضهم يسميها «اليرموك» وبعضهم يسميها «أجنادين».

وعلى أى حال فهذه المعركة – التى قررت مصير الشام، وفتحت أبواب الدولة البيزنطية أمام جند المسلمين – كانت قوات المسلمين فيها بين أربعة وثلاثين ألفا وأربعين ألفا، بينما كانت جيوش البيزنطيين بين المائة ألف والمائتين وأربعين ألفا

---

(١) الطبرى جـ ٤ صـ ٣٩، وكان الخليفة قد جعل لعمرو بن العاص فلسطين وليزيد بن أبى سفيان دمشق ولأبى عبيدة حمص ولشرحبيل الأردن.

(٢) راجع فى وصف هذا الطريق كتاب الكامل لابن الأثير جـ ٢ صـ ٢٧٩.

(٣) راجع الكامل جـ ٢ صـ ٢٨١ إلى ٢٨٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تجمعت عند مدينة أجنادين فى الجانب الغربى لنهر اليرموك بقيادة البرنس (تيودور) شقيق الإمبراطور هرقل.

ميدان المعركة

ينبع نهر اليرموك من جبال حوران ثم ينحدر سريع التيار إلى الجنوب فيمر بالأردن حتى يصب فى البحر الميت. اختار الجيش البيزنطى النزول قريبا من منخفض الواقوصة فى فضاء فسيح تحيط به الجبال الشاهقة من نواح ثلاث حيث كان منخفض الواقوصة والجبال من خلفهم وتخطى المسلمون النهر إلى ضفته اليمنى واختاروا مكانا يلى مكان الروم، ويسد طريقهم فلما رأى عمرو بن العاص هذا الموقف قال: «أيها الناس أبشروا! حصرت والله الروم وقلما جاء محصور بخير»(١).

وقف الجيشان يتربص أحدهما بالآخر مدة تتراوح بين شهرين حتى كان شهر جمادى الأولى عام ١٣هـ الموافق أغسطس سنة ٦٣٤م أراد الروم أن يدخلوا فى معركة فاصلة مع المسلمين، وقسم خالد جيشه إلى ثمانية وعشرين كردوسا (كتيبة) وجعل للجيش قلبا وجناحين وعين قاضيا وقاصا يعظ المحاربين، ويحرضهم على القتال.

وابتدأت المعركة بمحاولة المسلمين فصل خيالة الروم عن مشاتهم فلما تم لهم ذلك أطبقوا على المشاة فمنهم من التهمته السيوف، ومنهم من تردى فى نهر اليرموك أو منخفض الواقوصة، وكانت السلاسل التى ربط الروم بها جنودهم تساعد على إفنائهم بالجملة، فقد كان الصف الكامل يسقط فى الواقوصة كما ينهد الجدار.

دور المرأة فى هذه المعركة

كان المسلمون قد أعدوا لنسائهم مكاناً مرتفعا يطل على المعركة فلما استعر القتال، وفكر بعض الجنود المسلمين فى الفرار نزلت النساء وفى أيديهن قضب يضربن بها وجوه الفارين ليردوهم إلى القتال، وتعالت صيحات النساء للرجال «لستم بعولتنا إن لم تمنعونا» وراحت كل امرأة تنادى زوجها وقومها، فعلا تكبير الرجال واختلط بصياح النساء ودارت المعركة حامية مجنونة واستمرت نهارا كاملا، ومعظم الليل، فلم يطلع الصبح من يوم ٢٨ جمادى الأولى عام ١٣هـ حتى كان خالد بن الوليد فى خيمة تيودور قائد الروم الذى فرّ إلى حمص ليبلغ الإمبراطور هرقل نبأ الهزيمة والقضاء على معظم الجيش.

---

(١) راجع الكامل جـ٢ صـ٢٨١ إلى ٢٨٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بطولات فى اليرموك

أبدى المسلمون من فنون التضحية وضروب البسالة، ومظاهر الإصرار ما جعلهم جديرين بالنصر مهما كانوا عليه من قلة، ومهما بلغ عدوهم من الكثرة، وهذه إحدى صور الفدائية الرائعة التى حدثت فى اليرموك.

المبايعة على الموت

حدثتنا المراجع التاريخية أن عكرمة بن أبى جهل كان قائدا لفرقته أمام فسطاط خالد بن الوليد، ورأى شدة هجوم الروم كما رأى تراجع المسلمين أمامهم فثار فى عروقه دم الغيرة والعزة الإسلامية، وصاح فى الروم صيحة هزت جوانب الميدان «لقد قاتلت مع رسول الله فى كل موطن وأفر اليوم!(١) ثم نادى فى جموعه «من يبايعنى على الموت؟» فارتفعت أصوات من حناجر قد بُحت من التكبير فى المعركة رددها ضرار بن الأزور، والحارث بن هشام ومعهما أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم: «نحن نبايعك يا عكرمة على الموت».

اندفعت فرقة الموت هذه إلى فيالق الروم تهزها هزا، وتزلزل أقدامها وتفرق جمعها، ولم يكن أحب إلى أحدهم من أن يموت فى سبيل الله ويستشهد فى أرض هذه المعركة، ورأى خالد ما صنع إيمان عكرمة وجماعته بفيالق الروم التى أخذت تتراجع أمام قوة الإيمان العارمة، وهذه العزائم الصارمة فأصدر أوامره بالهجوم العام، والتحم الجيشان، واستحر القتال ووضحت مواقف الأبطال، كما زلزلت أقدام، وتراجعت أقدام. ولكن عكرمة والذين بايعوه على الموت ثبتت أقدامهم لا يتزحزحون قيد أنملة(٢) بعد أن وهب كل منهم نفسه لله فتلظوا نار المعركة من بدايتها إلى منتهاها حتى وهنت قوة الروم وبدا الإعياء على وجوه فرسانهم، وهم يعلمون أن الهاوية ومنخفض الواقوصة من ورائهم وجيش المسلمين فى سبيلهم، وفتح لهم خالد ثغرة للفرار، ثم تعقبتهم جيوش المسلمين تحصدهم حصداً من الأمام كما كانت الواقوصة تجذبهم إلى قاعها من الخلف حتى فقدوا فى هذه المعركة أكثر من مائة وعشرين ألفاً من زهرة فتيانهم، ومهدت هذه المعركة لفتح بلاد الشام كلها وفقدت بيزنطة أخصب ما كانت تملك من ولايات.

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٢٨٣.

(٢) الصديق أبو بكر صـ ٣٠٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عزل خالد

وبينما كانت رحى الحرب تطحن المحاربين وتقرر المصير فى أكبر معركة خاضها المسلمون بقيادة خالد بن الوليد، إذ وصل البريد من المدينة برسالة تنعى إلى المجاهدين أبا بكر خليفة رسول الله وتبشرهم بتولية عمر بن الخطاب مكانه كما تحمل الرسالة أمراً من الخليفة الجديد بعزل خالد بن الوليد من قيادة الجيش، وإسناد القيادة إلى أبى عبيدة بن الجراح، فلم يشأ خالد أن يطلع الناس على ما فى الكتاب والمعركة حامية الوطيس بينهم وبين الروم، خوفا من تسرب الوهن إلى صفوف المسلمين، وإنما انتظر حتى انتهت المعركة بنصر المسلمين ثم دعا أبا عبيدة وأطلعه على الكتاب وسلم عليه بإمارة الجيش وهنأه، وانضوى تحت لوائه جنديا مخلصا، ولم يزد على أن قال: «الحمد لله الذى قضى على أبى بكر بالموت وكان أحب إلىّ من عمر، والحمد لله الذى ولى عمر، وكان أبغض إلىّ من أبى بكر ثم ألزمنى حبه»(١).

القيادة العليا فى الجيش الإسلامى

لم يكن للمسلمين عهد بالقيادة العليا أو القيادة العامة فى الجيش ونحن نعلم أن الخليفة الصديق حين استنفر الناس لحرب الروم، وعقد الألوية للقواد عقد لكل قائد لواءً وعين له المقر الذى يجب أن يقصده فكان كل قائد – والحالة هذه – قائداً عاما لجيشه.

القتال على تساند أو على تعبئة

وكل ما كانوا يحرصون عليه هو القتال على تعاون وتساند بين الفرق المشتركة فى القتال على أن ينفرد كل قائد بتوجيه فرقته حسب مقتضيات الأحوال، ولكن لما تبدلت الخطط الحربية الإسلامية فى سوريا ورأى القواد ضرورة الاتحاد معًا لمجابهة جيوش الروم البيزنطية خُلقت مع هذا الاتحاد مشكلة القيادة العليا.

يبدو من التتبع التاريخى أنه لم يكن هناك قيادة عامة مقررة قبل أن يتولاها خالد؛ وأن خالدا فرضته مواهبه على القواد حين هبط عليهم من العراق – ثقة منهم بجرأته وبراعته – كما يبدو أنه حين وصل خطاب عمر بعزل خالد اتضح فى ذهن القواد والمحاربين أن الغرض المقصود من هذا العزل إنما هو إرجاع خالد إلى رياسة الفرقة التى

(١) محاضرات فى التاريخ الإسلامى للأستاذين محمد بدير وأبو بكر ذكرى ص ١٢١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

حضر معها من العراق حتى يصبح شأنه شأن عكرمة وشرحبيل وغيرهما من قواد الفرق الأخرى، فلما أتم خالد واجبه، وظفر بالروم، تنحى عن القيادة لأبى عبيدة، تنفيذاً لأمر أمير المؤمنين.

وبهذا الصنيع برهن خالد على أن مجده التاريخى والعسكرى لم يقف عند انتصاره على عدوه، إنما كان أكبر مجده يومذاك أنه انتصر على نفسه فلم يضعف عزل الخليفة إياه من حماسته لله ولدين الله، ولم ينهنه من قوة بأسه وعظيم شعوره بواجبه، فقد رضى إمارة أبى عبيدة وسلم بها طائعاً وسار على رأس لوائه يخوض المعارك واحدة بعد أخرى فإذا به هو وإذا النصر يسير فى ركابه(١).

مكان العبرة فى موقعة اليرموك

إن جيشاً عدته أربعون ألفا قد أتيح له أن يتغلب على أضعاف أضعافه ومع كثرة الخصم فى العدد فإنه كان وافر الذخيرة، عظيم السلاح، شديد البأس، عظيم الحضارة، عريقاً فى السياسة والحروب. إن السر الذى يُذكر على لسان المؤرخين المستشرقين من أن الدولتين البيزنطية والفارسية كانتا على جانب كبير من الارتباك والضعف لم يكن وحده سبب هذه الانتصارات الباهرة التى سجلها المسلمون فى كل الميادين، لأن كلتا الدولتين لم تعجز عن حشد الجنود، ورمى الثغور بالمقاتلة من ذوى البأس. وإنما السر الكامن وراء هذه الانتصارات هو الرغبة الصادقة عند المسلمين فى إعلاء كلمة الله. ونشر دينه(٢)، مع ما كانوا يظهرونه من ضروب الشجاعة، والجرأة والتضحية، يضاف إلى ذلك كله براعة القواد وحسن تدبيرهم، وكمال الطاعة من الجند للقواد، ووجود المثل الرائعة من القواد الأكفاء مثل خالد بن الوليد، وأبى عبيدة بن الجراح، والمثنى بن حارثة، والقعقاع بن عمرو، الذين آمن بهم الجند وحالف النصر ألويتهم فى كل معركة حتى خيف على عقائد الناس من الافتتان بهم وعلى القواد من الزهو والغرور.

وفاة أبى بكر

عامان وشهور مدة أحس فيها العالم بأحداث من أخطر الأحداث. فقد ضرب الجزيرة العربية فى تمردها ضربا موجعا حتى ردها إلى العقيدة التى حاولت التمرد عليها، وبعد أقل من عام كانت الجزيرة كما أراد أبو بكر من وحدة العقيدة ووحدة

---

(١) الصديق أبو بكر ص ٢٣٠.

(٢) خلفاء محمد صـ ١٥١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الاتجاه ثم قذف بأشبال المسلمين حدود الفرس والروم فوجدوا هناك مجالا انفسح بالعزيمة، وانفتح بالإيمان.

وبمن من المسلمين كان يصنع أبو بكر كل هذا؟! لم يكن كل مسلم جنديا فى الحروب الجديدة، وإنما كانت الجندية مقصورة على صفوة خالصة من الذين لم تشوه قلوبهم الردة، ولم يفكروا يوما فى الرجوع عن الإسلام.

هذا الرجل أصيب بمرض يختلف المؤرخون فى مصدره: هل كان من سم وُضع له فى طعام فتأثر به؟ أم كان من حمى أصابته عقب خروجه من الحمام فى يوم بارد؟(١) فإنه على أى حال أحس بالنهاية فى عمره فأخذ يفكر فى الأمانة التى يحملها وفى المرحلة الخطيرة التى وصلت إليها دولة المسلمين، وفى الموقف الحرج الذى تورطت فيه الجيوش الإسلامية بعدما اقتطعت مساحات كبيرة من أراضى الفرس وأراضى الروم.

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٢ صـ ٢٨٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الخليفة الثانى

عمر بن الخطاب

*** استخلاف عمر :**

فمن يتولى زمام الأمور من بعده؟ وكيف يتم اختياره؟ أيلجأ المسلمون إلى الانتخابات العامة فيفتح الباب ليتحدث كل فى صاحبه كما يشاء؛ ومن هم الذين لهم حق الانتخاب حتى يكونوا معبرين عن الرأى فى الدولة كلها؟.

الجمهور الإسلامى كله أو معظمه فى ميادين القتال على حدود فارس والروم ليفتحوا آفاقا جديدة للعقيدة الإسلامية، وهمهم كله منحصر فى نصر يكسبونه أو شهادة يرزقونها فى سبيل الله، والباقون فى المدينة عدد قليل من أهل الحل والعقد، وكلهم غارق فيما غرق فيه إخوانهم المحاربون لا ينشدون لأنفسهم خيراً خاصا، وإنما يهدفون من قلوبهم إلى الخير العام، فإذا استأنس أبو بكر برأيهم، وأجمع فريق الصحابة بالمدينة على رأى كان الخير كل الخير فيما أجمعوا عليه. كما كان من خير كل مسلم ألا يشغل الجنود فى ميادين القتال بأمر اختيار الخليفة حتى لا تتبلبل أفكارهم ولا تفتح ثغرات فى صفوف المسلمين.

ويبدو أن الخليفة كان يعلم أن عمر هو الشخصية التى يمكن أن تملأ هذا الفراغ وتنزل من قلوب الناس منازل الرضا، وأنه هو الرجل الذى سُلطت عليه الأضواء من كل جانب فأصبح فى أعين المسلمين أهلا لأن يسد مسد أبى بكر فى إمداد المسلمين بالقوة الروحية والمادية حتى يفرغوا من أمر الفرس والروم.

وأن أبا بكر لفى إحدى أمسياته وقد اشتد به الوجع فكر فى استشارة أصحابه ومعرفة رأيهم فى عمر حتى إذا أعلن استخلافه لم يكن قد استبد وحده بالأمر، ويكون قد حمل أصحابه على الاعتراف بأن عمر هو الرجل الثانى فى الدولة.

سمع رأى عبد الرحمن بن عوف، وسمع رأى طلحة بن عبيد الله، وأقنعهما بأن عمر خير من يُستخلف على المسلمين ثم دعا عثمان بن عفان وقال له: أخبرنى عن

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عمر فقال: «سريرته خير من علانيته، وليس فينا مثله(١)» وأما على فإنه قد اشترط للموافقة على مبدأ الاستخلاف أن يكون الخليفة الجديد هو عمر بن الخطاب(٢).

وهكذا استوثق أبو بكر من أهل الحل والعقد فى المدينة ولم يستطع أحد منهم أن ينكر أن عمر كان بارزًا فى حياة أبى بكر له صوت مسموع فى القضايا الكبرى التى كانت تهم المسلمين، فهو الذى قطع المناقشات البيزنطية فى سقيفة بنى ساعدة، وألزم الناس بأبى بكر. وهو الذى جادل الخليفة فى حرب المرتدين حتى اقتنع بوجوب القتال، وهو الذى رأى أبا بكر خليفة المسلمين وهو ذاهب إلى السوق وعلى ذراعه أبراد (ثياب) فقال له: إلى أين؟! قال أبو بكر: إلى السوق، قال: تصنع ماذا وقد أصبحت خليفة المسلمين؟! قال: فمن أين أحصل على رزق عيالى؟ قال: اذهب إلى أبى عبيدة يفرض لك – وكان أبو عبيدة أمينا على بيت المال – ففرض له، وهو الذى وقف غاضبا فى وجه خالد بن الوليد لأخطاء نُسبت إليه.

بهذه المواقف وغيرها فرض عمر نفسه فى المنصب بعد أبى بكر، فلم يكن عجبا أن اختاره الخليفة، وكتب عهدًا بذلك لتستمر سياسة أبى بكر فى طريقها دون أن تعوق أو تضطرب. فى الوقت الذى كانت فيه عيون العالم كله مفتحة إلى ما تنكشف عنه الأيام من عجائب قامت بها قلة من المؤمنين، تريد أن تمسح من خريطة العالم دولتى الفرس والروم، وتضم هذه المخلفات إلى تلك الدولة الناشئة، وتنشر بين الناس مبادئ دينها وإيمانها.

* أول أعمال عمر

كان المثنى بن حارثة قائد جيوش العراق بعد خالد قد علم بتجمعات الفرس ضد المسلمين ودخل معهم فى معارك انتصر فيها، ولكنه خشى من إصرارهم على القتال، فذهب إلى المدينة ليستمد أبا بكر ولكنه وجده على فراش الموت، وبالرغم من وطأة المرض فإن الخليفة أرسل إلى عمر بعد أن كتب له عهد الخلافة وقال فى حضرة المثنى: «إنى لأرجو أن أموت من يومى هذا فإذا أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى، ولا تشغلنكم مصيبة – وإن عظمت – عن أمر دينكم، وإن فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق» ثم مات أبو بكر من يومه ٢١ من جمادى الثانية عام ١٣ هـ (أغسطس عام ٦٣٤م).

فقام عمر بدفنه فى حجرة عائشة بجوار حبيبه محمد رسول الله ﷺ.

---

(١) الكامل ج٢ صـ ٢٩٢.

(٢) عصر الخلفاء الراشدين للدكتور فياض صـ ١٤٦، وكتاب الخلفاء للسيوطى صـ ٥٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أخذ عمر ينفذ ما أمر به الخليفة الراحل فشرع يعرض على الناس أن يذهبوا مع المثنى إلى العراق، وظل عمر يندب لهذا الأمر بطريق العرض ثلاثة أيام، والناس متثاقلون، ولكن المثنى أدرك أن هيبة الفرس وخشية المسلمين من قوتهم هى التى منعت الناس من الاستجابة لعمر فأخذ يهون من أمر الفرس ويكشف ألوانا من ضعفهم وتفرقهم حتى أقبل السامعون على الذهاب معه، وكان أول من لبى النداء هو أبو عبيد ابن مسعود الثقفى (والد المختار بن أبى عبيد) ثم تتابع الناس فى أثر أبى عبيد الذى ولاه عمر قيادة الجيش.

سار أبو عبيد على رأس خمسة آلاف سوى من انضم إليهم فى الطريق من الراغبين فى القتال، وكان المثنى قد سبقه إلى الحيرة ليعد نفسه ويخبر بقية الجند بالإمدادات القادمة.

أما الفرس فإنهم أدركوا خطورة موقفهم، فأرادوا أن يفرغوا من الخلاف حول العرش بتولية (بوران بنت كسرى) التى استعانت بالقائد (رستم) أمهر قواد الإمبراطورية لتبرهن للفرس على قوتها بطرد المسلمين من الأراضى التى فتحوها وقام رستم بالتمهيد لهذه الغاية بأمرين:

أولا: تحريض سكان سواد العراق على الثورة ضد المسلمين؛ وأرسل فى كل إقليم رجلا يحمل أهله على التمرد والعصيان، فوجدت هذه الدعوة آذانا صاغية من زعماء الأقاليم لأنهم كانوا يعتقدون أن النصر لابد أن يعود إلى الفرس مهما كانت قوة خصومهم.

ثانيا: وضع رستم خطة لتهديد مدينة الحيرة التى اتخذها المسلمون مركزاً لتحركاتهم ضد الفرس ولما رأى المثنى بن حارثة أن حوض الفرات قد اضطرم بنار الفتنة وأن جيش الفرس اتخذ مكانه بموضع قريب من الحيرة يسمى (النمارق) ليهددها بالهجوم اضطر لإخلاء الحيرة والتقهقر إلى البادية، واختار أن ينتظر المدد الذى خرج من المدينة بقيادة أبى عبيد الثقفى.

*** موقعة الجسر**

اتخذ الفرس أماكنهم على الضفة الشرقية لنهر الفرات تجاه مدينة الحيرة ورتبوا الاتصال بينهم وبين المدائن عاصمتهم كما وقف المسلمون على الضفة الغربية تجاههم، وطلب كل إلى خصمه أن يعبر إليه وكان من الحكمة أن ينتظر المسلمون حتى

يعبر إليهم الفرس، ولكن القائد الجديد أبا عبيد اختار أن يكون هو الذى يعبر إليهم رغم نصيحة الخبراء من المسلمين ووضع لذلك جسراً من الزوارق مرت عليه الجيوش.

فوجئ المسلمون بمجموعة من الأفيال فى جيش الفرس أجفلت خيل المسلمين، واضطرب نظامهم فأرادوا التقهقر بنظام إلى الشاطئ الغربى، ولكنهم فوجئوا بانقطاع الجسر حيث قطعه عبد الله بن مرثد الثقفى ليحمل المسلمين على الاستبسال والثبات. فلما لم يجد المسلمون طريقًا للرجوع زاد اضطرابهم؛ وأدرك الفرس مقدار الوهن عند المسلمين فانقضوا عليهم ليدفعوا بهم إلى النهر فيموتوا غرقا أو تأخذهم السيوف من كل جانب.

ولكن بعض الحريصين على إنقاذ الجيش أعادوا الجسر ووقف المثنى بن حارثة يحرس الانسحاب ويحميه حتى أنقذ ما أمكن إنقاذه.

كان فشل المسلمين فى هذه المعركة مراً فى أفواههم جميعًا لأنه أول فشل أصابهم فى تاريخ تلك الحروب، والسبب فى هذا الفشل راجع إلى أمرين جوهريين:

أولا – تسرع أبى عبيد الثقفى بالعبور للفرس وعدم إصغائه لنصيحة العارفين.

ثانيا – قطع الجسر بعد الهزيمة كان من شأنه أن يقضى على جميع المسلمين وربما كان من الممكن أن يؤدى قطع الجسر الغرض منه إذا كان ذلك قبل الدخول فى المعركة ليكون فى حساب المسلمين أنهم لن يتقهقروا ولابد أن تكون خطواتهم للأمام.

*** موقعة البويب**

واستطاع المثنى بن حارثة أن يعيد تنظيم جيشه رغم قلة الجند حيث كانت بقية حصاد معركة الجسر حوالى ثلاثة آلاف جندى ولكن عمر بن الخطاب حين وصلته أنباء هزيمة المسلمين استنفر الناس ونادى بالنفير العام وسمح لمن حسنت توبته من المرتدين بالمشاركة فى القتال فتدفقت الإمدادات على المثنى الذى عسكر بهذه الجموع عند البويب التى تقع إلى جنوب الحيرة بينها وبين الكوفة، ونادى كل من القائدين صاحبه بالعبور إليه، وكان طبيعيا أن يمتنع المسلمون من العبور بعد الذى أصابهم فى موقعة الجسر، كما كان طبيعيا أن يدفع النصر الماضى جيوش الفرس لتلتقى بالمسلمين حيث كانوا بعد أن أصبح أمرهم هينًا على أبناء ساسان.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

التحم الجيشان واقتتلا يوما طويلا وكان المسلمون فى رمضان عام ١٣هـ فصدرت الأوامر بالإفطار حتى يقوى الجند على القتال، وصدق قلب الجيش الإسلامى فى الهجوم على قلب الجيش الفارسى، فانهزم وطبق الجناحان الإسلاميان فى غيظ وحقد على جموع الفرس الذين فكروا فى الفرار، وكان أملهم الوحيد فى العبور على الجسر إلى بلادهم، ولكن المثنى بن حارثة كان قد سبق المهزومين إلى الجسر فقطعه تماما كما حدث للمسلمين فى موقعة الجسر، وتركهم لسيوف المسلمين تحصدهم حصدا حتى قُتل منهم عدد كبير جدا لم يكن يخطر لأحد من الجانبين على بال. فيذكر ابن الأثير فى وصف ما أصاب الفرس فى هذه المعركة أن (خيول المسلمين أخذتهم حتى جعلوهم جثثًا فما كانت بين المسلمين والفرس وقعة أبقى رمة منها. بقيت عظام القتلى دهراً طويلا، وكانوا يقدرون القتلى مائة ألف)[١] عدا من تفرق من الذعر فى ريف العراق، وتركوا أمتعتهم وأسلحتهم.

وتعد موقعة البويب من المواقع الكبرى ذات الشأن فى مستقبل الدولتين حتى يذكر ابن كثير أن هذه المعركة فى العراق تشبه فى نتائجها موقعة اليرموك فى الشام.

وقد فتحت معركة البويب جميع المناطق بين دجلة والفرات أمام جند المسلمين فراحوا يفتحون المدن دون أن يقف فى سبيلهم أحد حتى وصلت طلائع المسلمين إلى المدائن وجاوزتها إلى تكريت التى تقع فى أقصى العراق شمالا فاستولوا عليها بعد حصارها أربعين يوما.

وقد أملت تلك النتائج لموقعة البويب على الفرس أن يضعوا حدا لتلك الهزائم المتلاحقة، وأن يوقفوا الزحف الإسلامى بالعمل على توحيد صفوفهم المتفرقة، بسبب موجة السخط على تولية امرأة شئون الإمبراطورية الفارسية.

* يزدجرد الثالث وعنف المعارك فى عهده

اتفق زعماء الفرس على تولية يزدجرد الثالث وأخلصوا له فى إنقاذ الدولة من سلطان المسلمين، ولما كانت الحيرة هى مركز التحركات للجيوش العربية كان من الطبيعى أن تُحشد الجيوش من شتى أنحاء الإمبراطورية الفارسية لدك هذه القاعدة واستخلاصها من أيدى أعدائهم العرب.

---

(١) الكامل ج٢ صـ ٣٠٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أمام ذلك الخطر اضطر المثنى بن حارثة أن يصدر أوامره بالانسحاب من أرض الجزيرة ومن الحيرة كذلك إلى أطراف البادية حيث عسكر «بذى قار» وأرسل بأخبار كل ذلك إلى عمر بن الخطاب.

ولما كان الخليفة عمر بن الخطاب مصمما على سحق الإمبراطورية الفارسية فلابد أن يجند لها إمكانيات الجزيرة العربية كلها من مال ورجال، ومن أجل ذلك كتب أولا إلى أبى عبيدة بن الجراح أمير الجيوش فى الشام يطلب منه صرف خالد بن الوليد مع جنده الذين كانوا معه فى العراق ليرجع بهم إلى قتال الفرس ولكن أبا عبيدة لم يرغب فى الاستغناء عن خالد وأرسل مكانه هاشم بن عتبة بن أبى العاص على رأس عشرة آلاف لنجدة جند المسلمين بالعراق. بيد أن هذا العدد لم يكن ليحقق الغرض الذى يهدف إليه الخليفة فأخذ يكتب إلى عماله على القبائل فى كل مكان قائلا: «لا تدعو أحدا له فرس أو سلاح أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلىّ والعجل العجل»(١)، وكان هذا النداء للنفير العام فى شهر ذى الحجة عام ١٣هـ، والخليفة فى موسم الحج فلم يكد يفرغ من حجه حتى توافدت عليه الجنود من كل وجه. فأما من كان قريبا من العراق فقد لحق بالجيش العربى يركب إليه المفاوز والصعاب، وأما من كان قريبا من المدينة فقد اجتمعوا فيها على الخليفة انتظاراً لتوجيهه وتنفيذ أوامره.

عمر يرغب أن يقود الجيوش بنفسه

نحن الآن فى غرة المحرم الرابع عشر للهجرة؛ والمدينة تعج بالجند وتضطرب بالراغبين فى القتال، ورأى عمر أن يخرج بهذه الحشود من مغاوير العرب حتى ينزل بهم على ماء يدعى (صرار) على ثلاثة أميال من المدينة.

كان عمر شديد الرغبة فى أن يجاهد بنفسه أعداء الإسلام، ولكن كبار الصحابة رأوا فى بقائه بالمدينة، ومده الجيش بالرجال والسلاح ما هو خير من جهاده بنفسه، واقتنع عمر بوجهة نظر الصحابة، ولكن من هو القائد الذى يعهد إليه بقيادة هذه الجموع.

سعد بن أبى وقاص رجل الساعة

أدار الخليفة بصره فيمن حوله يبحث عن القائد الجرىء، والمحارب البارع فلم يجد فى الحاضرين أحدا يغنى الغناء الذى يريده. فأطلق بصره يبحث فى العمال والنواب

---

(١) خلفاء محمد صـ٣٣ عمر بن الخطاب.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

البعيدين عن المدينة؛ فوجد أن سعد بن أبى وقاص هو المرجى لهذا الأمر، والذى انعقد عليه إجماع الحاضرين، وكان يومئذ على صدقات هوازن فندبه لقيادة الجيش وأمره بالتشمير والجد وأن يستثير القبائل فى الطريق ليتبعه كل من كان فيهم السلاح(١) والقدرة على استعماله.

*** القادسية معركة فاصلة**

بينما كان سعد فى طريقه إلى العراق يسرع الخطى ليلتقى بالمثنى بن حارثة فيفيد من خبرته بمعالم البلاد الفارسية، وينتفع بتجاربه فى حرب هؤلاء القوم؛ كان المثنى يعالج سكرات الموت من الجروح التى أصابته فى موقعتى الجسر والبويب، ولم يشأ المثنى أن يخرج من هذه الدنيا قبل أن يكتب إلى سعد بكل ما عنده من علم يفيده فى حرب الفرس، ويكفل له النصر إذا نفذ ما أوصى به المثنى(٢).

سار سعد بعد أن عبأ جيشه حتى نزل القادسية (وهى تقع إلى الغرب من مدينة النجف الحالية) وكما تلقى التعاليم من الخليفة أرسل وفدا إلى كسرى يعرض عليه الإسلام أو الجزية أو الحرب، ولكن هذه العروض لم تمنع يزدجرد من الإعداد للمعركة فاتجهت جموعهم وعلى رأسها «رستم» القائد حيث عسكرت قبالة القادسية - عند بلدة النجف الحالية - وجعل «رستم» البريد بينه وبين المدائن لا ينقطع لتصل أخبار المعركة أولا بأول. كما صنع سعد مثل ذلك بينه وبين عمر ليستطلع رأيه فى كل جديد.

وقف الجيشان وجهًا لوجه، وقد علق كل من الفريقين أمله على نتائج هذه المعركة. ورتب عليها ما رتب لأمته من حياة أو موت. فكان كسرى فى سرادقه لا ينام ليلا ولا نهارا، يتلقى أنباء الحرب أولا بأول، كما كان أمير المؤمنين يخرج يوميا إلى مسافات بعيدة ينتظر رسولا من سعد ويتنسم أخبار المعركة وقد تقرح جفناه من طول السهر، وأصبحت القادسية الشغل الشاغل للعرب والفرس من المحاربين وغير المحاربين.

---

(١) خلفاء محمد صـ ٣٥.

(٢) عصر الخلفاء الراشدين صـ ١٩٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المعركة(١)

بدأت فى شهر شوال عام ١٤هـ، ودارت على ثلاثة أيام بلياليها، عرف اليوم الأول بيوم (أرماث) وعرف اليوم الثانى بيوم (أغواث) واليوم الثالث يوم (عماس)(٢). كان اليوم الأول فيها على المسلمين بسبب ظهور الأفيال فى المعركة، وكان اليوم الثانى سجالا بين الفريقين، وأما اليومان الثالث والرابع فكانا للمسلمين على الفرس. وانتصر الإسلام وعلت كلمته، ولم تقم للفرس بعدها قائمة حيث كان هذا النصر إيذانًا بزوال الكسروية الفارسية إلى الأبد، إذ إن يزدجرد قد بذل كل جهود الدولة فألقى بجميع إمكانياته من رجال وعتاد، كما بذل كبير قواده «رستم» كل ما عرفه من فنون الحرب ليحقق أمل الدولة ويحفظ لها كيانها. فلما انكسر الجيش انهارت الآمال، وتداعى كيان الدولة وانحطت الروح المعنوية عند الفرس.

أما عند المسلمين فقد فتح النصر أمامهم باب الاستيلاء على كل أقاليم الفرس، وتوافدت قبائل العرب فى العراق وأهل السواد، وتوافد فلاحو الفرس يباركون هذا النصر بالدخول فى الإسلام وتقديم الولاء للفاتحين، وقد كتب سعد بن أبى وقاص إلى أمير المؤمنين يخبره بالنصر، وكان الخليفة لا ينفك يخرج إلى الطريق يتشوف رسالة من جنده حتى رأى رجلا يحث دابته، فسأله من أين جاء؟ فأجابه: من العراق! قال عمر: ما فعل الله بالمسلمين؟ قال: هزم الله العدو. كل ذلك والرسول مسرع بدابته، وأمير المؤمنين يجرى خلفه مجهداً حتى دخلا المدينة، والرسول لا يعلم أن هذا الذى يجرى وراءه هو أمير المؤمنين، حتى سلم الناس على عمر، فقال الرجل: فهلا أخبرتنى -رحمك الله- أنك أمير المؤمنين؟ قال عمر: لا عليك يا أخى! هات ما عندك، فسلمه كتابا من سعد فيه أنباء النصر، وأسماء من قُتلوا فى المعركة ثم وصلت بعد ذلك الغنائم، وكانت شيئًا كثيراً من الذهب والفضة والنساء والأطعمة والثياب. فلما رآها عمر بكى بكاءً مرًا ثم قال: «ما أعطى الله قومًا هذا إلا تحاسدوا وتباغضوا، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا إلا جعل بأسهم بينهم شديداً».

---

(١) أطال ابن الأثير فى وصف المعركة جـ٢ من صـ٣٠٩ - ٣٣٨ فراجعه إن شئت.

(٢) لم نعثر على تعليل علمى لهذه التسمية، ولسنا ندرى أهى أسماء أماكن أم هى من الرمث والغوث والعمس؟.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

* ما بعد القادسية

كان النصر فى القادسية هو إشارة الانطلاق للجيش الإسلامى ليجتاح المدن والمعسكرات الفارسية، وكانت أوامر الخليفة هى التى تحدد اتجاه الزحف فى الإمبراطورية الفارسية. فبعد أن استراح الجيش مدة شهرين بأمر الخليفة تحرك نحو سهول الجزيرة الواقعة بين نهرى دجلة والفرات، حيث حضر أمراء الأقاليم الفارسية ليقدموا فروض الطاعة، فمنهم من دخل الإسلام، ومنهم من أذعن للجزية، ثم وجه الخليفة جيش سعد إلى فتح المدائن عاصمة كسرى فى شهر جمادى الأولى عام ١٥هـ وما إن علم يزدجرد بالزحف الإسلامى حتى فر مع جملة من الرؤساء وكبار رجال دولته تاركين ما فى قصورهم من نفائس؛ لتكون من نصيب الفاتحين. وقصد كسرى إلى مدينة حلوان الواقعة فى الشمال الشرقى من المدائن على بعد مائة ميل منها تقريباً.

وصارت أوامر الخليفة ترسم الخطة للفتح الجديد، والجيش ينفذ هذه الأوامر بدقة وإخلاص حتى وصلوا إلى شمال العراق حيث تقع مدينة (تكريت) التى تجمع فيها جمع من الروم وبقية من نصارى العرب على حرب المسلمين. وهناك ضرب المسلمون حصاراً حول المدينة استمر أربعين يومًا تمكنوا فيها من استمالة العرب الذين شعروا بروابط الدم واللغة بينهم وبين العرب المسلمين، واتفقوا على معاونة بنى عمومتهم بعد أن دخلوا فى الإسلام سراً دون أن يعلم الفرس والروم.

ووُضعت الخطة على أساس الهجوم الخارجى من المسلمين، حتى إذا سمع المسلمون الجدد تكبير إخوانهم فى الخارج استولوا على مداخل المدينة من ناحية دجلة. فوقع الفرس والروم بين سيوف المسلمين فى الداخل والخارج، ومُزقوا كل ممزق ثم تتبعت سرايا المسلمين فلول الهاربين وتم لها الاستيلاء على كل مدن الشمال، وعقد أهل هذه البلاد لأنفسهم الذمة ودفعوا الجزية بعد الإذعان والتسليم.

* إنشاء البصرة والكوفة

اتخذ المسلمون من المدائن قاعدة لأعمالهم الحربية بعد موقعة القادسية. ولما طال مقامهم هناك لاحظ الخليفة عمر تغيراً فى وجوه من نزلها من العرب وشاهد ضعفا فى أبدانهم فأرسل إلى سعد بن أبى وقاص يقول له: (ابعث سلمان الفارسى وحذيفة بن اليمان رائدين فليرتادا منزلا بريا، وبحريا ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر)(١)،

---

(١) الكامل جـ ٢، صـ ٣٦٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فأرسلهما حتى أتيا موضع الكوفة والبصرة فأعجبهما الموقع، وبعد أن وافق الخليفة على اختياره انتقل إليه سعد واتخذه معسكرًا للمسلمين عام ١٧ هـ.

وبتمصير هذين المصرين حلت الكوفة محل الحيرة كما حلت البصرة محل الأبلة، وأصبح لهذين المصرين شهرة واسعة فى قيادة الجيوش والمجال العلمى والمجال السياسى فيما بعد، ومنذ هذا التاريخ أصبح إقليم العراق العربى قسمين: أعلى – وقاعدته الكوفة – وأدنى – وقاعدته البصرة – وأصبح على كل قسم أمير؛ ما عدا فترات كان يُجمع فيها القسمان لأمير واحد.

* نهاوند أمل يزدجرد

فى سنة ٢٠ هـ كتب يزدجرد الثالث إلى جميع الولايات الفارسية – التى كان يعتقد أنها ظلت على ولائها – أن تبعث إليه ما تقدر على حشده من الجنود ليجرب حظه من جديد فى استرداد ملكه من العرب، فلبى نداءه جموع غفيرة ممن لا يزالون يتعلقون بسلطان فارس ووجوب مناصرة كسرى حتى بلغ عددهم – فيما تحكيه كتب التاريخ – مائة وخمسين ألفا من ناحية الرى والقسم الفارسى من دولة الأكاسرة، وتولى قيادة هذه الجموع (فيروز) الذى رسم خطته بأن يسير الجيش إلى همذان ثم منها إلى حلوان ثم منها إلى الكوفة حيث يقذفون بالعرب إلى جوف الصحراء فيعودون إلى بلادهم مهزومين.

بلغت أنباء هذه الخطة أسماع أمير المؤمنين فعزم هذه المرة على أن يقود الجيوش بنفسه، ولكنه حين مُنع اختار «النعمان بن مقرن» ليقود ثلاثين ألفًا من المسلمين يلتقى بهم مع الفرس أينما كانوا، فاتجه النعمان إلى حلوان وهناك أخبرته طلائع جيشه بأن الفرس عسكروا فى نهاوند وأن الطريق إليهم خال من العقبات، فزحف النعمان حتى صار فى مواجهة الجيش الغازى الذى تحصن بالخنادق والحصون.

وهنا أشار طليحة بن خويلد الأسدى(١) على النعمان أن يقوم المسلمون بهجوم خفيف يعقبه تقهقر منظم يغرى الفرس بالخروج خلفهم، فإذا خرجوا رجع المسلمون إليهم بعنف بعيدًا عن الخنادق، وكُتب النصر للمسلمين حيث قتل القائد الفارسى ومعه ثلاثون ألفًا من جنوده، وخسر يزدجرد آخر ورقة له فى هذه المقامرة. وكما فتحت (القادسية) أبواب فارس على مصراعيها، فإن (نهاوند) حطمت الكسروية

(١) المتنبى سابقًا والمؤمن المخلص الآن.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وأخرجتها مع كسرى من باب خلفى إلى غير رجعة، ولهذا سميت موقعة نهاوند (فتح الفتوح)؛ لأن المسلمين لم يشتبكوا بعدها مع الفرس فى معركة مثلها. ولئن كان المسلمون قد خسروا قائد المعركة (النعمان بن مقرن) فإن جنوده استطاعوا أن يخفوا موته، وحمل اللواء بعده حذيفة بن اليمان يعاونه القعقاع بن عمرو، وأصبح الفرس وقد ألقوا بزمامهم للمسلمين يعتنقون دينهم أو يدفعون لهم الجزية عن يد وهم صاغرون، وأصبح الخليفة عمر لا يخاف توغل المسلمين فى فارس بعد أن تيقن أن كسرى الشريد لن يتمكن بعد ذلك من استرجاع ملكه أو جمع قوته، وأن الله قد أورث المسلمين أرضه ودياره، وصارت كل حركة للمسلمين مأمونة العاقبة.

أما يزدجرد الثالث فإنه أخذ يبحث عن أرض تؤويه، أو مكان ينجيه، والمسلمون يطاردونه إلى أصفهان، ثم إلى كرمان، ثم إلى بلخ، ثم إلى مرو قرب بلاد الترك والصين ليجد معونة من الترك والصين ولكن كل ذلك لم يُجدِه نفعًا وظل طريدًا شريدًا فى بلاد ما وراء النهر حتى هلك فى زمن الخليفة الثالث عثمان بن عفان.

وأصبح عمر بن الخطاب يبعث بأوامره من المدينة إلى فارس فيتسابق أهلها فى طاعته من الفرات غربًا إلى جيحون شرقًا، ومن المحيط الهندى جنوبًا إلى بحر قزوين شمالاً، وغزا الإسلام قلوب الفرس فآمنوا وجاهدوا مع العرب وصارت لهم فى الإسلام خدمات جليلة ستبدو لدارس التاريخ الإسلامى ناصعة وضاءة.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الفتوحات العمرية فى الشام

قررنا فيما سبق أن مصادر التاريخ لم تتفق على ترتيب الوقائع الحربية فى بلاد الشام كما لم تتفق على توقيتها وتحديد زمنها. فكثير من الفتوحات يُذكر على أنه تم فى عهد أبى بكر ثم يُذكر ثانيًا على أنه من أعمال عمر، وهكذا. ولكن الذى درج عليه الجمهور - وأصبح كأنه مبحوث مقرر - هو أن موقعة اليرموك هى التى وصل فيها نعى أبى بكر، وتولية عمر، وعزل خالد(١)؛ ليصبح أبو عبيدة بن الجراح قائدًا عامًا لجميع الأمراء والجيوش فى الشام ثم وزع الغنائم وأرسل بالخمس إلى المدينة ومعه كتاب يصف فيه تجمعات الروم فى مكان يسمى «فِحْلٌ»(٢)، وأن إمدادات تأتيهم من حمص، ويذكر أبو عبيدة للخليفة أنه لا يدرى بأى الجبهتين يبدأ؟.

* فتح دمشق فى المحرم عام ١٤ هـ(٣)

صدرت أوامر الخليفة إلى قائده أبى عبيدة بأن يسير إلى دمشق ويرسل فرقة إلى (فِحْلٌ) لتشغل من بها من الروم عن الانضمام إلى إخوانهم فى دمشق، ونفذ أبو عبيدة هذه الخطة وهاجم دمشق وضرب حولها حصارًا قطع عنها جميع الإمدادات، واستمرت مقاومة أهل دمشق فى صبر وجلد مدة سبعين يومًا حتى انتهز خالد بن الوليد فرصة انشغال المدينة بإحدى حفلات السمر وتمكن من اقتحام أسوارها حتى وصل إلى قلبها فوقع الذعر فى قلوب أهلها، وتضافرت جهود المسلمين فى الهجوم حتى شُغل أهل كل ناحية بمن يليهم من المسلمين فأيقنوا بالهزيمة، وحينئذ خرج وفد من أهل دمشق لمقابلة أبى عبيدة يعرضون عليه الصلح على ما كانوا قد رفضوه أولاً، وأصدر أوامره للجيوش بالكف عن القتال، ثم اتجه إلى فِحْل حيث حاصرها وفيها ثمانون ألفا من جنود الروم فلما اشتد الحصار خرجوا ليفاجئوا المسلمين فى غفلة منهم، ولكن المسلمين التقوا بهم ومنعوهم من الرجوع إلى أماكنهم وأوقعوا بهم الهزيمة الساحقة.

---

(١) خلفاء محمد صـ ٩١.

(٢) بكسر الفاء وسكون الحاء.

(٣) خلفاء محمد صـ ٩١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

إلى حمص

كان الشتاء قارسًا حين حاصر أبو عبيدة مدينة حمص، واستمر الشتاء كله لم يمنعه عنها برد قارس، ولا مطر غزير؛ حتى طلب أهلها الصلح على مثل ما صالح عليه أهل دمشق، فأجابهم إلى ما طلبوا ووصلت الأخبار إلى هرقل إمبراطور الروم بالانتصارات الباهرة التى أحرزها المسلمون، فاضطر إلى مغادرة الشام كله إلى القسطنطينية قائلاً: (سلام عليك يا سوريا، سلامًا لا لقاء بعده)، واستمر أبو عبيدة فى تقدمه نحو الشمال حتى اتصلت ممتلكات المسلمين بالشام بفتوحاتهم فى العراق.

أجنادين وبيت المقدس

كانت الخطة التى رسمها الخليفة أبو بكر لعمرو بن العاص أن يذهب إلى فلسطين حتى إذا فتحها كانت من نصيبه؛ شأنه فى ذلك شأن باقى القواد الذين وُجهوا إلى جهات مختلفة، وكان القائد البيزنطى فى فلسطين أول عهد عمر هو المسمى (أريتون) أو (أرطبون) وكان معروفًا بالحذر والدهاء وبعد النظر، فلما علم عمر قال: (رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب[1])، ودخل عمرو بن العاص فى حرب مع أرطبون قائد البيزنطيين انتهت بهزيمته وفراره إلى فلسطين ونزوله فى بيت المقدس، وتعقبه عمرو فصار يفتح فى طريقه المدن التى يمر بها؛ حتى فتح معظم بلاد فلسطين ووصل إلى بيت المقدس فضرب الحصار حوله، ولما اشتد الحصار رغب أهل بيت المقدس فى الصلح واشترط البطريرك المسيحى أن يتولى عقد الصلح الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه، وفى أثناء هذه المفاوضات فر الأرطبون إلى مصر.

* عمر بن الخطاب فى الشام

كتب عمرو بن العاص إلى الخليفة يخبره برغبة أهل بيت المقدس فى صلح يعقده الخليفة بنفسه، فخرج عمر إلى الشام – وكانت هذه أول مرة يخرج فيها الخليفة من المدينة – ثم كتب قبل خروجه إلى أمراء الشام يطلب إليهم أن يقابلوه فى الجابية، فلما استقبلوه هناك وجدهم يركبون الخيول المطهمة وعليهم حلل الديباج والحرير، فنزل عن برزونه وحصبهم بالحجارة قائلاً: (إيایّ تستقبلون فى هذا الزى وإنما شبعتم

---

(١) عصر الخلفاء الراشدين صـ ٢١٥ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

منذ سنتين؟ ما أسرع ما ندت بكم البطنة، وتالله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدل بكم غيركم).

ثم دخل الجابية وجاءه وفد بيت المقدس فكتب لهم عقد الذمة والأمان[1]، وكان وجود الخليفة فى بلاد الشام من العوامل التى شجعت المسلمين، وألقت الرعب فى قلب هرقل حتى فقد الأمل فى سوريا كلها.

وبانتهاء المسلمين من فتح فلسطين تمت لهم السيطرة على بلاد الشام كلها من أنطاكية شمالاً إلى مصر جنوبًا، ولم يجد المسلمون شيئًا غريبًا فى بلاد الشام من ناحية الجو والبيئة والعادات والتقاليد، فأقاموا فى المدن ولم يحاولوا أن يقيموا أبنية وينشئوا مدنا كما صنعوا فى العراق؛ لأن جو الشام هو نفسه جو الجزيرة العربية لا يختلف عنه اختلافًا ملموسًا.

* فتح مصر

ولكن موجة الفتوح الإسلامية التى اندفعت بقوتها فى شمال الشام وجنوبه لا يمكن أن تتلاشى على حدود مصر بل لابد أن تأخذ امتدادها كاملاً إلى هذا الإقليم لتطرد الروم وسلطانهم من هذه البلاد.

التفكير فى الفتح

يرجع التفكير فى فتح مصر إلى عمرو بن العاص الذى تكاد تجمع الروايات على زيارته لها فى الجاهلية وكانت فى ذلك الوقت إحدى الولايات الرومانية العظيمة، وكان الرومان يعتبرونها درة فى تاج الإمبراطورية.

فعندما وصل عمر بن الخطاب إلى الجابية عند خروجه لفتح بيت المقدس استأذنه عمرو بن العاص فى فتح مصر ولكن الخليفة كان يرى أن وقت الفتح لم يحن بعد؛ لأن العرب لم يستقروا فى فتوحاتهم الجديدة بالشام وقت الفتح فتردد فى الأمر وزاد فى تردده قلة الجنود التى لم يمكن الاستغناء عنها وتسييرها لفتح جديد، ولقد سبق للخليفة أن أبدى مثل هذا الحذر بعد استيلاء المسلمين على سواد العراق.

غير أنه وافق أخيرًا تحت إلحاح عمرو الذى ما فتئ يحسن له الفتح قائلاً: إن مصر أكثر الأرض أموالاً، وأهلها أعجز الناس عن القتال والدفاع عن أنفسهم، وإنك إن

---

(١) ارجع إلى كتاب الأمان فى عصر الخلفاء الراشدين ص ٢١٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فتحت مصر كانت عونًا للمسلمين وقوة لهم. **ومما لا شك فيه أن فتح مصر كان ضروريًا للأسباب الآتية:**

١ – لأن مصر هى الامتداد الجنوبى لفلسطين؛ فلا يكلف فتحها العرب سوى القليل.

٢ – أنه لصيانة الفتوح فى الشام وفلسطين لابد من فتح مصر؛ خشية أن يتخذها الرومان قاعدة لاسترداد ما فُتح.

٣ – أن الاستيلاء على ما فى مصر من سفن وثغور يساعد على إخضاع مدن الشام الشمالية الواقعة على البحر التى لا تزال تقاوم، وكان الرومان قد اتخذوها قواعد لأسطولهم لمناوأة المسلمين.

٤ – غنى مصر وكثرة ما فيها من الخيرات يغرى بالفتح ويجعل المسلمين أقوياء ويفت فى عضد الرومان ويجعلهم ضعفاء.

٥ – أن هذا الفتح يمنع الجنود الرومانية الآبقة من الشام من اللجوء إلى مصر، كما فعل «أريطيون» حاكم الرومان على إيلياء حينما هرب من المدينة قبل تسليمها للمسلمين، فإنه لجأ إلى مصر وجمع الجنود لمقاتلة المسلمين فى بلبيس.

٦ – سهولة الفتح لأن مصر غير محصنة، ولأن الشعب المصرى إن لم يساعد العرب فلن يقاومهم بسبب كراهيته للروم.

٧ – تحقيق قول الرسول: «**إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لهم رحما وذمة**».

بدء الغزو وفتح الفرما

لم يكد عمرو يظفر بموافقة الخليفة على فتح مصر حتى سار بمن معه إليها[١] فى

---

(١) يبدو لنا أن السبب الذى حمل عمرا على أن يتحرك بسرعة للفتح هو قصة الكتاب – إن صحت – أو خوفًا من استشارة الصحابة فى المدينة فأراد أن يدركه الرأى الأخير بعد دخوله حدود مصر فيكون أمام الأمر الواقع.

وقصة الكتاب التى رواها جمع من المؤرخين هى أن عمر بن الخطاب قال لعمرو: سر وأنا مستخير الله فى مسيرك وسيأتيك كتابى سريعًا، فإن أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئًا من أرضها فانصرف، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستغفره. وهذه القصة باطلة فى نظرنا لأنه لا يصح أن يقال إن عمر – وهو من نعرف حزما وعزما – يعلق الفتح على كتاب يصل قبل الحدود أو بعد الحدود. =

www.alukah.net
شبكة الألوكة

آخر السنة الثامنة عشرة للهجرة، وكان عدد الجيش الذى خرج به دون الأربعة آلاف وانضم إليه فى طريقه نحو خمسمائة من البدو؛ فبلغ عدد الجيش أربعة آلاف.

استمر عمرو فى مسيره إلى أن وصل إلى العريش فى ١٠ من ذى الحجة سنة ١٨ (١٠ ديسمبر سنة ٦٣٩م) فضرب حولها حصاراً قوياً لم تلبث أن سلمت بعده، ثم غادر العريش، ويمم شطر الغرب فى طريقه إلى الفرما[١] فوصلها فى ديسمبر سنة ٦٣٩م، وألقى عليها الحصار، وقد استمر هذا الحصار شهراً أو شهرين، سقطت بعده المدينة فى يد المسلمين، وكان ذلك فى أول المحرم سنة ١٩ هـ «منتصف يناير سنة ٦٤٠م.

وبعد فتح الفرما اتجه عمرو إلى الجنوب الغربى حتى وصل إلى موضع فى برزخ السويس – مكانه مدينة القنطرة الحالية – فلزم جانب الصحراء متجهاً إلى ناحية وادى الطميلات، وفكرة عمرو فى تفضيل هذا الطريق الصحراوى على الطريق الساحلى: أن تكون حصنه الذى يلجأ إليه وقت الخطر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنه لم يشأ أن يقتحم الأراضى المصرية الزراعية المكتظة بالسكان مخافة أن يقطع عليه الطريق أحد. ومن ناحية ثالثة أنه أراد أن يتجنب عبور القنوات، وفروع النيل؛ إذ كان جيشه كله من الفرسان، ولم يكن عنده من وسائل بناء القناطر على الترع والأنهار شيء.

بلبيس

ما زال عمرو يضرب فى الصحراء مخترقا وادى الطميلات عند التل الكبير حتى أشرف على مدينة بلبيس، وهناك فى ظاهر هذه المدينة خرج إليه أريطيون «الذى يسميه العرب أرطبون».

= وتروى بعض المصادر أن عمر أذن بالفتح وحينما رجع إلى المدينة وأفضى إلى الصحابة بإذنه لعمرو بفتح مصر، قال عثمان بن عفان: يا أمير المؤمنين إن عمرا فيه جراة وحب للإمارة فأخشى أن يخرج فى غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدرى أتكون أم لا؟؟ فندم عمر على إذنه لعمرو وكتب إليه يقول: إن أدركك كتابى هذا قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك، وإن كنت دخلت فامض لوجهك.

وهذه الرواية أولى بالتصديق، وقد كان ما توقعه عمرو من الاستشارة. وأما ما يروى من أن عمراً لما وصله الرسول قبل دخوله أرض مصر أخذ يدفع الرسول ولا يتسلم الكتاب وأسرع فى السير حتى كان قرب العريش تسلم الكتاب فكلام لا يستسيغه المحقق. كيف يكون ذلك والخليفة عمر بن الخطاب؟.

(١) الفرما بلدة على حدود مصر من الشرق بينها وبين بحر الروم نحو ميلين، وهى قديمة العهد وتعتبر مفتاح مصر، واسمها اللاتينى بلوزيم، والقبطى فرمون.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ودارت معركة حامية الوطيس انتهت بهزيمة أريطيون وانتصار عمرو انتصاراً باهراً، فقد روى أنه قتل من الروم ألفًا وأسر ثلاثة آلاف، وكان من بين الأسرى أرمانوسة بنت المقوقس بطريق الإسكندرية فأرسلها عمرو إلى أبيها مكرمة فى جميع مالها[1] فسر أبوها من هذا العمل وقدره.

أم دنين وعين شمس

بعد سقوط بلبيس لم يبق بين العرب وبين رأس الدلتا إلا مسيرة يوم واحد فسار عمرو جنوبا ومر بمدينة «هليوبوليس»[2] حتى وصل إلى قرية صغيرة على النيل تقع إلى الشمال من حصن بابليون تسمى «أم دنين» مكانها الآن حديقة الأزبكية - فنشبت بينه وبين الروم معركة هائلة انتهت باحتلال أم دنين، وعين شمس، وقد دبر عمرو خطة حربية موفقة فقسّم جيشه إلى ثلاثة أقسام، لاقى تيودور قائد الروم بجزء من الجيش، ووضع كمينا للروم فى الجبل الأحمر شرق العباسية، وكمينا آخر قرب أم دنين، ولما حمى وطيس القتال خرج الكمين الذى وضع عند الجبل على الأعداء فتراجعوا إلى «أم دنين» فأخذهم الكمين الذى عندها فاختل نظامهم، وتشتت شملهم وانهزموا إلى حصن بابليون، فتبعهم إليه؛ وقبل أن نسير مع عمرو ونشترك معه فى حصار بابليون يحسن بنا أن نعرف ذلك الحصن الذى كان هدف العرب.

بابليون

هو حصن منيع على النيل، وكان سمك أسواره ثمانية عشر قدما، وتتخلى أسواره عدة أبراج، وأهمها ما كان فى الجانبين الجنوبى والشرقى ولم يكن فى الجانب الغربى أبراج؛ ولعل سبب ذلك الاكتفاء بتحصين النهر له لأن النيل كان يجرى تحت أسواره، وكانت السفن ترسو تحتها؛ وكان للحصن بابان مهمان أحدهما، ويعرف «بالباب الرومانى» كان فى الجدار الغربى وكان يحيط بهذا الباب صرحان لا تزال كنيسة مارى

---

(١) كانت أرمانوسة فى طريقها إلى قيصرية لتُزَف إلى قسطنطين بن هرقل، فلما علمت أن قيصرية حاصرها العرب عادت إلى مصر بمن معها من الخدم والمال فما وصلت بلبيس حتى جاءتها جيوش عمرو وحاصرتها، وسقطت فأُسرت. إلخ..

(٢) هليوبوليس: لفظ يونانى معناه (مدينة الشمس)، وقد أطلقه اليونان على مدينة «أون» التى كانت عاصمة المقاطعة الثالثة عشرة من مقاطعات مصر السفلى، وكانت تقع على مقربة من المطرية الحالية، وكانت فى العصور الفرعونية مقر عبادة الإله (رع) أو (إله الشمس)، فأخذ اليونان هذا المعنى فجعلوا اسمها عندهم هليوبوليس واحتفظ العرب بهذا المعنى أيضًا فسموها عين شمس.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

جرجس قائمة فوق الصرح الشمالى منهما، وأما الباب الثانى فكان إلى الجنوب يحيط به برجان عظيمان، وهذا الباب هو المعروف بالباب الحديدى وفوق مدخله كانت الكنيسة المعلقة؛ وترسو أمام هذا الباب فى الخندق الخارج من النيل، وكان على هذا الباب جسر يتحرك إلى أعلا فإذا شده من فى الحصن منع وصول الناس إلى أسواره؛ وإلى الغرب من الحصن تقع جزيرة الروضة فى وسط النيل، ذات الحصون القوية التى تزيد فى خطر الحصن الحربى وتسيطر على النهر، وكان يصلها بالحصن جسر من المراكب، وإذا فاض النيل تحول الحصن إلى جزيرة فى وسط الماء. يقابله مدينة منف.

وموضع الحصن اليوم «مصر القديمة» ويسمى بعض المؤرخين هذا الحصن باسم «قصر الشمع» لأنه كان يوقد عليه الشمع فى رأس كل شهر، ويسميه بعضهم حصن «باب إليون» أو «باب إليونة»(١).

وأيًا ما كانت التسمية فإنه منسوب إلى بابل وأن البناء الذى شهده العرب كان رومانيا وأنه كان مقرًا لحامية الروم.

حصار الحصن

لما انهزم الروم إلى حصن بابليون قصده عمرو وحاصره وأمر بنصب الخيام فيما بين المقطم والحصن وبدأت المناوشات بين الجيشين وطال أمدها ولم تؤد إلى نتيجة لمناعة الحصن، ورأى عمرو ذلك فكتب إلى الخليفة يطلب منه المدد فأمده بأربعة آلاف، وعلى رأس هذه القوة قواد مشهورون منهم: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد، أو خارجة بن حذافة، وأرسل إليه يقول: لقد أنفذت إليك أربعة آلاف على كل ألف منهم رجل بألف».

ولما أتى المدد إلى عمرو شدد الحصار على الحصن ووضع عليه المنجنيق، وكان قائد الجيوش الرومانية رجلا يقال له الأعرج وكان فى خمسة آلاف جندى سوى اللاجئين إلى الحصن، وكان الطعام فى الحصن كافيا، ولكن كانت المناقشات الدينية محتدة بين الطوائف حتى أثناء الحصار، فكان ذلك إيذانًا بالفشل.

ولما رأى «قيرس» الذى يسميه مؤرخو العرب المقوقس (حاكم مصر) أن العرب لن يتراجعوا عن فتح الحصن مهما تكلفوا فى حصاره من تضحيات؛ خرج من الحصن مع

---

(١) بتلر. فتح العرب لمصر من صـ ٢٠٩ – ٢١٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

جماعة من قومه ولحقوا بجزيرة الروضة، وقطعوا جسر الزوارق حتى لا يلحقهم المسلمون؛ وكان قيرس لا يزال يعتقد أن الغزو العربى لايعدو أن يكون غارة كبيرة، ولذلك نرى أنه عندما انتقل إلى الروضة عرض عليهم أخذ جزء من المال وقال لهم: إنهم أصبحوا أسرى فى أيدى الرومان وإن مصلحتهم أن يبرحوا البلاد: وكان رد العرب عليه هو عرض الخصال الثلاث: الإسلام، الجزية، الحرب. فخشي قيرس (المقوقس) أن يتغالى العرب فى مطالبهم بعد ذلك إذا انخفض ماء النهر، فقبل الجزية، وبذل جهداً كبيراً فى إقناع الروم، ولكنه لاقى معارضة كبيرة وكان على رأس المعارضين جورج أو تيودور أو الأعرج قائد الحصن، وأبى إلا القتال فدارت رحى الحرب فهزم الروم وقتل منهم عدد كبير. فاتخذ قيرس من هذه الهزيمة وسيلة للتنديد بمعارضيه، وقوى جانبه فطلب من العرب وقف القتال فوافقوا حتى تأتي موافقة هرقل، فأعلنت الهدنة بين الطرفين إلى حين.

سار قيرس إلى الإسكندرية وبعث إلى هرقل يطلب منه الموافقة على الصلح حتى يقى مصر شر الحرب فغضب هرقل غضبا شديداً وبعث إلى قيرس يطلب منه الحضور على عجل إلى القسطنطينية ليشرح له الأمر، ويبين له كيف أن مائة ألف من الرومان لم يستطيعوا أن يقاوموا هذا العدد القليل من العرب؟؟ فسافر قيرس إلى العاصمة وقابله الإمبراطور مقابلة خشنة فاتهمه بالخيانة والخور ثم حكم عليه بالنفي.

وصل نبأ رفض الإمبراطور للصلح إلى عمرو، فانتهت الهدنة واستؤنف القتال، وكان النيل قد بدأ يهبط فتنخفض بانخفاضه المياه التى فى الخندق وتضعف آمال الروم وتقوى آمال المسلمين، ولما فرغ الخندق من مائه استعاض الروم عنه بأن رموا فى قاعه حسك الحديد فطم العرب بعض أجزاء الخندق حتى ينفذوا منه، ولكن كان الحصن لا يزال منيعا. وفى مارس سنة ٦٤١ م أتت الأخبار بموت هرقل فيئست الحامية وقوى أمل المسلمين وقال الزبير: إنى أهب نفسى لله، ونصب سلما على السور، وصعد عليه، وكبر فكبر المسلمون لتكبيره. وصعدوا خلفه.

فلما سمع الروم التكبير ظنوا أن المسلمين اقتحموا الحصن عليهم وخاف قائد الروم على نفسه وعلى من معه فطلب من عمرو الصلح على أن يأمن كل من هناك من الجند على أنفسهم، فقبل عمرو الصلح على الرغم من معارضة الزبير الذى كان على وشك أن يفتح الحصن عنوة، وبسقوط حصن بابليون فقد الرومان نصف مصر إن لم يكن

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أكثر من النصف وكان سقوطه فى يوم الإثنين ٩ من أبريل سنة ٦٤١م، وكان حصاره ثمانية أشهر.

فتح البهنسا

كان عمرو بن العاص حينما أرسل إلى الخليفة يطلب منه المدد فكر فى أن يحصل على مؤونة لجنده، وعلوفة لخيله، فعبر نهر النيل من الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية(١)، وسار إلى الجنوب فمر فى طريقه بمدينة منفيس، وعلم حاكم إقليم الفيوم بتقدم العرب فأراد أن يصدهم فأرسل إليهم سرية من الفرسان والرماة لم يقو العرب على مقاومتها فعدلوا إلى جانب الصحراء وجعلوا يستاقون ما لاقوا من النعم، ومازالوا كذلك حتى بلغوا مدينة البهنسا، ففتحوها عنوة، واستطاع عمرو أن يوقع بقائد الجند فى الفيوم عند قرية «أبويط» من قرى بنى سويف فقتله ومن معه جميعًا، وبلغت أخبار هذه النكبة القائد العام تيودور، فبعث بجيش إلى البهنسا ليحارب العرب، ولكنه فشل كما فشل العرب فى فتح الفيوم فى هذه الخرجة.

فتح الإسكندرية سنة ٢٠ هـ

وبعد أن عقدت المعاهدة بين المسلمين والرومان أرسل عمرو إلى الخليفة يبشره بفتح حصن بابليون ويطلب منه مددا(٢) فإنه رأى أن يسير إلى الإسكندرية قبل أن يعود النيل إلى فيضانه. فأقام على مصر مسلحة من المسلمين عليها خارجة بن حذافة السهمى، ثم سار على رأس جنوده، وسار معه جماعة من رؤساء القبط يصلحون له الطرق، ويقيمون الجسور والأسواق. وكانت الطريق التى اتخذها عمرو شاطئ النيل الغربى فسار حتى وصل قبالة «نيقيوس» وهى تقع عند ملتقى ترعة الفرعونية بفرع رشيد ومكانها قرية شبشير الحديثة، وكانت مدينة ذات شأن عظيم، فعبر النيل إليها وكان يدافع عن المدنية «دومنتيانوس» ولكنه لم يكد يرى المسلمين يعبرون النهر حتى اعتراه الخور فترك جيشه وأمعن فى الهرب إلى الإسكندرية وتبعه جنده فلم يتركهم ابن العاص بل تبعهم وقتل منهم عدداً كبيراً. وفتحت نيقيوس.

---

(١) يرى بعض الكاتبين أن السماح لعمرو بالعبور من الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية غلطة كبرى ارتكبها الرومان.

(٢) ولما وصل الرسول إلى عمر أجابه منشطا وسأله أن يصف له مصر فكتب إليه عمرو الوصف المشهور فى كتب الأدب.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وبعد فتح نيقيوس أصبح الطريق مفتوحًا إلى الإسكندرية. وقد انتهز عمرو فرصة تقهقر الروم إلى عاصمتهم (الإسكندرية) فلم يقم بنيقيوس بل عبر النيل إلى الغرب، وسار في طريقه إلى الإسكندرية فاتحا المدن والحصون التي تقع في هذا الطريق. فتح طرانة، ونيقيوس، وسلطيس وكوم شريك[1] ودمنهور، والكريون.

وكان حصن الكريون آخر حلقة في سلسلة الحصون التي تربط ما بين بابليون والإسكندرية، ولم تكن في مناعة نيقيوس ولكن الروم عملوا على أن يقفوا في هذا المكان الوقفة الأخيرة في وجه العرب ليمنعوهم من دخول الإسكندرية، وقد روى المؤرخون بسالة الروم وشجاعة تيودور قائدهم، ولكن تيودور على الرغم من شجاعته، ومما وصله من المدد من البلاد المجاورة مثل بلهيب، وسخا، وسلطيس، لم يكن ذا رأى في الحرب فلم تجده تلك القوى التي تجمعت عند الكريون لمقاومة العرب، وكان كل من القائدين يعتقد أن هذه المعركة فاصلة فاستماتا في القتال، واستمرت المعركة عشرة أيام أصيب فيها كثير من المسلمين؛ وعلى الرغم من حسن بلاء الروم فإنهم يئسوا وتقهقروا بانتظام إلى الإسكندرية وسقط الكريون في يد العرب، وأصبحت الطريق مفتوحة أمامهم إلى الإسكندرية فساروا إليها وما هي إلا أيام قلائل حتى أشرفوا على أسوار عروس البحر الأبيض وأجمل ثغوره[2].

حصار الإسكندرية

كانت الإسكندرية قوية التحصين يحميها البحر من الشمال وتحميها القنوات والترع من الجنوب والغرب وتمتد في أسفلها بحيرة مريوط، وتحيط بها أسوار عالية من كل جانب.

أما من الناحية الشرقية فكانت أسوارها قوية ومجهزة بكل الأسلحة العلمية المعروفة في ذلك العصر، وكانت المدينة موفورة الذخيرة والمؤن. تروح السفن وتغدو إلى مينائها في البحر الأبيض ويشرف على حمايتها مسلحة عدتها خمسون ألف مقاتل بقيادة تيودور.

---

(١) الطرانة قرب كفر الدوار. مركز كوم حمادة على الشاطئ الغربي لفرع رشيد، ونيقيوس هي أيضًا بمحافظة البحيرة. مركز كوم حمادة على النيل، وسلطيس، على ستة أميال جنوب دمنهور في منتصف المسافة بين كوم شريك، والكريون.

(٢) مصر الإسلامية ص ٧٩، ٨٠.

ولما رأى عمرو أن المدينة محصنة تحصينًا قويًا أراد أن يجرب قوته فحمل على المدينة بمجرد وصوله إليها فلم يفز بشيء ففكر في طريق أخرى غير طريق الهجوم، وهي استدراج الحامية إلى خارج الأسوار وهزيمتها، ولكن من يدرى فقد تخرج الحامية، وقد لا تخرج؟ إذن فماذا يصنع؟ رأى أن يترك جيشا كافيا ليرابط أمام المدينة، وأن يسير هو فى سرية من الجند فيضرب بهم في بلاد مصر السفلى قبل أن يجيء موسم الفيضان فسار إلى الكريون ومنها إلى دمنهور ثم سار إلى إقليم الغربية فضرب فيه حتى وصل إلى سخا ومنها تحرك إلى الجنوب حتى وصل إلى طوخ الواقعة إلى الشمال الغربى من طنطا ومن طوخ عبر فرع دمياط إلى دمسيس.

ويقال إنه لم يفتح هذه البلاد لمناعة أسوارها أو لإحاطة المياه بها، وبعد هذه الرحلة الطويلة التى استغرقت نحو سنة كاملة فى إقليم الدلتا رجع إلى الإسكندرية، وكانت الظروف مواتية فقد أرجع الإمبراطور «هرقلوناس» حاكمه على مصر (المقوقس) وفوض له مصالحة العرب، وكانت الانقسامات الدينية فى الإسكندرية محتدة والانقسام السياسى على أشده.

كل هذا أضعف همم الإسكندريين ووضع بأسهم بينهم فهاجر بعضهم بحرًا، ومن بقي كان يرى أن القتال لا فائدة ترجى منه، فاتفق الزعماء والقواد على مصالحة العرب، وكانت معاهدة الإسكندرية.

معاهدة الإسكندرية

يُروى أن هذه المعاهدة عقدت في بابليون، وكان عقدها على يد قيرس (المقوقس) الذى سار إلى عمرو فأكرم وفادته، **وبعد مفاوضات طويلة اتفق الطرفان على ما يأتى:**

١ – أن تعقد هدنة مدتها أحد عشر شهرًا. تنتهى فى شهر بابه القبطى ٢٨ سبتمبر سنة ٦٤٢م.

٢ – أن يبقى العرب فى مواضعهم مدة الهدنة على ألا يقوموا بعمل حربى ضد الإسكندرية وأن يوقف الروم كل الأعمال العدائية.

٣ – أن ترحل حامية الإسكندرية فى البحر وأن يحمل الجنود معهم متاعهم وأموالهم على أن من أراد الرحيل برًا له ذلك بشرط أن يدفع جزية شهرية ما بقى فى رحلته فى أرض مصر.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

٤ – ألا يحاول الروم استرداد مصر، ولا تعود إليها قوة حربية.

٥ – أن يدفع كل من فُرضت عليه الجزية دينارين كل عام.

٦ – ألا يتعرض المسلمون للكنائس بسوء وألا يتدخلوا فى شئون المسيحية.

٧ – أن يُباح لليهود البقاء فى الإسكندرية.

٨ – أن يبقى فى أيدى المسلمين ١٥٠ جنديا و٥٠ مدنيا لضمان تنفيذ هذه المعاهدة.

أمضيت المعاهدة فى نوفمبر سنة ٦٤٢م وتلتها هدنة مدتها أحد عشر شهراً، وحمل قيرس شروط الصلح إلى تيودور وهو القائد الأعلى للجيش فوافق عليها، وأرسلت إلى «هرقلوناس» فأقرها، ولكن الروم بعد ذلك لم يحترموا هذه المعاهدة بل أرسل ملكهم قسطنطين الذى خلف «هرقلوناس» جيشاً فاحتلها بقيادة «مانويل» وقتل حاميتها فسار إليهم عمرو وقاتلهم وأخرجهم منها صاغرين. وكان قد حلف إذا تم له فتحها أن يهدم سورها فهدمه وبر بيمينه، وكان الفتح الثانى عنوة.

ويروى ابن إسحاق أن عمراً بنى – بعد فتح الإسكندرية – مسجداً كان لا يزال باقيا إلى عصره، وأن أهل رشيد وفوة والمحلة ودميرة وسمنود والبحيرة جاءوا إليه فصالحهم على ما اتفقوا عليه. ولما تم فتح الإسكندرية أراد ابن العاص أن يقيم بها لأنها مشيدة فأرسل إلى الخليفة يستأذنه فى ذلك فلم يوافق وأرسل إليه يقول: لا تجعلوا بينى وبينكم ماء. فرجع إلى المكان الذى كان قد نصب خيامه فيه، وبنى مدينة الفسطاط التى صارت عاصمة مصر من ذلك الحين[1]، وبنى فيها جامعه المشهور سنة ٢١ من الهجرة ثم أمر الخليفة عمرو بن العاص بحفر خليج بين النيل والبحر الأحمر لتسير فيه السفن إلى المدينة، فشُق الخليج وسُمى بخليج أمير المؤمنين.

(١) يروى أن عمراً حينما أراد أن يسير إلى الإسكندرية بعد فتح بابليون أمر بنزع فسطاطه، فإذا فيه يمامة قد فرخت، فقال عمرو: لقد تحرمت منا بمحرم وأمر به فاقر كما هو، فلما رجعوا من الإسكندرية قالوا: أين ننزل؟ فقال بعضهم الفسطاط، يعنون فسطاط عمرو، والعرب تقول لكل مدينة فسطاط، ويقال لها فستاط وبوسطاط وفساط، ويرى بعض المؤرخين أن هذا الاسم مشتق من الكلمة الرومانية «فسائم» التى تطلق على المعسكر، والصحيح أنها بنيت بعد فتح الإسكندرية.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

* فتح بلاد الساحل

بعد فتح الإسكندرية تحرك العرب إلى الشرق لفتح بلاد الساحل، وكانت أول بلدة اتجهوا إليها هى مدينة إخنا التى تقع على مقربة من أبى قير الحالية، وكان حاكم هذه المدينة يسمى الطلا فأتاه كتاب من عمرو يطلب إليه التسليم على الشروط التى صالح عليها أهل الإسكندرية، فرفض بحجة أن الجزية ثقيلة. فحاربه عمرو وأرغمه على التسليم، وكان نصيب مدينة بلهيب الواقعة على النيل إلى الجنوب من رشيد مثل نصيب قرية إخنا.

ثم صالحه قزماس حاكم رشيد وحنا حاكم مدينة البرلس.

ومن البرلس تحرك العرب شرقا حتى وصلوا مدينة «رخيس» على ساحل البحر الأبيض بالقرب من دمياط، ومنها اتجهوا إلى مدينة دمياط فلم يلقوا كيدا وسلم لهم حاكم المدينة المسمى خنا، الذى يسميه مؤرخو العرب الهاموك.

وبسقوط دمياط ورشيد سيطر العرب على مصبى النيل وامتد نفوذهم إلى كل بلاد مصر السفلى، إذا استثنينا بعض البلاد الواقعة على الجزائر المبعثرة فى بحيرة المنزلة، وكانت أهم هذه البلاد: شطا وتنيس، وهى خلاف تانيس أو صاالحجر الواقعة إلى الجنوب الغربى منها على الفرع التانيسى.

فأما شطا فيخلط بعض مؤرخى العرب بينها وبين تانيس ودمياط ويقولون إن العرب عندما حاصروا دمياط خرج إليهم ابن حاكمها شطا، ومعه ألفان من الناس فأعلن إسلامه، وكان قد ظل مدة من قبل يدرس هذا الدين، وأنه لما رأى أن العرب قد طالت مقاومة تنيس لهم جمع جيشا من مدن البرلس ودميرا وأشمون طناح وجهزهم ولحق بامداد المسلمين الذين قدموا إلى قتال أهل تنيس، فالتقى الفريقان وأبلى شطا بلاء حسنا وقتل من أهل تانيس اثنى عشر رجلا واستشهد فى ليلة النصف من شعبان سنة ٢١هـ، فحمل من الميدان ودفن بجوار دمياط فى بلدة صغيرة تسمى شطا وما تزال هذه الليلة عند أهل دمياط موسما يجتمع فيه الناس لزيارة قبره وإحياء ذكره.

ويقول المقريزى إن شطا هو ابن الهاموك وكان أبوه خال المقوقس، وإلى شطا تنسب الثياب الشاطوية، وبعد الفتح أسس المسلمون بدمياط مسجداً يسمى مسجد الفتح.

وأما تنيس فقد خرج حاكمها لقتال العرب بعد استيلائهم على دمياط فأخذ أسيراً وسلمت المدينة لهم ومنها تحركوا إلى الشرق ناحية الفرما.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

* **فتح بلاد الصعيد**

كان فتح مصر العليا أمراً سهلاً بالنسبة لغزو بقية البلاد المصرية، فقد أرسل عمرو ابن العاص سرايا من جيشه فى أثناء حصاره لمدينة الإسكندرية فسارت حتى وصلت مدينة طيبة، وبعد أن فتحت الإسكندرية أرسل خارجة بن حذافة فأتم فتح بلاد الصعيد.

* **أسباب نجاح عمرو بن العاص فى فتح مصر**

إن موجة الفتح الإسلامى سارت بنجاح للأسباب العامة التى أسلفناها فى أول الفتوح، وهناك أسباب أخرى خاصة فى فتح مصر. **أهمها ما يأتى:**

١ - **الاضطهاد الدينى:** كان سكان مصر مضطهدين من الروم أشد الاضطهاد لأنهم كانوا يخالفونهم فى المذهب الدينى فالروم كانوا من الملكانيين والمصريون كانوا من اليعقوبيين، وقد بلغ من اضطهاد السادة الملكانيين للمصريين اليعاقبة أنهم صادروا حرية عبادتهم فشتتوا شمل القساوسة المصريين وألجأوا بَطْرِيقَهم إلى الصحراء عدة سنوات، فلما جاء العرب رحبوا بهم واستقبلوهم استقبالا حسنا فكانوا يضيفونهم ويساعدونهم على بناء الاستحكامات والقناطر والجسور ويدلونهم على الطرق، وكان المقوقس من دعاة الصلح، وعقده بالفعل.

وقد اعتبر مؤرخو الفرنجة هذا العمل من المقوقس خيانة لسيده ملك الروم، ولكنا لا نرى ذلك، لأنه بهذا العمل ضمن لقومه حسن المعاملة والحرية الدينية والاجتماعية فى ظل المسلمين المتسامحين، وكيف يطلب من المقوقس وقومه الصلابة والشدة وهو لا يدافع عن استقلال بلاده لأنه يراها تخرج من يد محتل إلى يد محتل آخر. فهو اختار من الفريقين أعدلهما معاملة وألينهما جانبا وأكرمهما خلقا.

٢ - **وفاة هرقل وأثرها:** توفى هرقل فى ١١ فبراير سنة ٦٤١م قبل تسليم بابليون بشهرين تاركا وراءه ولدين أحدهما قونسطنطين من زوجته الأولى أودقيا وهرقل أو هرقلوناس من زوجته الثانية مرتينا، وبينما كان الأول يعد العدة لإنقاذ مصر مات فى مايو من نفس السنة تاركا وراءه طفلا هو قونستانز الثانى، وقد أكره حزب الحرب بقيادة فالنتين الإمبراطورة مرتينا على أن تشرك قونستانز مع ولدها فى الحكم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثم حدث اضطراب فى البيت المالك تسبب عنه الانقسام السياسى الذى لم يقتصر على العاصمة الأولى (بيزنطة) بل تعداها إلى العاصمة الثانية (الإسكندرية).

(٣) **الأخطاء التى ارتكبها الرومان فى حروبهم مع العرب، ونذكر منها:**

(أ) عدم تقوية حامية الفرما: كانت الفرما مفتاح مصر من الشرق وقد كان فى إمكان الروم أن يقاوموا العرب مقاومة مؤقتة لو أن الروم قووا حامية المدينة أو رمموا حصونها التى دكها الفرس أثناء غزوتهم الأخيرة، ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث.

(ب) السماح لعمرو بن العاص بالعبور من الضفة الشرقية للنيل إلى الضفة الغربية حينما كان يحاصر بابليون.

(جـ) فرار الروم وتقهقرهم السريع بعد فتح نيقيوس.

(د) تسليم الإسكندرية: فإن الطريق كانت مفتوحة بينها وبين القسطنطينية يأتيها منها ما تحتاج إليه من المؤن والذخائر، ومع ذلك سلمت.

هذه أسباب ذُكرت على أنها ساعدت العرب فى فتح مصر، والواقع أن تيار الفتح كان سائرًا ولو لم توجد هذه الأسباب، والنصر بيد الله يؤتيه من يشاء.

ما قام به العرب بعد الفتح وأهم التغييرات التى حدثت:

كفل المسلمون لسكان مصر، الحرية الشخصية والحرية الدينية ووضعوا أنظمة مالية لاءمت بين ضرورات النظام من ناحية، وبين قدرة الناس من ناحية أخرى، وأباحوا وظائف الدولة الكبرى للأقباط، كما استفاد الأقباط من الحركة التجارية بعد أن كانت وقفا على الروم واليهود، وأبقى المسلمون الأرض بيد أصحابها نظير دفع الخراج وهو ديناران عن كل فدان صالح للزراعة، وكان الخراج يرتفع وينخفض بالنسبة لفيضان النيل وكثرة المحاصيل أو قلتها، وقد اهتم العرب بالزراعة فأصلح عمرو مقاييس النيل، وأقام السدود وحفر الخليج المسمى بخليج أمير المؤمنين بين بابليون وتل بسطة التى كانت تتفرع عندها القناة الذاهبة إلى السويس، فسارت السفن من مصر إلى الحجاز حاملة خيرات مصر، واهتم العرب بحفر الترع وأصلحوا طرق المواصلات فتحسنت

شبكة الألوكة - قسم الكتب

حالة الفلاح، وتدرج فى الرخاء والرقى، وبنى العرب الفسطاط[١] لتكون عاصمة لهم حتى يسهل الاتصال بمركز الخلافة فى المدينة[٢]، وبنوا فيها أهم شيء لدى المسلمين وهو الجامع المسمى بجامع عمرو أو المسجد العتيق أو مسجد الفتح[٣].

هذا، ومن الخطأ الشائع أن المسلمين أحرقوا مكتبة الإسكندرية، والحقيقة أنها حُرقت سنة ٤٨ ق. م فى الحريق الذى حدث فى الإسكندرية على أثر حرق قيصر أسطوله، وبعد هذه الحادثة بثمان سنين تجددت مكتبة أخرى فى الإسكندرية إلا أن هذه أعُدمت فى القرن الرابع الميلادى، وخرب بناؤها كما خربت جامعة الإسكندرية على يد المسيحيين لما فى البناءين من التعاليم الوثنية، وقد تم إعدام تلك المكتبة الثانية عن آخرها سنة ٣٩١م، بدليل أنه لم يشر إليها كاتب أثناء القرون الخامس والسادس والسابع الميلادية مع شغف كثير منهم بالاطلاع على الأسفار المختلفة، وبحثه وراءها فى كل مكان.

وعلى فرض وجود المكتبة الأولى أو الثانية عند الفتح - برغم ما تقدم من الحقائق - فإنه لا يعقل أن يترك الروم تلك الكتب الثمينة فى نظرهم وأن يغفلوا عن نقلها أثناء الهدنة التى كانت مدتها طويلة وهى أحد عشر شهراً؛ وقد أُبيح لهم أن ينقلوا ما يشاؤون، ولا يعقل أيضاً أن العرب الذين كانوا يعتقون الأسير إذا علّم عشرة من الصبيان القراءة والكتابة يحاربون العلم ويحرقون الكتب.

والخلاصة: أن قصة حرق المسلمين لمكتبة الإسكندرية تحمل فى ثناياها ما يهدمها من أساسها، وقد أنكرها وسخر منها مؤرخو المسلمين؛ ومؤرخو المستشرقين مثل: جبون، رينودوت، وموير، ورينان، وبتلر وغيرهم. وهذه الأمور التى ذكرناها هى أهم ما تم فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من فتوحات وإنشاءات. ساعد على تحقيقها ما كان ينعم به المجتمع الإسلامى فى ذلك العهد الزاهر من هدوء شامل ووحدة إسلامية عامة نتيجة لسياسة ذلك الخليفة العظيم الذى كان يتحلى بالذكاء والعدل، والتحمس للحق ومضاء العزيمة، والصفح عن الزلات.

---

(١) وذلك فى المكان الذى كان قد اتخذوه مركزاً حربيا فى الفضاء الذى يقع إلى الشمال والشرق من حصن بابليون ومكانها الآن مصر القديمة.

(٢) ولهذا السبب وغيره لم يتخذوا الإسكندرية عاصمة لهم مع أنها كانت معدة للسكنى.

(٣) من أراد معرفة ما قام به العرب بتوسع فليرجع إلى كتاب المجتمعات الإسلامية للدكتور محمود زيادة جـ١ من ٢٧ - ٤١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وبينما كان ينعم الجميع بعدله إذا يد مجرمة أثيمة تمتد إليه فى غسق الفجر فتطوى صفحة حياته فى وقت انعقدت عليه فيه آمال المسلمين.

* مقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

نعمت الجزيرة العربية بالأمن والاستقرار من عهد صاحب الرسالة ﷺ، وفاضت عليها الخيرات نتيجة للفتوحات التى تمت فى عهد الخليفتين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما. وسادت العدالة وانتفع بها المخلصون للإسلام وغيرهم ممن تظاهروا بالإسلام. من شتى الأجناس والديانات من فرس وروم ومجوس ويهود ونصارى.

وهؤلاء جميعًا كانوا يحقدون على الإسلام؛ لأنه حطم أديانهم وهدم عقائدهم وفتح بلادهم. وإننا نلمس هذا بصفة خاصة فى اليهود، وكثير من كبار الفرس وأتباعهم القدامى من الأسرى فى بلاد المسلمين.

وقد برز حقدهم فى مناسبات كثيرة منها ما نحن بصدده، وهو مصرع عمر بن الخطاب، فما كان يخطر ببال أحد أن تنتهى حياة ذلك الخليفة العادل الذى أجهد نفسه وأهله لصالح المسلمين عامة من عرب وعجم بضربة خنجر، ولكن ذلك قد كان حتى يعلم الناس أنه ليس فى إمكان إنسان أن ينال رضاء جميع الناس، وأن أعدل الحكام لا يستطيع إرضاء جميع أفراد رعيته. فإن عمر إذا كان قد أرضى العرب بعدله وبره وشفقته وأرضى عامة العجم بما أفاض عليهم من العدل، فقد أغضب رؤساءهم وأصحاب السلطان فيهم؛ لأنه ثل عروشهم، وجعلهم كآحاد الناس فلا سيد ولا مسود ولا عظيم ولا حقير، بل الكل سواسية.

أما كيف وقعت الجريمة؟ فيروى لنا التاريخ أن عمر بن الخطاب كان لا يسمح لمشرك بلغ الحلم بدخول المدينة. ومازال على رأيه هذا حتى كتب إليه المغيرة بن شعبة – وهو على الكوفة – يطلب منه الإذن بدخول غلام اسمه فيروز أبو لؤلؤة لأن فى يده صناعات كثيرة ينتفع بها المسلمون. فهو حداد. نجار. نقاش. فأذن له عمر بدخولها.

وبينما عمر يطوف يوما فى السوق. لقيه ذلك الغلام وشكا إليه المغيرة بن شعبة لأنه جعل عليه خراجا كثيرا – ضريبة دخل – فقال له عمر: وكم خراجك؟ فقال مائة درهم فى الشهر، وقيل كانت ضريبته درهمين فى اليوم، فسأله عن صناعته فأخبره بها. فقال: ما أرى خراجك كثيراً على ما تصنع من الأعمال. ثم قال له. قد بلغنى أنك تقول: لو أردت أن تعمل رحًا تطحن بالريح لفعلت. قال الغلام نعم: قال فاعمل لى رحا. قال: لو عشت لأعملن لك رحًا يتحدث بها من فى المشرق والمغرب. ثم

شبكة الألوكة - قسم الكتب

انصرف فقال عمر: لقد توعدنى العبد آنفا. ثم انصرف إلى منزله وفى صباح اليوم التالى لهذه المقابلة جاء كعب الأحبار - اليهودى المسلم - إلى عمر فى منزله. وقال له: يا أمير المؤمنين اعهد فإنك ميت فى ثلاث ليال. قال: وما يدريك قال: أجد ذلك فى كتاب الله التوراة. قال عمر: أتجد عمر بن الخطاب فى التوراة؟ قال: اللهم لا. ولكنى أجد صفتك. وأنه قد فنى أجلك وعمر لا يحس وجعًا، ثم جاءه فى اليوم التالى، وقال: ذهب يوم وبقى يومان ثم جاءه فى اليوم الثالث، فقال: مضى يومان. وبقى يوم وليلة وهى لك إلى صبيحتها، ويشاء الله أنه فى صبيحة الليلة التى حددها كعب، كان عمر يصلى الفجر بالمسلمين إذ أقبل فيروز فطعنه بخنجر ذى حدين فأصابه فى وسطه بثلاث طعنات أو ست طعنات إحداهن تحت سرته. فلما وجد عمر حر السلاح سقط وهو يقول: «وكان أمر الله قدراً مقدوراً» ثم أخذ هذا العلج (الرجل من كفار العجم) يطعن الناس بخنجره ذات اليمين وذات الشمال حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً ممن فى المسجد. مات منهم سبعة. فأقبل عليه رجل من بنى تميم يقال له حطان فألقى كساءه عليه ثم احتضنه. فلما أحس فيروز أنه مأخوذ طعن - نحر - نفسه.

ولما سقط قال عمر: أفى الناس عبد الرحمن بن عوف؟ قالوا: نعم. قال: تقدم فصل بالناس. ثم حمل عمر إلى منزله، وأمر عبد الله بن عباس أن ينظر من قتله فجال ساعة ثم جاء فقال له: غلام المغيرة بن شعبة. فحمد الله أن لم يقتله رجل سجد لله سجدة يحاجه بها عند الله - يحاجه (يخاصمه) ثم أذن عمر للناس بالدخول عليه، فدخلوا فقال لهم: أعن ملإ منكم كان هذا؟ فقالوا: معاذ الله. وكانوا محزونين لفقده كحزنهم يوم وفاة الرسول ﷺ، ويوم وفاة صاحبه أبى بكر. ثم دعى له الطبيب فلم يجد للقضاء حيلة وتوفى ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ هـ ٤ نوفمبر سنة ٦٤٤م. ودفن فى حجرة عائشة مع صاحبيه حسبما أوصى بعد استئذان صاحبتها. وكانت مدة خلافته عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام. وكانت سنه حين قتل ٦٣ سنة كصاحبيه.

نظرة فى مقتل عمر

لا ينبغى أن تمضى حادثة من الحوادث الكبرى كقتل الخليفة دون أن نعرف الأسباب الحقيقية التى دفعت إلى ارتكاب جريمة كبرى، وهل هى نتيجة تدبير سابق؟ ومن مدبروها؟.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إن مجرد سخط أبى لؤلؤة على عمر لأنه لم ينصفه فى الفريضة - الضريبة - التى فرضها عليه سيده المغيرة لا يبعثه على ارتكاب جرم فظيع كهذا، وبخاصة إذا علمنا أنه غريب عن بلده لا جاه له فى المدينة. بل إن الذى دعاه إلى قتل الخليفة أوسع دائرة من هذا، وكل ما ظهر به من الشكوى أمام عمر مجرد انتحال سبب للقتل.

ووراء ذلك أسباب حقيقية هى الغيظ والحقد على الخليفة والمسلمين الذين دوخوا الفرس، وثلوا عروشهم وأعلوا كلمة الإسلام على سائر الأديان.

ويؤخذ مما رواه الثقاة والمحدثون فى مقتل عمر أن قتله كان نتيجة مؤامرة سياسية ووليد اتفاق جنائى. فإنه عقب الحادث تقدم عبد الرحمن بن أبى بكر - وهو رجل صالح غير متهم - فشهد أنه رأى الهرمزان وفيروز وجفينة النصرانى ليلة الحادث يتشاورون. فلما نظروه اضطربوا وسقط من بينهم خنجر ذو حدين نصابه فى وسطه فعرضوا عليه الخنجر الذى استعمل فى الحادث فقرر أنه هو الذى رآه، ومن المقطوع به أن فيروز كان خادمًا للهرمزان وقد كثرت الشائعات بأن الهرمزان هو الذى أعطى السلاح لفيروز، وأمره بقتل عمر لاعتقاده أن الدولة الإسلامية ستضعف بعد مصرعه بالاختلاف والانقسام، ولهذا أخذ عبيد الله بن عمر سيفه وقتل المتآمرين على الخليفة وفى نوبة الألم الشديدة قتل ابنة القاتل، ولولا اعتقال سعد بن أبى وقاص له وحبسه فى داره لقتل كعب الأحبار وغيره. فإنه كان يقول: والله لأقتلن رجالاً ممن شارك فى دم أبى.

أما كعب الأحبار فإنه لو صحت الرواية عنه لكانت دليلاً قاطعًا على اشتراكه فى المؤامرة أو على الأقل كان عالمًا بها. وعنه يقول المرحوم الخضرى جـ ٢ صـ ٣٢: لو كنت ممن يحقق هذه القضية ما ترددت لحظة واحدة فى أن لكعب يداً فى مقتل عمر، أو أنه على الأقل كان عالمًا بما تم عليه الاتفاق بين المتآمرين.

وإليكم كلمة عن كل واحد من الأربعة الذين ذكرناهم، لتتبينوا على ضوئها نفسية كل واحد منهم:

١ - **الهرمزان**: كان ملك الأهواز - من بلاد فارس - أسره المسلمون وعفا عنه عمر بعد نكثه للعهود مراراً، ولم يزده هذا العفو إلا لؤما وتمردا لأنه كان يرى أنه أصبح فى المدينة كأحد السوقة لا قيمة له، بعد أن كان ملكا كبيراً، وكان يحز فى نفسه

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ما يراه كل يوم من امتداد سلطان الإسلام على بلاد فارس وما يحمل إلى المدينة من غنائم بلاده.

٢ - **فيروز**: فارسي. كانت مراجله تغلي بالحقد على الإسلام، وكان يقول عندما يرى السبايا ويمسح على رؤوسها: أكل عمر كبدى. وكان يختلف إلى الهرمزان الوقت بعد الآخر.

٣ - **جفينة الأنبارى** من نصارى الأنبار. أرسله سعد بن أبى وقاص إلى المدينة ليعلم أبناءها القراءة والكتابة، والأنبار تابعة للفرس، ولجفينة بهم صلة، وكان يختلف الفينة بعد الفينة إلى الهرمزان وأبي لؤلؤة، لأن العداوة للعرب ألفت بين قلوبهم جميعًا.

٤ - **كعب الأحبار**: من يهود اليمن، ولما رأى اليهودية في بلاد اليمن اضمحلت والنصرانية في بلاد الشام كاد يُقضى عليها؛ ورأى مع ذلك أن الإسلام يعلو ونجمه يتألق. أظهر إسلامه ليستفيد من وراء اعتناقه عزا وجاها بين المسلمين إذا ما ظهر بينهم علمه بالتوراة، وأيام العرب فى الجاهلية، وقد كان له ما أراد فقد قال للمسلمين: إن التوراة فيها علم كل شيء مما كان ومما سيكون، وبمكر اليهود ودهائهم أمكنه أن يكتسب ثقة العامة وبعض الخاصة، ولجهل المسلمين فى ذلك الوقت بلغة التوراة أفاض علينا كعب هذا ثروة من الأخبار الإسرائيلية، ونشر كثيرًا من الأساطير نسبها إلى التوراة. ومع الأسف أن بعض هذه الإسرائيليات وصلت إلى الكتب التى بين أيدينا، ومن هذه الأشياء التى نسبها إلى التوراة قتل عمر، والتوراة بين أيدينا، وليس فيها ما أنبأ ذلك الرجل عنه فهو: إما متآمر أو عالم بالمؤامرة.

ورب قائل يقول: لو كان الأمر كذلك فماذا يدعو كعبًا إلى إخبار عمر بهذا النبأ؟

والجواب على ذلك فى غاية السهولة، وهو أن كعبا كان يعلم أن المسلمين يثقون بعلمه، وبما يخبر به وأنه إذا أخبرهم بمقتل عمر محددًا بالأيام والساعات. ثم وقع ازدادوا ثقه به، وبإسرائيلياته فينال بذلك مركزًا عظيمًا بين المسلمين. وينشر ما يريد من الأساطير التي تفسد عقيدة المسلمين.

ويحسن بعض الكاتبين الظن بكعب فى هذه المسألة فيرى أن كعبا لم يكن شريكا فى المؤامرة ولا يريد قتل الخليفة وإنما ترامت إليه أنباؤها. فأخبر عمر حتى يأخذ حذره من غير أن يصرح بأسماء المتآمرين لخوفه عليهم أو لأمر آخر لا نعلمه، وصاغ الخبر فى

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قالب مموه ليجعل المسلمين فيما بعد أكثر تصديقًا ووثوقا بما يلقيه إليهم من الإسرائيليات.

وقد عرفتم رأينا فيما سبق وهو أن كعبًا إن لم يكن شريكًا فلا أقل من علمه بالمؤامرة، ولو أن التحقيق فى هذه القضية سار على نهج التحقيق فى العصر الحاضر، ووُجد محقق ذكى لقبض على كعب بتهمة التآمر على قتل عمر، ولاتخذ من إخبار كعب قرينة لاشتراكه مع المتآمرين.

ويبدو أنه لم يكن للمسلمين سابق عهد بفن التحقيقات الجنائية وكشف المؤامرات السياسية. فلم يتقصوا جميع الدوافع التى أنتجت قتل عمر ومحاسبة المشتركين فى هذه المؤامرة، ولو أنهم عنوا بها وفصلوا فيها تمامًا لاستراح المسلمون فيما بعد من شرور المتآمرين الذين وجدوا فى كعب قدوة لهم.

وقد أثيرت هذه القضية فى عهد عثمان بشكل آخر هو محاولة قتل ابن عمر بمن قتلهم أو محاكمته على التعدى على سلطان الدولة بمباشرته القصاص بنفسه دون إذن من الحكومة، وسنتحدث عنها بالتفصيل إن شاء الله.

بقى أمر آخر

وهو لماذا لم يأخذ عمر حذره بعد أن توعده فيروز وبعد إخبار كعب له؟.

يبدو لنا أن عمر كان يرى أن كلام العبد لا قيمة له لأنه لا عصبية له تحميه، وأن إخبار كعب مجرد أسطورة، وعمر كان لا يؤمن بالخرافات والأساطير، وأن ما قُدر كائن. ثم إنه يعتقد أنه يقيم العدالة وينصف المظلوم ومن كان هذا شأنه فلن يفكر أحد فى اغتياله؛ وهذه فى الحقيقة بساطة وسلامة نية من عمر والمسلمين، وهكذا أراد الله ولا راد لقضائه(١).

* عهد عمر بالخلافة وقصة الشورى

لما طُعن عمر، وأحس بالموت طُلب إليه أن يعهد إلى خليفة من بعده. فتردد، وقال: إن أترك فقد ترك من هو خير منى – يريد الرسول ﷺ – وإن أستخلف، فقد استخلف من هو خير منى – يريد أبا بكر، وقال: لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا لاستخلفته.

---

(١) راجعوا فى مقتل عمر: الكامل لابن الأثير جـ٣ صـ٢٦، ٢٧، ٣٩ والعقد الفريد جـ٣ صـ٧١، ٧٢، وتاريخ الأمم الإسلامية للمرحوم الخضرى جـ٢ من صـ٣١، ٣٢، ٣٣، وتاريخ الفتح الإسلامى لفخر الدين صـ٣٣٨ إلى ٣٤٢، وتاريخ الخلفاء رضى الله عنهم للمرحوم محمود فياض من صـ٢٣٩ إلى ٢٤٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فإن سألنى ربى، قلت: سمعت نبيك ﷺ، يقول: «إنه أمين هذه الأمة» ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا ما داخلتنى فيه الظنون. فإن سألنى ربى قلت: سمعت نبيك يقول: «إن سالمًا شديد الحب لله لو لم يخفه ما عصاه» فقال له رجل: اعهد إلى عبد الله بن عمر. فقال له: «والله ما أردت الله بهذا. بحسب آل الخطاب أن يُحاسَب رجل واحد منهم عن أمة محمد ﷺ، ولوددت أنى نجوت من هذا الأمر كفافًا لا لى ولا على».

ثم كُرر عليه القول وبعد هنيهة طلب الاستخلاف فقال: كنت أجمعت بعد مقالتى لكم أن أنظر فأولى أمركم رجلا هو أحراكم أن يحملكم على الحق – وأشار إلى على – ثم رأيت ألا أتحمل أمركم حيا وميتا.

وتفيد هذه الرواية التى تقتصر عليها بعض المراجع أن عمر لم يفكر فيمن يخلفه إلا بعد طعنه.

وتفيد رواية أخرى أنه كان دائم التفكير فيمن يلى الخلافة. فيروى ابن عباس أنه دخل على عمر فوجده مكروبا. فقال عمر: لا أدرى ما أصنع فى هذا الأمر، أقوم فيه وأقعد. فقلت له: هل لك فى على؟ فقال: إنه لها لأهل، وإنى لأراه لو تولى أمركم لحملكم على طريق من الحق تعرفونها، قلت: فأين من عثمان؟ فقال: لو فعلت لحمل بنى أبى معيط على رقاب المسلمين. قلت: فأين أنت من طلحة؟ قال: إنه لصاحب زهو، وما كان الله ليوليه أمر أمة محمد مع ما يعلم من زهوه. قلت: فالزبير. قال: إنه لبطل ولكنه يسأل عن الصاع والمد بالبقيع – السوق – أفذاك يلى أمر المسلمين؟ قلت: فسعد. قال: ليس هناك ولكنه صاحب مقتب يقاتل عليه، فأما ولى أمر فلا. قلت: فعبد الرحمن بن عوف. قال: نعم الرجل ذكرت لكنه ضعيف؛ إنه والله لا يصلح لهذا الأمر يا ابن عباس إلا القوى فى غير عنف؛ الشديد فى غير ضعف، والممسك من غير بخل، والجواد من غير إسراف.

وفى رواية ثالثة تؤكد سابقتها، أن عمر قال: إن أدركنى أجلى، وأبو عبيدة بن الجراح حى استخلفته، فإن أدركنى وقد توفى أبو عبيدة استخلفت معاذ بن جبل.

وفى رأيى أنه يمكن الجمع بين هذه الروايات، فعمر كان يفكر قبل مصرعه بمدة طويلة فيمن يلى الخلافة بعده لكنه كان متردداً، هل يعين أم لا؟ وإذا عين فمن يكون؟ فلما طُعن وطُلب إليه العهد بالخلافة كان لا يزال فى تردده، ولكنه رأى اللحظة الحاسمة قد حانت فرشح الذين مات الرسول وهو راض عنهم والذين قال فيهم ﷺ:

www.alukah.net
شبكة الألوكة

«إنهم من أهل الجنة». وكان من هؤلاء المبشرين سعيد بن زيد بن نفيل، ولكنه لم يدخله فيهم لقرابته له. والمرشحون هم: عثمان وعلى ابنا عبد مناف، وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف خالا رسول الله، والزبير حوارى رسول الله - الحوارى: الناصر - وابن عمته، وطلحة بن عبيد الله، وجعلها شورى بينهم.

وبعد أن استقر رأيه على هذا أرسل إلى الخمسة الموجودين - لأن طلحة كان غائبًا فى سفر - وقال لهم: إنى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس، وقادتهم، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، وإنى أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس، فانهضوا إلى حجرة عائشة بإذنها فتشاوروا فيها. فاجتمعوا وتحادثوا فارتفعت أصواتهم فأمرهم بتأجيل اجتماعهم لما بعد موته، ثم يجتمعون للتشاور فى اختيار واحد فى مدى ثلاثة أيام، وقال: ليصل بالناس صهيب (الرومى) ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً، ولا شيء له، وطلحة شريككم فى الأمر فإن قدم فى الثلاثة فأحضروه أمركم وإن مضت قبل قدومه فامضوا أمركم، ثم بعد أن تحدث عن بعض المرشحين وما فيه من صفات، قال لأبى طلحة الأنصارى: إن الله قد أعز بكم الإسلام، فاختر خمسين رجلا وكونوا مع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم، وقال للمقداد بن الأسود: إذا وضعتمونى فى حفرتى فاجمع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم. وقال لأبى طلحة والمقداد: إن اجتمع خمسة على رجل وأبى واحد فاقتلوه وإن رضى أربعة واحداً وأبى اثنان فاقتلوهما، وإن رضى ثلاثة رجلاً، وثلاثة رجلاً، فحكموا عبد الله بن عمر، فمن حكم لهم فمنهم الوالى، وإن لم يرضوا حكمه فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين، إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس.

وبذلك رسم لهم عمر طريق الاختيار، وأعد له، وكأنما كان جرحه النزاف فى غير عمر، وكأن عمر ملك كريم يسمو على الآلام الحسية، وأحكام الطبيعة البشرية، فلم تلهه آلامه - وإن عظمت - عن تدبير أمر المسلمين تدبير حازم متمتع بكل قواه، وعبقريته النادرة.

فلما مات عمر وأخرجت جنازته تصدى على وعثمان للصلاة عليه، فقال عبد الرحمن: كلاكما يحب الإمرة لستما من هذا فى شيء، هذا صهيب استخلفه عمر يصلى بالناس حتى يجتمع الناس على إمام.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وبعد أن دُفن، اجتمع المرشحون في مكان اختلفوا في تحديده، هل هو بيت عائشة أو بيت المسور بن مخرمة أو بيت المال، أو بيت فاطمة بنت قيس الفهرية. ويظهر أن سبب اختلاف المراجع هو تعدد الجلسات والاجتماعات، وكانوا خمسة لأن طلحة كان لا يزال غائبًا، وكان معهم عبد الله بن عمر، وجعلوا أبا طلحة حاجبًا، وتناقشوا في الأمر وكثر بينهم الكلام فقال أبو طلحة: أنا كنت لأن تدفعوها أخوف مني لأن تتنافسوها، لا والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي أمر بها.

ولما طال الأمر ولم يصلوا إلى شيء قلق عبد الرحمن بن عوف، وفكر في وسيلة لإنهاء هذا الموقف، وهداه تفكيره إلى الاقتراح الآتي: وهو أن يتنازل واحد منهم عن حقه ويتولى اختيار واحد من الخمسة الباقين على أن يحلف بالله ليؤثرن الحق، ولا يتبعن الهوى، ولا يخص ذا رحم لرحمة ولا يألو الأمة نصحًا، فلما لم يتنازل أحد خلع هو نفسه وحلف بالله على أن يتبع الحق، وحلفوا له على الرضا بحكمه. فاختلى عبد الرحمن بعلي، وقال له: لو لم تكن في الشورى فمن تختار؟ فقال عثمان، واختلى بعثمان وسأله نفس السؤال فقال: علي، وهكذا كلم سعداً والزبير. فقالا: عثمان.

وبذلك صار الأمر في عنق عبد الرحمن فدار لياليه يلقى أصحاب رسول الله، ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يشاورهم ولا يخلو برجل إلا قال له عثمان. حتى إذا كانت الليلة التي في صبيحتها ينتهي الموعد المحدد. أتى منزل المسور ابن مخرمة، وأمره أن يدعو إليه الزبير وسعداً، فدعاهما فبدأ بالزبير فقال له خل ابني عبد مناف وهذا الأمر. فقال الزبير نصيبي لعلي، وطلب عبد الرحمن من سعد — وكان ابن عمه — أن يتنازل عن نصيبه في الخلافة فيصرفه عبد الرحمن إلى من يشاء.

فقال له سعد: إن اخترت نفسك فنعم، وإن اخترت غيرك فعلي أولى من عثمان، وألح سعد على عبد الرحمن أن يختار نفسه فأبى لأنه أعطى موثقا بخلع نفسه، وقال: لا يقوم أحد بعد أبي بكر وعمر فيرضى عنه الناس. ثم انصرف الزبير وسعد.

ومن ذلك يتبين لنا أن الرجلين (الزبير وسعداً) تغير موقفهما، ويبدو لنا أن سبب هذا التغير إنما يرجع إلى كلام حدث من علي لهما بعد الموقف الأول وبيان أنه أحق بالخلافة (راجعوا ابن الأثير جـ ٣ ص ٣٦) وأرسل عبد الرحمن المسور أيضا إلى عثمان فجاء فحادثه حتى فرق بينهما الصبح.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فلما صلوا الصبح جمع الرهط وأرسل إلى من حضره من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار وأمراء الأجناد. فاجتمعوا. فقال سعد «أيها الناس إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم. وقد علموا من أميرهم. فقال سعيد بن زيد: إنا نراك لها أهلاً. فقال: أشيروا عليّ بغير هذا. فقال عمار بن ياسر. إن أردت ألا يختلف الناس فبايع عليا، وقال عبد الله بن أبى السرح: إن أردت ألا تختلف قريش فبايع عثمان. وتشاتم عمار وابن أبى السرح. وتكلم بنو هاشم وبنو أمية. وكثر الكلام فقال سعد: يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس فقال عبد الرحمن: إنى قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا. ودعا عليا. وقال له: عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله، وسنة الخليفتين من بعده. فقال: أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى. ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلى فقال: نعم: ووافقه على ما أراد. فبايعه عبد الرحمن بالخلافة. وبذلك أصبح عثمان الخليفة الثالث لرسول الله ﷺ. ثم قدم طلحة فى اليوم الذى بويع فيه عثمان فقيل له: إن الناس قد بايعوا عثمان. فقال: أكل قريش راض به؟ قالوا: نعم. فأتى عثمان فقال له عثمان: أنت على رأس أمرك. وإن أبيت رددتها. قال: أتردها؟ قال نعم، قال طلحة: أكل الناس بايعوك؟ فقال: نعم. قال طلحة: رضيت لا أرغب عما أجمعوا عليه. وبايعه.

وقد فرغوا من مبايعته يوم ٢٩ من ذى الحجة سنة ٢٣هـ - ٧ نوفمبر سنة ٦٤٤م فاستقبل بخلافته هلال المحرم سنة ٢٤هـ.

هذا وقد قيل كلام كثير فى طريقة ابن عوف التى سلكها فى اختيار عثمان، وروت المصادر روايات كثيرة فى هذه المسألة أضربنا صفحًا عن ذكرها، وكل مصدر يروى وجهة نظره وقد يكون متأثرًا بعاطفة ما. كما يروى أن عليًا قال لعبد الرحمن: ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون. فقال عبد الرحمن: يا على لا تجعل على نفسك حجة وسبيلا. فخرج وهو يقول: سيبلغ الكتاب أجله .. الخ، ويقول الخضرى فى محاضراته جـ٢ ص ٣٧. إن عليًا رجع يشق الناس حتى بايع عثمان.. الخ، ويحسن بكم مراجعة قصة الشورى فى مظانها من مثل الطبرى جـ٣ من ٢٦٤ - ٢٩٢ والكامل لابن الأثير جـ٣ من ٣٦ - ٣٩ والعقد الفريد من ٧٣ - ٧٩، وتاريخ الفتح الإسلامى ٣٥٣ و ٣٥٤ و ٣٥٨ و٣٥٩ والبداية والنهاية لابن كثير جـ٧ من ١٣٧ - ١٣٩ وأشهر مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة جـ٤ من ٦٨١ - ٦٩٥ لمعرفة ما قيل فيها من خطب وما دار من أحاديث.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وأياً ما كان فقد لخصت واخترت ما يتفق مع الحقيقة. بيد أنه توجد ملاحظات على عهد عمر وقصة الشورى وإليكم أهمها:

١- لماذا لم يدع عمر الأمر كله كما فعل الرسول؟ أو يعين واحداً ترضاه الأمة فى حياته كما فعل الصديق؟ ولِمَ حصر الاختيار في هؤلاء الستة؟ ألم يكن فى المسلمين من يصلح للخلافة سواهم؟ ولِمَ لم يتركه حراً مطلقًا من كل قيد كما هو الشأن الآن، يتقدم للانتخاب كل من يأنس فى نفسه الكفاية؟.

كل هذه الأسئلة جالت وتجول فى الأذهان ودارت بخواطر الباحثين، والإجابة عنها أن عمر لم يشأ أن يترك الأمة تتخبط فى اختيار من بعده. وليس الحال كما كان عند وفاة الرسول فقد دخل فى الإسلام بعد الفتوحات عناصر كثيرة من غير العرب ورأينا أن قرون الشر بدت موجهة إلى الحكم الإسلامى. ولم يرد أن يستخلف كما استخلف أبو بكر حتى لا يتحمل تبعتها حيًا وميتًا، لأن الذين رشحهم للخلافة كل واحد منهم بيّن ما فيه من العيوب. وهو أراد أن يخرج من الدنيا كفافًا لا له ولا عليه كما صرح بذلك، فأراد أن يتجنب الطريقتين السابقتين لهذه الأسباب وليوسع دائرة نفوذ الأمة ويُشرب نفوس أبنائها حب الشورى، والقدرة على معالجة الأمور السياسية. وحصر الاختيار فى الستة فقط، لعل ذلك لحرصه على تضييق باب الانتخاب، وكمّ أفواه الفتنة لما يعلمه من حداثة عهد المسلمين بممارسة تلك الأمور، ولما يشعر به من وجود نزعات العصبية التى كانت لا تزال عالقة بنفوس العرب فلو وسع باب الشورى لانتشر الأمر وعمت الفوضى فنهج بذلك نهجًا وسطا ورسم للقوم طريق العمل وحاطها بشىء كثير من التدبير رجاء ألا يضل الناس من بعده الطريق السوى، وكان يرجو أن يحملهم دينهم على الحرص على صالح الإسلام والمسلمين دون نظر إلى ما وراء ذلك من فوائد شخصية وأغراض دنيوية زائلة، وضرب المثل هو بنفسه فصرف الأمر عن كل ذى قرابة، فسعيد ابن زيد مع أنه أحد العشرة المبشرين بالجنة لم يدخل فى الشورى وأدخل ابنه عبد الله فى الشورى وليس له من الأمر شىء.

٢- رأى بعض الناس قديمًا وحديثًا أن الشورى أتاحت الفرصة لإحياء ما كان بين بنى هاشم وأمية من خلاف الجاهلية. فيروى عن معاوية أنه قال: لم يشتت أمر المسلمين ولا فرق أهواءهم إلا الشورى التى جعلها عمر إلى ستة نفر. فلم يكن

www.alukah.net
شبكة الألوكة

منهم رجل إلا رجاها لنفسه ورجاها له قومه وتطلعت إلى ذلك نفسه، ولو أن عمر استخلف كما استخلف أبو بكر ما كان فى ذلك اختلاف.

ولكننا نقول لمعاوية إن أبا بكر عين من يثق به، وإن عمر صرح بأنه لا يجد من يثق به وكان فى أشد الحالات من الألم وضيق الأجل ففضل أن يحمل الأمانة هؤلاء الستة. وجعلهم مسئولين أمام الله وأمام ضمائرهم وجماعة المسلمين فلا يتوجه اللوم إلى عمر، وإنما يتوجه للمرشحين الذين أراد كل واحد منهم أن يستأثر بها. تلك الأثرة التى عبر عنها أبو طلحة بقوله السابق. على أنه يمكننا أن نلتمس العذر لهم، فربما كان كل واحد منهم يريد أن يحقق آمالاً للمسلمين إذا ما آل الأمر إليه، ولكننا لا ننكر أن وراء هؤلاء جماعات يريدون الجاه والسلطان، وقد تمخض عنهم المجتمع الإسلامى أيام عثمان.

٣- ظهر بعد هذه البيعة احتجاج على رضى الله عنه فى قوله: ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا فصبر جميل إلى آخر ما قال، بما يشعر بأن هناك تحاملاً عليه وأن تقديم عثمان عليه، فيه بعد عن طريق الحق.

والحقيقة أن تولية عثمان قبله وقعت على الترتيب الطبيعى الذى كان منتظراً ويتوقعه الناس إذ ذاك، لأن عمر كان شديداً عليهم، وكانوا مكبوتين فى عهده، فكانوا لا يرون تولية على لشدته، وكان عمر يعرف ذلك عنه فقد قال فى حقه: «أحراكم أن يحملكم على طريق من الحق تعرفونها» ويحبون أن يلى عثمان للينه وأيضاً لما روى من الأحاديث الكثيرة بوضع على بعد أبى بكر وعمر وعثمان.

ويظهر أن عمر نظر فى شأن على إلى ناحية أخرى وهى أنه لا ينبغى أن يجمع بنو هاشم بين جاه النسب «النبوة» وجاه الخلافة، فيروى عن عبد الله بن عباس أنه قال: «ماشيت عمر بن الخطاب يومًا. فقال: يا ابن عباس، ما يمنع قومكم منكم وأنتم أهل البيت خاصة؟ فقلت: لا أدرى. فقال: ولكننى أدرى، إنكم فضلتموهم بالنبوة فقالوا إن فضلوا بالخلافة لم يبقوا لنا شيئًا، وإن أفضل النصيبين بأيديكم وما أخالها إلا مجتمعة لكم، وإن نزلت على رغم أنف قريش» فربما كان هذا الاعتقاد مما صرف عمر عن استخلاف على مجاراة للرأى العام.

وقد وضح هذا الرأى فى مسألة الشورى، وما ظهر من على فى آخر لحظة بالتجديد والاجتهاد والأمة لا تزال حريصة على التمسك بكتاب الله وسنة رسوله وما رسم

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الشيخان، ومن هذا كله نرى أن عمر كان عبقريًا فيما صنع فكان ناظراً إلى مصلحة المسلمين متحريًا الحق، فإنه مع اعترافه للمرشحين بمزايا عالية، جعل عليهم محكمين يقومون على أمرهم ويضربون رأس كل من تحدثه نفسه بالشقاق. فرحم الله عمر، قد ضرب لنا أروع الأمثال، فما أحرانا بالسير على طريقته وترسم خطاه لجمع الكلمة وتوحيد الصفوف حتى يرجع إلينا مجدنا القديم. واعتقادى أنا سائرون وواصلون بإذن الله.

والآن وقد آل الأمر إلى عثمان فسيكون حديثنا عنه وعن عصره وما كان فيه من فتوح وأحداث.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الخليفة الثالث

عثمان بن عفان

من (٢٤هـ - ٦٤٤م) إلى (٣٥هـ - ٦٥٦م)

* نسبه ومولده ونشأته

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى القرشى الأموى، ويجتمع مع رسول الله ﷺ فى عبد مناف، وكنيته أبو عبد الله وأبو عمرو، والثانية أشهر. وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد مناف، وجدته لأمه هى البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب عمة الرسول، فهو أقرب الخلفاء الراشدين رحمًا من رسول الله بعد على بن أبى طالب.

وُلد فى السنة الخامسة أو السادسة من ميلاد الرسول، وكانت نشأته مثلاً عاليًا لكريم الأخلاق وحميد الصفات. ولما بُعث الرسول عليه السلام كان من السابقين إلى الإسلام، فيروى أنه رابع أربعة أسلموا أول الناس، أصهر إليه الرسول بعد إسلامه بابنته رقية، فلما آذى مشركو قريش المسلمين هاجر بها إلى الحبشة، ثم رجع إلى مكة قبل الهجرة إلى المدينة، ثم هاجر إلى المدينة فكانت الهجرة الثانية له. وحضر مع الرسول جميع مشاهده ما عدا بدرًا فقد كان قائمًا بتمريض رقية زوجه فأسهم له الرسول، فعُدَّ بدريا، وإن لم يشهد بدرًا.

وفى ذلك المرض توفيت السيدة رقية، فزوجه الرسول أختها أم كلثوم، ولمنزلته عند الرسول قال له بعد وفاة أم كلثوم سنة ٩ هجرية: «لو كان لنا ثالثة لزوجناك».

ولما كان رضى الله عنه جليل القدر بين المسلمين، عظيم المنزلة عندهم، محبوبًا من قريش، جعله الرسول سفيرًا فى صلح الحديبية بين المسلمين، وقريش، ولما شاع خبر قتل قريش له، بايع النبى أصحابه بيعة الرضوان - تحت الشجرة - على أن يبيعوا أنفسهم فى سبيل الله، انتقامًا من قريش على ما اقترفوا من الإثم، ثم ظهر أنه لم يقتل، ولم يُصب بأذى.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وكان له فى جيش العسرة إلى تبوك اليد الطولى، فقد جهز العاجزين والمعوزين للجهاد. فجهز من ماله الخاص جيشًا بألف بعير، وخمسين فرسًا، واشترى بئر رومة – وكانت ملكًا ليهودى يتحكم فى مائها لعذوبته، ويبيعه بأغلى الأثمان للمسلمين – ثم تصدق بها على المسلمين، وكان نصيبه منها كنصيب واحد منهم، وكان كاتب الوحى بين يدى رسول الله ﷺ، فلما توفى الرسول كان لأبى بكر، ثم لعمر من بعده كاتبًا أمينًا يُستشار فى مهام الأمور.

* بعض صفاته

وضح مما تقدم أن عثمان كان سيداً من سادات قريش، وزعيم بنى أمية فى الإسلام وأنه جاهد مع الرسول وأنفق كثيراً من خالص ماله فى سبيل الله، وبذل فى سبيل الإسلام والمسلمين الشيء الكثير، ووصل إلى غاية يقف دونها كل جواد، وتكل عنها كل أريحية، وكان رضى الله عنه رضى الخلق، لين العريكة، شديد الحيلة حتى إنه لم يكن يوقظ نائمًا من أهل بيته إلا أن يجده يقظان فيدعوه فيناوله وضوءه، وأنه كان يقوم فى جوف بيته والباب عليه مغلق فيخلع ثوبه للاغتسال، ويستحى أن يرفع صلبه، وكان الرسول يستحى من حضرته مما لا يستحى عنه فى حضرة غيره، ويقول: «**كيف لا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة**». وحسبه أن كان أحد العشرة المبشرين بالجنة، والذين مات الرسول وهو عنهم راض، وأحد الستة الذين عيّنهم عمر للشورى، وأحد الصحابة الذين جمعوا القرآن، وهو فوق ذلك رجل قرآن وعبادة يحيط به النور وتلتف به الهداية، ومكانه فى سجل الخالدين من بناة صرح الإسلام فى المحل الأرفع، وهو بعد ذلك قضية تؤرخ روح الإسلام وتعاليمه، وتؤرخ الوحدة الإسلامية، وما أصابهما من ضعف وتمزق نتيجة لسنة التطور، كما تؤرخ قضية الخلافة وما أصابها من ضياع جلالها بيد المسلمين(١). ثم هو رضى الله عنه مشكلة. تناقضت فيها النصوص تناقضًا يؤذن بالوضع والاختلاق. وإنا لنرجو الله أن يوفقنا لبيان الحقيقة فى هذا الموضوع الشائك. المتشعب الأطراف.

* أول خطبة لعثمان، ومنهجه فى الحكم

كان أول خطاب لعثمان بعد بيعته أن صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنكم فى دار قلعة – لا تدوم – وفى بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه.

---

(١) راجعوا فى هذا الموضوع الإصابة لابن حجر ج ٤ ص ٢٢٣ والخضرى جـ٢ ص ٣٧، ٣٨ وابن الأثير جـ٣ ص ٩٣، ٩٤، وفياض ٢٥١، ٢٥٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ألا إن الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور واعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا. إلى أن يقول: واطلبوا الآخرة... إلى آخر ما قال (راجعوا الخطبة فى الخضرى جـ٢ ص ٤٠ و ٤١).

ونحن إذا نظرنا فيها وجدناها وعظًا، ويظهر أن حياءه غلب عليه فلم يشأ أن يشتد على الناس فى مواجهتهم، ويظهر أيضًا أنه شعر أن من واجبه أن يتحدث كسابقيه عن منهج حكمه فكتب كتابًا إلى أمراء الأمصار وأمراء الأجناد، ضمنه مبادئ عمر بن الخطاب، مما يظهر بوضوح أنه قد اعتزم اتباع سياسة سلفه ومنه: «إنكم حماة الإسلام وذادة المسلمين، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا، ولا يبلغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم، ويستبدل بكم غيركم .. الخ».

وكتب كتابًا آخر إلى عمال الخراج. أما بعد: فإن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق. فخذوا الحق، وأعطوا الحق، والأمانة الأمانة قوموا عليها .. إلى أن يقول: فلا تظلموا اليتيم، ولا المعاهد، فإن الله خصم لمن ظلمهم. وكتب كتابًا ثالثًا للعامة. «أما بعد، فإنكم بلغتم ما بلغتم بالاقتداء. فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم. فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع. بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن. الخ[1]».

وفى الكتاب الثالث نرى أن عثمان قد شعر بأن المجتمع بدأ يتطور ويسير وجهة أخرى، وكان لذلك التطور أكبر الأثر فى الثورة التى أودت بحياة عثمان، ومزقت أوصال الأمة.

* أول قضية نظر فيها عثمان

عرفنا فيما سبق أن عبيد الله بن عمر قتل الهرمزان وجفينة وابنة المجوسى أبى لؤلؤة، فعقب تولية عثمان الخلافة جمع المسلمين بالمسجد، واستحضر ابن عمر، وقال لهم: أشيروا على فى هذا، الذى فتق فى الإسلام ما فتق. فقال على بن أبى طالب: أرى أن تقتله. فقال بعض المهاجرين: قُتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم؟ وقال عمرو بن العاص: إن قد أعفاك أن يكون هذا الحدث ولك على المؤمنين سلطان، فقال الخليفة: أنا وليهم وقد عفوت عنه وجعلتها دية أحتملها فى مالى.

(١) يحسن بكم مراجعة هذه الكتب فى الطبرى جـ٣ من ص ٣٠٥ إلى ٣٠٨، وأشهر مشاهير الإسلام لرفيق العظم جـ٤ من ص ٧٥١ إلى ٧٥٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقد أنكر على الخليفة ذلك عليٌّ وجماعة من المسلمين، وعابوا على عثمان العفو في حدود الله، وظل على متمسكًا بوجهة نظره حتى ولى الخلافة فطلب عبيد الله ليقتص منه للقتلى فهرب إلى الشام وانضم لمعاوية بن أبى سفيان، وحارب عليا، وقُتل يوم صفين.

ومما لا شك فيه أن عبيد الله قد افتأت على حق الخلافة (الحكومة) فى مباشرته القصاص بنفسه، ولو تُرك الأمر لكل فرد يأخذ حقه بنفسه لفسدت أحوال الأمة، فهو قد أخطأ مرتين لأنه قتل غير القاتل، ولأنه تولى القصاص بنفسه من غير أن ينتظر حكم ولى الأمر، ولكن يجب تقدير الظروف المحيطة بالحادث، وأثرها فى نفسية عبيد الله فهو قد اعتقد أنها مؤامرة واسعة النطاق مدبرة ضد أبيه، وضد الخلافة الإسلامية. فأصابته حالة نفسية شديدة فقد معها شعوره.

ويؤيدنا فى هذا قتله لابنة فيروز (القاتل) فإنه لو كانت حالته عادية ما خفى عليه أن قتلها ذنب عظيم، وعثمان لاحظ تلك الحالة فأسقط القصاص عنه - ونعم ما صنع - وذلك مبدأ قضائى تسير عليه أكثر الدول، فمثلاً القانون الإنجليزى يجعل الاستفزاز من مسقطات القصاص، وكذلك القانون السودانى.

وفوق ذلك فالقانون فى أغلب الدساتير يتيح للحاكم العفو عن الجانى عفوًا تامًا أو تبديل العقوبة من الحبس إلى القتل، وهذا بلا شبهة قوية. فما بالنا بشبهة قوية كالتى نحن بصددها.

وأما إصرار على بن أبى طالب على قتله فى خلافته. فما كان ينبغى ذلك لأنها قضية فصل فيها سلفه باتفاق كبار المسلمين؛ لأن مثل ذلك يقلل الثقة فى أحكام الخلفاء ونزاهتهم عند العامة.

ومن الناحية السياسية: فقد حرم نفسه معونة بطل كبير مثل ابن عمر ومعونة أهله من بنى عدى فكانوا عليه. (راجعوا فى هذا الموضوع الكامل لابن الأثير جـ٣ ص ٣٩ والفتح الإسلامى ٢٦ والخلفاء ٢٥٤، ٢٥٥).

* الفتوح فى عهد عثمان

كان ما حدث من الفتوحات الإسلامية فى عهد الخليفتين أبى بكر وعمر لبلاد الفرس حدثًا هائلاً. فإنهم ما كان يدور بخلدهم أن عرب الصحراء سيفتحون بلادهم،

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولكن ذلك قد كان وفتحت بلادهم، وقدموا الطاعة للمسلمين ولم تكن هذه الطاعة فى نظرهم إلا ريثما تواتيهم الفرصة لإرجاع بلادهم، وإعادة مجدهم، وقد ظنوا أن الفرصة مواتية فى عهد عثمان. فانتقض كثير من البلاد ومنعوا ما صالحوا المسلمين عليه فعمل عثمان على إخماد حركاتهم وردهم إلى الطاعة، ولم يقف عند هذا الحد، بل فتح بلاداً جديدة وسارت الفتوحات الإسلامية بنشاط عظيم، واستمرت فى سيرها إلى أن كانت الفتنة وقتل الخليفة.

وسوف لا أتحدث عن هذه الفتوح بالتفصيل، بل سأعطيكم صورة عنها لتعرفوا مدى نشاط المسلمين، وما وصلوا إليه من مجد.

وسنقسم هذه الفتوح بحسب البلاد التى تم فتحها:

*** البصرة**

وأول هذه الفتوح ما قام به عبد الله بن عامر، والى البصرة: بعد أبى موسى الأشعرى. فقد سار بجيوشه إلى مقاطعة فارس المجاورة لحكومته فأخضعها، وبدأ بعدها سلسلة حملات أخرى شرقا وشمالاً كُللت كلها بالنجاح فأخضع نيسابور وسرخس ومرو، من بلاد خراسان. ثم اشتبك فى معركة كبرى عند خوارزم (على نهر جيحون) حطم فيها القوات الفارسية، وانتصر انتصاراً عظيمًا، دفعه إلى التوغل فى بلاد التركستان حتى مدينة بلخ وأدخلها فى حوزة الإسلام، وظل ابن عامر عامًا كاملاً فى جهاده حتى تم إخضاع القسم الشرقى من بلاد فارس للإسلام من جديد ثم رجع يسوق أمامه أربعين ألف أسير من الفرس فيما يقال، وكان ذلك سنة ٣١ هـ الموافقة سنة ٦٥٢م، وفى هذه السنة ترك ابن عامر البلاد بغية الحج وأقام الأحنف بن قيس ومجاشع بن مسعود والربيع بن زياد الحارثى نوابًا عنه فى القيام بالقيادة وهؤلاء أرجعوا سلطة الإسلام فى البلاد التى انفجرت فيها الثورة أمثال كرمان وسجستان وطخارستان، فأعادوها إلى سيرتها الأولى، ورجع سلطان الإسلام حتى هراة وكابول وغزنة، وبذلك تم القضاء على قوات الفرس، وتسمى الفتوحات السابقة التى تمت فى بلاد فارس وخراسان (فتوح أهل البصرة) وفى سنة ٣٢هـ وهى السنة الثامنة من حكم عثمان، وصل إلى علم المسلمين أن بعض أتباع يزدجرد ملك الفرس قد اختلفوا معه وطاردوه، واستمروا فى مطاردته حتى استقر به النوى فى بيت طحان بمرو فدخلوا عليه وقتلوه، وبقتله زالت دولة الساسانيين، وبموته انتهى عهد الأكاسرة إلى الأبد.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

* **الكوفة**

وبينما كانت جيوش البصرة قائمة بإخضاع الثورة فى ناحيتها، ثارت قبائل الترك والخزر وأرمينيا فى شمال العراق . فخرجت أذربيجان عن الطاعة ومنعت ما كانت قد رضيت به من الجزية فغزاها الوليد بن عقبة والى الكوفة حتى رضيت أن تؤدى ما كان عليها فى عهد عمر. . وسيّر حبيب بن مسلمة الفهرى إلى أرمينيا جيشاً شتت به شمل المجتمعين بها ممن أراد نقض الطاعة، ويروى أن الذى سار إليها إنما هو سلمان بن ربيعة الباهلى وأن حبيب بن مسلمة كان مدداً له، وأيا ما كان فقد انتصر المسلمون، وتم إخضاع البلدين.

وفى عهد إمارة سعيد بن العاص على الكوفة - بعد الوليد - زحف الترك والخزر يريدون إيقاف المسلمين عن التقدم فسار سعيد بجيش كبير فيه الحسن والحسين والعبادلة الأربعة أبناء العباس وعمر وعمرو بن العاص والزبير، وحذيفة بن اليمان، وغيرهم من الأعلام لتأديب الخارجين ولكنه انهزم أمام هذه الجموع فى بلاد لم يألفها المسلمون، وطلب من الخليفة إمداده بالجيوش فأرسل عثمان نجدات من الشام بقيادة عبد الرحمن بن ربيعة، ونظم المسلمون صفوفهم، ثم التقوا بالعدو فى شمال أذربيجان ولكن المسلمين انهزموا أيضا، وأصيب القائد عبد الرحمن بن ربيعة، غير أن أمثال تلك الهزيمة لم تؤثر فى معنوية المسلمين، ولم تدفع العدو إلى مواصلة التقدم لطرد المسلمين عن بلادهم، لأن أنباء النصر فى الميادين الأخرى كانت ذات أثر كبير فى نفوس المسلمين وأعدائهم، وتسمى الفتوح فى أرمينيا وأذربيجان وطبرستان (فتوح أهل الكوفة).

* **الشام**

كانت الإمارة على بلاد الشام قد آلت إلى معاوية بن أبى سفيان. وبينما كان مشغولاً بتنظيم الأمور الداخلية، إذ فاجأه البيزنطيون بجيش تقدموا به من آسيا الصغرى وكان ذلك فى السنة السادسة والعشرين من الهجرة الموافقة سنة ٦٤٧م.

باغت البيزنطيون معاوية ولم يكن لديه من الجيوش ما يستطيع به الوقوف لدرء هذا الخطر الفجائى بسبب استمرار السلام فى الشام طويلاً ولذلك طلب من الخليفة النجدة فأنجده بثمانية آلاف فألحق بالعدو هزيمة منكرة، ثم طارده حتى تم له فتح الجزء الشرقى من آسيا الصغرى. ثم أراد أن يصل فتوح الشام بفتوح فارس فاتجه إلى أرمينيا

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثم إلى طبرستان فى جنوب بحر الخزر (قزوين) ثم عرج شمالاً حتى وصل تفليس وشواطئ البحر الأسود وأطراف آسيا الصغرى الشمالية. ووقعت بينه وبين البيزنطيين وقائع كثيرة كان ينشبها فى صيف كل سنة حتى دوخ العدو وأجلاه عن كثير من الأراضى، وأصبح معظم آسيا الصغرى تحت سلطانه، وأطل على بحر مرمرة وعلى القسطنطينية فهاجمها، ولكنها استعصت عليه. وكان ذلك فى أواخر خلافة عثمان. فقفل راجعًا إلى الشام وفى عودته ضرب كثيراً من المعاقل والحصون مثل عمورية.

*** مصر**

لما استوى المسلمون على الإسكندرية بقى كثير من الروم بها. فانتهزوا فرصة انشغال المسلمين بالفتوح فى المغرب. وكاتبوا هرقل - قيصر الروم - وأخبروه بقلة من عندهم من المسلمين، وطلبوا منه نجدة. فأرسل إليهم أحد قواده فى أسطول عظيم. وكان ذلك سنة ٢٥هـ.

ويظهر أن خطة الروم كانت تنطوى على الهجوم من الإسكندرية حيث تنضم إليها قوات الروم الموجودة فى إفريقية. ثم يتجهون شرقًا لمقابلة جيشهم الثانى الذى ينقض على المسلمين من آسيا الصغرى بعد أن يتم لهم الاستيلاء على مصر. ولكن عمرو بن العاص أفسد عليهم خطتهم. فإنه سار إليهم من الفسطاط وعمل على أن يتقدم الروم داخل البلاد. ونجح فى خطته ثم التقى بهم فى جملة معارك أقنعتهم بتفوق المسلمين البرى. فولوا راجعين إلى الإسكندرية فدخلوها وتحصنوا بها فألح عليهم عمرو حتى دخلها بالسيف عنوة. وقتل قائد الروم وكثيراً منهم، واستولى على كثير من سفن الأسطول. ثم هدم سور الإسكندرية - وكان قد نذر إن فتحها ليفعلن ذلك - ثم رجع إلى مصر. وكان ذلك آخر عمل جليل أداه عمرو للدولة الإسلامية وكانت مكافأته عليه عزله نهائيًا عن إمرة مصر. وكان ذلك من عناصر الفتنة ضد عثمان.

*** إفريقيا**

كان من بين قادة الجيوش العربية فى مصر وإفريقيا عبد الله بن سعد بن أبى سرح - أخو عثمان لأمه من الرضاع - ولاه عمر بن الخطاب الوجه القبلى على أن يكون تحت رئاسة عمرو بن العاص ففتح النوبة، ولما عزل عثمان عمرو عن مصر صارت الولاية والقيادة لعبد الله بن أبى سرح. فأراد أن يثبت وجوده فاتجه إلى الناحية الحربية، وقد تم

شبكة الألوكة - قسم الكتب

على يديه فتح طرابلس، والاستيلاء على قرطاجنة حاضرة ممتلكات الدولة الرومانية فى إفريقيا. وتابع الانتصارات حتى وصل إلى المحيط الأطلسى.

وقد بلغ من سرور عثمان بهذا الفتح أنه أعطى خُمس ما خص بيت المال من الغنيمة لعبد الله بن سعد مكافأة له. ويقال إن عثمان كان قد نذر ذلك. كما يروى أنه باع الأربعة أخماس الباقية لمروان بن الحكم بخمسمائة ألف دينار - وهو ثمن بخس إن صح ذلك - والروايات كثيرة فى هذا الموضوع. وأيا ما كان فقد كانت هذه الشائعات عنصراً من عناصر الفتنة.

* الحملات البحرية

أ - **فتح قبرص ورودس**: كانت فكرة القيام بحملة بحرية موجودة منذ خلافة عمر ابن الخطاب وكان معاوية يطلب منه السماح له بحملة بحرية لفتح الجزر القريبة من ساحل الشام كقبرص ورودس. وكتب له مرة فى شأن قبرص إن قرية من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلاب قبرص، وصياح دجاجهم. ولكن عمر بن الخطاب كان يخاف على المسلمين من أخطار البحار فلم يأذن له. فلما ولى عثمان جدد معاوية الطلب فأذن له الخليفة بشرط ألا يكره أحداً على ركوبه. وأن يقتصر الانخراط فى بحريته على المتطوعين. فأسرع معاوية بتجهيز حملة بحرية أقلعت سنة ٢٨هـ قاصدة قبرص. وكان أمير البحر فيها أبو قيس الحارثى وجاء إليه ابن أبى سرح - أمير مصر - ببضع سفن وسار الأسطول الإسلامى يخترق العباب، واشتبك مع البيزنطيين سادة البحار فى عدة معارك قُتل فى إحداها أمير البحر المسلم، واستولى المسلمون على قبرص فصالحهم أهلها على سبعة آلاف دينار يؤدون إلى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون من ذلك. وليس على المسلمين منعهم ممن أرادهم من سواهم وعليهم أن يعلموا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم. ويكون طريق المسلمين إلى العدو عليهم. وبعد أن أمضيت المعاهدة، رحل المسلمون من قبرص إلى رودس ففتحوها.

ب - **موقعة ذات الصوارى**: ظهر للروم أن العرب يحسنون حرب البحر كما يجيدون حرب البر فعملوا على هدم سيادة المسلمين البحرية الناشئة. فجهزوا أسطولاً قوياً يتراوح عدد سفنه ما بين ٥٠٠ و ٦٠٠ سفينة تحت قيادة قسطنطين بن هرقل.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

شعر معاوية والى الشام وعبد الله بن سعد والى مصر بذلك فأعد كل منهما أسطولاً مجهزاً واجتمع الأسطولان. وكان عدد سفنهما لا يزيد على مائتى سفينة (٢٠٠) وجعلت الإمارة البحرية لابن أبى سرح. واشتبك الأسطولان (الإسلامى والبيزنطى) قرب الإسكندرية وتبادل الفريقان الرمى بالسهام حتى نفدت وحلت محلها قذائف الحجارة. ثم احتال المسلمون حتى ربطوا سفنهم بسفن الروم، وتواثبوا على الروم فى السفن يضربون بالسيوف ويوجئون بالخناجر حتى رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاما. وكان المسلمون يقاتلون كأنهم على الأرض وكان النصر حليف العرب. واضطر الروم إلى الفرار وجرح أميرهم وفر إلى صقلية. واستولى المسلمون على كثير من سفنهم. وسميت هذه الموقعة بذات الصوارى، لكثرة صوارى السفن واجتماعها.

*** نتيجة المعركة**

١- من ذلك الوقت صارت الخلافة الإسلامية دولة بحرية بما صار إليها من مراكب الروم وبما استحدثه معاوية وعبد الله بن سعد من السفن، ولم يكن من ذلك بد لحماية الثغور الإسلامية التى كان يشن الروم الإغارة عليها من وقت لآخر. ومع هذا النصر المبين والبحرية العظيمة، فقد كان فى صفوف المسلمين من رأى فى تعيين عبد الله بن سعد أميراً عاماً محاباة أحفظتهم وبقيت فى قلوبهم. فكانت عنصراً من عناصر الفتنة ضد عثمان.

٢- كان هدف الروم من هذه الحملة البحرية استعادة مجدهم فى شرق البحر الأبيض المتوسط ففشلوا فى ذلك.

٣- القضاء على البحرية الإسلامية الناشئة فانقلبت الآية. وباءوا بالخسران المبين.

٤- تحقق للروم أن نجم مجدهم قد أفل، وأن الجيوش الإسلامية التى غلبتهم فى البر، قد حطمت عظمتهم على الماء وأنها ستغلبهم وإن ركبوا أطباق السماء.

٥- أصبح بحر الروم (البحر الأبيض) خاضعًا للعرب مما يلى ساحل الشام ومصر وإفريقيا إلى الجزر الواقعة بالقرب منها كقبرص.

٦- أصبحت سواحل الدولة الإسلامية أطول بكثير من سواحل الدولة الرومانية التى كانت إلى عهد قريب سيدة العالم.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

٧- وبانتهاء هذه المعركة، وما سبقها من حروب، صار ملك الدولة الإسلامية يمتد من نهر جيحون شرق فارس إلى المحيط الأطلسى فى الساحل الغربى لبلاد المغرب، ومن المحيط الهندى جنوبًا إلى بلاد القوقاز وشواطئ بحر قزوين والبحر الأسود شمالاً، وأصبح ملكهم ملكًا عريضًا لم يكن لغيرهم من قبل ولا للروم فى عنفوان شبابهم، ومجد قوتهم.

ولم يكن هناك ما يحول بين المسلمين ومتابعة الفتح فى كل مكان لولا قتل عثمان ابن عفان، واضطراب أمور الدولة وقيام الفتن فقد أوقفت تيار الفتح حينًا من الزمن استمر إلى أن ولى معاوية بن أبى سفيان أمر الدولة الإسلامية، فأعاد تيار الفتح بعد أن صفا له الأمر ودانت له البلاد(١).

* أهم أعمال عثمان المدنية، وآثاره فى خلافته

قام عثمان أثناء خلافته بخدمات جليلة للإسلام والمسلمين، أهمها ما يأتى:

أ- **عمارة المسجد الحرام وتوسيع المسجد النبوى**، فى سنة ٢٦هـ زاد عثمان فى المسجد الحرام ووسعه، وفى سنة ٢٩هـ وسع المسجد النبوى وقد بناه بالحجارة، وجعل عمده من حجارة فيها رصاص، وجعل سقفه من الساج وجعل طوله ستين ومائة ذراع وعرضه خمسين ومائة ذراع، وجعل أبوابه ستة كما كانت فى عهد عمر.

ب- **رزق المماليك من بيت المال**، وزع الأرزاق على المماليك من بيت المال، وهذا لم يكن من قبل، دون أن ينقص شيئًا من أرزاق أسيادهم، وهذا عمل يدل على مقدار نمو بيت المال واتساع موارده، وحب عثمان للتوسعة على المسلمين.

جـ- **إحياء الموات وإصلاح الأراضى**، كان عمر رضى الله عنه لا يبيح للعرب الاشتغال بالزراعة فى البلاد المفتوحة. وكان يهدف بذلك إلى أن يكونوا دائمًا جنود حرب مستعدين للقتال، فالعمل فى الأرض مفسدة لروح الجندية لأن الجندى يركن فى هذه الحالة إلى الراحة، وهذا ما يتفق وعصر الفتوح ولكن عثمان رأى كثرة العرب فى الأقطار التى فتحت، ورأى فى تلك الأقطار مواتا واسعا من الأرض التى جلا

---

(١) من أراد التوسع فى الفتوحات فليرجع إلى فتوح البلدان للبلاذرى من ٢٠٠ - ٢١٠ و ٢٢٣ - ٢٢٨ ومن ٣٠٠ - ٣١١ و٣٣٠ ومن ٣٨١ - ٣٨٦ ومن ٣٩٥ - ٣٩٨ والكامل لابن الأثير جـ٣ من ٤١ - ٤٩ ومن ٥٨ - ٦٧، والفتح الإسلامى من ٣٦٢ - ٣٧٠ والفتوحات الإسلامية لزينى دحلان من ص ١٤٤ - ١٦٠ وأشهر مشاهير الإسلام جـ٤ من ٦٩٦ - ٧٢٦ والدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم للدكتور العدوى من ٦٠ - ٦٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عنها أهلها، وتركوها بلا مالك أيام الفتوح. لما رأى ذلك أشفق من ضياع تلك الموارد للثروة، فأذن للعرب بالعمل فيها وتعميرها.

د- **جمع المسلمين على مصحف واحد**، وهو أجلّ الأعمال التى امتاز بها تاريخ عثمان ابن عفان، وكان سبب ذلك أن الصحابة تفرقوا فى الأمصار وكانت لهجاتهم مختلفة فى نطق بعض الكلمات، ونبتت نابتة لم تر الرسول ودخل أقوام جدد من أهل البلاد المفتوحة فى الإسلام، فظن أهل كل مصر أن قراءة صاحبهم هى القراءة، ولا يكون قرآنا غيرها، وظهر ذلك بجلاء حينما اختلط الشاميون بالعراقيين فى أثناء غزو أرمينيا وأذربيجان.

وكان الصحابى الجليل حذيفة بن اليمان، يرقب أحوال الناس، وفى أثناء رجوعه قال لسعيد بن العاص: إنى قد سمعت فى سفرى هذا أمراً لئن تُرك الناس عليه ليختلفن فى القرآن ثم لا يقومون عليه أبداً. قال سعيد: وما ذاك؟ قال حذيفة: رأيت أهل الشام حين قدموا علينا فرأيت أناسًا من أهل حمص يزعمون لأناس من أهل الكوفة أنهم أصوب قراءة منهم، وأن المقداد بن الأسود، أخذها عن رسول الله، ويقول الكوفيون ذلك وأنهم أخذوا قراءتهم عن ابن مسعود، وسمعت قومًا من أهل دمشق يقولون لهم «لا» نحن أصوب قراءة منكم، ويقول لهم هؤلاء مثل ذلك.

ولما رجع حذيفة إلى الكوفة دخل المسجد فحدث الناس بما سمع وحذرهم مما يخشاه عليهم فساعده على ذلك أصحاب رسول الله وعامة التابعين، وتعصب أهل الكوفة لقراءة عبد الله بن مسعود، وأهل البصرة لقراءة أبى موسى الأشعرى وأهل حمص لقراءة المقداد وهكذا، فغضب حذيفة وبعض الصحابة والتابعين وقالوا لهم: إنما أنتم أعراب فاسكتوا فإنكم على خطأ، وأغلظ ابن مسعود القول لحذيفة فغضب وغضب سعيد بن العاص، ورحل حذيفة إلى الخليفة عثمان بالمدينة فأخبره الخبر، وقال: أنا النذير العريان فأدركوا هذه الأمة.

وجمع عثمان الصحابة وسمعوا من حذيفة فهالهم الأمر وشق عليهم، فطلب عثمان من أم المؤمنين حفصة بنت عمر ما كان عندها من الصحف التى جمعت على عهد أبى بكر.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ولما أحضرت الصحف أمر عثمان زيد بن ثابت – كاتب الوحى للرسول – وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها من المصاحف، وقال الخليفة والصحابة لهؤلاء الكتاب: إذا اختلفتم فاكتبوها بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا. فلما نسخوا ما فى الصحف ردها عثمان إلى حفصة وأرسل إلى كل جهة مصحفًا ففرح الناس وعرفوا فضل هذا العمل الجليل إلا أن أتباع ابن مسعود بالكوفة عابوا ذلك على عثمان. وقالوا: كان القرآن كتبًا فحرقها إلا واحداً. فصاح فيهم ابن مسعود وقال: ولا كل ذلك فإنكم والله قد سبقتم سبقا بينا فاربعوا على ظلعكم (أشفقوا على أنفسكم) فعن ملإ منا كان ذلك فلو وليت منه ما ولى عثمان لسلكت سبيله، وقد تم هذا العمل الجليل سنة ٣٠ هـ.

وبذلك جمع عثمان الشعوب الإسلامية فى وحدة قوية لا انفصام لها يجمعهم على مصحف واحد، ولولا ذلك لوقع ما كان يخشاه حذيفة، ولتعدد القرآن كما تعددت التوراة والإنجيل، ولكن الله سلم لسابق وعده ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩].

هـ- ومن مآثره، ترتيب الطعام فى شهر رمضان لأهل المدينة وإقامته دور الضيافات فى الكوفة وغيرها.

و- ومن مآثره أيضًا اتخاذ دار للقضاء، فإننا نعرف أن عمر بن الخطاب عين قضاة فى مختلف الجهات ورتب لهم الأرزاق، ولكنا لا نعرف أنه اتخذ داراً للقضاء، بل كان القضاء فى المساجد أو حيث يوجد القاضى، أما فى عهد عثمان فيروى ابن عساكر عن أبى صالح مولى العباس قال: أرسلنى العباس إلى عثمان أدعوه فأتيته فى دار القضاء؛ فإذا صح ذلك فيكون عثمان هو أول من اتخذ فى الإسلام داراً للقضاء، وأوجد المحاكم فى الدولة الإسلامية. وليس ذلك بمستبعد فقد كان رضى الله عنه ميالاً إلى العمارة والتوسعة والتنظيم(١).

---

(١) راجعوا فى هذا الموضوع، أشهر مشاهير الإسلام جـ٤ من ٣٧٧ – ٧٤٠ وابن الأثير جـ٣ ص ٤٤ و٥١ و٥٥ و٥٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

* الفتنــة

أطلق المؤرخون كلمة الفتنة على تلكم الثورة المشئومة التى أدت إلى قتل عثمان بن عفان، وكان قتله بداية فتن سود كقطع الليل البهيم. تلبد من أجلها جو البلاد الإسلامية بالغيوم، وضرب بعض المسلمين رقاب بعض وكان لها نتائج بعيدة المدى فى مصير العالم الإسلامى.

وإننا إذ نؤرخ لهذه الفتنة يجب أن نلم بالأسباب الممهدة لها من تطور المجتمع الإسلامى وسياسة الخليفة إزاء هذا التطور ومن ظهور العصبية العربية.

كان المجتمع الإسلامى فى آخر عهد عمر قد استعد لاستقبال طور آخر من أطوار حياته، فإنه بما تم له من الغلب والنصر على أعظم دول العالم فى ذلك الوقت، وبما انهال عليه من الأموال والسبى بدأ يودع حياة البداوة من شظف العيش وخشونته إلى حياة الحضارة وما فيها من العيش الناعم الرغيد، ولم تفت هذه الظاهرة ابن الخطاب فوقف على رأس المجتمع وبسط عليه سلطة أوسع من السماء التى تظله، وبهر أبصار القوم بدقته فى توزيع العدالة وقدرته على إعطاء القدوة من نفسه بصبره على حياة الزهد والتقشف فحجز على أعلام قريش من المهاجرين الخروج فى البلدان إلا بإذن وأجل. فشكوه فبلغه، فقال: ألا إنى قد سننت الإسلام سن البعير يبدأ فيكون جذعًا، ثم ثنيا ثم رباعيًا ثم سديسًا ثم بازلا، ألا فهل تنتظرون بالبازل، إلا النقصان(١)، ألا وإن الإسلام قد بزل ألا وإن قريشًا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده، ألا فأما وابن الخطاب حى فلا. إنى قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا فى النار. وكان عمر يعلم تمام العلم، تعارض هذه السياسة ونفسية المجتمع ويشعر بالعناء الذى يلقاه فى قيادته والذى يلقاه القوم من سياسته.

قال الشعبى: لم يمت عمر حتى ملته قريش، وكان قد حصرهم بالمدينة وقال إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم فى البلاد، فإن الرجل ليستأذنه فى الغزو وهو ممن حبس فى المدينة – ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة – فيقول قد كان لك فى غزوك مع رسول الله ﷺ ما يبلغك، وخير لك من الغزو اليوم، ألا ترى الدنيا ولا تراك.

(١) الجذع من الإبل ما كان فى الخامسة والثنى ما كان فى السادسة والرباعى ما كان فى السابعة والسديس ما كان فى الثامنة، والبازل ما كان فى التاسعة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فلما ولى عثمان، وكان فى السبعين من عمره، وكان سهلاً هينًا لينًا، وكان من بيت ترف ونعمة تعود النعيم منذ نعومة أظفاره، فلم يستطع حينما ولى الحكم التخلص مما تعوده من جودة فى المطعم والملبس والمركب فنظر القوم إليه على أنه متجوز فاقتدوا به فى التنعم، واندفعت الرغبات المكبوتة تطلب الحرية والعيش الرغيد. فأفسح الطريق فأحبوه أكثر من عمر واغتبطوا بخلافته لأنه لم يأخذهم بما أخذهم به سلفه من شدة فسمح لرجال من قريش بالانسياح فى البلاد فرأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس وأباح لهم أن يستبدلوا بأملاكهم فى الحجاز أملاكًا فى الأمصار، قال ابن جرير الطبرى، لم تمض سنة من إمارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالاً فى الأمصار وانقطع إليهم الناس.

ويروى لنا بعض المؤرخين أنهم أثروا ثراء عريضًا حتى كانوا أصحاب ملايين. فمثلاً يقال إن عبد الرحمن بن عوف مات وترك ذهبًا يقطع بالفؤوس، وكان نصيب كل واحدة من نسائه من ثمن تركته ثمانين ألف دينار، ومثله أو قريب منه طلحة والزبير بن العوام وحكيم بن حزام ابن عم الزبير وابن أخت السيدة خديجة وسعد بن أبى وقاص وزيد بن ثابت وخباب بن الأرت والمقداد بن الأسود وغيرهم، ومن أراد معرفة ثروة كل واحد من هؤلاء فليرجع لمروج الذهب للمسعودى جـ١ ص ٤٣٤ وتاريخ الإسلام السياسى للدكتور حسن إبراهيم جـ١ من ٣٤٣ – ٣٤٥.

خرج هؤلاء السادة من المهاجرين والأنصار إلى الأقاليم النائية عن الحجاز وأنشأوا لأنفسهم أرستقراطية دينية سداها المال، ولحمتها السبق إلى الإسلام وصحبة الرسول.

وإنا لنستطيع على ضوء ما وصفت لنا بعض المصادر ما كانوا عليه من ثراء – سواء أكان مبالغًا فيه أم غير مبالغ – أن نتصور عدد من يحيطون بتلك الشخصيات الغنية ذات الزعامة الدينية، ويلتفون حولهم معجبين بأخلاقهم ومحامدهم مأخوذين بأحاديثهم عن مواقفهم المجيدة، وحسن بلائهم فى نصرة النبى على أعدائه المشركين ومفتونين بما يفيضه هؤلاء الأغنياء من هبات وأعطيات حتى أصبح كل فريق منهم يتمنى أن تصير الخلافة فى يد صاحبه لتكون له الحظوة عنده، فتعظم مكانته، ويعلو مقامه، وكان ذلك أول وهن دخل على الإسلام، وأول فتنة كانت فى العامة.

وإن اختلاف الوفود التى أتت من الولايات الإسلامية لخلع عثمان على من توليه

www.alukah.net
شبكة الألوكة

خلفًا له فقال أهل البصرة نولى طلحة، وقال أهل الكوفة نولى الزبير[1] أكبر دليل على صحة هذا القول. ولا يبعد أن يكون بعض هؤلاء الأعلام من قريش، قد تطلعت نفسه للخلافة لأنه مرشح لها، وليست هناك قاعدة تعين سابقهم ولاحقهم.

وكان إلى جانب هؤلاء الأغنياء جماعة فقيرة، كانت تنظر إليهم نظرة الحقد والحسد ودب فى نفوسهم دبيب اليأس والتمرد، ومثل هؤلاء هم الذين يمهدون للثورات، ويؤججون نارها ويساعدهم فى إشعالها طائفة أخرى حاقدة على ما وصلت إليه قريش من مكانة أدبية ومادية، متمنية الخلاص من سيادتها وحكومتها، وبذلك ظهرت العصبية فى أجلى مظاهرها - وكان عمر قد أخمدها بمختلف الوسائل - ولم يقتصر الحقد على هذه وتلك، بل إن أبناء الأمم الموتورة بسيوف المسلمين كان الكثير منهم يدخلون الإسلام دخولاً ظاهراً لأغراض يبطنونها، وأهداف يرمون إليها، وقد رأينا نماذج منهم فى مصرع عمر، وسنرى ابن سبأ وغيره.

وقد كان للسبى والاسترقاق، وخلط العناصر الأجنبية بالعنصر العربى أثر بعيد الغور فى إعداد المجتمع للفتنة، وانتهاء العهد المثالى والانتقال إلى عهد آخر. أحس به عثمان حينما قال فى كتابه للعامة: «إن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النعم. وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن».

ومع هذا الإحساس والشعور بما يحدث لم يعمل شيئًا لدرء هذه الأخطار وغلبت عليه طبيعته اللينة فى وقت كان الأمر أحوج فيه ما يكون إلى الحزم والشدة.

ولا شك أن وضع الندى فى موضع السيف مضر كوضع السيف فى موضع الندى.

وخلاصة القول فى هذا الموضوع لخصه الدكتور ضياء الدين الريس فى كتابه النظريات السياسية الإسلامية من ص ٣٦ إلى ٣٨، وإجماله الآتى: فى أواسط خلافة الخليفة الثالث، تغيرت العناصر التى كانت تكون المجتمع الإسلامى، وأخذ جيل ينقرض أو يختفى من على ظهر المسرح بالتدريج، ويحل محله جيل آخر أقل من الأول - ذلك الذى على أكتافه قام بناء الدولة - فى مجموعه من حيث قوة الإيمان وفهم جوهر العقيدة. والاستعداد لإخضاع النفس لحكم القانون العام، وكانت البيئة قد تغيرت، وزخرت بحار الرفه، وتبدلت الأحوال والظروف، وبعثت العصبية وحميات الجاهلية والمطامع الفردية من مكامنها وكان ذلك كله نتيجة للفتوحات.

---

(١) كانت أملاك طلحة واسعة بالبصرة وكان أهلها حزبًا له يريد الإمرة له، ومثل ذلك الزبير بالكوفة، فكل منهما كان ملكًا غير متوج فى ناحيته.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فحصل صدام كان لابد أن يقع، وظهرت العقبات، وأطلت المشاكل برأسها، وتوالت الأزمات .. وقد كان يمكن تلافي ذلك أو تخفيف بعض نتائجه لو كانت القيادة الممتازة الحكيمة المقتدرة التى سعد العالم الإسلامى بأنها كانت تسير أموره فى عهد الخليفتين العظيمين: أبى بكر، وعمر قد بقيت أو مثلها تصرف مصائره. فقد كانت كفيلة بأن تواجه أمثال هذه المواقف. وتوجد لها من الحلول ما يحسم كل خلاف، ويسد أبواب الفتن، ولكن عثمان –رضى الله عنه– لم يكن من طراز هؤلاء الساسة الحكماء الإداريين الحازمين، بل كان دونهم بمرتبة أو مراتب.

وعلى كلٍ فقد شاءت له ظروفه أن يوجد فى هذه الأوقات الحرجة. فى عهود التاريخ التى يقال إنها أدوار انتقال، وكانت آثار التغيير شديدة الوطأة، وجرفت الحوادث فى تيارها كل شيء، ووقعت أخطاء سياسية عن حسن قصد زادت من سرعة هذا التيار، وضاعفت من قوة اندفاعه، ولم تبذل أية محاولة لإيقافه أو تحويله عن وجهته إلى أن انتهت الأمور بهذه الخاتمة الأسيفة. ألا وهى محاصرة الخليفة فى داره، واغتياله وهو يقرأ المصحف(١).

عرفتم التطورات العامة، وما وصلت إليه من مدى، وأنها أصبحت فوق طاقة عثمان. وأن طبيعته الهينة قهرته فتراخى عن القوم، وتوانى عنهم، ونذكر هنا أنه استبد به أهله، واستغلوا عطفه عليهم، وحياءه منهم ومن الناس، وضعف شيخوخته. فركبوا باسمه أموراً هو منها براء، وفتحوا باب النقد والتقول، والهجوم عليه مما أثار روح التمرد والشغب فى الأمصار المختلفة.

وإليكم موجزاً للأحوال التى سادت الأمصار فى عهده. لتعرفوا دور كل واحدة منها:

الحالة فى الكوفة

استعمل عثمان فى صدر خلافته، سعد بن أبى وقاص على الكوفة – كان الوالى قبل ذلك المغيرة بن شعبة الثقفى – تحقيقًا لوصية عمر فى حديث الشورى. إذ قال:

---

(١) مصادرنا فى هذا الموضوع، المسعودى جـ١، وابن الأثير جـ٣، والخضرى جـ٢ ص ٤٧ و ٤٨، والنظريات السياسية الإسلامية للدكتور محمد ضياء الدين الريس ٣٦ و٣٧ و٣٨، والفتنة الكبرى (عثمان) جـ١ للدكتور طه حسين من ٧٩ إلى ٨٨، وعثمان بن عفان للأستاذ صادق عرجون من ٧٩ إلى ٨٤، وتاريخ الإسلام السياسى للدكتور حسن إبراهيم جـ١ من ٣٤٠ إلى ٣٤٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

«وإن تولوا سعداً فأهلها هو، وإلا فليستعن به الوالى» وجعل على خراجها عبد الله بن مسعود، ولكن سعداً لم يقم فى الكوفة إلا عاماً وبعض عام حتى اضطر عثمان إلى عزله.

وقد ذكر المؤرخون سبب العزل، وهو أن سعداً اقترض من الخراج مالا إلى أجل، فلما حل الأجل طالبه به ابن مسعود، ولم يتيسر هذا المال لسعد فطلب النظرة إلى ميسرة، وأبى ابن مسعود. فاستعان كل من الرجلين على صاحبه بجماعة من أهل الكوفة، يريد ابن مسعود أن يستعين بأصحابه على سعد ليؤدى دينه، ويريد سعد أن يستعين بأصحابه على ابن مسعود لينظره إلى ميسرة، فوقع بين الرجلين نزاع أدى إلى فرقة وتنازع بين المسلمين، فتعصب لسعد قوم، وتعصب لابن مسعود قوم آخرون.

بلغ ذلك الخليفة فخشى من امتداد الفتنة، فعزل سعداً، وأخذ منه ما كان عليه، وترك ابن مسعود على بيت المال، وكان ذلك سنة ٢٥هـ.

والدكتور طه حسين لا يقبل هذا السبب، ويدافع عن سعد، ويذكر مواقفه كلها، وسبب الحملة عليه، ويستبعد ما حدث بينه وبين ابن مسعود، ثم يقول: وأكاد أعتقد أن وجه الحق فى عزل سعد، هو أن بنى أمية وآل أبى معيط، كانوا يتعجلون الولاية، ويلحون على عثمان فى أن يمد لهم إليها الطريق. ثم عزل سعداً ليجعل مكانه رجلا من آل أبى معيط.

وقد بيّنا وجهة نظر الدكتور أثناء إلقاء المحاضرات، فارجعوا إلى كتابه الفتنة الكبرى (عثمان) جـ١ من ٩٠ إلى ٩٤.

عُزل سعد عن الكوفة، وأرسل الخليفة إليها واليًا جديداً هو الوليد بن عقبة، فاتجه فى سياسته إلى إرضاء الطبقات الفقيرة، ولم يتخذ بابا ولا حجابا - كما يفعل الخلفاء وبقية الأمراء عادة - وإذا كان الوليد قد كسب رضا العامة فإنه لم يستطع كسب ذوى المطامع، كبار القوم الذين لا يحرك نفوسهم إلا الجاه والسلطان، وهؤلاء نجدهم من أول يوم له فى الكوفة يشنعون عليه فيذهب عمرو النخعى (من سادات النخع) ليخطب فى المسجد قائلا: بئسما استقبلنا به أخوكم ابن عفان، أمن العدل أن ينزع عنا سعداً الهين اللين، ويستعمل علينا الوليد الأحمق الفاجر الماجن؟.. إلخ.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أراد عثمان كرامة أخيه بهوان أمة محمد، ولقد كان هذا الوليد أميراً لعمر بن الخطاب ولم يُعرف بفجور ولا مجون.

وقد ساس أهل الكوفة سياسة حزم وعزم، فأقر الأمن، وضرب على أيدى المفسدين من الأحداث، والذين لا يرعون للنظام حرمة، ولا للدين وقارا، فقد حدث أن شباناً من أبناء الكوفة نقبوا على رجل منها داره، وقتلوه فحوكموا، وثبتت عليهم جريمة القتل فقتلوا بأمر الخليفة. فحقد آباؤهم على الوليد، وصاروا يتلمسون الأخطاء له، ويضعون الخطط للإيقاع به، وكان سمار يسمرون عنده، ومنهم أبو زبيد الطائى الشاعر - أبو زبيد نصرانى، أسلم على يد الوليد - وكان معروفا بشرب الخمر. فأتى آت للحاقدين، وقال لهم: هل لكم فى الوليد يعاقر أبا زبيد الخمر؟ فأذاعوا ذلك بين الناس، وأكثروا فى إشاعة شربه الخمر مع أبى زبيد. حتى أثاروا عليه أعيان الكوفة من المهاجرين.

ولم يكتفوا بذلك بل ذهبوا إلى دار الخلافة، وشكوه، وشهدوا عليه بشرب الخمر، فاستدعى الخليفة الوليد لمحاكمته، فأقسم الوليد أنه برىء، وأن هؤلاء الشهود هم خصومه، الذين وترهم، فقال عثمان: نعمل بالذى ينتهى إلينا، نحن نقيم الحدود، ويبوء شاهد الزور بالنار، فاصبر أخى، فحد حد شارب الخمر ثم أجاب القوم إلى ما طلبوا بعزله عن الولاية(١)، وكان ذلك سنة ٣٠ هـ.

ومن ذلك نرى أن موقف الخليفة سليم لأنه أخذ المسألة من وجهها الشرعى وهو شهادة الشهود، ولم يقبل من الوليد طعنا فيهم بأنهم موتورون منه لقتله أبناءهم، ولعل عثمان ظن من حسن السياسة أن يتحامل على الوليد إرضاء لشعب ثائر، ولكن هيهات، فإن طلاب الفتنة، إنما يقمعهم البطش ويغريهم اللين.

عُزل الوليد، وولى مكانه سعيد بن العاص(٢)، فسار إليها ومعه جماعة، منهم الذين عملوا على عزل الوليد فلما دخل الكوفة صعد منبر مسجدها الجامع فحمد الله

---

(١) الطبرى جـ٣ من ٢٢٥ إلى ٢٢٩، وعرجون من ١٠٨ إلى ١١٦، والفتنة الكبرى جـ١ من ٩٥ إلى ١٠٠.

(٢) كان سعيد معتدلا مستقيم الخلق. أبلى فأحسن البلاء فى فتح الشام، وقد كان عثمان يرعاه قبل أن يستخلف وسأل عنه ابن الخطاب حين كان يتفقد قريشا فأنبئ بأنه عند معاوية، وبأنه مريض مشرف على الموت، فأرسل إلى معاوية فى أن يحمله إليه فى رفق وعناية، ولم يكد الفتى يبلغ المدينة حتى استرد قوته وصحته، وقد تلقاه عمر لقاءاً حسناً فرقّ له وعطف عليه، وما زال به حتى زوّجه وجعله فى مرتبة نظرائه من شباب قريش وأشرافها، ولكنه على ذلك كان قرشيا أمويا. قريب المكان من عثمان. كان رجل صدق ما فى ذلك شك - الدكتور طه حسين صـ١٠١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وأثنى عليه، ثم قال: لقد بعثت إليكم وإنى لكاره ولكنى لم أجد بداً إذا أمرت أن آتمر. ألا وإن الفتنة قد أطلعت خطمها (مقدم الأنف والفم) وعينيها، والله لأضرب وجهها حتى أقمعها (أزيلها) أو تعيينى، وإنى لرائد نفسى اليوم: ثم نزل.

وأخذ فى تعرف أحوال الناس حتى وقف منها على سوء كثير، وبعث تقريرا دقيقا للخليفة، ومما جاء فيه: إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم، وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات، والسابقة والقدمة، والغالب على تلك البلاد روادف ردفت، وأعراب لحقت حتى ما ينظر إلى ذى شرف وبلاء من نازلتها ونابتتها، فكتب إليه الخليفة بتفضيل أهل السابقة والقدمة، وأن يكون غيرهم تبعا لهم إلا أن يتثاقل الأولون عن الحق، ويقوم به الآخرون، وبأن يحفظ لكل منهم منزلته وحقه.

فأرسل سعيد إلى وجوه أهل الكوفة من أهل السابقة والأيام المجيدة، وطلب إليهم أن يرفعوا إليه حاجات الناس لأنهم أعيانهم، وجعل حاشيته وخاصته من هؤلاء ومن القراء وذوى الشرف. فراحت للكوفة، وكأنما هى يبس شملته نار. لأن الذين أوقعوا بالوليد وكانوا سبب ولاية سعيد، كانوا ينتظرون منه أن يعرف من هم؟ وأن يؤثرهم ويقدمهم، فخاب ظنهم فعادوا سيرتهم الأولى، وانقلبوا على سعيد أشد من انقلابهم على سلفه الوليد، فملأوا الأرض إذاعة ضده، وفشت القالة فى عثمان وولاته، فصبر عليهم سعيد، حتى لامه فى أمرهم بعض ذوى البصيرة والعقل من أهل الكوفة، فكتب وكتب الأشراف إلى الخليفة يرجونه نفى هؤلاء عن الكوفة. فأمر بإخراجهم إلى الشام، ليكونوا تحت نظر معاوية بن أبى سفيان.

ولكن معاوية وجد الشر متمكنا فى نفوسهم فعجز عن تأديبهم، وخافهم على رعيته، وطلب إلى الخليفة إنزالهم عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، أمير حمص. فلما نزلوا عليه قال لهم: أنا ابن خالد بن الوليد فاقئ عين الردة، إن لم يصلحه الخير أصلحه الشر. فنكل بهم نكالا شديدا، وصار يسومهم الخسف فإذا ركب أمشاهم فى ركابه. يؤنبهم ويزجرهم كل وقت. فلما شق عليهم ذلك أظهروا الطاعة وأعلنوا التوبة واستقالوه من عثرتهم. فأقالهم وأرسل الأشتر (وهو واحد منهم) بتوبتهم وطاعتهم إلى عثمان فقبل توبتهم، وجاء الأمر من عثمان بإعادتهم إلى الكوفة، ولكنهم اختاروا البقاء فى الجزيرة، ولكن هذه الإقامة لم تطل. فإنه لما قدم سعيد على الخليفة ليطلعه على حقيقة الحال فى أهل الكوفة انتهز أصحاب المنفيين أو المسيرين هذه الفرصة،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وأجمعوا أمرهم على أن يحولوا بين سعيد وبين الرجوع إليهم وكتبوا إلى أصحابهم يستقدمونهم، فأقبلوا مسرعين حتى دخلوا الكوفة، وأقسموا ألا يدخلها سعيد ما حملوا سيوفهم، واجتمع رأيهم جميعا على المسير إلى عثمان يستعفونه من ولاية ابن العاص عليهم.

وبينما هم سائرون إلى المدينة لقيهم سعيد وهو راجع إلى عمله، فأخبروه خبرهم، وردوه وقتلوا غلامه، وقد قال لهم سعيد: كان يكفيكم أن ترسلوا إلى عثمان رجلا، وإلى رجلا: ثم رجع إلى عثمان وأخبره أنهم يريدون البدل بى، ويحبون أبا موسى الأشعرى،وكان ذلك سنة ٣٤هـ.

فكان كل عمل دار الخلافة فى سبيل الاحتفاظ بهيبة الحكومة المركزية، وأمراء الأقاليم، أن صدر أمر الخليفة بعزل سعيد وإقرار إمرة الأشعرى كما أراد الموتورون. وكان من الواجب أن تجرد دار الخلافة على الكوفة حملة تأديبية كالتى أراد عمر أن يوجهها قبل مصرعه. وقد جاء فى كتاب الخليفة ما أغرى المفسدين بالخلافة كقوله: «قد أمرت عليكم من اخترتم، والله لأقرضنكم عرضى، ولأبذلن لكم صبرى. فلا تدعوا شيئًا أحببتموه إلا سألتموه، ولا شيئًا كرهتموه إلا استعفيتم منه. أنزل فيه عندما أحببتم». وبذلك انحط مركز الخلافة وعمالها عندهم.

الحال فى البصرة

لم تكن الأمور فى البصرة بأحسن منها فى الكوفة ففى سنة ٢٩هـ هاج أهلها على أبى موسى الأشعرى واليها واستعفوا منه الخليفة فعزله عنهم وولى بدله عبد الله بن عامر. وكان ذا حزم وعزم وقوة وبأس، شغل نفسه وشغل الناس معه بالفتح، فسكن الثورات فى بلاد فارس وكرمان وسجستان وخراسان وجعل شكره لله على ذلك الفتح العظيم. الإحرام من مكانه بعمرة أو حج إلى بيت الله الحرام.

وقد سار فى الناس سيرة جد وكرم ومضاء فلم يلق من أهل البصرة ما لقى سعيد والوليد من أهل الكوفة وكانت إمارة ابن عامر تشمل أعمال البصرة وأعمال البحرين وظهر فى البحرين لص خطير يدعى حكيم بن جبلة ولاقى الناس منه الشدائد. فشكا أهل الذمة وشكا المسلمون إلى الخليفة ما يلاقونه من شر وفتك على يد اللص حكيم. فكتب إلى ابن عامر بحبسه وحبس كل من كان مثله، فحبسه بالبصرة فكان لا يستطيع مجاوزتها. فقدم عليه رجل يسمى عبد الله بن سبأ ويسميه مؤرخو العرب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بابن السوداء. ونزل عنده، واجتمع إليه جماعة. فأشار لهم ابن السوداء ورمز بأشياء، ولم يصرح فقبلوا منه فشعر ابن عامر بدسائسه ودعايته فطرده. فخرج إلى الكوفة واكتفى ابن عامر بذلك. وكان ينبغي أن يلقى به في السجن حتى تنعدم آثار مقالته أو يهلك ولكنه تركه حرًا فجال في البلاد وأكثر فيها الفساد.

وقد روت بعض المصادر أنه في عهد ابن عامر سعى ساع إليه. بأن عامر بن عبد القيس يخالف المسلمين في أمور أحلها الله لهم. فكتب ابن عامر إلى عثمان. فأمر الخليفة بإرساله إلى معاوية وتبين لمعاوية أن الرجل مكذوب عليه وأنه ناسك متعبد.

*** الشام**

كان معاوية أعظم الولاة حظًا من كل شيء أيام عثمان. فقد طال عهده بالشام. فعرفه أثناء خلافة عمر كلها. فأحب أهل الشام وأحبوه فقد ساسهم سياسة رشيدة. وكانت على حد قوله: «لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت» ففتح بهم الفتوح السابقة، وغزا في البحر غزوات موفقة ولهذا سلمت الشام من ذوي الأهواء والمفسدين. اللهم إلا حادثة واحدة جاءت على إثر نزول ابن سبأ بالشام: فيروى لنا المؤرخون أن ابن السوداء أتى الصحابي الزاهد أبا ذر الغفاري. وقال له: يا أبا ذر ألا تعجب من معاوية يقول: المال مال الله. ألا إن كل شيء لله كأنه يريد أن يحتجنه (يمنعه) دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين. فجاء أبو ذر إلى معاوية. وقال له: ما يدعوك أن تسمي مال المسلمين مال الله؟ قال معاوية: يرحمك الله يا أبا ذر: ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره؟ قال أبو ذر: فلا تقله. قال معاوية: فإني لا أقول. إنه ليس لله. ولكن سأقول: إنه مال المسلمين: وأتى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له: من أنت؟ أظنك والله يهوديا، وأتى الصحابي الجليل عبادة بن الصامت فتعلق به حتى أوقفه على معاوية. وقال: «هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر»، فأمر معاوية بطرده من الشام. وكان على معاوية ألا يدعه يفلت هكذا بسهولة ليقع الناس في شباكه. لم يكتف أبو ذر رضي الله عنه بما كان من معاوية، وما أبداه له من لين. فقد قام بالشام وجعل يقول: يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء. بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم وما زال يقول ذلك حتى ولع الفقراء بمقالته وأغرموا بها فأوجبوا على

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الأغنياء مواساتهم. وأساءوا إليهم وشكا الأغنياء ما يتعرضون إليه من الناس، فكتب معاوية إلى الخليفة. بأمر أبى ذر. فجاءه الرد بتجهيزه وإرساله إلى المدينة مكرما، فلما وصل المدينة ووجد مجالس الناس قد وصلت جبل سلع قال: «بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار». ولما دخل على عثمان قال له: يا أبا ذر ما لأهل الشام يشكون ذرب لسانك (شدته وجرأته)؟ فأخبره أنه لا ينبغى أن يقال مال الله؛ حتى لا يكون ذريعة لاختصاص الحكام به ولا ينبغى للأغنياء أن يقتنوا مالا. فقال عثمان: يا أبا ذر علىّ أن أقضى ما علىّ وآخذ ما على الناس ولا أجبرهم على الزهد وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد. فقال أبو ذر: أفتأذن لى بالخروج. فإن المدينة ليست لى بدار، فقال عثمان: أوتستبدل إلا شراً منها؟ قال: أمرنى رسول الله أن أخرج إذا بلغ البناء سلعا. قال: فانفذ ما أمرك به الرسول. فخرج أبو ذر ومعه رافع بن خديج إلى الربذة (إحدى ضواحى المدينة) وقد رتب الخليفة لهما رزقا وما زال أبو ذر فى مكانه هذا حتى مات سنة ٣٢هـ.

هذه رواية، وفى رواية أخرى: أن أبا ذر لما لم يعدل عن هذا الرأى الذى رأى عثمان فيه خطورة، أمره ألا يغشى مجالس الناس أو يخرج إلى الربذة.

ونحن نرجح الرواية الأولى لثقة الرواة من ناحية ولمعرفتنا بمواقف عثمان من الناس ولاسيما الصحابة. ولإيماننا بأنه لولا ما أخبر به أبو ذر من وصية الرسول لما تركه عثمان يغادر المدينة. ويزيدنا ثقة بهذا الرأى أن عثمان أرسل إليه يقول: «تعاهد المدينة حتى لا ترتد أعرابيا».

وأيًا ما كان فقد استغل أهل الفساد هذه الحادثة ضد الخليفة، وكانت إحدى المطاعن التى وُجهت لعثمان، وصورت فى أبشع صورة حتى خلقت منها مأساة استفاضت فيها الأخبار بما يشبه الخيال القصصى، تشنيعًا على عثمان وتقبيحًا لسياسته، والله يعلم الحق ويبرئ من الإدعاء.

أبو ذر، واشتراكيته

وقبل ترك هذا الموضوع يجب علينا أن نجيب عن الأسئلة الآتية:

هل كان أبو ذر متأثراً فى نظريته الاشتراكية بابن سبأ أو غيره؟

وما نوع اشتراكيته؟ وهل كانت تلائم روح العصر الذى كان يعيش فيه؟

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والإجابة عن هذه الأسئلة:

١- إن أبا ذر لم يكن بحاجة إلى طارئ محدث فى الإسلام ليعلمه هذه الاشتراكية فهى من الحقائق الأولية فى الإسلام التى لا تخفى على رجل من الرعيل الأول فى الإسلام، وقد صحب النبى صحبة طويلة، وحفظ القرآن فأحسن حفظه، وروى السنة فأتقن روايتها. وكان عابداً زاهداً. فأى شيء يمنعه بعد ذلك كله أن يكوّن رأيا كهذا من تلقاء نفسه؟ وأمامنا استشهاده بالآيات، واستدلاله بروح الإسلام، وكم اجتهد الصحابة؟ وكم وصلوا إلى آراء صارت مصدراً من مصادر التشريع الإسلامى دون أن يوجد مؤثر خارجى؟ وكان اعتمادهم على الكتاب والسنة وحدهما.

فالذين يزعمون أن ابن سبأ قد اتصل بأبى ذر وألقى إليه بعض مقاله يظلمون أنفسهم، ويظلمون أبا ذر، ويرقون بابن السوداء إلى مكانة ما كان يطمع فى أن يرقى إليها.

وأبعد مما قيل من التأثر بابن سبأ ما رآه المرحوم أحمد أمين فى كتابه فجر الإسلام صـ ١١٦ و١٢٧ من أن أبا ذر اقتبس هذه الافكار من الفرس الذى يتبعون رأى مزدك، وليس هناك دليل. على أنه كانت توجد صلة بينه وبين الفرس أو أنه كان يعرف لغتهم، وربما لم يكن سمع بمزدك.

وإذن فأبو ذر لم يتأثر بمؤثر خارجى. وإنما دفعه إلى ما قال، عاطفة الرحمة بالفقراء وفهم فى آية من كتاب الله فهما كان فيه صادق العقيدة. قوى الإيمان. يصدر فى دعوته عن يقين وإخلاص.

٢- وكانت اشتراكيته منتزعة من صميم الإسلام، مبنية على اجتهاده وفهمه لروح الإسلام. وصدى لما آلت إليه حال المجتمع الإسلامى بعد الفتوحات، فهى اشتراكية تعاطف ومواساة لا تعين عاطلا عن العمل كسلان على بطالته، ولا تقتل فى الأفراد والجماعات روح التنافس والجد فى العمل.

كانت اشتراكيته أن يكون المال معداً للانفاق فى سبيل الله، وسبله كثيرة، فيدخل فيه تقوية الدفاع عن الوطن، وإعداد المشافى لمداواة المرضى، وإقامة دور العلم، والإنفاق عليها، وإغاثة الضعفاء، وإطعام الجائعين، ويدخل فيه إعانة المتعطلين عن الأعمال بإقامة المصانع حتى لا يكونوا عالة على الدولة، فهو باب لا يترك إنسانا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ينام ملء جفنيه وقد أتخمت المصارف والخزائن بذهبه وورقه، وإخوانه المسلمون يئنون تحت نير البؤس والحرمان.

٣- وقد أتعب أبو ذر نفسه، وغيره فى طلب أمر بعيد عن الطبائع البشرية، فقد كانت الاشتراكية التى نادى بها لا توافق روح ذلك العصر، فإن المسلمين كانوا يخرجون زكاة أموالهم، وما كان أحد منهم يمنعها وكانوا يتصدقون كثيراً، ويبنون المساجد، وهذا العمل اشتراكية منظمة. أما إعطاء الفقراء جزافا وفوق المفروض جبراً وبلا حساب فمطلب عسير.

نعم إذا تبلد الأغنياء، وشحوا بأموالهم، ولم يخرجوا زكاتها فمن حق الحاكم أن يأخذ من أموالهم ما يرى فيه صلاح الأمة - راجعوا فى موضوع أبى ذر: الفتنة الكبرى جـ١ من ١٣٢ - ١٣٤ ومن ١٦٣ - ١٦٥، والنظريات السياسية الإسلامية ٤٣ و٤٤. وعثمان بن عفان من ٣٥ - ٣٩، ومعاوية فى الميزان للعقاد ١٤١ و١٤٢.

*** مصر**

عرفنا أن عمرو بن العاص عُزل عن مصر ووليها ابن سعد، وكان دون عمرو فى السياسة وضبط الأمور، فإن عبد الله بن سبأ، بعد أن طُرد من الكوفة والشام جاء إلى مصر فوجد فيها ملجأ أمينًا، وتربة خصبة لزرعه الخبيث فاستقر بها واستغلها مركزًا لدعايته. فكان مما قاله لهم: إنه كان لله ألف نبى ولكل نبى وصى، وكان علىٌّ وصى محمد، ومحمد خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء، ومن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله، ووثب على وصيه ومنعه حقه وتناول أمر الأمة بغير الحق؟ ثم قال بعد ذلك: إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصى رسول الله فانهضوا فى هذا الأمر وحركوه، وأظهروا الطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر.

ولم يقف عند حد الكلام، بل إنه بث الدعاة، وكاتب من كان قد استفسدهم فى الأمصار، وكاتبوه ودعوا فى السر إلى ما عليه رأيهم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وصاروا يكتبون إلى الأمصار كتبًا يضعونها فى عيوب ولاتهم ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، وأخذوا يزورون الكتب، وكان أهل مصر قد أتقنوا فن الدعاية، ووجدوا فى تاريخ ابن أبى سرح القديم مادة دسمة لدعايتهم، وزادوا على ذلك بأنه

www.alukah.net
شبكة الألوكة

متكبر على عرب مصر، ولم يشفع له عندهم ما قام به من فتح فى أفريقيا وفى قبرص وهزيمة الأسطول الرومى فى موقعة ذات الصوارى، وقد حاول ابن سعد أن يشتد على أهل الدعاية، فتذمر المصريون منه، وأرسلوا جماعة إلى الخليفة يشكون فعله بهم، فكتب إليه عثمان ينذره ويأمره أن ينزع عما تكره الرعية، فلم يحفل بذلك. بل عاقب الذين شكوه، وضرب منهم رجلا حتى قتله، فباتت مصر أسوأ حالا من غيرها.

وقبل أن نسير إلى المدينة خاتمة المطاف فى هذه المرحلة يحسن بنا أن نلقى نظرة سريعة على ابن سبأ، فقد كثر الحديث عنه، فمن هو؟ وإلى أى حد كان عمله فى الثورة؟

*** ابن سبأ**

يهودى من أهل اليمن، وأمه أمة سوداء، ولذا لقب بابن السوداء. اعتنق الإسلام فى عهد عثمان تظاهرا أو عن عقيدة، ورأينا طوافه بالأمصار الإسلامية، وبثه الأفكار التى ذكرناها، وهى وغيرها تشبه إلى حد كبير العقائد التى سيذهب إليها الشيعة فيما بعد.

ولكثرة ما قيل عنه شك بعض المؤلفين فى شخصيته، ولكن تعدد الروايات عنه وتواتر أنباء الثقات من المؤرخين تؤيد القول بوجوده، وقيامه بدور فى الفتنة، ولكن المؤرخين قد بالغوا فى هذا الدور، فكأنه هو الفتنة ويحملونه كل تبعتها، وقد رأينا تطور المجتمع الإسلامى والأحوال فى الأمصار قبل وجوده – راجعوا فى ابن سبأ: النظريات السياسية من ٤١ – ٤٣ والفتنة الكبرى ١٣١ – ١٤٣.

*** المدينة**

رأينا فيما سبق أن المصريين كانوا يكتبون إلى الأمصار كتبا يضعونها فى عيوب ولاتهم ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ونذكر هنا: أنه كان يكتب أهل كل بلد إلى البلد الآخر بما يصنعون فيقرؤه أولئك وهؤلاء فى بلدهم، حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الأرض إذاعة ودعاية.

وكان يقول أهل كل بلد، إنا لفى عافية مما إبتلى به الناس، إلا أهل المدينة فقد جاءتهم أخبار كل الأمصار والتقت عندهم كل سيئاتها، وتألم أهل المدينة لما بلغهم من سوء الحال فى البلاد فجاءوا إلى عثمان وقالوا له: يا أمير المؤمنين يأتيك عن الناس

شبكة الألوكة - قسم الكتب

مثل الذى يأتينا؟ فقال: لا. والله ما جاءنى إلا السلامة فأخبروه بما جاءهم. وبيّنوا له أن الأقطار الإسلامية أصبحت مصدر قلق وخوف وأن نذر الفتنة قد ظهرت(١).

فطلب الخليفة مشورتهم، فأشاروا عليه أن يبعث رجالا إلى الأمصار للتحقق من الأخبار التى وصلت.

*** إرسال الرسل إلى الأمصار**

ورأى عثمان صواب تلك الفكرة. فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعبد الله بن عمر إلى الشام، وعمار بن ياسر إلى مصر، وفرق رجالا سواهم إلى غير تلك الجهات فرجع القوم كلهم وقالوا: «ما علمنا عن أمرائك إلا خيراً» ما عدا عمار بن ياسر فقد استماله الحزب المؤلب على عثمان،فأقام بمصر، وكان هو ومحمد بن أبى بكر ومحمد بن حذيفة من أكبر المؤلبين على عثمان والمدبرين ضده وما زالوا كذلك حتى بلغ الكتاب أجله(٢).

* مؤتمر العمال فى موسم الحج من سنة ٣٤هـ

لما رأى عثمان كثرة القيل والقال، لم يكتف بأخبار الرسل فأرسل إلى عماله بالأمصار يطلب منهم الحضور فى موسم الحج من عام ٣٤هـ، فقدموا عليه فجمعهم وأشرك معهم فى الرأى عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، وتدارسوا الأمر، فأشاروا عليه جميعًا باستعمال الشدة مع هؤلاء الذين لا هم لهم إلا إذاعة الأكاذيب لتنفيذ أغراض فى نفوسهم. فقال عثمان: قد سمعت ما أشرتم به علىّ ولكل أمر باب يؤتى

---

(١) مصادرنا فى موضوع الأمصار الإسلامية كلها عدا ما أثبت للمراجعة: ابن الأثير جـ٣ صـ٥٦ و٥٨ ومن ٦٩ – ٧٥، وأشهر مشاهير الإسلام جـ٤ من ٧٢٠ – ٧٣٧ و٧٦٣، وتاريخ الخلفاء من ٢٦١ – ٢٦٩، والنظريات السياسية من ٣٩ – ٤٥، والفتنة الكبرى من ٨٩ – ١٢٧، وتاريخ الإسلام السياسى جـ١ من ٣٤٧ – ٣٥٠، وعرجون من ١٠٨ – ١٢٠ ومن ١٤٤ – ١٤٨، والخضرى جـ٢ من ٤٩ – ٥٧، والفتح الإسلامى من ٣٧٢ – ٣٧٧.

(٢) يروى فى سبب حقد عمار على عثمان أنه تقاذف مع عباس بن عتبة بن أبى لهب فهجم عليه وعرك أذنه فضربهما عثمان، ويروى غير ذلك. وفى سبب حقد محمد بن أبى بكر، أنه كان من الإسلام بالمحل الذى هو به، وغره أقوام وكانت له دالة فلزمه حق فأخذه عثمان من ظهره، ولم يحامل فأحفظه ذلك. ويروى أنه لمكانته كان ينتظر ولاية من الولايات. وأما ابن أبى حذيفة فإنه طلب من عثمان يوما الولاية فلم يجبه إلى طلبه وقال له: لو عرفت فيك ولاية لوليتك. ولكن لست هناك. فطلب منه الإذن بالخروج فأذن له وجهزه، فلما وصل إلى مصر كان فيمن تغير عليه، بل كان أشدهم عليه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

منه. ثم أمرهم بألا يشتدوا على الناس، وأن يعطوا حقوق الله، وأن يتشددوا في حقوق الله، وأن يحسنوا السياسة، ثم رد الأمراء إلى أعمالهم، ولم يأمر بشيء مما أشاروا به.

* مؤتمر آخر من كبار المسلمين بالمدينة

انتهى مؤتمر العمال، وعاد عثمان إلى المدينة وصحبه معاوية في طريقه إلى الشام، وفي المدينة عقد عثمان مجلسا آخر شهده معاوية، وشهده نفر من كبار الصحابة فيهم علي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص، وألقى فيه معاوية خطبة تنم عن جرأة وصراحة، فأوصى هؤلاء النفر بالإمام الشيخ وحذرهم من الفتنة والفرقة، ولم يخل تحذيره من بعض النذير، فنهره علي وكان بينهما حوار لم يخل من جفوة، ثم تكلم عثمان كلاما كثيرا فيه لين ورفق وأظهر أنه صائر إلى ما يشير به القوم عليه. فقيل له: إنك أعطيت فلانا وفلانا فاسترد ما أعطيت، فوعد عثمان بذلك ورضي القوم، وتفرقوا على شيء من رضا.

ولما أراد معاوية أن يلحق بالشام ألقى على المهاجرين عظة بليغة ووصية بعثمان، وكان يظن أن الناس سيستقبلون سنة ٣٥هـ بشيء من الدعة والهدوء.

* معاوية وعثمان

رأى معاوية ما رأى، وسمع ما سمع. فعرض على الخليفة ليلة سفره إلى عمله أن يسير معه إلى الشام، فيكون فيها آمنا منصوراً فأبى عثمان أن يترك جوار رسول الله ﷺ. وأن يستبدل بدار الهجرة داراً أخرى، وقال: لا أبيع جوار رسول الله بشيء وإن كان فيه قطع خيط عنقي! فعرض عليه أن يرسل إليه جنداً من الشام يقيمون معه في المدينة ليردوا عنه العاديات. فأبى عثمان وقال: لا أقتر على جيران رسول الله الأرزاق بجند يساكنهم وأضيق على أهل دار الهجرة والنصرة.

فرحل معاوية إلى الشام، وهو موقن بالخطر النازل سريعًا بالخلافة. راجعوا موضوعات إرسال الرسل والمؤتمرين، وما عرضه معاوية في: الفتنة الكبرى جـ١ من ٢٠٦ –٢٠٨ و٢١٥ و٢١٦ وعثمان لعرجون من ٩٨ – ١٠١ والخضرى جـ ٢ ص ٥٧ و٥٨ وابن الأثير جـ ٢ من ٧٧ – ٨٠، ومعاوية بن أبي سفيان في الميزان للعقاد من ١٤٥ – ١٤٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

* **الثوار وعثمان**

كان التدبير الذى دبره الثوار أن يثوروا بعد مبارحة أمرائهم للأمصار وخروجهم للمدينة، فلم يتهيأ لهم ذلك ولم ينهض منهم إلا أهل الكوفة فقد خرجوا بحجة أنهم يستعفون من سعيد بن العاص. فخرجوا حتى إذا قابلوا سعيداً بالجرعة - قرب القادسية - ردوه فرجع إلى المدينة واجتمع هؤلاء القوم على أبى موسى الأشعرى فنزل الخليفة على رغبتهم فعزل سعيداً وأقر تعيين الأشعرى - وقد سبق ذلك - وبعد رجوع الأمراء تكاتب الثوار على أن تخرج وفود من الأمصار الثلاثة لينظروا فيما يريدون، وأظهروا متظاهرين بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأنهم يريدون أن يسألوا عثمان عن أشياء لتطير (تنتشر) فى الرعية فخرجت وفود الأمصار الثلاث حتى قاربت المدينة.

فلما علم عثمان بمجيئهم أرسل إليهم رجلين ممن نالهم تأديب من عثمان. فصبرا على غير حقد. فلما رآهما أولئك القادمون لم يشكوا فى أنهما منهم، وأخبروهما بما يريدون. فقالوا: إنما نريد أن نذكر له أشياء. قد زرعناها فى قلوب الناس. ثم نرجع إليهم فنزعم أنا قررنا بها فلم يخرج منها، ولم يتب. ثم نخرج كأنا حجاج فنحيط به فنخلعه. فإن أبى قتلناه. فرجع الرجلان إلى عثمان. وأخبراه الخبر فضحك. ثم أحضر هؤلاء القوم، وجمع الناس، وأخبرهم خبر القوم.

فأشار عليه بعض المشيرين أن يقتلهم. فقال عثمان: بل نعفو ونقبل، ونبصرهم بجهدنا، ولا نحاد أحدا حتى يركب حدا أو يبدى كفراً قال: إن هؤلاء ذكروا أمورا، قد علموا منها مثل الذى علمتم إلا أنهم زعموا أنهم يذكرونها ليوجبوها على عند من لا يعلم، ثم أخذ يدافع عن نفسه أمام هذا الوفد وجماعة من المسلمين. حتى برأ نفسه من كل تهمة ألصقوها به وكان دفاعه عما نقم منه الناس كما يأتى.

ما نقم الناس من عثمان، وما رد به عليهم

١- قال عثمان: قالوا: أتم الصلاة وكانت لا تتم ألا وإنى قدمت بلدا - يقصد مكة - فيه أهلى فأقمت فأتممت: أو كذلك هو؟ قالوا: نعم.

٢- قالوا حميت الحمى[١]. وإنى والله ما حميت حمى إلا لإبل الصدقة حتى لا يقع

---

(١) الحمى المرعى. يحرم على الناس الرعى فيه، وقد حماه ابن الخطاب لإبل الصدقة. وزاد فيه عثمان لما زاد عددها فى عهده. وكان فيما يظهر أن الناس ظنوا أنه لم يحمها لإبل الصدقة فقط بل ولإبله وخيله وإبل بنى أمية فهو أبان أنها لإبل الصدقة.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بين من يلى أمرها وبين أحد تنازع، وما لى من ثاغية ولا راغية[1] وإنى قد وليت وأنا أكثر العرب بعيراً وشياه. فما لى اليوم غير بعيرين. أو كذلك هو؟ قالوا: نعم.

٣- قالوا: كان القرآن كتبا فحرقها إلا واحداً. ألا وإن القرآن واحد. جاء من عند رب واحد. وإنما أنا فى ذلك متبع لا مبتدع. أكذلك هو؟ قالوا: نعم.

٤- قالوا: استعملت الأحداث، ولم أستعمل إلا محتملا مجتمعا مرضيا وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنهم، وهؤلاء أهل بلدهم. ولقد ولى من قبل أحدث منهم وقيل لرسول الله أشد مما قيل لى فى استعماله أسامة. أكذلك هو؟ قالوا. نعم.

٥- وقالوا: إنى رددت الحكم بن العاص. وقد سيره رسول الله والحكم مكى. سيره رسول الله من مكة إلى الطائف. ثم رده رسول الله فرسول الله سيره ورسول الله رده. أكذلك هو؟ قالوا نعم.

٦- وقالوا: إنى أعطيت ابن أبى سرح ما أفاء الله عليه. وإنى إنما نفلته الخُمس من الخُمس. وكان مائة ألف. وقد نفل مثل ذلك أبو بكر وعمر. فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك. فرددته، وليس ذلك لهم. أكذلك هو؟ قالوا: نعم.

٧- وقالوا إنى أحب أهل بيتى وأعطيهم، فأما حبى فإنه لم يمل معهم على جور، بل أحمل الحقوق عليهم. وأما إعطاؤهم، فإنى إنما أعطيهم من مالى ولا أستحل أموال المسلمين لنفسى، ولا لأحد من الناس ولقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرغيبة من صلب صلب مالى أزمان رسول الله ﷺ وأنا يؤمئذ حريص شحيح. أفحين أتيت على أسنان أهل بيتى، وفنى عمرى وودعت الذى فى أهلى قال الملحدون ما قالوا؟ وإنى والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلا فيجوز ذلك لمن قاله ولقد رددته عليهم، وما قدم علىّ إلا الأخماس ولا يحل لى منها شىء، فولى المسلمون وضعها فى أهلها دونى، ولا تبلغت من مال الله بفلس فما فوقه، وما أتبلغ (ما آكل) منه إلا من مالى.

٨- وقالوا. أعطيت الأرض رجالا، وأن هذه الأرض شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام فتحت فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله. ومن رجع إلى أهله لم يذهب ذلك ما حوى الله له فنظرت فى الذى يصيبهم مما أفاء الله به عليهم فبعته

(١) ثغاء، الغنم. ورغاء، الإبل.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لهم بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب . فنقلت إليهم نصيبهم فهو فى أيديهم دونى (يشير إلى ما اشتراه من بعض أعلام الصحابة حين أرادوا أن يخرجوا للأمصار) .

بهذا الدفاع البليغ اعتقد الخليفة أنه قد وضع الأمر فى نصابه[1] وحرك ضمائر الوافدين بالشر عليه، وما كان هذا الدفاع ليؤثر فى نفوس مريضة، وقلوب أطفأت فيها الدعاية جذوة الإيمان : وما كان يجدى فى هذا الموقف إلا أن يأخذ بنصح المخلصين من الصحابة فيقتلهم ويجعلهم عبرة لغيرهم وسلفا ومثلا لمن وراءهم . أو يحبسهم فى المدينة تحت رقابة شديدة حتى لا يمكنهم من الرجوع إلى مواطن الفساد للقيام بدعاية سيئة ضد عماله . ولكنه رقّ ولان كما هى عادته فرجعوا إلى أمصارهم مطويين على ضغن يأكل أكبادهم ويحرق أفئدتهم .

* خروج الثوار من أمصارهم للمدينة

ولما عادوا إلى بلادهم تكاتب الثوار واتفقوا على أن يخرجوا من أمصارهم فى موسم حج سنة ٣٥ هـ كأنهم حجاج أو عمار . ثم يجتمعون فى المدينة للانتهاء من أمر الخليفة . وفى الموعد المضروب خرج من مصر عدد يتراوح بين الستمائة والألف يقودهم الغافقى بن حرب العكى، وكان معهم ابن سبإ، وخرج من الكوفة عدد مماثل لعدد أهل مصر بقيادة عمرو بن الأصم، ومن البصرة عدد كذلك بقيادة حرقوص بن زهير السعدى : وكانت أهواء الأمصار الثلاثة مختلفة . فأهل البصرة يريدون طلحة لأن ضياعه الواسعة فى مصرهم . وأهل الكوفة يريدون الزبير لأن أملاكه فى بلدهم . وأهل مصر يريدون على بن أبى طالب لتعاليم بن سبإ، ولوجود ربيب على : محمد بن أبى بكر . ومحمد بن حذيفة بينهم . وعلى بعد ثلاثة مراحل من المدينة عسكر الثوار . واتفقوا على إرسال رائدين يرتادان لهم الطريق، ولينظرا هل وصل المدينة خبرهم أم لا؟

---

(١) اقتصر عثمان على ما ذكر . وكانوا قد نقموا عليه مسائل أخرى . تقدم الكثير منها وعرفتم وجهة النظر . وهذه المسائل : عفوه عن عبيد الله بن عمر وعدم أخذه بمن قتلهم، وخروج أبى ذر للربذة، وجعله ابن أبى سرح أميرا عاما للبحرية فى موقعة ذات الصوارى . وسياسته فى العزل والتولية، وبناؤه لسبع دور بالمدينة لنفسه وأزواجه وبناته وتشييده لبعضها بالحجارة والجير . وتوليته لأقاربه وترك كبار المهاجرين والأنصار، وضربه لابن مسعود حتى كسر ضلعا من أضلاعه . وهذه أمور كانت تغضب بعض الناس، ولكنها كانت تتخذ شكلا مشوها، ومن السهل الإجابة عليها – فراجعوها فيما سبق وفى مظانها مثل : الفتنة الكبرى جـ١ من ١٧٩ – ١٨٦، والفتح الإسلامى من ٣٩١ – ٣٩٤، وإنصاف عثمان من ٥٧ – ٥٩، وابن الأثير جـ٣ من ٦٩ – ٧٤ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لأنهم كانوا يخافون أن يستعد أهل المدينة لهم بحرب. فأرسلوا زياد بن النضر الحارثى، وعبد الله بن الأصم فدخلا المدينة ولقيا أمهات المؤمنين، وعليا وطلحة والزبير. وقالا: إنما نأتم هذا البيت، ونستعفى هذا الوالى من بعض عمالنا. ما جئنا إلا لذلك واستأذناهم فى دخول الثوار. فكلهم أبى ونهى وكلهم استعد لحماية دار الهجرة فرجعا إلى قومهم بالخبر. فجاء جماعة من المصريين إلى على، وجماعة من البصريين إلى طلحة. وجماعة من الكوفيين إلى الزبير، وعرض كل جماعة الإمرة لصاحبهم. فرد عليهم هؤلاء الزعماء رداً شديداً فخرج القوم وأروهم أنهم راجعون لأمصارهم كى يتفرق أهل المدينة ثم يكروا راجعين. واعتقد أهل المدينة أن الخطر قد زال فاستأنفوا حياتهم على ما ألفوا من أمن وهدوء.

ولكن ما كان أشد دهشتهم عندما باغتهم هؤلاء الثائرون مكبرين فى أرجاء المدينة محيطين بدار عثمان. منادين «من لزم داره فهو آمن. ومن كف عنا أذاه فهو آمن».

شمل المدينة الفزع. فأعرضوا عن مناوأة هؤلاء الأشرار ولزموا مساكنهم. ما عدا على بن أبى طالب فقد ذهب إليهم فى جماعة من أصحابه. وسألهم عن سبب رجوعهم. فقال المصريون: أخذنا مع البريد كتابا بقتلنا: وقال الكوفيون والبصريون جئنا ننصر إخواننا. فقال لهم على: كيف علمتم يا أهل البصرة ويا أهل الكوفة بما لقى أهل مصر وقد سرتم مراحل ثم طويتم نحونا؟ هذا والله أمر دُبر بالمدينة، قالوا: فضعوه كيف شئتم لا حاجة لنا فى هذا الرجل فليعتزلنا. قم معنا إليه. فقال على: والله لا أقوم معكم. قالوا: فلم كتبت إلينا؟ فعجب وقال: والله ما كتبت لكم كتاباً. فنظر بعضهم إلى بعض فى دهشة. ثم دخلوا على الخليفة بالكتاب فقالوا: كتبت فينا بكذا وكذا. قال: إنما هما اثنتان أن تقيموا علىّ رجلين من المسلمين. أو يمينى بالذى لا إله إلا هو. ما كتبت ولا أمليت ولا علمت. وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل وقد يُنقش الخاتم على الخاتم فقالوا بصوت واحد وبخشونة غير معهودة فى حضرة الخليفة: سواء تقول الصدق أو تكذب. قد والله أحل الله لنا دمك. ونقضت العهد والميثاق. واتهموا مروان بن الحكم - مشيره ورئيس ديوانه - بكتب الكتاب وطلبوه من عثمان فأبى عليهم تسليمه خشية أن يقتلوه.

وفى الحقيقة أنهم كانوا يحاولون منه أن يخلع نفسه من الخلافة، وهو يأبى أن يعتزل ويقول: لا أنزع قميصاً لبسنيه الله تعالى.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقبل أن نسير مع الأحداث يجمل بنا أن نحقق مسألة الكتاب حتى لا يضيع فى خضم الحوادث.

التحقيق

يرى الكثير من المؤرخين لهذه الحقبة الغامضة من التاريخ أن الكتاب مفتعل ومزور وأنا معهم فى هذا الرأى والأدلة على ذلك ما يأتى:

أولاً: أن الرواة لم يتفقوا على تحقيقه - فطوراً هو كتاب لابن أبى سرح بقتل المصريين الوافدين على المدينة وحدهم دون إخوانهم البصريين والكوفيين. ولو صح قصد الغدر من دار الخلافة لكان الكتاب إلى أمراء الأمصار الثلاثة للتخلص من جميع المفسدين. وهذا ما كان يراد من دار الخلافة قبل أن يستفحل الأمر.

وطوراً آخر يقولون: إن الثوار طلبوا من الخليفة عزل ابن أبى سرح وتعيين محمد بن أبى بكر فأجابهم. وفى الطريق ضبطوا البريد بكتاب فيه أمر ابن أبى سرح بقتل ابن أبى بكر ومن معه، ولم يثبت أن الخليفة عين ابن أبى بكر.

ثانياً: أنه لو كان الخطاب حقًا لأتى به جماعة المصريين وحدهم ولكن ظهور البصريين والكوفيين معهم بعد أن افترقوا مراحل دليل حيلة مدبرة ومتفق عليها منهم جميعًا. على أن المصريين لو أرادوا إطلاع إخوانهم البصريين والكوفيين على الكتاب ما تسنى لهم أن يصلوا إلا عن طريق المدينة. ولو فعلوا لوصلوا المدينة فى الوقت الذى يكون فيه الفريقان الآخران قد وصلوا فيه إلى بلادهم، فمن المحال إذن أن تجتمع الوفود الثلاثة فى المدينة إلا إذا كان هذا عن تدبير سابق. وقد أظهر على بن أبى طالب كذبهم فى هذا الادعاء وقال: هذا أمر دبر بالمدينة فلم يجيبوا، وقالوا مقالهم السابق.

ثالثًا: يقول الدكتور طه حسين جـ ١ ص ٢٠٩: ليس بمعقول ولا مقبول أن يكيد عثمان هذا الكيد للمسلمين. فيعطى فريقا منهم الرضا. ثم يرسل إلى عامله سراً أمراً بقتلهم. وليس بمعقول ولا مقبول أن يجترئ مروان على الخليفة فيكتب هذا الكتاب، ويمضيه بخاتمه، ويرسله مع غلامه على جمل من إبله.

رابعًا: القصة تحمل أدلة وضعها وبطلانها: فكيف يعقل أن يولى عثمان ابن أبى بكر - بفرض صحة توليته - على مصر ويكتب له بعهده عليها ويبعث معه جماعة من المهاجرين والأنصار، ثم يأتى إنسان له ذرة من العقل - مروان أو غيره - يريد نقض

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ما أبرمه الخليفة، بل ويريد قتل صاحب العهد ومن معه في إحدى الروايات أو قتل جماعة من المسلمين في الرواية الأخرى، فيرسل في الطريق التي سلكها ابن أبي بكر أو غيره بغلام الخليفة على بعيره، ويختم بخاتمه كتابا يأمره فيه بقتلهم؟!.

خامسًا: أما أن الخطاب يحمل خاتم الخليفة فأمره ميسور لأن في الإمكان تقليده. وهذا هو ما اعتذر به عثمان حينما اطلع على الخطاب، والقول بأن حامل الخطاب كان من خدم عثمان، وأن مروان كتبه دون أن يعلم الخليفة لا يقوم عليه دليل ولا شبه دليل. بل هو مجرد ادعاء، وقد طلب الخليفة منهم البينة على ذلك فما استطاعوا إليها سبيلا. وكان إحضار الخادم ليدلي بأقواله حتى يلقي على ذلك الخطاب نورًا أقل ما يجب عليهم. بل كان يجب عليهم القبض عليه وإحضاره معهم، وإذن لم يكن هناك كتاب لا من مروان ولا من غيره وإنما المسألة كما قدمنا، أن العصاة لما وجدوا من أهل المدينة استعدادًا للدفاع عن الخليفة، وأخفقوا في استمالة الزعماء إليهم ركبوا متن الخديعة فأظهروا العودة إلى أمصارهم، ولكنهم كانوا في الواقع مصممين على العودة منتحلين سببًا فخلقوا مسألة الكتاب. وكان تزوير الكتب معروفًا قبل ذلك فقد زور معن بن زائدة كتابا على عمر بن الخطاب ونقش عليه خاتمًا كخاتم ابن الخطاب، وبمقتضاه أخذ مالا من بيت مال المسلمين بالكوفة.

وقد وضح من مناقشة علي للثوار أنهم زوروا عليه كتبًا، ورووت المصادر أنهم زوروا على طلحة وعلى الزبير وعلى لسان أمهات المؤمنين. فالتزوير على عثمان ليس بدعا من الأمر(١)

إيذاء الخليفة وحصاره في منزله

بعد هذا الكتاب المزور. قبض العصاة على ناصية الأمر بالمدينة غير أن الخليفة وأصحابه كانوا لا يزالون يختلفون إلى المسجد لإقامة الصلاة، وفي يوم الجمعة التي تلت نزول الثوار المدينة. قام الخليفة ليخطب الناس حاثًا العصاة على الطاعة فعلا ضجيجهم وصخبهم داخل المسجد، وأثاروا الشغب والاضطراب، وأجلسوا من هب من كبار الصحابة لشد أزر الخليفة كزيد بن ثابت، وصاروا يرجمون الخليفة وأصحابه

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ٤٨ و٤٤ وعثمان من ١٢٦-١٤٣ وإنصاف عثمان ٣٢ و٣٣ ومن ٦٣ - ٦٧ والفتح الإسلامي ٣٧٨ والفتنة الكبرى جـ١ ص٢٠٩ و٢١٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بالحجارة حتى خرّ مغشيا عليه فنُقل إلى داره. وجاء على وبعض أصحابه لزيارته والتحدث معه فيما يقمع هذه الثورة، وبُذلت وعود. خرج بعدها إلى الصلاة ثلاثين يوما. ثم مُنع الصلاة فلزم داره، واجترأ الغافقى زعيم الثوار المصريين على إمامة المسلمين فى الصلاة بدل الخليفة ولزم أهل المدينة بيوتهم لا يجلس أحد، ولا يخرج إلا بسيفه ليمتنع به.

وفى تلك المحنة طلب عثمان أن يحضر إليه طلحة والزبير. فحضرا وأطل عليهما الخليفة من سطح الدار وخطب فى حضرتهما خطبة طويلة. قال فى أثنائها: قد دعوت الله أن يهديكم بعدى إلى انتخاب خليفة يرضى به كلكم. وكان على بن أبى طالب فى ذلك الوقت استيأس، ومل التردد بين عثمان والثوار، ومثله محمد بن مسلمة. فقد كان مروان يقضى بتدبيره على كل أمل فى حل المشاكل، وكان على يعلم ذلك ويشكو منه دون جدوى. وكانت حاشية عثمان من بنى أمية ترى أن لعلى ضلعًا فى هذا الأمر فكانت الوجوه تتقابل عابسة فلم يكن هناك سبيل لعمل صالح فى مصلحة المسلمين.

اشتداد الحصار

كان عثمان قد طلب من الأمصار النجدة، وسمع الثائرون بقرب وصول النجدات فضيقوا الحصار عليه من جميع النواحى، ومنعوا دخول كل شيء إلى دار الخليفة حتى الماء منعوه عنه ليموت عطشا. فأرسل عثمان إلى على سرا وإلى طلحة وإلى الزبير وإلى أزواج النبى. إنهم قد منعونى الماء فإن قدرتم أن ترسلوا إلينا ماء فافعلوا. فكان أولهم إجابة على، فقد جاء فى الغلس، وقال للمتمردين: إن الذى تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين، لا تقطعوا عن هذا الرجل الماء ولا المادة فإن الروم والفرس لتأسر فتطعم وتسقى، وجاءت أم حبيبة زوج النبى ﷺ بماء وحاولت توصيله فذهبت محاولتها عبثًا وآذاها الثوار، وكادوا يقتلونها، ولولا أن الماء كان يأتى عثمان خلسة من دار آل حزم -جيرانه- لمات عطشًا.

ولقد أطل عليهم عثمان إذ ذاك وتحدث إليهم بحديث يذيب ميت القلوب فما أبهوا لقوله، وما أجابوا دعوته.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

جاءت آخر سنة ٣٥هـ وحان موعد الحج فلم ينس الخليفة وهو فى أشد الحالات واجبه كخليفة فصعد على سطح داره ونادى عبد الله بن عباس – وكان قد لزم باب الدار دفاعا عنه – وولاه إمارة الحج وكتب معه كتابًا مطولا يقرؤه على المسلمين فى الموسم ويعلمهم بما هو فيه. فسار ابن عباس أميرًا على هذا الموسم فقرأ الكتاب على المسلمين، ولكن ذلك جاء بعد فوات الأوان.

قتل عثمان فى ١٨ من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ – ٢٠ مايو سنة ٦٥٦م:

انتهز الثوار فرصة خلو المدينة من أهلها وشاع بينهم أن إمداد العراق قد دنت من المدينة وأن إمداد الشام قد انتهت إلى وادى القرى، ونمى إليهم أيضا أن الحجاج يريدون الرجوع من الموسم ليوقعوا بهم، ويضموا ذلك إلى حجهم ليكون أعظم أجرًا. فقالوا: لا يخرجنا مما وقعنا فيه إلا قتل هذا الرجل فيشتغل بذلك الناس عنا، فحاولوا اقتحام باب الدار فمنعهم الحسين بن على، وابن الزبير، ومحمد بن طلحة، وعبد الله بن عمر، ومن معهم من بنى أمية[1] ولكن الثوار رأوا الخطر محدقا بهم فأحرقوا أبواب الدار ومنهم من تسور الدار من دار مجاورة.

ولما رأى عثمان ذلك استسلم للقضاء، وأمر من يريد الدفاع عنه أن ينصرف، ودخل على الخليفة جماعة منهم محمد بن أبى بكر، وهاجم عثمان يريد قتله فوجده يقرأ القرآن فى هدوء فأحجم، ويُروى أنه أمسك بلحية الخليفة فقال له: أرسل لحيتى يا ابن أخى فلو رآك أبوك لساءه مكانك فاستحيا ورجع إلى الوراء فتقدم الغافقى وضرب الخليفة بحديدة كانت معه. وجاء سودان بن حمران ليضربه بالسيف فأكبت عليه زوجه نائلة بنت القرافصة، واتقت السيف بيدها فقطع أصابعها. ثم توالت الضربات على الشيخ الكبير، وهو مكب على كتاب الله لا يتحرك حتى قُتل وسال دمه على المصحف الشريف. ثم انتهب القتلة ما فى البيت وأتوا بيت المال فأخذوا ما فيه.

وبقى الخليفة الثالث لرسول الله ثلاثة أيام من غير دفن، ثم دُفن ليلاً فى غفلة من خصومه فى البقيع – ٢١ من ذى الحجة سنة ٣٥هـ.

---

(١) يرى الدكتور طه أن أهل الدار هم الذين بدأو مناوشة الثوار لأن أخبار وصول الإمداد بلغت مروان. فظن أنه يستطيع زحزحة المحاصرين عن الدار ومقاتلتهم حتى تأتى الإمدادات وكره أن يعتد عليه معاوية أو ابن عامر بأن جنودهما قد أدركتهم محصورين فى الدار ففرجت عنهم الحصار وردت إليهم الحياة، الفتنة جـ١ ص٢١٣ و٢١٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

هكذا كانت نهاية الشهيد الجليل. وفى قتله روايات كثيرة وفيها من التفاصيل ما يعطينا صورة تقشعر منها الأبدان وتشيب لهولها الولدان فراجعوها فى الطبرى جـ٣ والبداية والنهاية لابن كثير والعبر لابن خلدون، حوادث سنة ٣٥ هـ.

مسئولية قتل عثمان

جرت عادة الكاتبين أن يحاولوا تحديد مسئولية قتل عثمان وإلقاء التبعة على فريق دون آخر. أو توزيعها توزيعًا غير عادل. فيظلم فريقًا ويحابى فريقًا آخر لنزعة خاصة، فقد اتهم بعض المؤرخين عليًا بالهوادة فى نصرة عثمان. بل قالوا إنه أسلم عثمان للثوار فحمله تبعة قتله. وكأن عليًا كان الأمة بأسرها أو أنه إن شاء أطال عمر عثمان وإن شاء قضى عليه. ويخلقون عداوات بينه وبين عثمان. وإن المتتبع للأحداث يرى أن عليًا لم يقصر. وقد نصح مرارًا ولكن لم يُسمع لقوله وأخيرًا خرج أو طلب إليه الخروج إلى ماله بينبع. وترك أبناءه على باب عثمان.

ولما اشتد الحصار على الخليفة أرسل إليه كتابًا رواه المبرد فى كتاب الكامل. قال فيه: أما بعد فقد بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطبيين، وبلغ الأمر أشده. ثم تمثل بهذا البيت:

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل   وإلا فأدركنى ولما أمزق

فبادر على إليه. ولكنه لم يدرك من أمره شيئًا. وكان أمر الله قدرًا مقدورًا – راجعوا جهد على والصحابة فى ابن الأثير جـ٣ من ٨١ – ٨٨، وإنصاف عثمان من ٧٤ – ٨٧، والفتح الإسلامى ٣٩٠ و ٣٩١.

وكما غالى فريق فى على وحاول تحميله تبعة قتل عثمان، غالى فريق آخر فحمل عثمان أكبر نصيب من التبعة. فجعل سيرته السبب الأول والأخير للفتنة، وغالى فريق ثالث فحمل تبعة الفتنة ابن سبأ.

والواقع أن الثورات بصفة عامة تختلط فيها المسائل ولا تتبين الحقائق وثورتنا هذه أشد غموضًا لأننا فى عصر لا صحف فيه ولا وزارة للداخلية بل ولا تدوين. قد تفرق فيه المسلمون شيعًا وأحزابًا وكل يدلى بوجهة نظره. تحكمه عاطفة خاصة. وتملى عليه نزعة من النزعات.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولكن يجب علينا أن نسلط الأضواء الكاشفة على هاتيك الأحداث حتى نتمكن من إعطاء حكم يكون قريبًا من الحقيقة إن لم يكن هو الحقيقة، فكان موقف عثمان يتلخص فيما يلى :

١ – تسامح مع المتمردين مع ناله من أذى فى نفسه. وهذا وإن حسن عند الحكماء. فلا يحسن أبدًا فى سياسة الرعية. بل لابد لمقام الخليفة من هيبة فى القلوب. وقد نصحه الكثير باتباع الشدة – راجعوا عزل الولاة وتوليتهم. ورأى المشيرين فى الوافدين عليه بالشر. ودفاعه عن نفسه.

ويبدو لنا أن تسامحه يرجع إلى خوفه من أن يكون فاتحًا لباب الفتنة.

٢ – تمسك بمنصب الخلافة. فقد طلب الثوار غير مرة من عثمان أن يتنازل عن الخلافة فأبى. وقال: لا أخلع قميصًا كسانيه الله عز وجل. ويقول رفيق العظم: إن عثمان لم يعتزل لا حبًا فى الرياسة. ولكن لسبب من ثلاثة:

(أ) ضعف الإرادة الناشئ عن كبر السن.

(ب) وإما خوفًا من أن يتهم نفسه بالعزل فيسجلون عليه ما اتهم به من الأحداث مع اعتقاده أنه لم يستحل محرمًا فيما فعل. فلم يكن يرى مبررًا لخلع نفسه ولو رأى مبررًا لما تصلب إلى هذا الحد.

(جـ) وإما عملاً برأى مروان وأضرابه من الأمويين: وكان الأمويون يزينون له التمسك بها (أشهر مشاهير الإسلام جـ٤ ص٨٠٠)، وفى رأيى أنه تمسك بمنصب الخلافة لأنه رأى الصديق وعمر قبله بقيا فى الخلافة إلى الرمق الأخير فلا يريد أن يستنّ سنة خلع الخلفاء إذا لم يرض عنهم بعض الرعية، وهو لو أجاب الخارجين إلى خلع نفسه من الخلافة لأصبحت ألعوبة فى أيدى المفتونين الساعين فى الأرض بالفساد ولسادت الفوضى، ولما استتب الأمر لأن كل جماعة تريد الخلافة لصاحبها فكان لابد من قيام حرب أهلية كالتى قامت فيما بعد فى عهد على. وأياً ما كان الأمر فقد كان تمسكه من أسباب التعجيل بمصرعه.

٣– كان يحسن بالخليفة –وقد رأى طلائع الفتنة من زمن بعيد– أن يضع حول المدينة حامية قوية بحيث لا يطمع فيها طامع، وقد أشار عليه معاوية بذلك فأبى كما

شبكة الألوكة - قسم الكتب

سبق. ولو أن الخليفة أجاب تلك الرغبة أو تنبه لهذا الأمر قبل اشتداد الفتنة لكان ذلك النظام خليقًا بأن يضرب حول المدينة نطاقًا من الهيبة، وكان لا غضاضة على عثمان فى هذا، لأنه وإن لم يكن معروفًا من قبل إلا أن لكل عصر ما يناسبه.

٤- ما خالف به عثمان عمر فى أعلام قريش من السماح لهم بالخروج إلى البلدان. وقد سبق ذلك وغيره مما اتهم به، فراجعوه.

* **مسئولية عماله**

١- إن الكثير منهم لم يكن حذرًا يقظًا فقد تربت الفتنة تحت أعينهم فى ثلاث إمارات يحكمها أقرب الناس إلى الخليفة وهى مصر والكوفة والبصرة ولو كانت رقابتهم شديدة لما وجد الثائرون سبيلاً لجمع شتاتهم والسير إلى عثمان سنة ٣٥هـ. مع أن هناك ما يدفع لتشديد الرقابة. فإنه سبق للثوار الذهاب إلى المدينة بحجة سؤال الخليفة عن أشياء أنكروها عليه.

٢- محاولتهم درء الخطر عن أنفسهم وعن أقاليمهم بنفى من يظهر برأى أو دعاية. وكان الأجدر بهم حبسه حتى لا ينتقل إلى قطر آخر فيفسده.

٣- بطؤهم عن نصرة خليفتهم حينما أرسل إليهم يستنجد بهم. وقد كان الحصار أربعين يومًا فيما يروى. وأكثر من هذا أن عثمان كان قد عود عماله أن يوافوه فى موسم الحج من كل عام. فلماذا أقاموا فى أمصارهم هذا العام، ولم يشهدوا الحج؟

وأما موقف أهل المدينة: فكانوا قد تفرقوا فمنهم المحرض فى الخفاء كعمرو بن العاص ومنهم العامل فى الثورة كمحمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة وعمار بن ياسر، ومنهم القاعد المحايد الذى كسر سيفه وجلس فى بيته كسعد بن أبى وقاص. وقليل منهم المعين للخليفة ولو كانوا على قلب رجل واحد لما تمكن الثوار من قتل سيدنا عثمان والاستبداد بالأمر والتحكم فى المدينة ومن بها. بدليل أنهم انتهزوا فرصة غيبتهم فى موسم الحج وصنعوا ما صنعوا وربما كانوا يظنون أن الأمر ينتهى إلى مضايقة الخليفة فيعزل نفسه. أو يسلم إلى الثوار مروان بن الحكم - على الأقل - فيستريح الناس. وأما القتل فما كان يظن وقوعه. ولشدة احتياط الصحابة بعثوا أولادهم فوقفوا على باب عثمان، واستماتوا فى الدفاع، حتى صرفهم عثمان حبًا فى عدم إراقة الدماء (راجعوا هامش ابن الأثير جـ٣ ص ٩٠ و ٩١).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وأما ابن سبأ : الذى يحملونه تبعة الفتنة فقد عرفتم رأينا فيه . وهو أن دوره بولغ فيه محاولة إلقاء التبعة على عنصر طارئ على المسلمين . وإذن فتبعة قتل عثمان –إن كان يصح أن توزع– موزعة على الثوار بما أذكوه من الفتن وما سفكوه من دماء، وعلى أعوان سيدنا عثمان وعماله لإهمالهم وضعف سياستهم، وعلى من ساعدهم من أهل المدينة بالفعل أو القول، ثم على دسائس ابن سبأ .

والحق الذى لا مراء فيه أن ظروف الحياة كانت أقوى من الجميع وأن التطورات العامة هى التى خلقت الأحداث وأدت إلى قتل الخليفة . ومهما كان الاختلاف فى شأنه وغيره فإنه مما لا شك فيه أن الله لم يحل دم عثمان لقاتليه . ولكن هكذا أراد الله وذهب عثمان ضحية . فهل استراح المسلمون واستقرت الأمور؟ لا . بل تعقدت أكثر وزادت التواء . فقد مزقت الحروب الأهلية التى تلت قتل عثمان وحدة المسلمين شر ممزق . ولم يندمل بعد الجرح الذى أحدثته هذه الحروب . فلم يكد المسلمون يفرغون من بيعة على حتى وقع الخليفة الجديد بين بنى أمية من جهة وبين عائشة وطلحة والزبير من جهة أخرى . فوقعت الحرب بين على وأصحاب الجمل، وبين على ومعاوية . وبيان هذه الأحداث فى عصر على بن أبى طالب الخليفة الرابع لرسول الله ﷺ . فكان قتله نهاية وبداية : نهاية الدور الأول من الفتنة، وبداية الدور الثانى .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الخليفة الرابع

على بن أبى طالب

من (٣٥هـ، ٦٥٦م) إلى (٤٠هـ، ٦٦١م)

* البيعة لعلى

قتل الثوار الخليفة الثالث لرسول الله ﷺ، وأصبحت المدينة فى قبضتهم. وكانت الفرقة المصرية فى المدينة أقوى الفرق، وتولى زعيمها الغافقى الإمامة فى الصلاة بالمسجد النبوى.

وفى اليوم الخامس لمقتل عثمان. أعلن الثوار أنهم لن يتركوا المدينة قبل اختيار خليفة جديد. لأنهم كانوا يعلمون أنه لابد للناس من إمام. ولابد أن يبايع هذا الإمام فى أسرع وقت قبل أن يستبد عمال عثمان بما فى أيديهم ويرسل أقواهم «معاوية» جنداً إلى المدينة ليخضعها لسلطانه ويعاقب الثوار على ما كان منهم.

وكان الثوار مع اتفاقهم على اختيار خليفة كانت أهواؤهم مختلفة، فهوى أهل مصر مع على، وهوى أهل الكوفة مع الزبير، وهوى أهل البصرة مع طلحة، فذهبت كل جماعة إلى من يرغبون حكمه، وعرضوا عليه الخلافة فرفضها الثلاثة، وكان كل واحد منهم يتبرأ من الثوار فلما لم يجد الثوار ممالئا ولا مجيبا قالوا: لا نولى أحدا من هؤلاء الثلاثة. فبعثوا إلى سعد بن أبى وقاص وقالوا له: إنك من أهل الشورى فرأينا فيك مجتمع فاقدم نبايعك فبعث إليهم إنى خرجت منها فلا حاجة لى بها على أى حال، ثم أتوا عبدالله بن عمر فقالوا له: أنت ابن عمر فقم بهذا الأمر فقال: إن لهذا الأمر انتقاما لا أتعرض له فالتسموا غيرى، فبقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون والأمر أمرهم بطبيعة الحال، وقالوا إن رجعنا إلى أمصارنا بقتل عثمان من غير إمرة اختلف الناس فى أمرهم ولم نسلم. وكأن الثائرين استيقنوا آخر الأمر أنهم لن يستطيعوا وحدهم أن يقيموا للناس إماما. وأنه لابد أن يعينهم المهاجرون والأنصار على ذلك فجمعوا أهل المدينة، وقالوا لهم: يا أهل المدينة أنتم أهل الشورى وأنتم تعقدون الإمامة وحكمكم جائز على الأمة فانظروا رجلا تنصبونه ونحن لكم تبع، وقد

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أجلناكم يومكم فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن غداً علياً وطلحة والزبير وأناساً كثيرين، فذهب أهل المدينة إلى على يعرضون عليه الإمامة ويلحون عليه فى قبولها وحاول أن يمتنع فخوفوه بالفتنة.

ويُروى أنه قال لهم: دعونى والتمسوا غيرى فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول فقالوا له: ننشدك الله، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى الفتنة؟ فقال: قد أجبتكم واعلموا أنى إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتمونى فإنما أنا كأحدكم إلا أنى من أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه. ثم افترقوا على ذلك واتعدوا الغد، وتشاور الناس فيما بينهم وقالوا إن دخل طلحة والزبير استقامت الأمور.

وفى الغد اجتمع المسلمون بالمسجد يوم ٢٣ من ذى الحجة سنة ٣٥هـ فقال على لهم: إن كنتم لاتزالون على ما أبرمنا أمس فأنا معكم على ذلك وإلا فلا سبيل لى على أحد. فقالوا له: نحن على ذلك وتداعى الناس للبيعة وبايعه جمهور من كان حاضراً بالمدينة، وامتنع نفر عن البيعة فلم يلح عليهم على فى البيعة، ولم يأذن للثائرين فى إكراههم عليها. ومن هؤلاء النفر: سعد ابن أبى وقاص، وقال لعلى «ما عليك منى من بأس»، ومنهم عبدالله بن عمر، ومحمد بن مسلمة، وأبو سعيد الخدرى، وأسامة بن زيد، وغيرهم ممن اعتزلوا الفتنة، وكان من الممتنعين عن البيعة طلحة والزبير فأكرههما الثائرون عليها، ولم يتركهما على وشأنهما كما ترك غيرهما لأنه كان يعلم من أمرهما ما يعلم الثوار، فكان يعلم أن طلحة كان من أشد الناس على الخليفة المقتول، وأنه كان يطمح إلى ولاية الأمر وكان يعلم أن الزبير لم يأمر ولكنه لم ينه، ولم يكن أقل من طلحة طموحا للولاية، وكل واحد منهما له أنصار فأراد أن يستوثق منهما ومن أتباعهما حتى تستقيم الأمور.

وبجانب هذه الرواية توجد رواية أخرى مؤداها، أنه لما قتل عثمان اجتمع أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار وفيهم طلحة والزبير وأتوا علياً، وعرضوا عليه الإمامة وذكروا فضائله ومزاياه فأبى إباء شديداً. ولكنهم صمموا على انتخابه. وفى رأينا أن الرواية الأولى أرجح لأنها تتماشى مع الحوادث. وإكراه طلحة والزبير - إن كانا أكرها - فهو إكراه على لزوم الجماعة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقد تمت البيعة لعلى بعد مقتل عثمان بخمسة أيام وظهر أن الأمور قد استقامت لعلى فى الحجاز وفى الكوفة وفى البصرة وفى مصر وكان الذى يشغله الشام لأنه لم يشترك فى البيعة من جهة. ولأن الذى يحكمه هو معاوية أقوى العمال، وهو ابن عم عثمان من جهة أخرى، ولكن عليا كان يرى أن بيعته انعقدت ولزمت من تأخر عنها باجتماع من اجتمع عليها بالمدينة دار النبى وموطن الصحابة.

ولما تم الأمر لعلى فى مسجد الرسول خطب أول خطبة له ، حث فيها الناس على أداء الفرائض، وحثهم على التقوى وبيّن حرمة المسلم. وقال لهم إذا رأيتم الخير فخذوه، وإذا رأيتم الشر فدعوه... الخ(١).

* التعريف بعلى بن أبى طالب

لسنا نقصد بهذا التعريف أن نبين بالتفصيل حياة على بن أبى طالب فتلك حياة لا تتسع لها هذه العجالة، وأنتم تعرفون عنها الشيء الكثير، وقد دونت فيها الأسفار الضخمة وإنما نقصد أن نذكر طرفا منها لتعلموا مقدار هذا الرجل العظيم الذى أراد أن يسوس المسلمين سياسة حازمة قوية، متأسيا فى ذلك برسول الله وبأبى بكر وعمر، ولكن الظروف لم تواته، فالفتنة كانت قد بدأت دورها الثانى، ولكى تسيروا على نهجه وتتخذوه مثلا أعلى فى هذا الزمن الذى طغت فيه الماديات على الروحيات، علكم تنتفعون. نرجو. ونرجو مخلصين.

هو على بن أبى طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف فهو ابن عم النبى، ومن السابقين الأولين إلى الإسلام. ولد قبل الهجرة بإحدى وعشرين سنة، ونشأ فى حجر النبى فرباه على أسمى خلق وأنبل صفات. ثم غذاه بالإسلام منذ هبط الوحى على معلم الإنسانية جمعاء عليه الصلاة والسلام.

أخذ العلم من نبع النبوة صافياً ، واقتدى بالرسول فى كل شأن من شئونه وكان النبى يحبه أشد الحب. استخلفه حين هاجر إلى المدينة على ما كان عنده من الودائع ليردها إلى أصحابها . فأقام ثلاثة أيام ثم لحق بالنبى.

---

(١) راجعوا ابن الأثير ج٣ من ٩٨ – ١٠٠ والفتنة الكبرى ج٢ «على وبنوه ص ٨ – ١٠» والفتح الإسلامى من ٣٩٦ – ٣٩٨ وتاريخ الخلفاء ٢٩٧ – ٢٩٩ وإنصاف عثمان ٨٧ والنظريات السياسية الإسلامية ص ٤٥ وعثمان وعلى لصبيح الكتاب السادس مارس ١٩٥٨ من ١٨٦ – ١٩٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولما هاجر النبى إلى المدينة، وآخى بين المهاجرين. ثم آخى بينهم وبين الأنصار. آخى بين على وبين نفسه ثم آخى بين على وسهل بن حنيف ثم زوجه النبى بابنته فاطمة فكان منهما عقبه إلى الآن وكفاه شرفا بذله لنفسه فداء لرسول الله حين نام على فراشه فى الليلة التى جعلها كفار قريش موعداً لقتل الرسول. فكان رضى الله عنه آية من آيات الشجاعة، ومثلا للبطولة. شهد المشاهد كلها مع رسول الله عدا غزوة تبوك حيث استخلفه على المدينة فكره على ذلك أو خاض فيه المنافقون، فقال النبى لعلى: أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى. وقال النبى يوم خيبر: لأعطين الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، فلما أصبح دفع الراية إلى على. وكان فوق بلائه فى الحروب مدينة علم وورع وتقوى وفضائل يعرفها الخاص والعام. فجهاده مشكور وعلمه غير منكور، وكان عمر يفزع إليه فى كل ما يعرض له من مشاكل الحكم ويقول: لولا على لهلك عمر، ويقول: إن علياً أقضانا، وقال حين أوصى بالشورى: لو ولوها ابن أبى طالب لحملهم على الجادة.

فكان -رضى الله عنه- موضع ثقة الخلفاء جميعاً وكثيراً ما استشاروه فأشار عليهم بالذى هو خير وكان أبو بكر وعمر يعملان بنصحه. وكذلك عثمان فى أول عهده. ثم حدثت بينهما جفوة بسبب مروان بن الحكم وغيره من آل عثمان. حتى انتهى الأمر إلى ما علمتم وبويع بالخلافة. فما منهجه فى الحكم؟

* منهج على فى الحكم

يروى أن عليا قال: إن عمر كان رشيد الأمر ولن أغير شيئا صنعه عمر. فهو قد نهج منهج عمر وسار بسيرته فى الزهد وإقامة العدل، والشدة على ذوى الأهواء. فعاش عيشة هى إلى الخشونة والشظف أقرب منها إلى الرقة واللين. فكان أثناء خلافته القصيرة، يلبس خشن الثياب والمرقع منها وكان يحمل عماله على التبلغ بميسور العيش والرفق بالرعية، ويطلب منهم الاستعانة فى أعمالهم بالأخيار بقطع النظر عن القرابة أو الصداقة، وأن يكونوا من أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم فى الإسلام. وكان شديد الحرص على مصالح الأمة. شدة كرهت فيه أصحاب المطامع الشخصية وكان بخيلا بمال المسلمين على أقرب الناس إليه مما دفع ابن أبيه وأمه عقيل بن أبى طالب لأن يخرج عليه إلى معاوية بالشام، وكان يحمل الدرة، ويمشى فى الأسواق يعظ الناس ويؤدبهم ومن قوله فى هذا الصدد: استتروا ببيوتكم والتوبة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وراءكم من أبدى صفحته للحق هلك . إن الله أدب هذه الأمة بالسيف والسوط، وليس لأحد عند الإمام هوادة .

من هذا يتبين أن ابن أبى طالب سار سيرة ابن الخطاب ولكن مع رعية أشد وأعسر من رعية عمر وأرغب فى الدنيا من رعية عمر. وأخذ نفسه بأشد مما أخذ به عمر نفسه، مع افتراق الشمل واختلاف الرأى وانشقاق العصا. فهو منهج جاء فى غير أوانه(١).

* **أول عقبة فى طريق على**

بعد أن تمت البيعة لعلى وخطب الناس خطبته التى أشرنا إليها فيما سبق رجع إلى بيته فجاءه طلحة والزبير فى عدد من الصحابة وقالوا: يا على إنا اشترطنا إقامة الحدود وإن هؤلاء القوم «الثوار» قد اشتركوا فى قتل هذا الرجل «عثمان» وأحلوا بأنفسهم. فقال على: يا إخوتاه لست أجهل ما تعلمون، ولكننى كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم. هاهم هؤلاء. قد ثارت معهم عبدانكم، وثابت إليهم أعرابكم. وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا. فهل ترون موضعا لقدرة على شىء مما تريدون؟ قالوا: لا. قال: فوالله لا أرى إلا رأيا ترونه إن شاء الله. إن هذا الأمر أمر جاهلية «يعنى الثأر» وإن لهؤلاء مادة فاهدءا عنى حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق.

فتفرق القوم؛ وبعضهم يقول: نقضى الذى علينا ولا نؤخره. والله إن علياً لمستغن برأيه عنا ولا نراه إلا سيكون على قريش أشد من غيره. فسمع ذلك فخطبهم وذكر فضلهم وحاجته إليهم ونظره لهم وقيامه دونهم، وأنه ليس له من سلطانهم إلا ذاك والأجر من الله عليه. ثم نادى: برئت الذمة من عبد لا يرجع إلى مولاه. فتذامرت السبئية والأعراب. وقالوا لنا غدا مثلها ولا نستطيع أن نحتج فيهم بشىء، وقال على: أيها الناس أخرجوا عنكم الأعراب فليلحقوا بمياههم فأبت السبئية وأطاعهم الأعراب فدخل على بيته ودخل عليه طلحة والزبير وعدة من أصحاب النبى .فقال: دونكم ثأركم فاقتلوه. فقالوا: عفوا عن ذلك. فقال: هم بعد اليوم والله أعتى فطلب طلحة منه أن يأذن له ليأتى البصرة. ويقدم منها بخيل إلى المدينة كما طلب الزبير أن يأتى الكوفة فيصنع مثل ذلك. فتردد على فى القبول. وقال لهما: حتى أنظر فى ذلك.

(١) على وبنوه ١٧ – ١٩ وابن الأثير ج ٣ من ٢٠٠ – ٢٠٢ والخلفاء من ٣٠٠ – ٣٠٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولعله حذر أن يحيق بالمدينة خطر كبير من جراء هذا التدبير لو نُفذ وربما أضاع عليه هو كل شيء وهكذا صار على بين مطالبيه بالقصاص من الثوار وبإجلائهم عن المدينة وبين استبداد الثوار أنفسهم، وأصبح مركزه حرجا للغاية.

ويبدو لنا أن الذين أثاروا مسألة القصاص فى وقت مبكر أرادوا إحراج الخليفة الجديد فهو لا يجد قوة على طرد قوم قتلوا خليفة وأقاموا خليفة وكما قال على «يملكوننا ولا نملكهم» فكان من صائب الرأى تركهم حتى يهدأ الناس، فتؤخذ الحقوق.

وإذا كان هؤلاء قد أفسدوا على الخليفة خطته الحكيمة من التريث حتى يتفرق القوم إلى أمصارهم ثم يتخذ معهم ما يمليه الدين والعدل، وحملوه على التصريح بما كان ينبغي كتمانه. فإنه كانت هناك خطة يمكن الاعتماد عليها وهى مسألة عمال عثمان. ولكن ابن أبى طالب قد ضيعها. وإليكم بيان ذلك:

*** عزل عمال عثمان**

عقب تولى على الخلافة اتجه رأيه إلى عزل عمال عثمان ، وعلم المغيرة بن شعبة أحد دهاة العرب بذلك فذهب إليه، وخلا به، ونصح له بإقرار عمال عثمان على ما فى أيديهم ليكون له عونهم وإخلاصهم. حتى إذا ما أتته بيعتهم واستقامت له الأمور يعزل من يشاء. فقال للمغيرة: لا أدهن فى دينى ولا أعطى الدنية فى أمرى. فتركه المغيرة ثم عاد فى اليوم التالى وقال: إن الرأى أن تعزل عمال عثمان وتستعين بمن تثق به. ودخل ابن عباس بعد ذلك على على فقص عليه أمر المغيرة وأنه جاءه اليوم بما يخالف رأيه بالأمس. فقال ابن عباس: لقد نصحك بالأمس و غشك اليوم. فقال على ولم نصحنى؟ قال: لأن معاوية وأصحابه أهل دنيا فمتى ثبتهم لا يبالون من ولى هذا الأمر، ومتى تعزلهم يقولون أخذ هذا الأمر بغير شورى. وهو قتل صاحبنا ويؤلبون عليك فتنتقض عليك الشام والعراق مع أنى لا آمن من طلحة والزبير أن يكرا عليك وأنا أشير عليك أن تثبت معاوية. فإن بايع لك فعلى أن أخلعه من منزله. فقال على: والله أعطيه إلا السيف قال ابن عباس : يا أمير المؤمنين. أنت رجل شجاع لست صاحب رأى فى الحرب، وبعد محاورة طويلة قال له ابن عباس: أطعنى والحق بمالك بينبع فإن العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك، أما اليوم فإن بنى أمية يلزمونك شعبة من هذا الأمر، ويشبهون على الناس، ويطلبون مثل ما طلب أهل المدينة،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ولاتقدر على ما يريدون. فأبى على إباء شديدا وسار فى طريقه، واختار عماله اختيارا حسناً فأرسل إلى البصرة عثمان بن حنيف من أعلام الأنصار، وأرسل أخاه سهل بن حنيف إلى الشام، وأرسل قيس بن سعد بن عبادة إلى مصر، وهؤلاء من الأنصار، وهذا يدل على أنه أراد أن يرضى الأنصار بهذا الاختيار فقد اختار منهم ثلاثة لهذه الأمصار الخطيرة: البصرة والشام ومصر.

وأرسل إلى الكوفة عمارة بن شهاب، وإلى اليمن عبيد الله بن عباس واختار لولاية مكة خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومى ولكن أهل مكة أبوا أن يبايعوه لعلى.

سار عمال على إلى أقاليمهم، فأما عثمان بن حنيف فدخل البصرة وقد رحل عنها عامل عثمان «عبدالله بن عامر» وحمل ما استطاع حمله من المال حتى أتى مكة فأقام بها، وأما قيس بن سعد فدخل مصر وافترق أهلها جماعة انضموا إليه، وجماعة تحصنوا بخربتا (فى محافظة البحيرة) وقالوا: إذا اقتص على من قتلة عثمان بايعناه وجماعة قالوا: نحن مع على إذا لم يقتص من إخواننا.

وأما عبد الله بن عباس فقد دخل اليمن وفر واليها السابق يعلى بن أمية أو منية إلى مكة وحمل ما كان عنده من مال، وأما عمارة بن شهاب وسهل بن حنيف فقد قوبل كل منهما عند الحدود بما ألجأه إلى الفرار.

عند ذلك استدعى على كلا من طلحة والزبير وطلب رأيهما فقالا: إئذن لنا أن نخرج من المدينة فإما أن تكاثروا، وإما أن تدعنا. وكأنهما يشير ان عليه بحرب الذين لم يبايعوه. فقال على: سأمسك الأمر ما استمسك فإذا لم أجد بداً فآخر الدواء الكى. ثم أذن لهما فخرجا إلى مكة بحجة العمرة ويروى أنهما لم يخرجا إلى مكة إلا بعد ذلك حينما كان على يتجهز لغزو الشام بحجة اعتزالهما لحرب الشام.

وسواء أكانا قد خرجا فى الظرف الأول أو الثانى - بحجة العمرة أو بحجة اعتزال الناس-، فإنهما كانا على على لا له كما سيأتى:

رأى على فى الموقف

وقد رأى الخليفة أن يوجه كتابا إلى كل من أبى موسى الأشعرى بالكوفة ومعاوية ابن أبى سفيان بالشام يطلب منهما تقديم براهين الطاعة إليه، فأرسل إلى أبى موسى

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كتاباً مع معبد الأسلمى فرد عليه بالطاعة. وبيّن له أن الفتنة بالكوفة تغلى غليانا ظاهرا.

وأرسل إلى معاوية سبرة الجهنى يدعوه إلى الدخول فى طاعته فحجز معاوية الرسول عنده مدة طويلة وكلما استنجزه سبرة الجواب لم يلتفت إليه.

وفى صفر ٣٦ هـ رد معاوية رسول على ومعه رسول من عنده يدعى قبيصة العبسى بكتاب كل ما فيه: من معاوية بن أبى سفيان إلى على بن أبى طالب. وقال لرسوله: إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الكتاب. ثم أوصاه بما يقول لعلى، وأقبل العبسى حتى دخل المدينة فى غرة ربيع. فرفع الكتاب حتى عرف الناس أنه يحمل رد معاوية. فتفرقوا إلى منازلهم، وقد علموا أن معاوية معترض، ومضى حتى دخل على على فدفع إليه الكتاب. ففض خاتمه فلم يجد فيه كتابة. فقال للرسول: ما وراءك؟ قال: آمن أنا؟ قال على: نعم، فقال: ورائى. إنى تركت قوما لا يرضون إلا بالقود. قال ممن؟ قال: من خيط عنقك، وتركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق. فقال على: منى يطلبون دم عثمان، ألست موتوراً كترتهم؟ اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان. نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله. ثم خرج العبسى ولم يكد يفلت من الثائرين الساخطين إلا بعد مشقة وعناء.

التجهز لغزو الشام

علم المدنيون بأن معاوية قد خالف عليا وأنه انتقض عليه. فبعثوا إليه زياد بن حنظلة التميمى ليعرفهم ما اعتزم الخليفة فدخل عليه. فقال له على: تجهز لغزو الشام فقال له زياد. الأناة والرفق أمثل. فقال على:

متى تجمع القلب الذكى وصارما ... وأنفا حميا تجتنبك المظالم

فخرج زياد وأعلم القوم بالتجهز لغزو الشام، ولم يلبث الخليفة أن جمع المسلمين وبيّن لهم ضرورة إخماد تلك الحركة الانفصالية قبل تفاقمها، وحثهم على الاندماج فى الحملة قبل فوات الأوان. ثم دفع اللواء إلى ابنه محمد بن الحنفية. وجعل قائد الميمنة عبدالله بن عباس، وقائد الميسرة عمرو بن سلمة أو عمرو بن سفيان وجعل أبا ليلى بن عمر بن الجراح على المقدمة، واستخلف على المدينة قثم بن عباس، وكتب إلى قيس بن سعد بمصر، وإلى أبى موسى الأشعرى بالكوفة وإلى عثمان بن حنيف بالبصرة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أن يندبوا الناس للقتال. وبينما هو يأخذ أهبته للشام إذ جاءه الخبر عن أهل مكة بأنهم قد أجمعوا أمرهم على الخلاف فوجه نظره إليهم(١).

* موقعة الجمل

أ- **مقدماتها**: كانت أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها، قد تركت المدينة وارتحلت إلى مكة أيام اشتداد الحصار على عثمان، ولما أرادت العودة إلى المدينة ثانية لقيها رجل من أخوالها، فقالت له: ما وراءك؟ فقال: قُتل عثمان، واجتمع الناس على على، والأمر أمر غوغاء. فقالت: ما أظن ذلك تاماً، ردونى، فانصرفت راجعة إلى مكة حتى إذا دخلتها أتاها عبدالله بن عامر الحضرمى - أمير مكة أيام عثمان - فقال: ما ردك يا أم المؤمنين؟ فقالت: ردنى أن عثمان قتل مظلوما، وأن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام. فكان أول من أجابها الحضرمى هذا، وذلك أول ما تكلم بنو أمية ورفعوا رؤوسهم وقام معها الوليد بن عقبة ومروان بن الحكم وسائر بنى أمية، وقدم عليهم عبدالله بن عامر من البصرة ويعلى بن أمية من اليمن وطلحة والزبير من المدينة. ثم بدأوا يتشاورون فى الطريقة التى ينفذون بها ما أرادوا والمصر التى تساعدهم فى الحركة، وبعد استعراض البلاد وحالتها لم يجدوا سوى البصرة. فاجتمع رأيهم عليها وفضلوها لكثرة المضرية فيها، ولأن عبدالله بن عامر واليها السابق زعم لهم أن له بين أهلها صنائع وأن له عند كثير منهم مودة.

وبعد أن استقر رأيهم على البصرة خطبت السيدة عائشة فيهم، فمما قالته: أيها الناس، إن هذا حدث عظيم وأمر منكر فانهضوا فيه إلى إخوانكم من أهل البصرة فأنكروه فقد كفاكم أهل الشام ما عندهم لعل الله عز وجل يدرك لعثمان وللمسلمين بثأرهم. ثم بينت لهم أنه بعد الثأر يرد أمر المسلمين شورى بينهم. فيختارون لخلافتهم من يريدون عن رضا لا عن عنف واستكراه.

وبدأ الاستعداد للرحيل على قدم وساق، وأمدهم عامر ويعلى بن أمية بكثير من المال والظهر، وبلغ عددهم ثلاثة آلاف مقاتل.

---

(١) المراجع فى ٣ و٤ ابن الأثير ج٣ من ١٠٠ - ١٠٥ وعلى وبنوه من ٢٤ - ٤١ والفتح الإسلامى من ٣٩٨ - ٤٠٣ والخلفاء ٣٠٢ - ٣١٣، وتاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٣٦٥ و٣٦٦ والعقد الفريد ج٣ من٩٦ - ٩٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولما عزموا على قصد البصرة، قال الناس، وقد رأوا أثر عائشة وأحاديثها فى الناس: يا أم المؤمنين، دعى المدينة وما فيها من أمر الغوغاء، واشخصى معنا إلى البصرة. فإن أهلها يحتجون علينا ببيعة علي، فتنهضينهم معنا كما أنهضت أهل مكة، وتقعدين هناك فإن أصلح الله الأمر كان الذى تريدين. وكذلك تحدث معها كل من طلحة والزبير فى الصحبة إلى البصرة، فقالت: أتأمران بالقتال؟ قالا: لا، ولكن تعظين الناس وتحرضينهم على الطلب بدم عثمان. وإزاء ذلك قبلت عائشة الذهاب إلى البصرة.

جاءت الأخبار لعلى بن أبى طالب فتحول عن قتال أهل الشام ليرد هؤلاء الثائرين عما قصدوا إليه فخطب فى أهل المدينة، وتكلم فى شأن طلحة والزبير، وقال: سأصبر ما لم أخف على جماعتكم وأكف إن كفوا، فاشتد الأمر على أهل المدينة، وتثاقلوا فى الخروج. وكان يظن أنه سيلقى هؤلاء القوم فيناظرهم ويبلغ بهم الرضا، ويردهم إلى الجماعة و يعود معهم آخر الأمر إلى المدينة، فيقيم بها، ويدبر أمر المسلمين كما فعل الخلفاء قبله، ولكنه لم يكد يمضى فى طريقة ليلقى القوم حتى عرف أنهم فاتوه وأنهم سيبلغون البصرة، وسيفتنون الناس فيها عن بيعتهم، وهو مع ذلك لم ييأس من الصلح، ولكنه احتاط للحرب حتى لا يؤخذ على غرة، فمضى فى طريقه. وأرسل إلى الكوفة يستنفرهم لنصره، وسار بمن معه حتى نزل بذى قار فى الطريق إلى البصرة.

وهكذا نجد عليا قد اتسعت عليه الفتوق، وتوالت عليه الخلافات. فهو بين عدو بالشام راصد هناك يجمع عدده وعدته، وعدو بمكة يتجهز لاحتلال البصرة وما حولها، وأهل المدينة وتثاقلهم عليه لاعتقادهم أن الأمر فتنة لم يتضح فيها وجه الحق، إذا أخرج الرجل فيها يده لم يكد يراها.

وكان عمل السيدة عائشة وطلحة والزبير وقصدهم الخروج إلى البصرة وخروج على إلى لقائهم، بدء الأسباب التى أدت إلى موقعة الجمل المشئومة وكان فتحا لحروب الفتنة الدامية.

ب- الموقعة: خرجت السيدة عائشة بمن معها. قاصدة البصرة، وعلم عثمان بن حنيف – والى البصرة– بقدومها، فندب أبا الأسود الدؤلى وعمران بن الحصين ليستطلعا سبب قدومها فقالت لهما: إن الغوغاء من أهل الأمصار، ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله، وأحدثوا فيه الأحداث من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر واستحلوا الدم الحرام فسفكوه، وأقاموا فى دار قوم كارهين لمقامهم فخرجت فى

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المسلمين أُعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا، وما ينبغى لهم أن يأتوا بإصلاح فى هذا الأمر . . إلخ، وسألا بعد ذلك طلحة والزبير نفس السؤال، فقالا : المطالبة بدم عثمان. قالا: ألم تبايعا عليا؟ قالا: والسيف على رقابنا، فنصح للجميع عمران وأبو الأسود فلم يسمعوا النصيحة، فرجع الرجلان إلى ابن حنيف فأخبراه بما حدث فاستشار أصحابه، فأشار عليه البعض بمسالمة القوم حتى يأتى الخليفة، فأبى وجهز نفسه وتقابل الفريقان، ونشب القتال ودارت معركة حامية انجلت عن قتل جميع من ساهم فى التحريض على عثمان بالقول أو الفعل من أهل البصرة، سوى حرقوص بن زهير السعدى فإن عشيرته من بنى سعد منعوه لما التجأ إليهم بعد هزيمة أصحابه، وعن قتل غيرهم من أنصار ابن حنيف، وقبض على ابن حنيف وضُرب بالسياط وأرادوا قتله لولا أن السيدة عائشة أمرت بإخلاء سبيله بعد أن حلق القوم لحيته وحاجبيه، وأشفار عينيه، فمسخوه مسخاً لا يقره الإسلام فى غير مسلم، فذهب عثمان إلى المدينة، وعسكرت السيدة عائشة ومن معها بالفرضة من البصرة، ثم كتبت هى وطلحة والزبير إلى الأمويين بالشام، ومن على رأيهم بالكوفة، بهذا النصر المؤقت وطلبوا إمدادهم بالجنود والمال .

أما الخليفة: فقد وافته الجنود بذى قار التى نزل بها . على أهبة واستعداد للسير إلى البصرة وبلغ ما اجتمع لعلى (١٢ ألفاً) .

ولما انتظم عقدهم بذى قار دعا على « القعقاع بن عمرو »، وكانت له صحبة فقدمه إلى البصرة ليلقى بها أم المؤمنين وطلحة والزبير، ويعرف ما عندهم، فسار إليهم ولقيهم وحذرهم عاقبة الخلاف، وقال لهم فيما قال: لقد قتلتم بثأر عثمان ستمائة رجل. فغضب لهم ستة آلاف من قومهم، فماذا أنتم صانعون غدا إذا ناجزوكم وانتصروا عليكم؟ إن الخير كل الخير فى أن تقنعوا بما أخذتم من ثأرعثمان وترجعوا إلى الجماعة وتبايعوا عليا فإنه أصلح للأمر، وإن أبيتم إلا مكابرة كانت علامة شر، فآثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح خير كما كنتم ولا تعرضوا للبلاء فيصرعنا ويصرعكم، فأظهر القوم الاستحسان، وقالوا: إن جاء على بمثل ما قلت صلح الأمر فرجع القعقاع إلى الخليفة وأخبره فحمد الله وأمر بالرحيل من ذى قار لعقد الصلح مع حزب السيدة عائشة وأمر بألا يرتحل معهم أحد أعان على عثمان فى شىء، ثم أرسل الخليفة إلى القوم، إن كنتم مقيمين على ما فارقتم عليه القعقاع، فكفوا وأقرونا ننزل، وننظر فى هذا الأمر، فنزلوا بالزاوية من البصرة، وجميع المسلمين لا يشكون فى الصلح وينتظرون

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الفرج لصالح الأمة، وبات الناس مغتبطين، ما عدا فريق السبئية فيروى أنهم باتوا شر ليلة خوفا عما عساه يحل بهم من العقوبة إذا ما هدأت الفتنة واستقامت الأمور فباتوا يتشاورون ليلتهم واستقر رأيهم على نشوب القتال في السر فخرجوا مع الغلس، ووضعوا السلاح في حزب عائشة، فقال طلحة والزبير: ما هذا؟ قالوا: طرقنا أهل الكوفة ليلا، فقالوا: قد علمنا أن علياً غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرم، وأنه لن يطاوعنا، وسأل الخليفة عما حدث فقالوا له: يا أمير المؤمنين ما فجئنا إلا وقوم منهم بيتونا فرددناهم من حيث جاءوا ووجدنا القوم على قلب رجل واحد فغلبونا، فقال علي: قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة، وأنهما لن يطاوعانا.

وحينئذ لم يجد الفريقان بداً من القتال.

هذا ما رواه كثير من المؤرخين في سبب نشوب القتال، ولكن الدكتور طه حسين، يرى أن هذه القصة تخالف طبيعة الأشياء ولا يهضمها إلا السذج، وأنها لا تحتاج إلى كثير عناء في ردها ويستبعد أن تدبر الخيانة في معسكر علي، وهو لا يشعر، ويقول: وإنما الوجه الذي يلائم طبيعة الأشياء، هو أن القوم التقوا عند البصرة ووقف بعضهم لبعض، وتناظروا فلم تغن المناظرة عنهم شيئا فكان ما لم يكن بد أن يكون، (الفتنة الكبرى جـ٢) (علي وبنوه ٤٦ و٤٧).

ونحن نرى أن الذي كان ويسير مع طبيعة الثورات والحروب ويشاهد في مختلف العصور أن الحروب تنشب بسبب أشياء صغيرة يقوم بها أفراد لهم أغراض ومآرب، فيلتبس الأمر على القواد فتكون الحرب العامة وهذا في رأينا ما كان فإن البصريين والكوفيين الذين اشتركوا في حصار عثمان خافوا على أنفسهم إذا ما تم الصلح، ويبدو لنا أن المؤرخين أطلقوا اسم السبئية على جميع الثوار لا على من تشبع بمبادئ ابن سبأ فقط. وأيا ما كان فقد وقعت الواقعة وقتل في أثنائها الزبير وأصيب طلحة بجرح مميت أودى به فيما بعد(١).

(١) يرى أنه لما التقى الجمعان خرج علي حتى كان بين الفريقين فدعا إليه طلحة والزبير ليكلمهما فخرجا إليه وتواقف ثلاثتهم وسأل علي صاحبيه: ألم تبايعان؟ قالا: بايعناك كارهين. فقال لطلحة: أحرزت عرسك وخرجت بعرس الرسول تعرضها لما ستتعرض له، ثم تحدث للزبير حديثا عن القرابة وأن ابنه عبدالله هو الذي قطع أواصرها وأنه محرض من قبل ابنه لأن أخواله من تيم، وطلحة تيمي، ثم ذكره بحديث قاله الرسول =

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقد أدت خسارة القائدين إلى هزيمة جيش البصرة، وكانت عائشة فى هودجها(١) فى مؤخرة الجيش فمر به المتقهقرون وجيش على يتعقبهم فأحاط البصريون بالجمل حتى لا يصاب بأذى، ودارت موقعة حامية حوله مات فيها الكثير من أعوان على فى محاولتهم الوصول إلى لواء عائشة والاستيلاء عليه.

ولما رأى على كثرة القتلى حول الجمل أرسل إليه من عقره، فسقط وسقط الهودج، ثم أمر على بحمله إلى ناحية بعيدة عن ميدان القتال، حتى لا تصاب أم المؤمنين بأذى، وبقيت عائشة فى هودجها إلى الليل، ثم جاءها أخوها محمد بن أبى بكر فأدخلها دارا من دور البصرة فأقامت بها أياما، ثم أرادت الارتحال فجهزها على بكل ما ينبغى لها من مركب وزاد ومتاع واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة، وسير معها أخاها محمد بن أبى بكر وحدث بينه وبينها عتاب، وقالت للناس: «إنه والله ما كان بينى وبين على فى القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها (أقارب زوجها) وإنه على معتبتى لمن الأخيار. فقال على: صدقت وبرت وإنها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة.

ولما حانت ساعة الرحيل ودعها على بنفسه وسار بجانب الهودج حتى خارج المدينة وسيّر أولاده معها مسيرة يوم، وشيعها الناس وكان ذلك فى غرة رجب سنة ٣٦ هـ فسارت إلى مكة وأقامت بها إلى موسم الحج ثم توجهت إلى المدينة. ولم تتدخل بعد هذه الحادثة فى الشئون السياسية بل بقيت بالمدينة مرجع المحدثين حتى ماتت سنة ٥٨هـ.

جـ - ما قام به على بعد المعركة: انتهت معركة الجمل وكان عدد القتلى نحو عشرة آلاف وقُتل فيها الكثير من خيار المسلمين، وحزن على لذلك أشد الحزن، فكان يتعرف القتلى من أصحابه ومن خصومه، ويتوجع لأولئك وهؤلاء، ويترحم عليهم جميعاً. وكان يقول: إن من قاتل فقتل وهو لا يريد بقاتله إلا الحق، ولا يبغى إلا رضى الله فهو شهيد.

= للزبير فى شأن على (**لتقاتلنه وأنت ظالم له**) فتأثر الزبير بالحديث، وتأثر بالقرابة، وهنا يختلف المؤرخون فقوم يرون أنه مضى لوجهه فأدركه عمرو بن جرموز بوادى السباع فقتله، وقوم يقولون إن ابنه عبدالله رماه بالجبن فقال له الزبير (الوالد): إنى حلفت ألا أقاتل عليا فقال له ابنه: كفر عن يمينك بعتق غلام ففعل، ورجع للقتال فقاتل حتى قُتل.

وأما طلحة فقد قتله سهم طائش فى بعض الروايات أو سهم من مروان بن الحكم وكان من أصحابه وكان مروان يقول والله لا طالبت بثأر عثمان بعد اليوم.

(١) الهودج مركب للنساء وكانت السيدة عائشة قد جللته بالحديد وهى بمكة وجعلت منه موضعا لعينيها.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولما جئ إليه بسيف الزبير دعا على من قتله، وذكر مواقف الزبير يوم أحد، وقد اشتد على أصحابه فى ألا يجهزوا على جريح ولا يتبعوا فارا، ولا يدخلوا داراً، ولا يهتكوا سترا، ولم يقسم بين أصحابه غنيمة إلا ما أجلب به أهل البصرة من خيل أو سلاح لم يكن ملكا لبيت المال، بل تجاوز إلى أبعد من ذلك فأمر بجمع ما ترك أهل البصرة فى الميدان وحمله إلى المسجد، ونادى مناديه فى الناس، من عرف منه شيئا فليأخذه.

وصلى على القتلى جميعا من أنصاره ومن خصومه، وأذن للناس فى دفن موتاهم، وجمع الأطراف الكثيرة فاحتفر لها قبراً كبيرا ودفنها فيه، وأقام فى معسكره خارج البصرة فلم يدخل المدينة إلا بعد ثلاث، وبعد الثلاثة أيام جاء على إلى المسجد فصلى فيه ، وجلس للناس فبايعوه، ثم عمد بعد ذلك إلى بيت المال فقسم ما وجد فيه بين الناس وأقبل على معاملة الناس جميعا على السواء، فلم يحاول معاقبة زعماء الحزب الذين انضموا إلى عائشة وجيشها وقد أغضب فعله هذا كله شيعته، ولكنه لم يكترث لهذا ومضى فى طريقه ولا عجب فهو ربيب النبوة(١).

نتائج موقعة الجمل:

كان لهذه الموقعة نتائج بعيدة الأثر فى الإسلام والمسلمين، وإليكم أهمها:

أولا: كانت موقعة الجمل نكبة للإسلام وأهله فقد قضت على حياة الألوف من الأعلام، كان الإسلام فى حاجة إلى تعاونهم وتناصرهم، وأنقصت عدد المسلمين نقصا عظيما من غير حرب ولا فتح من أجل الإسلام.

ثانيا: حدوثها سهّل على المسلمين فيما بعد أن يقف بعضهم قبالة بعض متحاربين يستحل كلٌ دم الآخر، بعد أن كان هذا الموقف مستحيلا. فكانت فاتحة المعارك الكبرى بين الأحزاب الإسلامية، وأكبر دليل على اتساع الفتق وتعاظم الداء ،وصدق من قال من أصحاب النبى حين بلغه قتل عثمان: لقد كنتم تحتلبونها لبناً، ولن تحلبوها منذ اليوم إلا دماً.

(١) المصادر فى موقعة الجمل: ابن الأثير جـ٣ من ١٠٥ – ١٣٥ وتاريخ الإسلام السياسى من ٣٦٦ – ٣٧٣ والعقد الفريد من ٩٨ – ١٠٨ والفتح الإسلامى من ٤٠٢ – ٤١٨ والخلفاء من ٣١٤ – ٣١٨ وعلى وبنوه من ٤٢ – ٦٠ وعلى بن أبى طالب للأستاذ صفوت من ٢٩ – ١٤٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ثالثا: نظراً لمركز المتحاربين الديني سوغ ضعاف الإيمان من الفريقين لأنفسهم الطعن في خصومهم، وحملهم ذلك على وضع الأحاديث وتزوير الأخبار، فكانت بداية سيئة لتمكين الفرقة بين المسلمين بمرويات اكتسبت فيما بعد صبغة دينية.

رابعا: وقوع كثير من رجالات قريش صرعى في الميدان، كان خسارة كبرى لأنه أضعف القرشيين وأصحاب القدمة والسابقة في الإسلام، في حين أنه لم ينقص عدد الأعراب والبدو والذين ما فتئوا من أيام أبي بكر يحاولون إسقاط قريش من مكانتها وإضعافها، فكانت تلك الخسارة أول تمهيد للحصول على ما يريدون.

خامسا: سخط الكثير من العرب على قريش ورجالها، لأنهم كانوا يعتقدون أنهم أوردوا أبناءهم موارد الحتوف.

سادسا: كان نصر علي فيها نصر العرب البادية على عرب الحجاز وللكوفة على البصرة، فكانت بداية للعصبية الإقليمية التي نرى أثرها في العلوم والآداب وكل ما يتصل بالحياة.

سابعا: فرقة الكوفة التي قدمت للنجدة أصبح على يحسب لها حسابا.

ثامنا: انتقلت عاصمة الإسلام إلى الأبد عن مهدها (المدينة).

تاسعا: يرى الدكتور طه حسين أن هذه الموقعة كانت مصدرا خصبا لخيال القصاص والشعراء حتى أسرفوا في القصص وأضافوا من روائع الشعر والرجز إلى المقتتلين ما لم يقولوا إلا أقله وهم مع ذلك لم يبلغوا وصف هذه الموقعة البشعة الشنيعة (علي وبنوه صـ ٥٥).

عاشرا: وإذا كانت هذه الموقعة انتصارا حربيا لعلي، فإنها لم تكن كذلك من ناحية السياسة، فقد قويت دعوى معاوية، وأصحاب ثارات عثمان ضد الخليفة في إيوائه قتلة عثمان في جيشه، فخسر علي بذلك عطف كثير من المسلمين في الحجاز والشام ومصر مع اعتقادهم بأهليته للخلافة، وشغلته الموقعة عن الخصم الأعظم وهو معاوية الذي انفرد بالشام فاستفحل أمره وعظم خطره، لأنه راح يحكم أمره ويدبر شأنه على أحكم وجه وأتم استعداد للصراع الهائل الذي علم أنه سيكون بعد.

وأخيراً مهما يكن من أمر موقعة الجمل فهي مما تلاها من موقعة صفين وغيرها كجرعة من ماء، وكقطرة من بحر.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

* موقعة صفين

بعد استقرار الأمور في البصرة ولى على أمرها عبد الله بن عباس، وارتحل إلى الكوفة فجعلها مقر حكومته، وفى الكوفة بدأ على يحول اهتمامه إلى الشام، لأنه بعد الانتصار فى موقعة الجمل انحصر النزاع بينه وبين معاوية بن أبى سفيان الرابض بالشام ومعه قوة عظيمة أطوع له من بنانه، فوجه جرير بن عبد الله البجلى إليه يدعوه للبيعة والدخول فى طاعته، وزوده بكتاب يعلمه فيه اجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته.

وصل جرير إلى معاوية فكلمه ووعظه وألح عليه فى الكلام والوعظ ومعاوية لا يلتفت إليه وتركه مدة طويلة بلا جواب. وفى هذه المدة كتب إلى عمرو بن العاص(١) كتابًا يذكر له سفارة على له. ويطلب منه القدوم عليه ليمده بالرأى. فقدم عمرو على معاوية. وأشار عليه أن يلزم عليًا دم عثمان. وأن يحاربه بجند الشام إذا أبى، فوافق معاوية على ذلك. ورد رسول الخليفة دون أن يعطيه جوابًا مكتوبًا. وكل ما قاله له إنه مستعد للخضوع إذا قام على أولا بمعاقبة قتلة عثمان، فرجع جرير إلى الخليفة وأخبره بما قال معاوية، وأخبره أن قميص عثمان لا يزال معلقا على منبر دمشق، وأن أهل الشام قد آلى رجالهم ألا يناموا على الفراش حتى يقتلوا قتلة عثمان، وكل من ظاهرهم. فلم ير على أمام هذه الحال إلا المسير إلى معاوية وقتاله، وكون جيشا بلغ عدده نحو خمسين ألفا أو تسعين ألفا على اختلاف الروايات. وكان مثله أو قريب منه جيش معاوية.

وسار على بجيشه فى ذى الحجة من سنة ٣٦هـ. وكانت خطته أن يزحف إلى أعالى العراق ليغزو الشام من شمالها فسار محاذيًا دجلة حتى وصل الموصل. ومنها اخترق ما بين النهرين حتى وصل الفرات وعبره عند الرقة ومنها قصد حلب فقابلته حاميات أطراف الشام فى الطريق وكان معاوية عند سماعه بمسير على قد أعد العدة وعين عمرو بن العاص قائداً عاما فوصل عمرو إلى سهل صفين(٢) قبل على فأنزل أصحابه

---

(١) كان عمرو قد حقد على عثمان حين عزله عن مصر فكان يحرض عليه فى الخفاء ولكنه لما كان رجل دهاء وسياسة ورأى الخطر قد حاق بعثمان ترك المدينة إلى منزل له بفلسطين حتى لا يلحقه من تبعة قتله نصيب. وقُتل عثمان فاستمر فى عزلته حتى تتكشف الأمور فلما أرسل إليه معاوية تردد فى أول الأمر: هل ينضم إلى على أم إلى معاوية؟ ولكنه فى آخر الأمر فضل الانضمام إلى معاوية لأنه هو الذى يعرف لرجال الدهاء أقدارهم. فتوجه إليه وساومه على معاونته فجعل له ولاية مصر إن ظفر، وأقام معه يمده فكان قوة لا يستهان بها.

(٢) صفين تبعد مائة ميل عن الرقة وتقع بينها وبين حلب.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أحسن منزل وأرحبه وأقربه إلى شريعة الفرات، وأقبل على فى جيشه فأنزل أصحابه بإزاء أصحاب معاوية، فطلب على من معاوية، أن يترك الماء حرا يشرب منه الجيشان فأبى أصحاب معاوية ذلك فذهبت كتيبة من جيش على أجلتهم عن الماء، ولما أضر العطش برجال معاوية طلبوا الماء فأذن لهم على به، وكان على يريد أن يعذر إلى معاوية وأصحابه فاختلف السفراء ودارت المفاوضات بين الفريقين دون أن ينتهوا إلى صلح أو شيء يشبه الصلح، وكان القوم جميعًا يهابون أن تلتقى جموع الشام بجموع العراق خوفا من الاستئصال والهلاك.

ولما استيأس على من خصمه عبأ أصحابه على راياتهم فكانت تخرج فرقة من جيش العراق فيخرج لها مثلها من جيش الشام فيقتتلون، وعلى هذه الحال كان شأنهم فى ذى الحجة.

فلما أهل المحرم توادع الفريقان إلى انقضائه طمعا فى الصلح وسعت بينهم السفراء سعيًا متصلا، ولم يأت مسعاهم بفائدة، وانتهت المفاوضات كسابقتها بالفشل:

١- لأنها لم تقم على أساس معقول من الأخذ والعطاء فإذا كان على يطلب من معاوية الكف عن الحرب والولاء للخليفة، فكان لابد من أن يعرف معاوية وضعه فى العهد الجديد، وأن يأخذ شيئًا فى نظير ما يطلب منه التنازل عنه.

٢- ولقلة خبرة الرسل بالسياسة وشدة ميلهم للحرب مما أفسد القلوب وزاد الفرقة.

٣- ولأن أكثرهم كان من ذوى الغلظة فكان سعيهم إثارة للشر والخصومة أكثر منه صلحا وإصلاحا، وظهر لأولئك وهؤلاء فى غير شك ولا لبس أن ليس بد من أن يصطدم الجمعان، فبات الفريقان ليلة أول صفر سنة ٣٧ هـ يشتغلان بتعبئة الجيوش، وفى يوم الأربعاء أول صفر ابتدأت الحرب واستمرت سبعة أيام على الطريقة السابقة. فرقة لفرقة. ثم رأى الخليفة أن الحرب على هذا المنوال ستطول، فخرج بجميع جيشه فى يوم الأربعاء ٨ صفر وزحف إليه معاوية بجنود الشام فاقتتل الجيشان نهارهم كله ثم انصرفوا عند المساء دون أن تكون الغلبة لأحد الفريقين. ثم استؤنفت الحرب فى اليوم التالى، فكشف أهل الشام أهل العراق انكشافا بلغ الهزيمة أو كاد يبلغها ولكن البطل ابن أبى طالب ثبت ومعه جماعة من أصحابه ودعا الناس إليه وهيج الأشتر النخعى الناس لخوض الغمرات فتابعوه

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وحمل بهم على الجموع المهاجمة فأزالها وألحقها بصفوف معاوية ولم يزل الأشتر فى هجمته حتى وصل إلى حرس معاوية. وكاد معاوية يفر من المعركة، وكان يقول بعد ذلك أردت أن أنهزم فذكرت قول ابن الإطنابة:

أبت لى عفتى وأبى بلائى ... وإقدامى على البطل المشيح
وإعطائى على المكروه مالى ... وأخذ الحمد بالثمن الربيح
وقولى كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدى أو تستريحى

وفى هذا اليوم قتل عمار بن ياسر.

ولما أمسى الليل على الفريقين لم ينفصلا بل استمر القتال شديدا طول الليلة، وكانت ليلة مريرة مشئومة. وكانوا يسمونها بليلة الهرير، تشبيها لها بليلة القادسية، حتى إذا أصبح الصباح أخذ الأشتر قائد الميمنة العراقية يزحف بفرقته إلى الأمام. وكان النصر قد بدأ يكون لجيش على.

*** طلب التحكيم**

ولما رأى معاوية أن كفة أهل العراق قد رجحت نادى عمرو بن العاص، وقال له هات ما عندك من المكيدة: فأشار عليه برفع المصاحف على أطراف الرماح ونادى منادى معاوية: هذا كتاب الله بيننا وبينكم من لثغور الشام بعد أهل الشام، ومن لثغور العراق بعد أهل العراق؟ ولما فعل أهل الشام ذلك وقع الخلاف فى صفوف جيش على واشتجرت الآراء ففريق يرى أنه ينبغى قبول هذا العرض لأنهم إنما يحاربون لإعلاء كلمة الله وقد دعوا إليها، وكان على رأس هذا الفريق الأشعث بن قيس الكندى وفريق آخر يرى وجوب مواصلة القتال لأنها خدعة حربية لجأ إليها معاوية وأصحابه حينما أحسوا بالهزيمة وكان على رأس هذا الفريق الخليفة، وكان النصر قاب قوسين أو أدنى لأهل العراق فالأشتر النخعى كان لا يزال يقاتل ولكن الأشعث وحزبه أجبروا الخليفة على استدعائه وقت النصر فاستدعاه، وحدثت مناقشة عنيفة بين أنصار التحكيم وخصومه، فى نهايتها قبل على التحكيم مرغما - لأن أغلب جنده كان يرى قبوله - وجاءه الأشعث وقال له: أذهب إلى معاوية فأعلم ما يريد؟ فقال على: اذهب حيث شئت. ثم انتحى على ناحية يندب حظه فى جنود لا يطيعونه، وذهب الأشعث إلى

شبكة الألوكة - قسم الكتب

معاوية: وسأل عما يريده برفع المصاحف. فاقترح تحكيم القرآن فيما بينهما، واختيار رجل من كلا الفريقين للقيام بذلك التحكيم، فرجع إلى على وأخبره فقبل على كره.

ولما جاء وقت اختيار الحكمين اختارت الجنود الشامية عمرو بن العاص واقترحت الجنود العراقية أبا موسى الأشعرى وأصرت على اقتراحها رغم عدم رضا على عنه ورغم اقتراحه هو بأن يكون الحكم عبد الله بن عباس أو الأشتر النخعى. وكان مما قالوه له فى شأن ابن عباس: لا نريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء، وفى شأن الأشتر: وهل سعر والأرض غير الأشتر؟.

وكذلك لم تفلح محاولات الأشتر والأحنف بن قيس فى أن يكون أحدهما الحكم أو مساعداً للحكم.

رأى «على» عصيانهم واضحا فقال: اصنعوا ما تريدون، فبعثوا إلى الأشعرى وكان قد اعتزل القتال وأخبروه بالصلح وباختياره حكما فأقبل حتى دخل المعسكر.

*** عقد التحكيم**

ثم كتب عهد التحكيم بين الطرفين المتنازعين ومؤداه أن يتعهد الحكمان بالرجوع إلى القرآن الكريم لإيجاد حل يرضى به الطرفان فإن لم يجدا ما يعملان به رجعا إلى السنة العادلة الجامعة غير المفرقة، وأن يقف القتال، ويأمن الناس على أنفسهم وأهليهم وأموالهم حتى يفصل الحكمان فى القضية، وأن يأخذ الحكمان من أرادا من الشهود ثم يكتبان شهادتهما على ما فى هذه الصحيفة، وأن يجتمع الحكمان فى شهر رمضان من نفس السنة، بدومة الجندل أو بأذرح من دومة الجندل - منتصف المسافة بين الشام والعراق - وأن يرسل كل من على ومعاوية أربعمائة من الأتباع والأصحاب ليشهدوا ما يتم الاتفاق عليه.

هذه أهم نصوص الاتفاق، فراجعوا عقد التحكيم فى الخضرى جـ٢ صـ ١٠١ و١٠٢ أو تاريخ الإسلام السياسى جـ١ ص٣٧٩ و٣٨٠، وقد شهد عليه جماعة من أنصار معاوية، وجماعة من أنصار على، ولم يشهد عليه الأشتر، وكان تاريخه ١٣ أو ١٥ صفر سنة ٣٧ هـ.

حدث كل ما تقدم فى ميدان القتال وكان ذلك نهاية معركة صفين التى قتل فيها تسعون ألفًا من المسلمين. وهو عدد لم يذهب مثله ولا قريب منه فى جميع الوقائع

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الإسلامية من أوائل أيام الجهاد فى عهد الرسول إلى تاريخ صفين، وكانت نتيجتها زيادة الفرقة بين المسلمين وخاصة جند على، وبعد أن كُتب عقد التحكيم عاد على بجنده إلى الكوفة، وعاد معاوية بجنده إلى الشام.

لما حان أجل اجتماع الحكمين وهو رمضان(١) بعث على بن أبى طالب أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانئ الحارثى وعبد الله بن عباس يصلى بهم ويلى أمورهم، وأبو موسى الأشعرى معهم، وبعث معاوية عمرو بن العاص فى أربعمائة من أهل الشام فتوافوا بدومة الجندل وعسكر الطرفان، وانفرد الحكمان بعيداً عن المعسكرين فى أذرح القريبة من دومة الجندل وهى كالضاحية لها، فتشاورا واتفقا ثم ذهبا يعلنان ذلك للمعسكرين فى دومة الجندل، وهنا تختلف الرواية فيروى المسعودى جـ٢ صـ٢٧ أن الحكمين كتبا وثيقة اتفقا فيها على خلع على ومعاوية، وأن يجعلا الأمر بعد ذلك شورى يختار الناس من يريدون.

ويروى الطبرى جـ ٦ صـ ٢٩ أن الحكمين جرت بينهما مناقشات تدل على أنهما اتفقا على خلع المتنازعين، واختلفا فيمن يخلفهما وحينئذ اتفقا على أن يكون الأمر شورى بين المسلمين يولون من رضوا ولم يكتبا وثيقة وخرجا لإعلام الناس بذلك، وكان عمرو يظهر دائما تقديم أبى موسى وإكباره لسبقه إلى صحبة النبى ولسنه أيضاً، فتقدم أبو موسى وخطب فبين أن رأيهما قد اجتمع على خلع على ومعاوية، وعلى المسلمين أن يستقبلوا أمرهم من جديد. ثم تلاه عمرو. فقال: إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلعه كما خلعه وأثبت صاحبى معاوية فإنه ولى عثمان، فشتمه أبو موسى، وماج القوم، وأقبل شريح بن هانئ رئيس الوفد من أصحاب على فضرب عمراً بسوطه؛ وقام محمد بن عمرو فضرب شريحاً بسوطه، وأقبل الناس فحجزوا بينهما، وانطلق أبو موسى فركب راحلته وسار بها إلى مكة، وعاد أهل الشام إلى معاوية، وسلموا عليه بإمرة المؤمنين.

أى الروايتين نرجح؟: نرى أن رواية المسعودى أقرب إلى المعقول لأنها تنسجم مع سير الحوادث، وتلائم شخصية الصحابى الجليل (الأشعرى)، الذى كان مؤسسا لإحدى مدارس الفقه، ولا يصح رميه بالغفلة وقصور الرأى، ولأن رواية الطبرى من أنه

---

(١) ويروى الواقدى أنهما اجتمعا فى شعبان سنة ٣٧ هـ فى إحدى روايتيه أو فى شعبان سنة ٣٨ هـ فى روايته الأخرى، ولكن الذى عليه أكثر المؤرخين أن الاجتماع كان فى رمضان سنة ٣٧ هـ كما نص عقد التحكيم.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

حدثت خطبة فقط، وأن الخديعة تمت على أبى موسى لم تكن لتفيد معاوية شيئًا لأن الذى ثبته إنما هو حكمه فقط، وفى أى شىء ثبته؟ والذى يلزم الأمة إنما هى الوثيقة لا مجرد الكلام، ولو حدث ما يقوله الطبرى ورأى القوم غدر عمرو لوقعت ملحمة بين الفريقين، ولما اكتفى أنصار على بضرب عمرو بالسوط.

* نتائج التحكيم وملحوظاتنا عليه:

١- ربح معاوية هدنة أنقذته من هزيمة محققة، وعاد إلى دمشق بجند موحد الكلمة، وأعطته مدة الهدنة (ستة أشهر) فرصة نظم فيها قواته واستعد للنضال من جديد. بينما خسر على نصراً كان فى يده، وخسر طاعة جنده له ووحدتهم، فقد أرغمته الأكثرية على قبول التحكيم أولا، ثم عاد فريق منهم يقول: لقد كفرنا بقبول التحكيم وتبنا، ودعوه إلى نقض العهد، وكان يوجد فريق آخر يرى خطأ «على» لأنه لم يقاتل معاوية بمن أطاعه ويترك من عصاه.

٢- لا يمكن لوم على على قبول التحكيم أول الأمر لأن هذا كان رأى الأكثرية من جيشه، ولا على اختيار الأشعرى لأن القوم هم الذين اختاروه وكان الزمام قد أفلت من يد على فى الحقيقة، وكل ما استطاعه أن يعلن أن الأشعرى لا يثق به لأنه خذل الناس عنه واعتزل القتال، وأنه ليس ندا لعمرو بن العاص.

٣- كان موضوع النزاع إنما هو ثأر عثمان. فقد طلب على البيعة من معاوية فاشترط الثأر لعثمان أو تسليم القتلة، ومعنى هذا تسليم معاوية لعلى بالخلافة فكان يجب تعيين اختصاص الحكمين وقصر حكمهم على ما قامت بسببه الحرب. ولكننا رأينا الحكمين تحدثا فى الخلافة، فخرجا عن أساس النزاع، وطبيعى أن هذا ما أثاره عمرو بن العاص، ولا شك أن معاوية كان يرنو إلى الخلافة.

٤- لم يكن وراء الحكمين قوة تستطيع تنفيذ ما يتفقان عليه فقد اتفق الحكمان على خلع على ومعاوية، وأن يستقبل المسلمون أمرهم من جديد، ودونا ذلك فى صحيفة. بيد أننا نرى أن الفريقين لم يذعنا لهذا الحكم، مع أن الحكمين قد فوض إليهما الفصل فى هذا الخلاف.

٥- لا شك أن مجرد رد الخلافة إلى الشورى كان من الناحية العملية فى صالح معاوية دون على. فقد رفع الأول إلى مرتبة الثانى، وجعلهما متساويين. وقد استغل معاوية التحكيم ونتيجته استغلالا طيباً، لتحقيق أغراضه، والوصول إلى الخلافة.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بينما لم يجن على من قبول الهدنة ونتيجة التحكيم إلا كل ما أضر بمركزه أبلغ الضرر. فقد انقسم جيشه عليه، وانقلب من كانوا بالأمس أنصاره خصوما ألداء خرجوا عليه وحاربوه وهم من سموا بالخوارج(١).

* **الخوارج**

كان قبول على التحكيم سببا فى خروج فريق من جيشه عليه، كان يرى ذلك الفريق أن التحكيم خطأ لأنه يتضمن شك كل من الفريقين المتحاربين أيهما المحق، وليس يصح هذا الشك لأنهم وقتلاهم إنما حاربوا وهم مؤمنون - بلا شك - أن الحق فى جانب على لأنه إمام بويع بيعة صحيحة وأن معاوية وأصحابه بغاة يجب قتالهم، وقد بيّن الله حكم البغاة فى عبارة واضحة لا يعتورها لبس ولا خفاء فقال ﴿ **فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ** ﴾ [الحجرات: ٩] فكان الأجدر بعلى أن يمضى فى حرب معاوية وجماعته حتى يدخلوا فيما دخل فيه عامة المسلمين أو يُقتلوا عن آخرهم، ولا يصح إغماد السيوف بعدما شهرت، ولا يجوز تحكيم الرجال فى الدماء، والعدول عن حكم الله إلى حكم الرجال، وهذه المعانى صاغها عروة بن أدية - من بنى تميم - أو غيره فى عبارة «لا حكم إلا لله» وصاح بها فى وجه الأشعث حينما جاء يتلو عليهم كتاب التحكيم، وحمل بسيفه على الأشعث فأخطأه وأصاب عجز دابته وكاد الشر يقع لولا أن أسرع عقلاء بنى تميم فأعذروا للأشعث وقومه فكان عروة أول من حكم، أى نطق بهذا القول ولذا سمى هؤلاء بالمحكمة أو «المحكمة الأولى» وسرت عبارة «لا حكم إلا لله» كما يسرى البرق أو كما تسرى النار فى الهشيم إلى كل من يعتنق هذا الرأى.

أذن مؤذن على فى أصحابه بالرحيل عن صفين فرجعوا إلى الكوفة شر مرجع. خرجوا منها أشد ما يكونون إلفًا ومودة وتصافيا، وعادوا إليها أشد ما يكونون موجدة وفرقة واختلافا يتشاتمون ويتضاربون بالسياط تقول القلة للكثرة «خالفتم أمر الدين وانحرفتم عن القرآن وحكمتم الرجال فيما لا حكم فيه إلا لله» وتقول الكثرة للقلة

---

(١) المراجع فى صفين والتحكيم عدا ما تقدم فى الأثناء، ابن الأثير جـ٣ من ١٤١ - ١٦٥، ومحاضرات الخضرى جـ٢ من ٩٢ - ١١١، وتاريخ الإسلام السياسى جـ١ من ٣٧٥ إلى ٣٨٥، والنظريات السياسة الإسلامية صـ٤٦ و٤٧و٤٩و٥٠، وعلى وبنوه من ٦٧ إلى ١١١، وعلى للأستاذ صفوت من ٥١ إلى ٦٢ وعلى وعثمان لصبيح، العدد السابع من كتاب الشهر أبريل ١٩٥٨ من ٨٢ إلى ١٢٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

« خالفتم الإمام، وفارقتم الجماعة » ثم لم يدخلوا الكوفة جميعًا كما خرجوا منها جميعًا، وإنما انحازت المحكمة إلى حروراء – ضاحية من ضواحى الكوفة تبعد عنها بميلين – وكانوا يبلغون اثنى عشر ألفاً فنسبوا إليها وقيل لهم حرورية كما عرفوا بالمحكمة، أما لفظ الخوارج فقد أطلق عليهم من خصومهم لخروجهم على على أو خروجهم إلى المدائن أو لمفارقتهم الجماعة أو أطلقوه هم على أنفسهم لأنهم فيما يعتقدون خرجوا فى سبيل الله أخذاً من قوله تعالى ﴿ **وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ** ﴾ [النساء: ١٠٠]، وقد سموا أنفسهم فى العهد الأموى باسم جديد هو الشراة، أى الذين شروا أنفسهم أى باعوها فى سبيل الله الذى يقول: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ** ﴾ [البقرة: ٢٠٧]، وأياً ما كان الاسم فقد نشأ فى الإسلام حزب جديد كان له فى تاريخه أثر بعيد، ولما نزلوا بحروراء نادى مناديهم: إن أمير القتال شبث بن ربعى، وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكرى. والأمر شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

عزّ على أمير المؤمنين « على » أن ينفصل هؤلاء عن جنده وأراد أن يأخذهم باللين والحسنى حتى لا يزيد أمره اضطرابا. فأرسل إليهم ابن عباس فجادلهم وجادلوه؛ وفى أثناء مجادلتهم لابن عباس جاءهم الخليفة بنفسه وناظرهم فأوضح لهم موقفه من الدعوة إلى التحكيم وكراهيته له، ثم قال لهم: « اشترطت أن يحكم الحكمان بما فى القرآن فإن خالفا لم نلتزم بحكمهما، فنحن إنما حكمنا القرآن لا الرجال، والقرآن خط مسطور بين دفتين لا ينطق وإنما ينطق به الرجال ادخلوا مصركم يرحمكم الله ». (راجعوا المناظرات فى الخضرى جـ٢ من ١٠٦ – ١٠٨، وتاريخ الإسلام السياسى جـ١ صـ ٣٨٦ وكتب الفرق) فأطاعوه ودخلوا الكوفة، ولكن الشقاق كان متمكنا من نفوسهم فقد جاءوا إليه يطالبونه بالرجوع عما أبرمه مع أهل الشام فأبى أن يجيبهم إلى ما طلبوا، وفاء بالعهد والميثاق فالله تعالى يقول: ﴿ **وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ** ﴾ [النحل: ٩١]. فغضبوا وأكثروا من قولهم: « لا حكم إلا لله » وبينما هو يخطب بمسجد الكوفة قاطعوه بهذا النداء الذى تجاوبت به جنبات المسجد. فقال على: « كلمة حق أريد بها باطل. إن لكم عندنا ثلاثًا: لا نمنعكم من الصلاة فى هذا المسجد، ولا نمنعكم نصيبكم من الفىء ما كانت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم ما لم تقاتلونا ».

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهكذا كان نظر علي إلى الخوارج: لم يكفرهم لاختلافهم معه في الرأى والسياسة. ولم يجعل هذا الخلاف موجبا للفرقة. وترك لهم حرية اتخاذ الرأى الأخير في تقرير الحرب أو السلم معه. وكان بذلك عادلا في حكمه إلى أبعد غايات العدالة.

*** أول إمام للخوارج**

وبعد ذلك اجتمع الخوارج في منزل عبد الله بن وهب الراسي فخطبهم وزهدهم في الدنيا ودعاهم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنكار البدع والضلالات إيثاراً لوجه الله والدار الآخرة، ودعاهم إلى الخروج من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور الجبال أو بعض المدائن، وأشار عليه أحدهم أن يولوا أمرهم رجلا منهم فعرضوها على كثيرين فرفضوها وقبلها الراسي وقال: لا آخذها رغبة في الدنيا ولا أدعها فرقًا من الموت. فبايعوه لعشر خلون من شوال سنة ٣٧هـ. أي بعدما عرفوا نتيجة التحكيم. ثم اتفقوا على أن يخرجوا وحدانا مستخفين حتى يجتمعوا في جسر النهروان - والنهروان كورة واسعة بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي - فتسللوا فرادى إلى النهروان وبلغ عددهم ستة آلاف، وبعد هذا الخروج وعلم الإمام علي بما حدث في التحكيم أراد أن يعيد الكرة على أهل الشام. فكتب إلى الخوارج بالشخوص معه فكتبوا إليه: أما بعد فإنك لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك وإلا فقد نابذناك على سواء. إن الله لا يحب الخائنين. فلما وصلته تلك الرسالة قطع الأمل من معاونتهم له وأخذ يستعد للقاء معاوية فجدّ في جمع الجيش وخرج حتى عسكر بالنخيلة، وكتب إلى ابن عباس يطلب منه أن يستنفر أهل البصرة فدعاهم فاثاقلوا ولم يخرج منهم سوى ألف وخمسمائة مع الأحنف بن قيس، فوجه الطلب إلى أهل الكوفة وبعد جهد اجتمع له نحو ثمانية وستين ألفًا أو سبعين ألفا، ولما أراد المسير إلى الشام بلغه أن بعض أتباعه يقول: لو سار بنا إلى هذه الحرورية (الخوارج) فبدأنا بهم فإذا فرغنا منهم توجهنا إلى الشام. فقام فيهم خطيباً وبيّن لهم أن قتال أهل الشام أهم، فتنادى الناس: يا أمير المؤمنين سر بنا إلى ما أحببت، وبينما هو قد تهيأ للخروج إلى الشام بلغه أن الخوارج قد جاوزوا حدود الاعتدال ولم يراعوا في أهل العراق إلا ولا ذمة فسفكوا دماء نفر منهم وقتلوا الصحابي عبد الله بن خباب وزوجه وهي حامل متم لأنه قال خيرًا في الأربعة الراشدين. فوجه إليهم علي رسولا ليعلم جلية الأمر فقتلوه، فجل الخطب

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بذلك عن أن يسكت عليه، وطالب العراقيون بإلحاف أن يبدأوا بالخوارج قبل أهل الشام فأجابهم «على» إلى ذلك وسار إليهم، ولما قاربهم طلب منهم أن يدفعوا إليه القتلة على أن يكف عنهم فأبوا وقالوا: كلنا قتلهم وكلنا يستحل دماءكم ودماءهم. فأمر الخليفة أبا أيوب الأنصارى أن ينصب راية ثم قال: «من تقدم إلى هذه الراية فهو آمن، ومن دخل الكوفة فهو آمن، ومن رجع إلى المدائن فهو آمن، إنه لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم فى سفك دمائكم، فانصرف منهم جمع وخرج إلى على جمع وبقى مع ابن وهب ٢٨٠٠ صمموا على الخلاف. فدارت رحى الحرب بين الفريقين، وانتهت فى ذلك اليوم بقتل ابن وهب ومعظم من كان معه فكانت موقعة النهروان شبه قاضية على الخوارج، وفر من استطاع الفرار منهم إلى البحرين والإحساء حيث كونوا نواة تلك الفئة المتعصبة التى كانت شرا ووبالا على ابن أبى طالب فعلى صخرتهم تحطمت سفينة آماله، فقد حملوه على أن يبذل من الجهود ما كان فى حاجة ملحة إلى صرفه فى قتال معاوية.

ولما فرغ «على» من أمر الخوارج وأراد التوجه إلى الشام تخاذل عنه شيعته وقالوا له: نفدت نبالنا وكلت سيوفنا فارجع إلى مصرنا نستعد. فعسكر هو بالنخيلة، وأمر الناس أن يلزموا عسكرهم، وأن يوطنوا على الجهاد أنفسهم، وأن يقلوا من زيارة أهلهم، وأوصاهم بالجد حتى يسيروا إلى عدوهم، فأقاموا بالمعسكر أياما ثم تسللوا منه إلى المدينة فبات المعسكر خاليا إلا من عدد يسير من وجوه الناس لا غناء فيه، فلما رأى على ذلك دخل الكوفة وانكسر عليه رأيه فى المسير وقام بينهم خطيبا يقرعهم ويندد بهم فلم يجد سميعا، وصار فى جند ضعف سلطان إمامهم فى أنفسهم، وفضلوا الراحة على حياة الطعن المريرة.

هذه كانت حال أهل العراق مع خليفتهم، أما حال أهل الشام مع معاوية فكانت على العكس من ذلك: جند مطيع وقلوب متحدة، وازداد معاوية قوة بعد التحكيم. ثم عظمت قوته بعد خروج الخوارج على «على» فبايعه الشاميون بالخلافة وأخذ يستعد لانتزاع ما تحت يد على من أقاليم.

*** معاوية ومصر**

وكان أخوف ما يخافه مصر لأنها متاخمة له وهى مورد عظيم للجنود فهو لا يأمن جيشًا يتحرك منها فيقع بينه وبين ما عساه أن يطرقه من جيوش العراق، ولأن القائم

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بأمرها من سنة ٣٦ هـ بطل من أبطال الحرب والمكيدة هو قيس بن سعد بن عبادة، فشرع يدبر الحيل والمكايد للاستيلاء عليها، فبدأ بمكاتبة قيس، وجعل يمنيه تارة ويخوفه أخرى ليعرف ما عنده فوجده شديدا لا يلين، ولا يميل إليه، فعمد إلى الحيلة فى إيقاع الخلاف بين على وقيس، فأشاع فى الشام أن قيسا يتابعه وأن كتبه تأتى إليه وليس أدل على ذلك من مسالمته للعثمانية فى خربتا فنقلت العيون إلى الخليفة ما سمعوه عن قيس فاتهم قيسا، وكتب إليه يأمره بقتال أهل خربتا وهم يومئذ عشرة آلاف، فرد عليه أن حربهم ليس برأى وليس من السياسة فى شيء فأبى على إلا قتالهم، وأبى قيس أن يقاتلهم وكتب إليه إن كنت تتهمنى فاعزلنى عن عملك وابعث إليه غيرى فعزله وولى على مصر محمد بن أبى بكر فسارع بقتال أهل خربتا فثارت عليه مصر واضطرب عليه أمرها فاضطر الخليفة إلى عزله وتولية الأشتر النخعى، فرأى معاوية أن الأشتر فى مصر يكون شراً من قيس بن سعد فأرسل له رجلا ترصد له فى الطريق عند القلزم ودس له السم فى طعامه فمات ولم يدخل مصر، ثم جهز معاوية جيشا لغزو مصر وأمّر عليه ابن العاص فسار إليهم وانضم إليه العثمانية وصنائعه فيها وانتزع عمرو مصر من يد محمد بن أبى بكر وقبض عليه وقُتل وهو فى أشد حالات العطش، ويروى أنهم أحرقوا جثته فى جيفة حمار وبذلك أصبحت مصر ولاية أموية، وهى أهم ولايات الدولة بعد العراق فخسر على بذلك كثيرا من النواحى السياسية والحربية والاقتصادية، وكان ذلك أبرز أحداث سنة ٣٨هـ.

*** معاوية يضم بلاداً أخرى**

لم يقنع معاوية بما احتازه من شذا المغرب (مصر) وإنما أطمعه انتصاره واجتماع أصحابه عليه وطاعتهم له وكيده لعلى فى العراق فى ضم بلاد أخرى، فأرسل جيوشا للإغارة على ما فى يد على من الأمصار، فأرسل النعمان بن بشير إلى عين التمر فاستولى عليها وأرسل سفيان بن عوف إلى هيت وإلى الأنبار والمدائن، فسار حتى أتى هيت فلم يجد بها أحداً فاستولى عليها ثم أتى الأنبار وبها مسلحة لعلى فغلبهم على أمرهم وأخذ ما بها من الأموال وعاد لمعاوية، ووجّه الضحاك بن قيس للإغارة على بوادى البصرة، ووجه بسر بن أرطاة –وكان جباراً– إلى الحجاز فملك المدينة ومكة وبايع أهلهما لمعاوية ثم أتى اليمن وعليها عبيد الله بن عباس فلما علم به عبيد الله، فرّ إلى الكوفة فاستولى بسر على اليمن وقتل ابنين صغيرين لعبيد الله، وكان ذلك سنة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

٣٩ هـ، وهكذا تم لمعاوية الاستيلاء على أكثر الأقطار، وأهل العراق فى تخاذل، وعلى رضى الله عنه يعمل على إثارة حماسهم بخطبه البليغة التى نجد الكثير منها فى نهج البلاغة.. ولا سميع. فلا عجب إذا رأينا الخليفة صاحب البيعة يطلب الهدنة من معاوية فى هذه السنة فيجيبه إليها، على أن يكون كل واحد سيداً فى جهته، وفى موسم الحج كان لكل منهما نائب عنه يحج بالمسلمين.

*** مقتل الخليفة الرابع سنة ٤٠ هـ**

وبينما كان على يجاهد حياته المرّة تلك ويجاهد أصحابه ليحملهم على النهوض معه لحرب أهل الشام ويبعث البعوث لرد غارات معاوية على أطرافه، ويجاهد الخوارج، ويجاهد عماله ليأخذهم بالأمانة فى أعمالهم.. بينما كان «على» فى هذا كله، كان نفر من الخوارج يشهدون موسم الحج ويرون اختلاف الحجيج من أصحاب على ومعاوية، فتذاكروا أمر الناس وعابوا عمل ولاتهم، وذكروا مصارع إخوانهم الذين قتلوا فى يوم النهروان وفيما تلاه من أيام فترحموا عليهم وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم؟ فتعاقد ثلاثة منهم بجوار الكعبة على اغتيال على ومعاوية وعمرو بن العاص الذين هم فى نظرهم أصل الاختلاف وسبب الحروب، وعلى أن يكون ذلك الاغتيال فى يوم واحد هو صباح ١٧ رمضان، وأخذ عبد الرحمن بن ملجم المرادى على عاتقه قتل على وأخذ البرك بن عبد الله على عاتقه قتل معاوية وتعهد عمرو بن بكر التميمى بقتل عمرو بن العاص وأقاموا فى مكة أشهرا ثم اعتمروا فى رجب ثم تفرقوا لتنفيذ الاتفاق.

وفى ليلة الجمعة ١٥ من رمضان تسرع ابن ملجم ومساعدوه وتربصوا لعلى وهو خارج لصلاة الفجر فضربه ابن ملجم بالسيف فى جبهته فبلغ دماغه وهو يقول: «لا حكم إلا لله لا لك ولا لأصحابك يا على» ففزع المسلمون بالمسجد إلى خليفتهم وهو يقول: «لا يفوتنكم الرجل». فشد عليه الناس من كل جانب، ودخل الناس على «على» فقالوا له: إن فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن: فقال: «ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر». ثم أوصى أولاده بتقوى الله، وعدم الاعتماد على من خذلوه. وتوفى يوم الأحد ١٧ من رمضان سنة ٤٠ هـ ودُفن بالكوفة. وأما البرك فقد ترصد لمعاوية ثم ضربه بالسيف فلم يبلغ منه شيئا لأنه كان دارعا فيما يقول بعض المؤرخين أو لأنه لم يصب منه مقتلا فيما يقول بعضهم الآخر، وشد الناس على البرك فقتلوه، ومن ذلك

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الوقت اتخذ معاوية الحراس والحجاب والمقصورة فى المسجد، وأما عمرو بن بكر فجلس لعمرو فلم يخرج لمرض ألمّ به وصلى بدله خارجة بن حذافة صاحب شرطته فشد عليه الخارجى فقتله وهو يظن أنه عمرو، فلما عرف الحقيقة قال: أردت عمرو وأراد الله خارجة. وهكذا أخلت مؤامرة الخوارج الطريق نهائيا أمام معاوية وذهب ضحيتها أعلم أهل عصره وأشجعهم وأزهدهم فى الدنيا. سيد أبطال المسلمين على ابن أبى طالب، وهكذا لقى أبو السبطين حتفه على يد هؤلاء الذين كان يعتز بتأييدهم له فى الماضى القريب ومات المدافع الأخير عن الحياة السياسية الرفيعة التى تخضع السياسة للمثل العليا، وهكذا مات غريبا عن القرية التى ولد فيها، ودفن فى مكان يختلف القدامى فى تحديد موضعه أشد الاختلاف فهو لم يأنس للناس فى حياته؛ فلما ودع هذه الحياة لم يأنس جثمانه إلى مكان.

*** الحسن بن على**

بايع أهل العراق الحسن بن على بعد موت أبيه ولكن الحسن نظر إلى الظروف التى هو فيها نظرة صائبة، وجد جندا يقولون كثيراً ولا يغنون فتيلا. ورأى خصما قوى الشكيمة، ورأى ما نزل بالأمة الإسلامية وما فعله الروم الذين أغاروا على أملاك المسلمين منتهزين فرصة الحرب الأهلية، فحدثت مفاوضات بينه وبين معاوية انتهت بالصلح بينهما على شروط رضيها الطرفان، وكتب ببيعته لمعاوية وسلم إليه الكوفة فى أواخر ربيع الثانى سنة ٤١ هـ فهدأت الأحوال، وسمى المسلمون ذلك العام عام الجماعة(١) ويستنكر المرحوم الأستاذ العقاد هذه التسمية ويحمل على المؤرخين حملة شعواء فيقول: فليس أضل ضلالا ولا أجهل جهلا من المؤرخين الذين سموا سنة إحدى وأربعين بعام الجماعة؛ لأنها السنة التى استأثر فيها معاوية بالخلافة فلم يشاركه أحد فيها لأن صدر الإسلام لم يعرف سنة تفرقت فيها الأمة كما تفرقت فى تلك السنة، ووقع فيها الشتات بين كل فئة من فئاتهم كما وقع فيها إذ كانت خطة معاوية فى الأمن والتأمين قائمة على فكرة واحدة وهى التفرقة بين الجميع، وسيان بعد ذلك سكتوا عن رضى منهم بالحال أو سكتوا عجزا منهم عن السخط والاعتراض وكان

(١) المصادر من موضوع الخوارج إلى النهاية لابن الأثير جـ٣ من ١٦٠-٢٠٣ والخضرى جـ٢ من ١٠٥-١٢٣ و١٢٩ و١٣٠ وتاريخ الإسلام السياسى جـ١ من ٣٨٥-٣٩٠ والعقد الفريد جـ٣ من ١٢٠-١٢٩ والنظريات السياسية والإسلامية ٤٧ و٤٨ و٥٠ وعلى وعثمان وكتاب الشهر لصبيح أبريل ١٩٥٨ من ١٢٤-١٣٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

سكونهم سكون أيام أو كان سكون الأعمار والأعوام(١) ولكننا نقول للأستاذ العقاد إن غرض المؤرخين أنه العام الذى سكنت فيه الحروب العامة، واجتمع الناس على إمام واحد بقطع النظر عن الخلاف بين فئات الأمة، وما كان يفعله معاوية فى سبيل تأمين حكمه، وما اتخذه من سياسات فى هذا السبيل، فالعقاد نظر من زاوية والمؤرخون نظروا من زاوية أخرى والعقاد سار وراء المصادر الشيعية. ونهاية فقد أصبح معاوية خليفة للمسلمين وأسس الدولة الأموية التى دان لها المسلمون زهاء تسعين عاما من ٤٠ هـ - ١٣٢هـ حيث قامت الدولة العباسية. وبذلك انتهى ما قصدنا إليه، والحمد لله أولا وآخراً.

---

(١) معاوية بن أبى سفيان فى الميزان كتاب الهلال (العدد ٥٨) ص ١٨٨ و١٨٩.

الفهرس

القسم الأول: «السيرة العطرة» من (٥ - ١٧٤)

الموضوع	الصفحة
● المقدمة	٣ - ٤
● نسبه عليه السلام	٧ - ١٠
● المرحلة الأولى من حياته: المولد - التسمية بمحمد - رضاعه - شق صدره - عمله في صباه - سفره إلى الشام ...	
● ظهور شخصيته - موقفه من حرب الفجار - حلف الفضول - سيرته الشخصية - عام التجارة والزواج - مشكلة الحجر الأسود	١١ - ٢٢
● على أى شرع كان يتعبد - الالتجاء إلى الغار	٢٢ - ٢٤
● من البعثة إلى الهجرة: مراتب الوحى - كيف بعث الرسول - فترة الوحى - عودة الوحى	
● الشباب عدة محمد - دار الأرقم مركز الدعوة	٢٥ - ٣٠
● الدعوة السرية - الجهر بالدعوة - أطوار العداء بينه وبين قريش	٣٠ - ٣٤
● أثر أبى طالب فى الدعوة - أول هجرة فى الإسلام - مؤتمر الصحيفة	٣٤ - ٣٨
● كيف نقضت الصحيفة؟ عام الحزن والأحداث بعده	٣٨ - ٣٩
● فشل الدعوة فى ثقيف - دعوته فى القبائل	٣٩ - ٤٠
● العقبة الأولى - العقبة الثانية - الخطوات التاريخية بين البيعتين	٤١ - ٤٥
● من الهجرة إلى النهاية المحتومة: الهجرة - سراقة يريد الغنى - الرسول فى المدينة ونشأة الدولة الإسلامية	٤٧ - ٥٢
● الجهاد ومشروعية القتال	٥٣ - ٥٦
● السرايا والغزوات	٥٧ - ٦١
● غزوة بدر الكبرى - متى وكيف دارت المعركة؟	٦٢ - ٦٨
● بين رجوعين - الأسرى والفداء	٦٩ - ٧٣
● نتائج غزوة بدر - بين بدر وأحد	٧٣ - ٧٩
● غزوة أحد - فى الطريق إلى المعركة - التنظيم للمعركة -	

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الموضوع	الصفحة
أسباب النصر ثم الهزيمة في أحد – ما بين أحد وبدر الثانية	٨٠ - ٨٩
● أثر جلاء بني النضير – من بدر الثانية إلى الخندق	٩٠ - ٩٢
● غزوة الأحزاب – حفر الخندق – المعركة	٩٣ - ١٠٠
● غزوة بني قريظة – نتائج غزوة الأحزاب	١٠١ - ١٠٤
● ما بين الأحزاب والحديبية	١٠٥ - ١١٠
● حديث الإفك	١١١ - ١١٥
● مواقف وعبر	١١٥ - ١١٩
● الحديبية – تنفيذ العزم – السفارات بين الطرفين	١٢٠ - ١٢٢
● سفارة الرسول إلى قريش – بيعة الرضوان	١٢٢ - ١٢٤
● شروط الصلح – الفرق بين رعاية الله ورعاية البشر	١٢٤ - ١٢٥
● مكاسب الإسلام من صلح الحديبية	١٢٥ - ١٢٦
● الأحداث المهمة بعد الحديبية – غزو خيبر	١٢٧ - ١٢٧
● الفراغ من اليهود جميعًا	١٢٧ - ١٣٠
● عموم الرسالة ومخاطبة الملوك	١٣٠ - ١٣٢
● ماذا حققته مكاتبة الملوك؟	١٣٢ - ١٣٤
● عمرة القضاء – ماذا تركته عمرة القضاء في نفوس قريش؟	١٣٤ - ١٣٦
● غزوة مؤتة – المثل العليا في المعركة	١٣٧ - ١٣٩
● فتح مكة – نقض عهد الحديبية	١٤٠ - ١٤٢
● بين أبي سفيان وابنته أم حبيبة	١٤٢ - ١٤٤
● طلائع الراغبين في الإسلام تستقبل الجيش	١٤٤ - ١٤٥
● دور العباس في التمهيد للفتح	١٤٥ - ١٤٧
● الفتح الأعظم – تحطيم الأصنام	١٤٧ - ١٤٩
● تحريم مكة إلى الأبد	١٤٩ - ١٥٠
● أصلحًا فُتحت مكة أم عنوة؟!	١٥٠ - ١٥٢
● غزوة حنين	١٥٣ - ١٥٥
● أسباب الهزيمة ثم النصر في حنين	١٥٦ - ١٥٧
● غزوة الطائف	١٥٧ - ١٥٩
● سبي وغنائم حنين	١٥٩ - ١٦١
● غزوة تبوك	١٦٢ - ١٦٧
● أثر تبوك في نشر الإسلام	١٦٧ - ١٧٠
● حجة الوداع	١٧٠ - ١٧٢
● مرض الرسول ووفاته	١٧٣ - ١٧٤

شبكة الألوكة - قسم الكتب

القسم الثانى : «الخلافة الرشيدة» من (١٧٥ - ٣٤٥)

الموضوع	الصفحة
● البداية - وفاة رسول الله - بين الوفاة والخلافة - مؤتمر الثقيفة - الأنصار ورأيهم فى الخلافة - أول الوهن - أسلوب أبى بكر فى استمالة الخصوم - العوامل النفسية فى السقيفة	١٧٧ - ١٨٤
● البيعة الخاصة - البيعة العامة - البرنامج السياسى لأبى بكر - المتخلفون عن البيعة	١٨٤ - ١٨٩
● الخليفة الأول : أبو بكر الصديق - من هو؟ - ماضيه فى الجاهلية - ماضيه فى الإسلام - حاضره فى الخلافة - جثمان رسول الله - جيش أسامة - ردة العرب - مظاهر الردة - أسباب الردة	١٩٠ - ١٩٥
● حروب الردة - ميادين الحروب - خالد عمادها - ترتيب أبى بكر للعمليات الحربية - الهجوم السلمى - خالد وطليحة فى بنى أسد	١٩٥ - ٢٠٦
● موقعة اليمامة - شروط الصلح	٢٠٦ - ٢١٠
● بقية حروب الردة - فى البحرين - فى عمان ومهرة - فى اليمن - فى كندة - فى قضاعة	٢١٠ - ٢١٢
● أسباب انتصار المسلمين فى حروب الردة	٢١٣ - ٢١٤
● نتائج حروب الردة	٢١٤ - ٢١٥
● جيران العرب؛ فارس - الروم - حالة الفرس - حالة بلاد الروم - الغساسنة والمناذرة - إجمال	٢١٥ - ٢٢٠
● الفتوحات فى فارس والروم - الجبهة الأولى : فارس - المعركة الأولى (ذات السلاسل) - الحيرة أول عاصمة للمسلمين - موقعة الفراض - مغامرات خالد	٢٢١ - ٢٣٠

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الموضوع	الصفحة
● الجبهة الثانية : فتح الشام – الإعداد للروم – موقعة اليرموك – عزل خالد	٢٣١ – ٢٣٦
● وفاة أبى بكر	٢٣٦ – ٢٣٨
● الخليفة الثانى : عمر بن الخطاب – استخلافه – أول أعماله – موقعة الجسر – موقعة البويب ..	٢٣٩ – ٢٤٥
● القادسية معركة فاصلة – ما بعدها	٢٤٥ – ٢٤٨
● نهاوند أمل يزدجرد	٢٤٨ – ٢٤٩
● الفتوحات العمرية فى الشام – فتح دمشق – إلى حمص – أجنادين – فتح مصر	٢٥٠ – ٢٧٧
● الخليفة الثالث : عثمان بن عفان – نسبه ومولده ونشأته – بعض صفاته – أول قضية نظر فيها	٢٧٨ – ٢٨١
● الفتوح فى عهد عثمان – البصرة – الكوفة – الشام – مصر – إفريقيا	٢٨١ – ٢٨٥
● الحملات البحرية – فتح قبرص وردوس – موقعة ذات الصوارى	٢٨٥ – ٢٨٧
● أهم أعمال عثمان المدنية ..	٢٨٧ – ٢٨٩
● الفتنة – قتل عثمان	٢٩٠ – ٣١٦
● الخليفة الرابع : على بن أبى طالب – البيعة له – التعريف به – منهجه فى الحكم – أول عقبة فى طريقه	٣١٧ – ٣٢٢
● عزل عمال عثمان	٣٢٢ – ٣٢٤
● التجهز لغزو الشام	٣٢٤ – ٣٢٥
● موقعة الجمل – مقدماتها – نتائجها	٣٢٥ – ٣٣١
● موقعة صفين – الخوارج	٣٣٢ – ٣٤١
● معاوية ومصر – معاوية – يضم بلاداً أخرى	٣٤١ – ٣٤٣
● مقتل الخليفة الرابع – الحسن بن على	٣٤٣ – ٣٤٥
● الفهرس	٣٤٧ – ٣٥٠

تم بحمد الله

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

شبكة الألوكة

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية

العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ - تليفاكس : ٣٦٣٣١٤ - ٣٦٢٣١٣

مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانيء الأندلسي ت : ٤٠٣٨١٣٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٣

دار الطباعة والنشر الإسلامية

شبكة الألوكة - قسم الكتب

هذا الكتاب منشور في

شبكة الألوكة

www.alukah.net